

نموذج رقم (1)

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الحرائق في مصر وبلاد الشام
منذ بداية الدولة الطولونية من زيار دولة المماليك
(254 - 868/923 - 1517)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو
بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:

اسم الطالب: إيار أحمد محمد عبيد

Signature:

التوقيع: 

Date:

التاريخ: 28/9/2015



الجامعة الإسلامية - غزة

عمادة الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم التاريخ والآثار

الحرائق في مصر وبلاد الشام

منذ بداية الدولة الطولونية حتى نهاية دولة المماليك

(254-923هـ/868-1517م)

إعداد الباحث/

إياد أحمد محمد عبيد

إشراف/

أ.د. رياض مصطفى شاهين

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

1436هـ/2015م



مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم.....ج.ن.غ/35/Ref

التاريخ. 2015/08/10م.....Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ إياد أحمد محمد عبيد لنيل درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ، وموضوعها:

الحرائق في مصر وبلاد الشام منذ بداية الدولة الطولونية حتى نهاية دولة المماليك
(923/254هـ - 1517/868م)

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الاثنين 25 شوال 1436هـ، الموافق 2015/08/10م الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً بمبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

.....	مشرفاً ورئيساً	أ.د. رياض مصطفى شاهين
.....	مناقشاً داخلياً	د. إبراهيم أحمد أبو شبكية
.....	مناقشاً خارجياً	أ.د. حسان علي حلاق

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

.....

أ.د. فؤاد علي العاجز



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
بَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ
ثُمَّ جَعَلَ الْأُنثَى مِنْ ذَكَرِ الْمُنْثَى
ثُمَّ جَعَلَ الْأُنثَى مِنْ عِظِ رَجُلٍ
ثُمَّ جَعَلَ الْأُنثَى مِنْ عِظِ رَجُلٍ
ثُمَّ جَعَلَ الْأُنثَى مِنْ عِظِ رَجُلٍ

إلى من جعلهم الله سبباً في وجودي، والدي رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته.

- ❖ إلى من جعلهم الله سبباً في وجودي، والدي رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته.
- ❖ إلى زوجتي الحبيبة التي لم تدخر وسعاً في مساعدتي.
- ❖ إلى أبنائي الأعراء.

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الرسالة، كما وأسجل شكري وعرفاني إلى جميع أساتذتي في قسم التاريخ بالجامعة الإسلامية، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين، الذي شرفني بقبوله الإشراف على هذه الرسالة، وأمدني بتوجيهاته القيمة، كما يطيب لي أن أسجل شكري إلى أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل الأستاذ الدكتور / حسان حلاق، والدكتور إبراهيم أبو شبكة، بقبولهم مناقشة رسالتي، والحكم عليها وإبداء ملاحظاتهم الدقيقة وتوجيهاتهم المفيدة فلهم مني جزيل التقدير والاحترام.

ملخص الدراسة باللغة العربية

تناولت هذه الدراسة موضوعاً بعنوان الحرائق في مصر وبلاد الشام (254-923هـ/ 868-1517م)، وقد شملت الدراسة عدداً كبيراً من الحرائق التي حدثت في مصر وبلاد الشام، وقد تم عرضها بكافة تفاصيلها مع تحري الدقة في تحديد مكان وزمان كل حريق حسب ما ورد في المصادر التاريخية، ثم اجتهد الباحث في دراسة وتحليل تلك الحرائق ليغطي كافة جوانبها في ثلاثة محاور رئيسية.

المحور الأول هو البحث في أسباب الحرائق في مصر وبلاد الشام، وقد بينت الدراسة وجود عدد من الأسباب وراء تلك الحرائق، كالصراعات السياسية بين القوى الداخلية، والصراعات الداخلية في المجتمع مثل الفتن الطائفية والثورات وانتشار الفوضى والفساد، كما شكلت الصراعات مع القوى الخارجية التي هاجمت المنطقة مثل البيزنطيين والصليبيين والمغول أحد أهم الأسباب في اندلاع الحرائق، بالإضافة إلى عدد من الحرائق الناتجة عن الخطأ والإهمال والظواهر الطبيعية، كما ذكرت الدراسة عدداً من الحرائق التي لم يرد لها سبب في المصادر التاريخية.

وفي المحور الثاني تناولت الدراسة أهم آثار الحرائق في مصر وبلاد الشام، حيث تم توضيح أثر الحرائق على المعالم العمرانية، والتي كان أبرزها تدمير وتضرر عدد كبير من المساجد والكنائس والمدارس والتحصينات العسكرية والمباني السكنية وغيرها من المرافق العامة، كما أظهرت الدراسة أثر الحرائق على الأوضاع الاقتصادية، والعلمية، والنفسية، والاجتماعية، بالإضافة إلى أثر الحرائق على مجريات العمليات العسكرية ودورها في حسم بعض المواجهات العسكرية أو في التأثير على قوة أحد طرفي الصراع.

وفي المحور الثالث أوضحت الدراسة الدور الذي قامت به الدولة في مواجهة الحرائق، من حيث إتخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة لحماية الأرواح والممتلكات من خطر الحريق، وكيفية مكافحة الحرائق عند وقوعها والسيطرة عليها عن طريق الإمكانيات البشرية والمادية المتوفرة في الدولة، كما أظهرت الدراسة دور الدولة في معالجة الخراب والتدمير الذي يحدث نتيجة الحرائق عن طريق صرف التعويضات للمتضررين وإعادة إعمار ما دمرته الحرائق.

Abstract

This study has discussed the subject of Fires in Egypt and The Levant during (254–923 AH /868–1517 AD). It also included a large number of fires examined in details and with great care in specifying the time and place of each fire just as it was recorded in the historical sources. The researcher exerted a tremendous effort in studying and analyzing those fires covering the matter in three main aspects.

The first aspect is investigating the causes of fires in Egypt and The Levant. Some of those causes are Internal causes including; political conflicts, internal sectarian strifes, revolutions, chaos and corruption. Others are external such as, external conflict including the attacks of romans ,crusaders and Mogul which was one of the major causes of fires. A further causes of fires are due to carelessness, mistakes and natural phenomena. In addition, the study made a reference to some fires with no causes recorded in history.

The second aspect is examining the major effects of fires in Egypt and The Levant area in three points. First, the effects of fires on civilization monuments and mainly the destruction and partial damage of a vast number of mosques, churches ,schools , castles and other public buildings. Second, the effects on the economic ,scientific, psychological and social situations. Third, the effect on the political operations and its role of casting the die of some clashes or even empowering one party over the other.

The third aspect is the role of the state in confronting the fires including the necessary protective procedures taken to protect both

lives and properties from catching fires, the method of facing and controlling fires when occurring with the use of the available human and equipment resources. The study also referred to the role of the state in reforming the destruction caused by fires by granting compensation to the affected people and reconstructing what the fires had destroyed.

الفهرس

الصفحة	المحتويات
ب	الإهداء
ج	شكر وتقدير
د	ملخص باللغة العربية
هـ	ملخص باللغة الانجليزية
ز	الفهرس
1	المقدمة
4	دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث
12	الفصل الأول: أسباب الحرائق في مصر (254-923هـ/868-1517م)
13	أولاً: الصراعات السياسية الداخلية
13	ثورة الجند المغاربة والبربر على جيش بن خمارويه عام (283هـ/896م)
14	نهاية الدولة الطولونية وحرق القطائع
16	ثورة الجند على المانرائي
17	ضعف المستنصر بالله وتغلب القوى الداخلية عليه
19	صراعات الوزراء الفاطميين
22	حرق دار فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ومقتل توران شاه
23	الصراعات السياسية زمن المماليك
27	ثانياً: الصراعات مع القوى الخارجية
28	محاولة الفاطميين دخول مصر عام (307هـ/920م)
28	حرق الأسطول الفاطمي عند غزو الروم

29	هجمات النوبة على جنوب مصر
30	هجمات الصليبيين على مصر في العهد الفاطمي
33	هجمات الصليبيين على مصر في العهد الأيوبي
36	هجمات الصليبيين على مصر في العهد المملوكي
38	دخول العثمانيين مصر
39	ثالثاً: الفتن الطائفية
39	النصارى واليهود يحرقون القاهرة (663هـ/1265م)
40	الفتنة الكبرى بين المسلمين والنصارى عام (721هـ/1321م)
44	فتن بين المسلمين والنصارى في الاسكندرية والأقاليم
45	رابعاً: أسباب أخرى للحرائق
45	الحاكم بأمر الله يحرق القسطنطينية
47	العقاب بالحرق
50	الظواهر الطبيعية
51	الخطأ والإهمال
52	محاوية الفساد والبدع
53	ثورات العربان
54	حريق بولاق (862هـ/1458م)
56	حرائق مجهولة السبب
61	الفصل الثاني: أسباب الحرائق في بلاد الشام (254-648 هـ/868-1250م)
62	أولاً: الصراعات الداخلية
62	اعتداءات القرامطة

64	صراعات الحمدانيين
64	الصراعات والفتن زمن الاخشيدين
66	الصراعات زمن الفاطميين
70	الصراعات زمن السلاجقة والزنكيين
73	الصراعات زمن الأيوبيين
77	ثانياً: الصراع الإسلامي البيزنطي
77	هجمات البيزنطيين على الثغور زمن العباسيين
78	الصراع الحمداني البيزنطي
82	الصراع الفاطمي البيزنطي
85	ثالثاً: الصراع الإسلامي الصليبي
85	الصراع الإسلامي الصليبي زمن الفاطميين والسلاجقة
95	الصراع الإسلامي الصليبي زمن الزنكيين
98	الصراع الإسلامي الصليبي زمن الأيوبيين
107	رابعاً: أسباب أخرى للحرائق
110	الفصل الثالث: أسباب الحرائق في بلاد الشام (649-923هـ/1251-1517م)
111	أولاً: الصراعات الداخلية
111	الصراعات الداخلية زمن المماليك البحرية
115	الصراعات الداخلية زمن المماليك البرجية
120	ثانياً: الصراعات مع القوى الخارجية
120	الصراع الإسلامي الصليبي
126	الصراع المملوكي المغولي

138	صراع المماليك مع الإمارات التركمانية
139	ثالثاً: أسباب أخرى للحرائق
139	الخطأ والإهمال
141	الظواهر الطبيعية
142	العقاب بالحرق
143	حرائق مجهولة السبب
150	الفصل الرابع: آثار الحرائق في مصر وبلاد الشام (254-923هـ/868-1517م)
151	أولاً: أثر الحرائق على المعالم العمرانية
151	دور العبادة
157	المساكن والمرافق العامة
165	ثانياً: أثر الحرائق على الأوضاع الاقتصادية
165	تضرر القطاع الزراعي
169	تضرر القطاع الصناعي والتجاري
177	غلاء الاسعار وانتشار الفقر
178	ثالثاً: أثر الحرائق على العمليات العسكرية
178	أثر حرق التحصينات الدفاعية والمعدات الهجومية
183	أثر حرق الأشجار والمروج والنباتات الجافة
185	أثر حرق الجسور والأبواب والمساكن
188	حرق المدن والحصون والمعدات والاسلحة لكي لا يستفيد منها الخصوم
194	رابعاً: أثر الحرائق على الأوضاع العلمية
194	تضرر المنشآت التعليمية
196	تضرر الكتب والمكتبات

198	خامساً: أثر الحرائق على الأوضاع النفسية والاجتماعية
199	الآثار النفسية (الخوف والفرح)
200	الآثار الاجتماعية
204	الفصل الخامس: دور الدولة في مواجهة الحرائق (254-923هـ/868-1517م)
205	أولاً: الإجراءات الوقائية ضد خطر الحريق
206	توفير المياه
207	البناء بالحجر
208	فرض الأمن والنظام
211	التحصينات العسكرية
218	ثانياً: مكافحة الحرائق
218	المشاركون في عمليات الإطفاء
225	طرق الإطفاء
227	التحقيق واكتشاف المتسببين بالحريق
229	ثالثاً: معالجة آثار الحرائق
229	التعويضات وتوفير أماكن مؤقتة للمتضررين
229	أعادة إعمار ما دمرته الحرائق
236	الخاتمة
239	قائمة المصادر والمراجع
266	فهارس الأعلام والأماكن والمصطلحات التاريخية
280	الملاحق

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد

تعرضت الحضارة الإنسانية على مر العصور إلى العديد من الكوارث، منها كوارث طبيعية والتي تحدث دون تدخل أو إرادة من الإنسان مثل الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير وغيرها، ومنها كوارث من صنع الإنسان نفسه أو ربما كان طرفاً في حدوثها مثل الحرائق.

وتعد الحرائق من أخطر الكوارث التي شهدتها الحضارة الإنسانية، لما تحدثه من دمار وخراب وخسائر في الأرواح والممتلكات، وقد خسرت الحضارة الإنسانية بسبب الحرائق الكثير من المعالم العمرانية والحضارية المهمة، والثروات الاقتصادية والثقافية والتي كان منها الكتب والمخطوطات التي تمثل ذاكرة الأمم للعلوم والآداب الإنسانية.

ولذلك فإن الله عز وجل جعل الحريق، نوعاً من أنواع العذاب في الدنيا والآخرة، حيث قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)⁽¹⁾، كما حذر منه الرسول الكريم ﷺ في سنته النبوية: "عن أبي موسى رضي الله عنه قال احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل فحدث بشأنهم النبي ﷺ قال: إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَذْوُ لَكُمْ فَإِذَا نَمُتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ"⁽²⁾.

كما نجد أن المؤرخين قد ذكروا في خضم حديثهم عن الأحداث السياسية والمعارك الحربية والأحوال اليومية الكثير عن الحرائق، وعن أسبابها وتأثيرها على جوانب الحضارة كافة، لذلك كان من الضروري جداً جمع تلك المعلومات المتناثرة في بطون الكتب، ودراستها وأخذ العبرة والعظة منها في إطار دراسة علمية ترصد وتعالج هذه الظاهرة، خاصة في ظل عدم وجود دراسة تاريخية علمية متخصصة في موضوع الحرائق، على الرغم من أهمية هذا الموضوع الذي نتعرف من خلاله على أحد أنواع الكوارث التي تعرضت لها البشرية، وما شكلته من خطورة على الأرواح وعلى الحضارة الإنسانية، وهو ما دفع الباحث إلى دراسة هذه الظاهرة المؤثرة والمهمة في مصر وبلاد الشام، خلال مدة زمنية مهمة من التاريخ الإسلامي من بداية الدولة الطولونية(254هـ/868م) حتى نهاية دولة المماليك(923هـ/1517م).

(1) سورة البروج ، آية 10 .

(2) البخاري: صحيح، حديث 5936، ج5، ص2319؛ مسلم: صحيح، حديث 2016، ج3، أبو يعلى: مسند، حديث 7293، ج13، ص277؛ ابن حبان: صحيح، حديث 5520، ج12، ص328.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

- 1- التعرف على الحرائق التي حدثت في كل من مصر وبلاد الشام، في زمن محل الدراسة.
- 2- معرفة الأسباب والدوافع التي أدت إلى تلك الحرائق، سواءً كانت تلك الأسباب متعمدة أو غير متعمدة.
- 3- دراسة دور العمليات العسكرية والصراعات السياسية والطائفية في إشعال تلك الحرائق، والتعرف على دور الحرائق في التأثير على العمليات العسكرية، وهل كان لها تأثير إيجابي في حروب المسلمين ضد الغزاة.
- 4- توضيح دور الظواهر الطبيعية في إشعال الحرائق، والمساعدة على انتشارها.
- 5- دراسة الأثر الكبير الذي تركته هذه الظاهرة على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسة والعلمية في مصر وبلاد الشام.
- 6- التعرف على دور الحرائق في القضاء على بعض المعالم العمرانية التي كانت تشكل موروثاً حضارياً ثميناً.
- 7- توضيح دور الدولة في مواجهة الحرائق، وماهي الإجراءات التي اتخذتها للوقاية من هذا الخطر، وكيفية مكافحتها له في حال وقوعه، بالإضافة لمعالجة الأثر الناتج عنه.

حدود الدراسة الزمنية والمكانية:

الزمنية: تتناول الدراسة المدة الزمنية من بداية الدولة الطولونية حتى نهاية دولة المماليك (254-923هـ/868-1517م).

المكانية: مصر وبلاد الشام، ويرجع سبب هذا الاختيار، إلى التواصل الجغرافي، والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المشتركة بينهما، واهتمام المؤرخين بتدوين الحرائق في عواصم ومدن تلك البلدان، لما تمثله هذه الحواضر من أهمية حضارية.

منهج البحث:

سيتبع الباحث منهج البحث التاريخي (الوصفي والتحليلي) للإنجاز هذه الدراسة.

الدراسات السابقة:

بعد المراجعة والبحث تبين أن الموضوع لم يطرق من قبل، ولم تكتب فيه دراسة علمية متخصصة، وهو موضوع جديد لم يطرق في كل التاريخ الإسلامي، ليس فقط على مكان الدراسة وهو مصر وبلاد الشام، بل على كل المنطقة العربية والإسلامية، وكل ما كتب قبل ذلك كان عن الكوارث الطبيعية فقط باختلاف أشكالها.

خطة الدراسة:

جاءت الدراسة في مقدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث وخمسة فصول وخاتمة واستنتاجات، أما المقدمة فتضمنت لمحة موجزة عن موضوع الدراسة وأهميتها والأهداف المرجوة منها.

وتناول الفصل الأول أسباب الحرائق في مصر خلال المدة الزمنية (923/254هـ-1517/868م)، واستعرض دور الصراعات السياسية الداخلية، والصراعات مع القوى الخارجية، والفتن الطائفية في إشعال الحرائق، بالإضافة إلى توضيح دور الخطأ والإهمال، والظواهر الطبيعية، ومحاربة الفساد والبدع، وغيرها في تسبب الحرائق.

واستعرض الفصل الثاني أسباب الحرائق في بلاد الشام خلال المدة الزمنية (254-648هـ/868-1250م)، وجاء فيه ذكر الحرائق التي وقعت في بلاد الشام خلال تلك الفترة بسبب الصراعات الداخلية، والصراع الإسلامي البيزنطي، والصراع الإسلامي الصليبي، كما تم ذكر بعض الحرائق التي اندلعت لأسباب أخرى متعددة.

وجاء في الفصل الثالث أسباب الحرائق في بلاد الشام خلال العصر المملوكي، وما سببته الصراعات الداخلية بأشكالها كافة من حرائق، كما تم رصد الحرائق التي وقعت بسبب الصراع الإسلامي الصليبي في العصر المملوكي، والحرائق التي كانت بسبب الهجمات المغولية على بلاد الشام، بالإضافة إلى عدد من الحرائق لأسباب أخرى مختلفة.

وتناول الفصل الرابع آثار الحرائق في مصر وبلاد الشام، وما خلفته تلك الحرائق من أثر على المعالم العمرانية، والأوضاع الاقتصادية، والعلمية، والنفسية، والاجتماعية، بالإضافة لدور الحرائق في التأثير على العمليات العسكرية.

وجاء الفصل الخامس لبيان دور الدولة في مواجهة الحرائق، وما هي الإجراءات الوقائية التي اتخذتها الدولة ضد خطر الحريق في ذلك الوقت، كما وتم توضيح كيفية مكافحة الحرائق، ومعالجة الآثار الناتجة عنها.

وفي النهاية جاءت الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال الدراسة، ثم استعراض للمصادر والمراجع الخاصة بالدراسة، ثم فهارس الأعلام والأماكن والمصطلحات التاريخية، ثم الملاحق وما تحتويه من جداول للحرائق في مصر وبلاد الشام، وبعض الخرائط التوضيحية لبعض المدن في مصر وبلاد الشام تساعد القارئ على تحديد مكان بعض المناطق التي تعرضت للحريق وكيفية انتشاره، وصور لبعض المعدات العسكرية المذكورة في الدراسة.

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث

اعتمد الباحث في دراسته للحرائق في مصر وبلاد الشام في فترة الدراسة (923/254هـ - 1517/868م) على عدد كبير من المصادر المتنوعة، التي أفادت الدراسة بشكل كبير، حيث اشتملت على معلومات مهمة وتفاصيل دقيقة في موضوع الحرائق، وتتطلب استخراج تلك المعلومات مجهوداً كبيراً من الباحث، لوجودها متناثرة دخل المصادر في خضم الأحداث والوقائع، بالإضافة لحرص الباحث على الحصول على المعلومة من أقرب مصدر لها، مما استلزم من الباحث الاطلاع على الكثير من المصادر كان أهمها:

1- السلوك للمقريزي⁽¹⁾:

يأتي كتاب السلوك في صدارة المصادر التي استعان به الباحث في الدراسة، لما يتميز به هذا الكتاب من وضوح العبارات، ودقة المعلومات وكثرتها، واشتماله على الكثير من التفاصيل المهمة في العصرين الأيوبي والمملوكي، وقد استفاد منه الباحث في جميع فصول الدراسة، حيث ذكر العديد من الحرائق في مصر وبلاد الشام، واهتم بذكر كافة التفاصيل عن بعض تلك الحرائق خاصة في العصر المملوكي في مصر، حيث ذكر الأسباب والآثار الناتجة عن الحرائق، كما اهتم أيضاً بتوضيح دور الدولة في مواجهة تلك الحرائق، ويعد المقريزي من أقدر المؤرخين الذين استطاعوا تسجيل تلك الظاهرة بدقة ومهارة كبيرة.

ولم يقتصر المقريزي على تسجيل الحرائق الواقعة في مصر زمن المماليك بل شمل بلاد الشام أيضاً، كما احتوى كتابه على العديد من الحرائق في العصر الأيوبي في كل من مصر والشام، وإن كان ذلك بشكل أقل تفصيلاً من العصر المملوكي.

والى جانب كتاب السلوك فقد أفادت الدراسة أيضاً من كتب أخرى للمقريزي، ومنها كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا الذي يعد أوفى مصدر في التاريخ الفاطمي، إذ يتناول سيرتهم منذ نشأة دولتهم بالمغرب، ثم انتقلهم إلى مصر حتى انتهاء دولتهم، وقد أفاد

(1) المقريزي: هو تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي الشافعي، ولد بالقاهرة عام 766هـ/1364م؛ عُرف بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة فيقال أن أجداده من بعلبك، شغل المقريزي العديد من وظائف الدولة في عصره، ثم فرغ نفسه للعلم وتبوءة صدارة المؤرخين المصريين في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ويكفي دليلاً على هذا أن تلاميذه مثلوا فطاحل المؤرخين في مصر خلال العصر المملوكي، توفي في القاهرة عام 845هـ/1442م؛ انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص490، السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص186؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص79-81.

الدراسة بالكثير من التفاصيل المهمة عن الصراعات الداخلية والخارجية في العصر الفاطمي، وما تخلل تلك الصراعات من حرائق، وأثرها على كافة مناحي الحياة.

كما استفاد الباحث من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في عدة مواضع بالدراسة، والذي يتناول مدينة القاهرة منذ تأسيسها، وخطتها، والكثير من معالمها، بالإضافة لبعض الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية بها.

2- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي⁽¹⁾:

هو أشهر وأهم وأكبر كتب ابن تغري، فيه سرد لتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عام 872هـ/1468م، وهو من كتب الحوليات إذ جعل كل فترة من فترات الملوك والسلطين فصلاً قائماً بذاته، ثم ذكر السنين وحوادثها تباعاً داخل الفصل، وقد أفاد الباحث بشكل كبير فيما يخص تاريخ مصر في كل فترات الدراسة، حيث سجل أكثر الحرائق داخل مصر، واهتم بتدوين الكثير من التفاصيل عنها خاصة في العصر المملوكي، وقد انفرد بذكر تفاصيل عدد من الحرائق في نهاية ذلك العصر، وقد لاحظ الباحث نقل ابن تغري بردي الكثير من الحوادث من كتاب السلوك كما هي مع إضافة بعض المعلومات الجديدة، ويبدو هذا النقل طبيعياً لأنه كان أحد تلاميذ المؤرخ الكبير المقريزي.

كما استعان الباحث بكتاب آخر لابن تغري بردي وهو مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، في تعريف بعض شخصيات الدراسة من الملوك والسلطين.

3- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي⁽²⁾:

هو كتاب ضخم يعد الأكبر في كتب ومصنفات الذهبي، يجمع الكثير من التراجم والوقائع والأحداث منذ الهجرة النبوية حتى عام 700هـ/1300م، أفاد الدراسة بشكل كبير في

(1) ابن تغري بردي: هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي، ولد بالقاهرة عام 813هـ/1410م، مؤرخ مصري من كبار المؤرخين في عصره، تتلمذ علمياً ودينياً على أيدي كبار مشايخ عصره أمثال جلال الدين البلقيني، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وابن ظهيرة وابن عريشاه، ثم لازم مجلس شيخ المؤرخين تقي الدين المقريزي فتعلم منه حب التاريخ والتأريخ، له الكثير من المؤلفات في التاريخ، وتوفي بالقاهرة عام 874هـ/1470م، السخاوي: الضوء اللامع، ج10، ص305-308.

(2) الذهبي: هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيمان، تركماني الأصل، ولد بدمشق عام 673هـ/1274م، برع في علوم الحديث والقراءات والتاريخ، صنف مصنفات عديدة بلغت حوالي مائة مصنف، وكان أكثر أهل عصره تأليفاً، فقد بصره في عام 741هـ/1340م، وانقطع عن التأليف، وانكب على التدريس بمدارس دمشق حتى وفاته عام 748هـ/1347م؛ ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص309؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج5، ص66-68.

التعريف بالعديد من الشخصيات، كما سجل الكثير من الحرائق التي وقعت نتيجة الصراعات الداخلية والخارجية حتى نهاية القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي، مما يعني أنه أفاد كل فصول هذه الدراسة.

والى جانب كتاب تاريخ الإسلام فقد أفادت الدراسة أيضاً من كتب أخرى للذهبي، ومنها كتاب سير أعلام النبلاء، الذي ساهم في التعريف بالعديد من الشخصيات في الدراسة، كما كان للذهبي كتابين آخرين أفادا في عدة مواضع من الدراسة وهما العبر في خبر من غبر، ومن ذبول العبر.

4- الكامل في التاريخ لابن الأثير⁽¹⁾:

يعد كتاب الكامل أهم كتب ابن الأثير، ومن أشهر كتب التاريخ، وأحسنها ترتيباً وتنسيقاً، وعلاوة على ذلك فإنه من أهم المصادر التي تناولت الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتى عام 628هـ/1230م، وهو مرتب على نظام الحوليات، وقد أفاد الدراسة في العديد من الفصول، من خلال ما احتواه من العديد من الأحداث السياسية والعسكرية وما نتج عنها من حرائق، خاصة في فترة الحروب الصليبية التي كان ابن الأثير معاصراً لها وقريباً من القادة المسلمين الذين شاركوا في تلك الحروب، لذلك فقد كان الكتاب مصدراً مهماً للتعرف على العديد من أسباب الحرائق والآثار المترتبة عليها.

5- البداية والنهاية لابن كثير⁽²⁾:

يعد الكتاب من المصادر التاريخية المهمة التي ذكرت فيها الأحداث منذ بدء الخليقة وحتى عام 768هـ/1365م، وهو مرتب على نظام الحوليات، وقد أفاد الدراسة في العديد من الفصول، حيث ذكر الكثير من المعلومات عن العديد من الصراعات الداخلية والخارجية وما

(1) ابن الأثير: هو عز الدين بن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني، ولد بالجزيرة الفراتية عام 555هـ/1160م، كان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، كان ابن الأثير حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأسباب العرب وأيامهم ووقائعهم؛ ولذا كان أكثر ما اشتهر به دراسة التاريخ، وتوفى في عام 630هـ/1234م؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص348-350؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص488-491.

(2) ابن كثير: هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي، ولد عام 700هـ/1300م، وقدم دمشق مع أخيه بعد موت أبيه، وسمع من الكثير من العلماء حتى برع في علوم الحديث والتفسير والتاريخ، وله الكثير من التصانيف المهمة، وتوفى عام 774هـ/1372م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج1، ص445.

أحدثته من حرائق، وقد تميز الكتاب عن غيرها برصد الكثير من الحرائق في مدينة دمشق خلال النصف الأول من العصر المملوكي، حيث كان ابن كثير معاصراً وشاهداً عياناً على بعض تلك الحرائق، وقد ذكر العديد منها دون توضيح الأسباب التي أدت لحدوثها، حيث ذكرها بشكل مختصر واكتفى بذكر بعض الآثار التي تركتها تلك الحرائق.

6- كتب متنوعة:

بالإضافة إلى المصادر السابقة فقد أفادت الدراسة من عدد كبير من المصادر التي كانت تتحدث عن فترة زمنية محددة، أو منطقة إقليمية محددة، حيث أفادت مجموعة من المصادر العربية والأجنبية في دراسة الحرائق في فترة الحروب الصليبية، وقد سجلت تلك المصادر الكثير من أسباب تلك الحرائق، ودورها في التأثير على العمليات العسكرية، والصراع المحتدم بين المسلمين والصليبيين، كما رصدت قدرة الأطراف المتحاربة على الوقاية من تلك الحرائق ومكافحتها،

ومن المصادر العربية: تاريخ أبي يعلى لابن القلانسي⁽¹⁾ الذي رصد عدداً من الحرائق التي سببتها الصراعات الداخلية في بلاد الشام، وكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد⁽²⁾، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبو شامة⁽³⁾ الذي أفاد الدراسة أيضاً في عدد كبير من الحرائق التي نشبت في الصراعات الداخلية زمن نور الدين

(1) ابن القلانسي: هو أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي، ولد عام 472هـ/1079م، وقد اهتم كثيراً بدراسة العلوم الدينية والأدب، وأمضى حياته في ديوان الإنشاء في دمشق، وأصبح رئيساً له مرتين، وقد عاصر فترة بداية الحروب الصليبية على بلاد الشام، وتوفي عام 555هـ/1160م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج20، ص388-389.

(2) ابن شداد: أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الأسدي الموصلية، قاضي وعالم ومؤرخ عاصر صلاح الدين الأيوبي، وأرخ لفتوته، ولد بالموصل عام 539هـ/1145م، تلقى علومه على يد شيوخ الموصل وبغداد والبصرة، وتوفي عام 632هـ/1234م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج22، ص383-387.

(3) أبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، أصله من القدس، ولقب أبا شامة، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر، ولد بدمشق عام 599هـ/1202م، وبها منشأه، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية، وصنف الكثير من الكتب، وكان ثقة في النقل، دخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه، فمرض ومات عام 665هـ/1267م؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص269-271.

محمود وصلاح الدين الأيوبي، وكتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لعز الدين الحلبي⁽¹⁾، وكتاب ذيل مرآة الزمان لليونيني⁽²⁾.

أما المصادر الأجنبية فكان أهمها كتاب تاريخ الحملة إلى القدس للشارتري⁽³⁾، وكتاب تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار لوليم الصوري⁽⁴⁾.

ومن أهم المصادر التي سجلت عدد من الحرائق في مكان محدد، كتاب زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم⁽⁵⁾، الذي أفاد الدراسة بالكثير من التفاصيل عن عدد من الحرائق

(1) عز الدين الحلبي: هو محمد بن علي بن إبراهيم، أبو عبد الله، عز الدين ابن شداد الأنصاري الحلبي، ولد بحلب عام 613هـ/1217م، كان مؤرخاً وأديباً، له العديد من المؤلفات التاريخية، أهمها كتاب الأعلاق الخطيرة الذي جمع فيه بين التاريخ والجغرافيا، رحل إلى مصر، وصار له مكانه عالية عند الملوك والأمراء، وتوفي بالقاهرة عام 684هـ/1285م؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص388؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص283.

(2) اليونيني: وهو الشيخ الامام العالم قطب الدين أبو الفتح موسى ابن الشيخ الفقيه الحافظ الكبير شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد البعلبكي اليونيني الحلبي، ولد عام 640هـ/1242م بدمشق، تعلم على يد مجموعة من العلماء، واختصر كتاب مرآة الزمان للسبط ابن الجوزي وذيّل عليها ذبلاً حسناً مرتباً سهل العبارة وبه الكثير من المعلومات والأحداث المهمة، وتوفي ببعلبك عام 726هـ/1326م؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص126.

(3) الشارتري: هو فوشيه الشارتري، ولد بفرنسا عام 450هـ/1058م أو 451هـ/1059م، واشترك في الحملة الصليبية الأولى، وانضم إلى بلدوين الأول (أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية) عندما انشق عن الجيش الصليبي الرئيسي في آسيا الصغرى، وأقام معه في الرها نحو سنتين، ثم مكث في بيت المقدس حتى عام 521هـ/1127م، وألف كتاب مهم عن الحملة الصليبية الأولى، وتمكن أهميته في كون صاحبه القسيس الخاص لبلدوين الأول، إذ مكّنه ذلك من الاطلاع على دخائل الأمور، وأتاح له أن يكون شاهد عيان لأحداث لم يسجلها غيره، فأصبح كتابه مصدراً أساسياً لا يستغني عنه في دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ومملكة بيت المقدس الصليبية في عقودها الأولى؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة، مقدمة المترجم، ص10-11.

(4) وليم الصوري: ولد عام 524هـ/1130م في القدس وأمضى فترة صباه فيها، ثم سافر إلى أوروبا متنقلاً بين فرنسا وإيطاليا طلباً للعلم، فدرس الفلسفة والرياضيات والقانون وعلم اللاهوت، وفي عام 561هـ/1165م عام إلى القدس، حيث أصبح رئيس ديوان الرسائل في مملكة بيت المقدس، ثم تقلد عدة مناصب دينية كان آخرها رئيساً لأساقفة صور عام 571هـ/1175م، كما عمل مستشاراً ومؤرخ لعدد من ملوك بيت المقدس، وألف كتابه المهم عن الحروب الصليبية، وتكمن أهميته في أنه يتناول حقبة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت من بداية الحروب الصليبية حتى عام 580هـ/1184م، حيث كان وليم الصوري معاصراً وشاهد عيان لأحداث كثير منها؛ الصوري، وليم: تاريخ، مقدمة المترجم، ص3-6.

(5) ابن العديم: هو عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جرادة، كمال الدين العقيلي الحلبي، ولد عام 586هـ/1190م، تعلم على يد أبيه وعدد من علماء دمشق وحلب والقدس والحجاز والعراق، وكان محدثاً حافظاً

التي وقعت في مدينة حلب وما حولها وبعض المناطق الأخرى ببلاد الشام، حيث سجل الكتاب أسباب تلك الحرائق من صراعات داخلية وصراعات بين المسلمين والصلبيين، وبين آثارها على منطقة حلب بشكل خاص وبلاد الشام بشكل عام.

ومن المصادر التي أفادت الدراسة في فترة زمنية محدودة، كتاب إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر العسقلاني⁽¹⁾، الذي ذكر عدد من الحرائق في مصر وبين أسبابها وآثارها في الفترة ما بين (773-850هـ/1371-1446م)، كما أفادت الدراسة من كتبه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، في التعريف بعدد من الشخصيات في الدراسة.

ومن الكتب الأخرى التي أفادت الدراسة في فترة زمنية محدودة كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون، الذي رصد عدد كبير من الحرائق في مدينة دمشق في نهاية الدولة المملوكية، حيث اعتمد ابن طولون⁽²⁾ في أغلب الأحيان على ذكر الحرائق وآثارها بشكل مختصر دون توضيح أسبابها.

وقد اجتهد الباحث في التعريف بكل المدن والأماكن المذكورة في الدراسة، وكان من أهم المصادر في تعريف تلك الأماكن كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي⁽³⁾، الذي يعد من أهم الكتب الجغرافية التي تحتوي على وصف للكثير من المناطق في مصر وبلاد الشام وغيرها.

مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً مجوداً، درس وأفتى وصنف الكثير من المصنفات، وتولي عدة مناصب، وتوفي عام 660هـ/1262م؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص126-127.

(1) ابن حجر العسقلاني: هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، مؤرخ وعالم كبير، أصله من عسقلان بفلسطين، ولد بالقاهرة عام 773هـ/1372م، درس الأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرها لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصدته الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره، صنف الكثير من التصانيف المهمة، وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل؛ وتوفي بالقاهرة عام 852هـ/1449م؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص121؛ الزركلي: الأعلام، ج1، ص178.

(2) ابن طولون: هو محمد بن علي بن أحمد ابن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي، مؤرخ، عالم بالتراجم والفقه، من أهل الصالحية بدمشق، ونسبته إليها، ولد عام 880هـ/1475م، كانت أوقاته معمورة كلها بالعلم والعبادة، وله مشاركة في سائر العلوم حتى في التعبير والطب، وله الكثير من المؤلفات، وتوفي عام 953هـ/1546م؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج2، ص52؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص291-292.

(3) ياقوت الحموي: هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، ولد عام 574هـ/1178م ببلاد الروم، ولكنه وقع في الأسر وهو صغير واشتراه احد التجار لكي يعتمد عليه في تجارته وتنتقل بين الكثير من البلاد، وواجه صعوبات كثيرة في حياته، غير أنها لم تمنعه من أن يصبح من كبار المؤرخين والأعلام البارزين، وتوفي بحلب عام 622هـ/1228م، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج6، ص127-139.

بالإضافة للمصادر السابقة فقد استعان الباحث بالكثير من المصادر الأخرى التي ساهمت في إثراء هذه الدراسة، كما استعان الباحث بعدد كبير من المراجع والرسائل والبحوث العلمية التي استرشد بها الباحث لخدمة جوانب معينة من البحث.

الفصل الأول

أسباب الحرائق في مصر

(254-923هـ/868-1517م).

أولاً: الصراعات السياسية الداخلية.

ثانياً: الصراعات مع القوى الخارجية.

ثالثاً: الفتن الطائفية.

رابعاً: أسباب أخرى للحرائق.

تعددت أسباب الحرائق في مصر فمنها ما كان بسبب التصارع على السلطة والنفوذ، وما يعقب ذلك التصارع من حرق وتخريب، ومنها ما كان بسبب المعارك والحروب مع القوى الخارجية، ومنها ما كان بسبب التعصب الديني وما يسببه من فتن تؤدي لحالة من الفوضى والاضطراب والانتقام المتبادل بين الفريقين، بالإضافة لعدة أسباب أخرى مثل الخطأ والإهمال، والظواهر الطبيعية، وثورات العريان، ومحاربة الفساد والبدع، كما أنه يوجد عدد من الحرائق لم توضح المصادر سبباً لها، إنما تكتفي بذكر الحريق وبعض آثاره.

أولاً: الصراعات السياسية الداخلية.

شهدت مصر خلال زمن الدراسة العديد من الصراعات السياسية الداخلية، وقد شكل تعاقب الحكام والدول والفراغ الذي يحدث عند وفاة أحدهم، أو الصراعات بين مراكز القوى في البلاد، أو التمرد والعصيان، أدى إلى انتشار الفوضى والاضطراب في أنحاء مصر، مما كان ينجم عنه العديد من الحرائق المفتعلة لأغراض وأهداف متعددة، وسنحاول هنا تحديد تلك الحرائق وأسبابها والمتسبب فيها مع تحري الدقة في تحديد الزمان والمكان بالتحديد.

ثورة الجند المغاربة والبربر على جيش بن خمارويه عام (283هـ/896م):

بعد مصرع خمارويه⁽¹⁾ المفاجئ وتولي ابنه (جيش)⁽²⁾ الحكم، قامت مجموعة من الجند المغاربة والبربر بالثورة عليه، ونهب وحرق مصر⁽³⁾ في النصف من رجب عام (283هـ/ أغسطس (آب) 896م)⁽⁴⁾، وسبب ذلك أن (جيشاً) لم يكن الشخص القادر على تحمل المسؤولية التي أوكلت إليه، وأقبل على الشراب واللهو وعدم الاهتمام بشئون الدولة، وقد أدى قيامه بقتل أعمامه، وخاصة عمه الذي يريده أولئك الجند أميراً لهم، إلى اشتعال ثورة الغضب في نفوس

(1) خمارويه: هو خمارويه بن أحمد بن طولون، أبو الجيش ولد عام 250هـ/864م، تولى حكم مصر والشام بعد وفاة أبيه عام 270هـ/883م، كانت مدة حكمه اثني عشر عاماً، وقتل على يد بعض مماليكه عام 282هـ/896م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص246-248.

(2) جيش: جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون، تولى حكم مصر والشام بعد مقتل أبيه في دمشق عام 282هـ/896م، وكان معه، فعاد إلى مصر، وثار عليه الجند فقتلوه، وقيل بل قتله أخوه هارون، ومدة ولايته ستة أشهر، ولم يتجاوز سن الشباب؛ ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج 11، ص343.

(3) المقصود بمصر هنا هي العاصمة التي كانت تضم في ذلك الوقت الفسطاط، والعسكر، والقطائع، وأطلق عليها بعض المؤرخين اسم مصر؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج1، ص295.

(4) الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص614؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص385؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص186؛ ابن الوردي: تاريخ، ج1، ص364.

الجند المغاربة والبربر، وقيامهم بحرق أماكن عدة بمصر⁽¹⁾، وقد وصف الطبري ما حدث "فهجم الجند على جيش بن خمارويه فقتلوه وقتلوا أمه وانتهبوا داره وانتهبوا مصر وأحرقوها وأقعدوا هارون بن خمارويه مكان أخيه"⁽²⁾، ونلاحظ هنا جملة انتهبوا مصر وأحرقوها، مما يشير إلى أن الحريق شمل أكثر من مكان في العاصمة، ولم يقتصر على دار جيش فقط وممتلكاته، وهذا منطقي في وضع مثل هذا؛ حيث تسود فيه روح الثورة والانتقام والفوضى.

نهاية الدولة الطولونية وحرق القطائع⁽³⁾:

في نهاية الدولة الطولونية دبَّ الفساد والضعف والانقسام فيها، فاستغل الخليفة العباسي المكتفي بالله⁽⁴⁾ تلك الفرصة لاسترداد مصر واستعادة نفوذه عليها⁽⁵⁾، فأرسل جيشاً عن طريق البر بقيادة القائد محمد بن سليمان الكاتب⁽⁶⁾، وفي الوقت نفسه أبحر الأسطول العباسي من الشام، قاصداً السواحل المصرية بقيادة القائد دميانة⁽⁷⁾، ثم تقدم القائد دميانة بأسطوله في النيل، وكان معه ثماني عشرة مركباً مشحونة بالرجال والسلاح وذلك يوم الثلاثاء (27 صفر 292هـ/ 8 يناير/كانون الثاني) 905م، فقام بإحراق الجسور التي تربط بين ضفتي النيل عند

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 385؛ زيود، محمد: العلاقات بين الشام و مصر، ص 138.

(2) تاريخ الطبري، ج5، ص 614.

(3) القطائع: ثالث مدن مصر الإسلامية، تقع إلى الشمال من الفسطاط، شيدها أحمد بن طولون في عام 256هـ/870م، وبلغت مساحتها ما يقارب 700 فدان، كانت مدينة كاملة بها الكثير من المعالم، حيث يوجد بها قصر ابن طولون وجامعه، ويوجد بها مساجد وقصور ودور وحمامات وحوانيت وأسواق وبساتين وبيمارستانات؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص14-17؛ مغاوري، سعيد: أضواء، ص70.

(4) المكتفي بالله: الخليفة العباسي علي بن أحمد المعتضد ابن الموفق ابن المتوكل، ولد عام 263هـ/876م، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد عام 289هـ/901م، تمكن من إعادة مصر للخلافة العباسية، وتوفي شاباً ببغداد عام 295هـ/908م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص479-484.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص 402.

(6) محمد بن سليمان الكاتب: الحنفي نسبته إلى رجل يدعى (حنيفة السمرقندي)، اتصل بالمكتفي العباسي، فتقدم، وصار من قواده، فخلع عليه المكتفي، ووجهه إلى مصر، وفيها بقية من الطولونيين، فقاتلهم وأزال ملكهم ومحا آثارهم وهدم قصورهم، وعاد بأموالهم ورجالهم يريد بغداد، ونقل إلى المكتفي من أخباره بمصر ما أثار نعمته عليه، فأمر به، فاعتقل قبل وصوله إلى بغداد، وصودرت أمواله؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص112؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص149.

(7) دميانة: أمير الثغور والبحر الأبيض، وقائد الأسطول توفي عام 301هـ؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص478.

الفسطاط⁽¹⁾، وربما يكون إحراق الجسور الهدف منه قطع الطريق والإمدادات عن الخصوم لإضعافهم والقضاء عليهم بسهولة.

وفي ذلك الوقت كان محمد بن سليمان الكاتب يتقدم بالجيش العباسي باتجاه مصر، وبدأ ينضم إليه المنشقون عن الجيش الطولوني جماعة بعد جماعة، وعند ذلك اضطر شيبان⁽²⁾ بن أحمد بن طولون لطلب الأمان له ولأهله من الطولونيين فأعطاهم ذلك محمد بن سليمان الذي لم يحترم هذا العهد⁽³⁾.

ثم دخل محمد بن سليمان الكاتب القطائع يوم الخميس (29 صفر 292هـ/10 يناير (كانون الثاني) 905م) وأمر بإحراقها، فأحرقت ووقعت النار في الكثير من معالمها، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات وكل معالمها ونهبت المدينة، ولم يبق منها سوى مسجدها الجامع⁽⁴⁾، رغم الأمان الذي أعطاه للطولونيين، فإن المعاملة التي لاقتها الأسرة الطولونية والخراب الذي أصاب حضارتهم في مصر فاق حد التصور، فلم يكتف بحرق القطائع بل نهب أصحابه الفسطاط وقاموا بهدم المعالم الطولونية وآثارهم⁽⁵⁾.

إن حرق القطائع وتدميرها بهذا الشكل الكبير، لا يمكن أن يفسر إلا بالحقيقة الكبرى وهي سخط الخلافة وحقدتها الدفين على هذه الأسرة التي تمكنت من استغلال الأوضاع العامة في مصر والشام، والتي قامت بتوحيد هذين البلدين في دولة موحدة ووقفت أمام الخلافة العباسية، ونافستها على زعامة العالم الإسلامي⁽⁶⁾.

إضافة لما سبق نجد أن الخلافة العباسية عملت على إزالة كل ما قامت به الدولة الطولونية وخاصة مدينة القطائع رمز هذه الدولة، لطمس إنجازات تلك الدولة، ولتحذير أي قوة جديدة تريد الانفصال عن جسد الخلافة العباسية، ولعل أفضل وصف لهذا هو قول ابن تغري

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص 136.

(2) شيبان: شيبان بن أحمد بن طولون أبو المقانب، ببيع 20 صفر 292هـ/1 يناير (كانون الثاني) 905م، وكانت ولايته على مصر اثني عشر يوماً؛ الكندي: ولاية مصر، ج1، ص75.

(3) الكندي: ولاية مصر، ج1، ص75؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص403؛ زيود، محمد: العلاقات بين الشام ومصر، ص171.

(4) الكندي: ولاية مصر، ج1، ص76؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص137؛ عزب، خالد: الفسطاط، ص42.

(5) الكندي: ولاية مصر، ج1، ص76؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص137؛ زيود، محمد: العلاقات بين الشام ومصر، ص172.

(6) زيود، محمد: العلاقات بين الشام ومصر، ص172.

بردي" وأحرقت القطائع التي كانت حول الميدان من مساكن السودان بعد أن قتل فيها منهم خلق كثير حتى صارت خراباً.... وزالت دولة بني طولون كأنها لم تكن⁽¹⁾.

وعلى أثر الدمار الكبير الذي رافق عملية إعادة مصر إلى النفوذ العباسي، تشكلت نقمة من الشعب على الجيش العباسي، فاستغل ذلك ابن الخنجي⁽²⁾ وهو أحد الضباط في الجيش الطولوني السابق، وقاد ثورة مسلحة ضد والي العباسي في مصر عيسى النوشري⁽³⁾، وحقق العديد من الانتصارات عليه⁽⁴⁾، مما اضطر النوشري إلى الهروب باتجاه الجيزة⁽⁵⁾ وحرق جسري المدينة الشرقي والغربي بالكامل، واحترقت معهم أيضاً كل المراكب المعقودة على الجسرين، وقد كان من عادة أهل مصر في تلك الأيام ربط المراكب إلى الجسر، ويبدو أن حرق الجسرين والمراكب كان للحد من قدرة ابن الخنجي على اللحاق بالنوشري⁽⁶⁾.

ثورة الجند على الماذرائي⁽⁷⁾:

تعرضت دار الماذرائي ودور أهله في الفسطاط للحرق مرتين خلال عام واحد، إحداهما في يوم السبت (16 ربيع الأول 321هـ / 14 مارس (آذار) 933م) والآخر يوم (9 شوال

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص 137.

(2) ابن الخنجي: محمد بن علي الخنجي، نائر من مقدمي الجند بمصر في عهد انحلال الدولة الطولونية، اعتقله محمد بن سليمان مع بقايا الطولونيين، وسار بهم إلى العراق، فانفلت بجماعة ودعا إلى نصره آل طولون، فاستولى على الرملة (فلسطين) وهاجم مصر فدخلها عنوة، ولقيت في أيامه الشدائد، فأرسل الخليفة المكتفي بالله جيشاً من العراق ظفر به وبعثه مقيداً إلى بغداد، فسجن وقتل عام 298هـ/906م؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص153-154؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص272.

(3) النوشري: عيسى بن محمد النوشري، من كبار ولاة الدولة العباسية المقدمين، ولي إمارة أصبهان، وولي شرطة بغداد، ثم ولاه المكتفي بالله إمارة مصر عام 292هـ/904م فسار إليها، ولم يزل فيها إلى أن توفي عام 299هـ/911م؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج22، ص222.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص 147؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص 403، 404؛ كاشف، سيدة: مصر في عصر الاخشيديين، ص 21.

(5) الجيزة: منطقة تقع على الجانب الغربي من النيل مقابل الفسطاط؛ اليعقوبي: البلدان، ص39.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص 148.

(7) الماذرائي: محمد بن علي بن أحمد بن رستم، ولد عام 258هـ/872م، وزير من الكتاب، أصله من مازرايا (من قرى البصرة) ولد بنصيبين، خلف أباه في ولاية النظر في أمور خمارويه ابن أحمد بن طولون، وقتل أبوه عام 280هـ/893م، فاستوزره هارون بن خمارويه إلى أن زالت الدولة الطولونية، فحمل مع رجالهم إلى العراق، فأقام ببغداد مدة، وعاد إلى مصر مع عساكر العراق، وولي خراجها، وتقدم، حتى جعل له الاخشيد أمور مصر كلها، وملك من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله، وتوفي بالقاهرة عام 345هـ/957م؛ السمعي: الأنساب، ج5، ص160؛ المقرئزي: المواظ، ج3، ص275.

321هـ/2 أكتوبر (تشرين الأول) 933م)، والسبب في المرتين واحد، وهو اضطراب أحوال البلاد ل فراغ مكان الوالي، وعدم وجود من يقوم بإعطاء الجند أرزاقهم، وكان يقوم بتدبير البلاد في ذلك الوقت الماذرائي، إلا أنه اختبأ من الجند عند مطالبتهم بعتائهم، فما كان منهم إلا أن قاموا بحرق داره ودور أهله ودور كثير من أتباعه⁽¹⁾.

ضعف المستنصر بالله⁽²⁾ وتغلب القوى الداخلية عليه:

شهد النصف الثاني من خلافة المستنصر بالله أحداثاً سياسية واقتصادية واجتماعية كادت تقضي على الخلافة الفاطمية، فحدثت سلسلة من المجاعات وانتشار الأوبئة وظهور الفتن والسرقات وأعمال النهب والسلب⁽³⁾، وكان من تبعات تلك الأعمال بعض الحرائق المفتعلة من المتصارعين على الأموال والحكم.

فوجد أنه في عام (460هـ/1067م) قويت شوكة ناصر بن حمدان⁽⁴⁾ والأتراك، وأساء معاملة المستنصر بالله وطالبه بزيادة مقرر الأتراك من الأموال، حتى فرغت بيوت المال، فقاموا بنهب ذخائر المستنصر وما كان بالقصر والتربة المعزية من كنوز وتحف وأمتعة وكتب، وقد كانت تلك الأشياء المنهوبة كثيرة، حتى أن قياسر⁽⁵⁾ مصر وأسواقها امتلأت من كثرتها، مما جعل بعض الناس يحرقون ما فاض عن حاجتهم، وكان مما حرق أيضاً كتب كانت في الخزانة الفاطمية⁽⁶⁾.

(1) الكندي: ولاية مصر، ج1، ص 76، 86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص 242.
(2) المستنصر بالله: معد بن علي (الظاهر لاعزاز دين الله) ابن الحاكم بأمر الله، أبو تميم، ولد عام 420هـ/1029م، من خلفاء الدولة الفاطمية (العبيدية) بمصر، بويع وهو طفل، بعد موت أبيه عام 427هـ/135م، وقام بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي. ثم تغلبت أمه على الدولة، فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم، ومن استوحشت منه أوعزت بقتله، فيقتل، وكان كالمحجور عليه في أيام بدر الجمالي وابنه إلى أن توفي عام 487هـ/1094م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج23، ص186-195.
(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج23، ص188-195؛ الأنصاري، ناصر: المجلد في تاريخ مصر، ص129.

(4) ناصر بن حمدان: الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبي، أبو محمد، ناصر الدولة، كان أمير دمشق، وعزله عنها المستنصر بالله (الفاطمي) سنة 440هـ/1048م، وقبض عليه، وأرسل إلى مصر، فجمع حوله أنصاراً وعمل على خلع المستنصر، ثم ائتمر به جماعة من قواد الأتراك فقتلوه في دار له على النيل عام 465هـ/1074م؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص55.

(5) قياسر: جمع قيسارية وهي سوق كبير مسقوفة في المدن العتيقة تباع فيه الأثواب والزرابي ونحوها؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج1، ص594؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص357.

(6) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج2، ص278.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اشتد الصراع بين الأتراك وناصر بن حمدان، وكثر الفساد والضرر، وخاف الناس من النهب، فعاد التجار إلى ما ابتاعوه من المخرج من القصر يحرقونه بالنار ليخلص لهم ما فيه من الذهب والفضة، فحرقوا من الثياب المنسوجة بالذهب والأمتعة من الستور والكلل⁽¹⁾ والفرش، والبنود⁽²⁾ والنفائس المختلفة، ومن السروج الذهب والفضة والآلات المصنوعة بالميناء والمرصعة بالجواهر، شيء لا يمكن وصفه⁽³⁾، ويبدو أن الحرق هنا لاستخلاص الذهب والفضة وهو ما يمكن تخزينه بسهولة بعيداً عن أيدي الناهبين.

وفي يوم (6 صفر 461هـ / 5 نوفمبر (تشرين الثاني) 1068م) سقطت شرارة في خزانة البنود نتيجة الفوضى في البلاد، فاحتقرت تلك الخزانة بما تحتويه من بنود وآلات حرب وأمتعة، ومما احترق أيضاً عشرات الألوف من السيوف وغير ذلك مما لا يحصى لكثرتة⁽⁴⁾.

استمرت حالة عدم الاستقرار في مصر نتيجة الصراع بين ناصر الدولة بن حمدان والأتراك، ورحل من البحيرة⁽⁵⁾ بعساكر كثيرة ونزل بالجيزة⁽⁶⁾، وحاصره محاصرة شديدة في (ذي القعدة 463هـ / يوليو (تموز) 1071م)، وقام أصحابه بنهب الناس والدور وقطع الطرق، وأحرقوا الكثير من دور الساحل، ثم عاد إلى البحيرة⁽⁷⁾، وحرق الدور هنا كان الهدف منه التخريب وزيادة معاناة الناس، للضغط على الأتراك المتحكمين في تلك المنطقة وانتقاماً منهم لعدم الالتزام بدفع الأموال المقررة له⁽⁸⁾. ولم تستقر الأحوال بمصر في عهد المستنصر بالله، إلا بدخول أمير الجيوش بدر الجمالي⁽⁹⁾ الذي توجه أولاً إلى الوجه البحري والاسكندرية حيث قاتل قبائل لواته والملحية واسترد ما كان من أعمال بأيديهم، ثم توجه إلى الصعيد حيث قاتل قبائل الجهنيين

(1) الكلل: جمع الكلة وهي صوفة حمراء في رأس الهودج وقيل هي غشاء من ثوب رقيق يتوقى به من البعوض؛ ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص595.

(2) البنود: جمع بند وهو العلم الكبير فارسي معرب؛ الرازي: مختار الصحاح، ج1، ص27.

(3) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج2، ص280.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص280.

(5) البحيرة: مدينة من نواحي الإسكندرية بمصر تشتمل على قرى كثيرة ولها دخل واسع؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص351.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص21.

(7) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج2، ص305.

(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص21.

(9) بدر الجمالي: أمير الجيوش، أرمني الأصل، كان نائب عكا في عهد المستنصر، ثم سار إلى مصر وأنهى حركات التمرد بها، وأصبح الوزير الأول في الدولة حتى وفاته عام 486هـ/1094م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص507.

والقيسيين وفلول السودان، فأعاد للبلاد وحدتها وأمنها وللدولة قوتها، وأثناء تلك الهجمات في عام (467هـ/1074م) قام بدر الجمالي بحرق العديد من ممتلكات تلك القبائل كنوع من التأديب وإضعاف قدرتهم بعد ذلك على مواجهة الدولة⁽¹⁾.

صراعات الوزراء الفاطميين:

فور مبايعة الظافر⁽²⁾ بالخلافة قام بتعيين ابن مصال⁽³⁾ وزيراً، إلا أن ذلك لم يرض ابن السلار⁽⁴⁾ والي الإسكندرية والبحيرة، فتوجه إلى القاهرة وأجبر الظافر أن يوليهِ الوزارة⁽⁵⁾، فخرج ابن مصال إلى الصعيد بطلب من الظافر لجمع جيش من بربر لواته والسودان لمواجهة ابن السلار، إلا أن ابن السلار أرسل إليه جيشاً تمكن من تعقبه، وحصاره عند جامع في مدينة دلاص⁽⁶⁾ يوم الأحد (19 شوال 544هـ / 19 فبراير (شباط) 1150م)، وقام جيش ابن السلار بحرق جامع دلاص بمن تحصن فيه من بربر لواته والسودان، وقتل ابن مصال وحملت رأسه إلى القاهرة، واستقرت الوزارة لابن السلار رغم عدم رضى الظافر، إلا أن ضعف الخلفاء الفاطميين في تلك الفترة منعه من القيام بأي شيء⁽⁷⁾.

استمر الصراع بين الوزراء الفاطميين بعد ذلك، ودخلت مصر في حروب ومنازعات مستمرة جعلت البلاد في حالة من الضعف والفساد، وكان نتيجة تلك المنازعات حرق بعض الأماكن داخل المدن، خاصة أنها منازعات وحروب بين قوى داخلية، فكانت مدن وقرى مصر

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص 82؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 305.

(2) الظافر: إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ ابن محمد المستنصر ابن الظاهر ابن الحاكم بأمر الله، العلوي الفاطمي، ولد في القاهرة عام 527هـ/1133م، وولي بها الخلافة صغيراً بعد وفاة أبيه عام 544هـ/1150م بعهد منه، ولم يطل زمنه، حيث قتله أحد رجاله غدرًا عام 549هـ/1154م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج15، ص204-202.

(3) ابن مصال: من كبار الأمراء في الدولة في عهد الحافظ وتولى الوزارة في عهد الظافر ثم قتل بعد أربعين يوماً من الوزارة؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص319.

(4) ابن السلار: سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار الكردي، وزير الظافر بالله الفاطمي بمصر، كان والي الإسكندرية ثم أصبح الوزير الأول بعد ابن مصال، وتلقب بالملك العادل أمير الجيوش، وقتل عام 548هـ/1154م؛ الذهبي: سير الأعلام، ج20، ص281-282.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 361؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص95؛ عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص 256.

(6) دلاص: كورة بصعيد مصر على غربي النيل أخذت من البر تشتمل على قرى وولاية واسعة ودلاص مدينتها؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص459.

(7) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص 95؛ سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص274.

هي ساحة المعركة مما جعلها عرضة للحرق والتخريب، فنجد أنه في صراع شاور⁽¹⁾ وضرغام⁽²⁾ على كرسي الوزارة، أن ضرغام كان يهدد سكان القاهرة بحرق البلد لأنهم مكنوا شاور من دخول البلد⁽³⁾، وعندما دخل شاور وحليفه شيركوه⁽⁴⁾ القاهرة في (رجب 559هـ/مايو/أيار) 1164م) دارت معركة عظيمة بينهما وبين ضرغام داخل أسوار القاهرة، حيث دخل شاور وشيركوه إلى القاهرة من باب السعادة وباب القنطرة، وطرحوا النار في اللؤلؤة وما حولها من الدور، مما أدى إلى حرق المكان وانهزام ضرغام وتراجعه عن مكانه⁽⁵⁾، والواضح هنا من سير المعركة أن شاور لجأ إلى حرق هذا المكان لتحصن قوات ضرغام فيه، فكان الحرق أحد الطرق لاقتحام المكان وتحقيق النصر.

بعد التخلص من ضرغام وانفراد شاور بالوزارة، أقام شيركوه خارج القاهرة فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين محمود من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وسيطروا على البلاد الشرقية فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر⁽⁶⁾، وأخذ أيضاً يستعد لمحاربة شيركوه فغلق أبواب القاهرة، وأخرج خيمه وضربها في أرض الطباله، فلما كان يوم الأربعاء (23 شعبان 559/ 15 يوليو/تموز) 1164م، التقى شاور و شيركوه في كوم الريش، فانكسر شاور إلى باب القنطرة ونهبت خيمه، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة، وفي ذلك اليوم نتج عن المعركة إحراق بعض المناطق على الخليج بالقرب من سور القاهرة⁽⁷⁾.

(1) شاور: أبو شجاع السعدي شاور بن مجير بن نزار السعدي، من بني هوازن، ولي الصعيد الأعلى بمصر، في أيام العاضد، ثم قام بثورة استولى بها على وزارة مصر، بعد أن قتل رزيك بن صالح، ودخل في صراع مع شيركوه، أنتهى بمقتله عام 564هـ/1169م؛ الذهبي: سير الأعلام، ج20، ص514-516.

(2) ضرغام: الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري؛ قتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن بالقاهرة؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص444.

(3) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص269.

(4) شيركوه: شيركوه بن شاذي بن مروان، أسد الدين، الملقب بالملك المنصور، أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، وهو أخو نجم الدين أيوب، وعم السلطان صلاح الدين، كان من كبار القواد في جيش نور الدين محمود ابن زنكي بدمشق، وتوفي فجأة عام 564هـ/1169م؛ الذهبي: سير الأعلام، ج20، ص587-589.

(5) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص269.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج9 ص466.

(7) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص274، 275.

عاد شيركوه إلى مهاجمة شاور في القاهرة يوم الأربعاء (16 ذي الحجة 559هـ/4 فبراير (شباط) 1164م)، وأخرج شاور العساكر والحشود مما يلي البستان الكبير خارج باب الفتوح، وزحف شاور، فخرج إليه شيركوه وحاربه، فانهزم شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها، وحاصره شيركوه طول النهار، فلما كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللؤلؤة، وصار كل من يخرج من عسكر مصر يقتل⁽¹⁾، ويبدو هنا أن حرق تلك المنطقة من شيركوه كان لزيادة الضغط على عسكر شاور وإجبارهم على الخروج خارج أسوار القاهرة⁽²⁾ التي تحصنوا بها، بالإضافة إلى محاولة إضعاف بعض مناطق السور وإحداث ثغرة لمحاولة الدخول منها إلى داخل القاهرة.

اشدت القتال أكثر واستطاع شيركوه فتح ثغرة في حارة الريحانية، فجلس العاضد⁽³⁾ على باب الذهب وأمر بالخروج، فتسارع الصبيان وغيرهم إلى الثغرة وقاتلوا الترك والكنانية حتى أوصلوهم إلى منازلهم، وسدوا الثغرة، واشدت هجوم شيركوه على باب القنطرة، وفي تلك الأثناء احترق منطقة الخليج جميعه، واحترقت الدور التي بجانبه من حارة زويل⁽⁴⁾.

كان وصول صلاح الدين الايوبي عام (564هـ/1169م)⁽⁵⁾ إلى كرسي الوزارة في عهد العاضد كآخر الوزراء في العهد الفاطمي، إيذاناً بنهاية الدولة الفاطمية، إلا أن صلاح الدين واجه بعض التحديات الداخلية في بداية وزارته، ومنها مؤامرة مؤتمن الخلافة الذي كتب كتاباً يتفق فيه مع الفرنج على الغدر بصلاح الدين والقضاء عليه، ولكن وقع كتابهم في يد صلاح الدين، وقتل صلاح الدين مؤتمن الخلافة وهو كبير السودان، مما أدى إلى ثورة عبيد القصر

(1) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج 3، ص 275، 276.

(2) لنظرة أفضل يمكن مراجعة خريطة القاهرة في العهد الفاطمي في الملاحق.

(3) العاضد: عبد الله بن يوسف بن الحافظ، العلوي الفاطمي، آخر ملوك الدولة الفاطمية بمصر والمغرب، ببيع له بمصر بعد موت الفائز، وهو آخر من دعي بأمر المؤمنين من العبيديين الفاطميين بمصر، ومات عام 567هـ/1171م؛ الذهبي: سير الأعلام، ج 20، ص 207-211.

(4) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج 3، ص 275، 276.

(5) صلاح الدين الأيوبي: يوسف بن أيوب بن شاذي، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر، كردي، وولد بتكريت عام 532هـ/1137م، كان في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، واستوزره العاضد الفاطمي، وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي يوم حطين الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس عام 583هـ/1188م، وتوفي عام 589هـ/1193م؛ الذهبي: سير الأعلام، ج 21، ص 278-287.

من السودان وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً⁽¹⁾، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه⁽²⁾.

اجتمع العبيد يوم الأربعاء (25 ذي القعدة 564هـ/20 أغسطس) (آب 1169م) صبيحة قتل مؤتمن الخلافة، وزحفوا إلى دار الوزارة⁽³⁾، ودارت بينهم وبين صلاح الدين معركة كبيرة، استطاع فيها صلاح الدين القضاء عليهم بعد قتال عنيف، وحرقت عدة أماكن كانوا يتحصنون بها، حيث كانت الحرائق السلاح الرئيسي الذي حسم المعركة لصالح صلاح الدين، فنجدته في بداية الأمر يعمل على تهديد الخليفة بحرق منظرته حتى يغير موقفه لصالح صلاح الدين، ثم يستخدم الحرق أيضاً لكسر الروح القتالية للسودان عن طريق حرق أحيائهم ومنازلهم، وحتى عندما تراجعوا قام بحرق كل مكان يلجأون إليه، حتى استطاع القضاء عليهم بالكامل ولم تقم لهم قائمة مرة أخرى، رغم كثرة عددهم وقوتهم⁽⁴⁾.

حرق دار فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ومقتل توران شاه⁽⁵⁾:

بعد قتل الصليبيين القائد فخر الدين بن شيخ الشيوخ في معركة المنصورة عام (647هـ / 1250م)، قام مماليكه وبعض الأمراء بنهب داره وكسر صناديقه وخزائنه وأخذ أمواله وخيوله وإحراق داره⁽⁶⁾، وقد يكون ذلك انتقاماً منه نتيجة خطئه في الانسحاب من دمياط وغضب الملك الصالح نجم الدين الأيوبي⁽⁷⁾ عليه⁽⁸⁾.

بعد وفاة السلطان نجم الدين وصل توران شاه إلى مصر، ليتولى حكم مصر من بعده، إلا أنه حدث خلاف كبير بينه وبين أمراء المماليك وشجر الدر، التي قامت بدور مهم في

(1) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص 19؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص 131.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج2، ص 131.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص 131.

(4) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص312، 313.

(5) توران شاه: توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، أخر سلاطين الدولة الأيوبية بمصر، ولد بمصر، وتملك حصن كيفا، ثم تولى السلطنة بعد وفاة أبيه، ثم قتله بعض المماليك في عام 648هـ/1250م، وكانت مدة سلطنته نحو 40 يوماً لم يدخل فيها القاهرة؛ الذهبي: سير الأعلام، ج23، ص193-195.

(6) المقرئزي: السلوك، ج1، ص 448.

(7) الملك الصالح نجم الدين الأيوبي: من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، ولد بالقاهرة عام 603هـ/1206م، وولي بعد خلع أخيه العادل عام 637هـ/1240م، وفي أواخر أيامه قاتل الصليبيين في مصر 647هـ/1249م، وتوفي في هذه الأثناء؛ الذهبي: سير الأعلام، ج23، ص187، 188، 192.

(8) اليونيني: ذيل، ج1، ص238.

التحريض على التخلص منه⁽¹⁾، و بالفعل قام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من كبار المماليك، وفي صباح يوم الإثنين (27 محرم 648هـ / 2 مايو (أيار) 1250م) وبعد أن فرغ توران شاه من إفطاره في خيمته بفارسكور⁽²⁾، تقدم إليه بيبرس البندقدراي⁽³⁾ وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه، وجرى توران شاه ليحتمي ببرج خشبي في معسكره على شاطئ النيل، فأضرم المتآمرون النار في البرج، فنزل صوب النيل، والسهام تتاله من كل جانب، فرمى نفسه في المياه ولحقه أقطاي فقتله⁽⁴⁾، ويقول المقرئزي أنه مات " جريحاً غريقاً محترقاً"⁽⁵⁾، وبموته يكون قد انتهى حكم الأيوبيين في مصر.

الصراعات السياسية زمن المماليك:

في بداية الدولة المملوكية حاول عز الدين أيبك⁽⁶⁾ ترسيخ حكمه في مصر، ولتحقيق هذا الهدف كان عليه التخلص من أكبر منافسيه والطامع في حكم مصر أقطاي، فقام بقتله عام (652هـ/1254م) وألقى برأسه من القلعة إلى أمراء البحرية، الذين قرروا الفرار بعد قتل رئيسهم، فخرجوا إلى بلاد الشام بعد أن قاموا بحرق باب القراطين - الذي عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق- ويعود سبب حرقهم الباب إلى محاولة أيبك الإمساك بهم فاغلق أبواب القاهرة في وجوههم مما اضطرهم لحرق الباب للخروج⁽⁷⁾.

كان الصراع بين أمراء المماليك على النفوذ والسلطة أحد سمات تلك الدولة، ففي يوم الأربعاء (11 محرم 694هـ/1 ديسمبر (كانون الأول) 1294م) ثار المماليك الأشرفية وحرقوا

(1) الذهبي: سير الأعلام، ج23، ص195؛ عبده، قاسم والسيد، علي: الأيوبيون والمماليك، ص111.

(2) فارسكور: مدينة تقع على ساحل النيل تقع جنوب دمياط على بعد ثمانية وعشرين ميلاً منها؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص339؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ج1، ص50.

(3) بيبرس البندقدراي: تولى سلطنة مصر والشام عام 658هـ/1260م، وتلقب بالملك الظاهر، له حروب كثيرة ضد التتار والصليبيين، حقق فيها انتصارات كبيرة، وتوفي في دمشق عام 676هـ/1277م؛ ابن تغري بردي: مورد، ج2، ص33-34.

(4) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص434؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص389؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص177.

(5) السلوك، ج1، ص458.

(6) عز الدين أيبك: أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام. كان مملوكاً للصالح نجم الدين أيوب، وأعتقه فصار في جملة الأمراء عنده، وتولى السلطنة بعد زواجه من شجر الدر عام 648هـ/1250م، وقتل في عام 655هـ/1257م؛ الذهبي: سير الأعلام، ج23، ص198-199.

(7) المقرئزي: السلوك، ج1، ص483؛ عاشور، سعيد: العصر المملوكي، ص20.

باب السعادة، ودخلوا إلى الوزارة وقصدوا سوق السلاح وفتحو الحوانيت وأخذوا السلاح⁽¹⁾، ونهبوا ما قدروا عليه ووقفوا تحت القلعة احتجاجاً على ظهور حسام الدين لاجين⁽²⁾ وعدم قتله، فهو الذي قتل صاحبهم الأشرف خليل⁽³⁾، فركب الأمراء الذين بالقلعة وقاتلوهم وهزموهم وتم التنكيل بهم أشد التنكيل على ثورتهم⁽⁴⁾.

وفي شهر (جمادى الآخر 742هـ/ مايو (أيار) 1353م) حدث خلاف بين أمراء المماليك بالشام والأمير قوصون⁽⁵⁾ في مصر الذي استبد بالحكم فيها، فقام الأمراء بتأليب العامة على قوصون، فقاموا بنهب قصر قوصون وممتلكاته⁽⁶⁾، كما مضوا إلى بيوت مماليك قوصون وهم حشد عظيم فنهبوا وأحرقوها وما حولها، وزاد النهب والفوضى في القاهرة، فنزل الأمراء المماليك وقبضوا على بعض العامة وعاقبوهم فكفوا عن النهب وعاد الهدوء إلى البلد⁽⁷⁾. واستمرت عملية حرق الأبواب المغلقة من المماليك كوسيلة ناجحة لاقتحام أي مكان، فنجد أنه في يوم الإثنين (24 شعبان 781هـ/ 5 ديسمبر (كانون الأول) 1379م)⁽⁸⁾ ثار أمير

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص259.

(2) حسام الدين لاجين: هو حسام الدين ابن عبد الله المنصوري، من ملوك دولة المماليك البحرية بمصر والشام، ولد عام 635هـ/1237م، شارك في قتل الأشرف خليل بن قلاوون، وتولى السلطنة عام 695هـ/1296م، ثم قتل على يد بعض المماليك الأشرفية عام 698هـ/1299م؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص70-71.

(3) المقرئزي: السلوك، ج2، ص259؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص48.

الأشرف خليل: (666 - 693 هـ / 1268 - 1294 م) خليل بن قلاوون الصالحي، تولى سلطنة مصر والشام بعد وفاة أبيه عام 689هـ/1290م، قاتل الصليبيين واسترد منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وقلعة الروم وبيسان، وطردهم من كل بلاد الشام وجميع الساحل، قتله بعض المماليك غيلة بمصر عام 693هـ/1294م؛ ابن شاعر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص381-383.

(4) المقرئزي: السلوك، ج2، ص259؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص48.

(5) قوصون: هو الأمير سيف الدين قوصون الناصري، جاء مهاجراً من بلاد الأزبك، وتزوج من بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتقدم عنده، وعظم شأنه حتى أصبح من كبار الأمراء في الدولة، وأستبد بحكم مصر بعد وفاة الناصر؛ النويري: نهاية، ج33، ص172.

(6) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص321.

(7) المقرئزي: السلوك، ج3، ص354.

(8) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص310؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص167.

السلاح إينال على الأمير بركة والأمير برقوق⁽¹⁾، واستغل فرصة خروج بركة إلى البحيرة، لمحاولة الاستيلاء على ممتلكات بركة، فعلم الأمير برقوق بما حدث فوصل إلى ساحة الإصطبل وقصد الباب الخلفي فحرقه من أجل فتحه والوصول إلى إينال، الذي انهزم في نهاية الأمر وتم حبسه⁽²⁾.

وبعد أقل من عام من القضاء على ثورة إينال، دبَّ الخلاف بين الأمير برقوق والأمير بركة على النفوذ والسلطة، حتى وصل إلى مرحلة المواجهة المسلحة في يوم الإثنين (7 ربيع الأول 782هـ/11 يونيو/حزيران 1380م) ، بعد أن قام مماليك برقوق بالقبض على إخوة بركة، ورمي بيت بركة بالنشب، نادى الأمير برقوق في العامة عليكم ببيت بركة فانهبوه، فجاء منهم خلق كالجراد المنتشر إلى بيت بركة من جهة بابها الذي بالرميلة تجاه باب السلسلة وقد أغلق فأضرموا فيه النار حتى احترق وهجموا عليه فلم يثبت لهم⁽³⁾، وهرب من باب آخر وهو باب الفتوح⁽⁴⁾.

وفي عام (790هـ/1388م) احترقت خيمة يلغا الناصري⁽⁵⁾، في صراعه مع منطاش أمير المماليك الأشرفية؛ حيث نشبت بين الأميرين معركة كبيرة استخدموا فيها مدافع النفط وآلاته، وكانت خيمة الناصري قد احترقت بسبب النفط مما اضطره إلى الانسحاب من المكان وهزيمته في نهاية الأمر⁽⁶⁾.

بعد وفاة السلطان برقوق وتولي ابنه فرج حكم البلاد وهو صغير السن، رأى كبار الأمراء المماليك أن الفرصة سانحة لتولي مقاليد السلطة في مصر فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم⁽⁷⁾، فأصبحت القاهرة في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، نتج عنها أعمال نهب وحرق

(1) برقوق: الظاهر برقوق بن أنص أول من ملك مصر من الشراكسة، انتزع السلطنة من آخر بني قلاوون عام 784هـ/1382م، وانقادت إليه مصر والشام، ومدة حكمه أتباعاً وسلطاناً قرابة الواحد والعشرين عاماً؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص10-11.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص532؛ المقرئزي: السلوك، ج5، ص71

(3) المقرئزي: السلوك، ج5، ص81؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص175.

(4) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج2، ص3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص176.

(5) يلغا الناصري: سيف الدين كان من أتباع يلغا الكبير الناصري فنسب كنسبه وأول ما اشتهر أمره أنه كان مقدماً في أول دولة الصالح حاجي بن الأشرف فقرر في نيابة حلب؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج6، ص210.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص337.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص9؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص166.

من قبل المماليك والعامه في تاريخ (10 ربيع الأول 802هـ / 10 نوفمبر (تشرين الثاني) 1399م)، ومما حرق الربيع⁽¹⁾ المجاور لمدرسة ايتمش الأمير المنهزم في تلك المنازعات⁽²⁾. وفي عهد الظاهر جقمق⁽³⁾ ثار عليه مجموعة من المماليك بقيادة الأمير قرقماس أتاك العسكر، حيث شهدت مدينة القاهرة في شهر (ربيع الاخر 842هـ / سبتمبر (أيلول) 1438م) معركة كبيرة بين جقمق وقرقماس كثر فيها القتل والجرح، وفيها حاول بعض المماليك الموالين للأمير قرقماس اقتحام مدرسة السلطان حسن ليتمكنوا من الرمي على القلعة من أعلى المدرسة، فقاموا بحرق باب المدرسة وصعدوا عليها، إلا أن ممالك قرقماس لم يصمدوا كثيراً وانتهت المعركة بانتصار الظاهر جقمق⁽⁴⁾.

وفي نهاية عهد الظاهر جقمق كثر تمرد المماليك الجلبان⁽⁵⁾ على الأمرء، وفي يوم الأحد (21 جمادى الأولى 854هـ / 22 يونيو (حزيران) 1450م) كثر شغب المماليك الجلبان على العديد من الأمرء ومنهم أبي الخير النحاس؛ حيث قام المماليك بغارة إلى جهة القلعة ووقفوا تحت الطبلخانات⁽⁶⁾ في انتظار أبي الخير النحاس، وبلغ النحاس الخبر فمكث نهاره عند السلطان بالقلعة لا ينزل إلى داره فشق ذلك على المماليك، وانفقوا على نهب دار أبي الخير

(1) الربيع: الحي، أو ما حول الدار، والدار بعينها حيث كانت وجمعها رباح وربوع وأرباع وأربع والربيع أيضاً المحلة؛ الرازي: مختار الصحاح، ج1، ص97.

(2) المقرئزي: السلوك، ج6، ص9؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص188.

(3) الظاهر جقمق: جقمق العلاني الظاهري، سيف الدين، أبو سعيد، من ملوك دولة الشراكسة بمصر والشام والحجاز، شركسي الأصل، تولى السلطنة بعد خلع العزيز، فانتظم له الأمر إلى أن توفي بالقاهرة عام 857هـ/1453م؛ ابن تغري بردي: مورد، ج2، ص158-160.

(4) المقرئزي: السلوك، ج7، ص385، 386؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص271.

(5) المماليك الجلبان: وهم الذين كان السلطان يجلبهم كباراً، ويجعلهم في خدمته، خلافاً للقاعدة التي سار عليها المماليك في صدرهم الأول بشراء المماليك الصغار دون البلوغ، والقيام على تربيتهم وتنشئتهم فيغرسون فيهم حباً أستاذهم والالتزام بطاعته والإخلاص له حتى بعد وفاته، أما الجلبان فكان من السهل عليهم أن يعزلوا سيدهم أو يتمردوا على أبنائه؛ انظر المقرئزي: السلوك، ج6، ص332؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص84، 123، 291؛ العميرة، محمد: الجيش في العصر المملوكي الثاني، ص77.

(6) الطبلخانات: جمع طبلخانا وهو لفظ مركب من طبل بالعربية وخانا بالفارسية ومعناه العام بيت الطبل، دخل العربية في بداية العصر الأيوبي فأطلق بادئ الأمر على المكان المعد لحفظ الطبول والأبواق والصنوج التي يستخدمها الجيش في الموسيقى العسكرية، وانحصر هذا اللفظ بالفرقة الموسيقية الخاصة بالسلطان، والتي كانت تقوم بدق النوبة في أوقات محددة على أبواب السلطان وعزف الألحان الموسيقية العسكرية في المناسبات المختلفة؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص303.

النحاس فساروا من وقتهم إلى داره على هيئة مزعجة فوجدوا باب داره قد غلقه مماليكه وأعوانه، وقد وقفت مماليكه بأعلى بابه لمنع المماليك من الدخول فوقع بينهم قتال ثم هجمت المماليك على بابه الذي كان بين السورين، وأطلقوا فيه النار واحترق الباب وما كان عليه من المباني ودخلوا إلى البيت وقاموا بالنهب وأخذوا من الأقمشة والأمتعة والصيني والتحف والكثير غيره، واستمرت النار تعمل في باب أبي الخير إلى أن اتصلت إلى عدة بيوت بجواره ولم تصل النار إلى داره لأنها كانت عكس اتجاه الريح وأيضاً كانت بالبعد عن الباب، ثم حضر والي القاهرة وغيره لإطفاء النار فأطفئت بعد جهد ولما انتهى أمر المماليك من النهب وعلموا أنه لم يبق شئ بالدار خرجوا، وقد تركوا بيت النحاس خالياً من جميع ما كان فيه⁽¹⁾.

بعد وفاة الظاهر جقمق تولى ابنه السلطان الملك المنصور عثمان الحكم، ودخل في صراع مع الأتابك إينال⁽²⁾، وشهدت القاهرة قتالاً استمر سبعة أيام، وفي اليوم السابع الأحد (7 ربيع الأول 857هـ/18 مارس (آذار) 1453م) قام أصحاب الأمير إينال بإشعال النار في البيوت التي بجوار الميدان، فتعلقت النار فيهم حتى وصلت إلى سقف المسجد من سبيل المؤمني وأحرقته عن آخره، وكان بسطحه جماعة كبيرة من مماليك السلطان فنزلوا عنده، واستطاع بعد ذلك أصحاب الأمير إينال هدم سور الميدان والدخول إليه مما أدى لتراجع مماليك السلطان وهزيمتهم⁽³⁾، ونلاحظ هنا أن سبب الحرق كان لإبعاد مماليك السلطان عن سور الميدان، بالإضافة إلى إضعاف السور وهدمه من أجل الدخول إلى منطقة الميدان.

وهكذا نجد أن الصراعات السياسية زمن المماليك كانت من الأسباب، التي أدت إلى احتراق العديد من الأماكن في مصر وبالأخص مدينة القاهرة التي كانت ساحة لأغلب هذه الصراعات بحكم أنها عاصمة البلاد ومكان كبار الأمراء وأصحاب القرار.

ثانياً: الصراعات مع القوى الخارجية.

تعد مصر موطئاً لجميع الدول التي تحاول السيطرة على المنطقة، لذلك فقد تعرضت للكثير من الهجمات الخارجية لمحاولة السيطرة عليها واحتلالها، وهناك محاولات نجحت وأخرى

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص410.

(2) إينال: الملك الأشرف أبو النصر، سيف الدين، العلائي الظاهري، من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام، جركسي الأصل، كان أتابكاً في أيام الظاهر جقمق، وتوفي جقمق، وخلفه ابنه المنصور عثمان، فخلعه أمراء الجيش ونادوا بسلطنة إينال عام 857هـ/1453م، وقام بأعباء الملك بحكمة وعقل؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج2، ص328-329.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص49.

فشلت، إلا أنه في المجمل ألحقت كل تلك المحاولات خسائر واضراراً في الدولة المصرية والدول الخارجية، وكان أحد مظاهر هذه الخسائر ما ألحقته الحرائق من أضرار نتيجة تلك الصراعات.

محاولة الفاطميين دخول مصر عام (307هـ/920م):

في ظل محاولات الفاطميين دخول مصر والاستيلاء عليها، قام المهدي⁽¹⁾ بإرسال جيش بري مدعوم بأسطول بحري كبير من ثمانين مركباً وأرسي في مياه الإسكندرية، فأرسل المقتدر بالله⁽²⁾ الأسطول العباسي المرابط في طرسوس⁽³⁾، فقدمت منه خمس وعشرون مركباً مزودة بالنفط والعدد بقيادة ثمل الخادم، وسرعان ما اشتبك الأسطولان الفاطمي والعباسي في مياه رشيد⁽⁴⁾ في قتال عنيف يوم الثلاثاء (20 شوال 307هـ/14 مارس (آذار) 920م)، ظفرت فيه مراكب المقتدر وأحرقت كثيراً من مراكب المهدي⁽⁵⁾.

حرق الأسطول الفاطمي عند غزو الروم:

تعرض الأسطول الفاطمي للحرق مرتين في عهد العزيز⁽⁶⁾ الفاطمي، الأولى في عام (377هـ/987م) عندما جهز العزيز عدداً من الشواني لغزو الروم، لكنها احترقت واتهم بها أناساً، وواضح هنا أن حرق الأسطول كان الهدف منه تعطيل هجوم العزيز على الروم⁽⁷⁾. وقد تكرر هذا الحدث يوم الجمعة (24 ربيع الأول 386هـ/17 أبريل (نيسان) 996م)، عندما أمر العزيز بشحن المراكب الحربية بالمقاتلة وتجهيز المقاتلين للغزو، فوقعت النار في

(1) المهدي: المهدي عبيد الله الخليفة الفاطمي جد الفاطميين بالقاهرة؛ ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب، ج2، ص207. مولده بسلمية في سنة 278هـ، ودخل المغرب مع أبيه فبويح هذا عند موت أبيه في سنة 322هـ، وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير فاسد العقيدة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج15، ص152.

(2) المقتدر بالله: (282 - 320 هـ / 895 - 932 م) الخليفة المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله الهاشمي العباسي البغدادي بويح بعد أخيه المكتفي في سنة 295هـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج15، ص43.

(3) طرسوس: وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص28.

(4) رشيد: بلدية على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص45.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص501؛ ابن خلدون: تاريخ ج4، ص50؛ سالم، السيد: تاريخ الإسكندرية، ص172.

(6) العزيز: صاحب مصر، نزار بن المعز معد أبي تميم ويكنى نزار بأبي منصور ويلقب بالعزيز توفي عن اثنتين وأربعين سنة منها وكانت ولايته بعد أبيه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص320.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص151.

الأسطول فاحترقت المراكب ولم يبق منها غير ست مراكب خالية من السلاح، واحترقت باقي المراكب بما فيها من عدة وسلاح، فاتهم بذلك أسرى الروم، واعترفوا بحرق الأسطول؛ حيث كانوا في دار بجوار دار الصناعة، فهاجمت العامة الروم و نهبتهم وقتلت منهم مئة وسبعة⁽¹⁾، ويبدو هنا أن الأسرى لم يكونوا في سجن أو معتقل مغلق الأبواب، إنما كانت لهم حرية الحركة مما سمح لهم بحرق الأسطول⁽²⁾، لكن هناك من يقول أن هؤلاء الروم كانوا تجاراً من مدينة أمالفي الإيطالية وكانوا يقيمون مع بضائعهم في الفسطاط في مبنى مخصص بالقرب من مكان الأسطول⁽³⁾، والأرجح هنا أنهم كانوا تجاراً حقاً وذلك لأن العامة نهبتهم، والأسرى لا يكون معهم شيء لينهب، لكن ربما أن أولئك التجار قد كان عليهم نوع من الأسر وتقييد الحرية لسبب ما.

هجمات النوبة على جنوب مصر:

لجأ النوبيون في سنوات الشدة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب، ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تشتد في أوقات عدم الاستقرار في مصر، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان⁽⁴⁾، كما حدث في أواخر الدولة الإخشيدية عام (352هـ/962م)، حيث أغار ملك النوبة على جنوب مصر ومر على أسوان⁽⁵⁾ حتى وصل أخميم⁽⁶⁾، وخلال تلك الغارة قتل ونهب وسبى وأحرق عدة أماكن⁽⁷⁾.

وفي يوم (21 محرم 671هـ/18 أغسطس) هاجمت جماعة من النوبة ميناء عيذاب⁽⁸⁾ ونهبوا ما فيه وقتلوا خلقاً كثيراً، فسار اليهم متولي قوص وقصد النوبة فدخل

(1) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص290.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص290؛ شيخ العيد، عماد: حقوق الانسان، ص125.

(3) الأنطاكي: تاريخ، ص178؛ سيد، ايمن: الدولة الفاطمية، ص732-733.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص326؛ عاشور، سعيد: عصر السلاطين، ص78.

(5) أسوان: أقصى جنوب مصر، وهي في الجانب الشرقي من النيل، وهي ذات نخل كثير، ومزارع وتجارات، مما يأتي من بلاد النوبة، والبجة؛ اليعقوبي، البلدان، ج1، ص40.

(6) إخميم: وهو بلد قديم على شاطئ النيل بالصعيد وفي غربيه جبل صغير، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص123.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص326.

(8) عيذاب: بلدية على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص171.

بلادهم يوم (21 صفر 671هـ/17 سبتمبر (أيلول) 1272م) ⁽¹⁾ وقتل منهم وحرقت بلادهم انتقاماً لما فعلوه في عيذاب ⁽²⁾.

هجمات الصليبيين على مصر في العهد الفاطمي:

أدرك الصليبيون بقيادة بلدوين الأول ⁽³⁾ أهمية مصر في مواجهة مشروعهم الاستعماري في الشرق الإسلامي؛ حيث انتظر بلدوين الوقت المناسب لتحقيق هدفه باحتلال مصر، وعندما أصبحت مملكة بيت المقدس أكثر قوة قادرة على مواجهة جيوش الفاطميين، سار إلى مصر على رأس جيش كبير قاصداً ملكها والتغلب عليها ⁽⁴⁾، وتمكن بلدوين من عبور الصحراء داخل الحدود المصرية حتى بلغ مدينة الفرما ⁽⁵⁾، فعلم الأفضل بذلك فأمر والي الشرقية بجمع الجيش والتصدي لبلدوين ⁽⁶⁾، وفي الوقت ذاته كان بلدوين قد عزم على العودة إلى القدس بعد أن أصابه مرض شديد ⁽⁷⁾، وقام قبل رحيله عن مدينة الفرما عام (511هـ/1118م) ⁽⁸⁾ بحرقها عن بكرة أبيها وهي خالية من السكان ⁽⁹⁾، كما أحرق جامعها وسائر مساجدها ⁽¹⁰⁾ وأبواب البلد ⁽¹¹⁾.

(1) اليونيني: ذيل، ج1، ص343.

(2) اليونيني: ذيل، ج1، ص343؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص5؛ ابن كثير: البداية، ج13، ص263.

(3) بلدوين الأول: أقام إمارة الصليبيين في الرها عام 490هـ/1097م، ثم اختير ملكاً على القدس بعد وفاة جودفري عام 493هـ/1100م؛ الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص51، 103؛ امطير، محمد: الحياة، ص67.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص178؛ طاعة، أمجد: العلاقات، ص177.

(5) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162؛ ابن المأمون: أخبار مصر، ص13.

الفرما: مدينة على ساحل البحر تقع شرق مصر؛ بين العريش وتتيس؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص255.

(6) ابن المأمون: أخبار مصر، ص13.

(7) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162.

(8) ذكر بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن خلكان و الذهبي أن بلدوين دخل الفرما عام 504هـ، وابن المأمون قال عام 509هـ، إلا أن الأرجح هو تاريخ (511هـ/1118م) وذلك لاتفاق المؤرخين المعاصرين الأجانب مثل

الشارترى، كما أن ابن الأثير يؤكد على هذا التاريخ، الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص162؛ ابن المأمون: أخبار مصر، ص13؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص178؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص301؛

الذهبي: تاريخ الإسلام، ج36، ص124.

(9) ابن المأمون: أخبار مصر، ص13.

(10) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص301؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج36، ص124؛ ابن الوردي: تاريخ،

ج2، ص364.

(11) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص301.

وواضح هنا أن حرق المدينة كان بهدف تحجيم قدرة المسلمين على الاستفادة منها في وقت قريب، وليقطع خط الإمدادات من مصر عن مدن الساحل التي مازالت في أيدي الفاطميين وهي عسقلان وصور، كما أن حرق الجامع والمساجد يحمل دلالات عن أساس الحرب الدينية التي جاء من أجلها الصليبيون⁽¹⁾.

وفي ظل صمود عسقلان في وجه الصليبيين، وعدم قدرتهم على احتلال المدينة، عزم بلدوين الثالث⁽²⁾ على تطويق عسقلان من جهة الجنوب لقطع الإمدادات الفاطمية للمدينة، فقام ببناء قلعة في مدينة غزة⁽³⁾، وهاجم مدينة الفرما مرة أخرى في (رجب 545هـ/ أكتوبر) تشرين الأول (1150م) وقام بحرقها ونهبها⁽⁴⁾، وبسبب حرق الفرما قام الوزير الفاطمي العادل بن السلار في (ربيع الأول 546هـ/ يونيو) حزيران (1151م) بتسيير أسطول بحري يتألف من سبعين مركباً مشحوناً بالرجال، وقد بلغ جملة ما أنفق عليه ثلاثمائة ألف دينار، وذلك لمهاجمة الصليبيين في سواحل الشام، واستطاع المهاجمون الاستيلاء على عدد من مراكزهم وحرق الباقي في يافا، كما قتلوا وأسروا منهم الكثير⁽⁵⁾.

كما واستغل الصليبيون بقيادة عموري⁽⁶⁾ ضعف الحكم الفاطمي وعدم استقراره في مصر، وحاولوا غزو مصر واحتلالها، في محاولة منهم لمنع جيوش نور الدين من العودة إلى مصر وتوحيد مصر والشام على قتالهم، بالإضافة إلى حماية الجباة الذين كانوا يحصلون الجزية المفروضة لصالحهم بالاتفاق مع شاور⁽⁷⁾، وانطلق عموري على رأس جيشه نحو مصر،

(1) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص228-229؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص310، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص303.

(2) بلدوين الثالث: ملك بيت المقدس، تولى الحكم بعد والده فولك الانجوي عام 537هـ/1142م، واستمر في الحكم أربعة وعشرين عاماً؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص146.

(3) الصوري، وليم: تاريخ، ص141.

(4) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص201.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص190؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص202.

(6) عموري: خلف أخاه الملك بلدوين الثالث على حكم مملكة بيت المقدس عام 558هـ/1163م، واستمر في الحكم اثني عشر عاماً؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص146؛ أبو عون، عبد الرحيم: إقطاعية حيفا، ص92.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص12؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص47؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص446.

ودخل بلبيس⁽¹⁾ في (1 صفر 564هـ/4 نوفمبر) تشرين الثاني (1168م)، وقام بحصارها، واحتلتها وقتل بها الكثير وأسر الكثير⁽²⁾، كما قام بحرق جميع الدور في المدينة⁽³⁾.

ويبدو هنا أن قيام عموري بحرق بلبيس وكثرة القتل والأسر كان من أجل زرع الخوف في أهل مصر ودفعهم إلى الاستسلام، إلا أن الأمر جاء بشكل عكسي حيث قام شاوور ومعه أهل الفسطاط بمحاولة تحصين المدينة وحفر الخنادق، خوفاً من أن يحدث بهم مثل ما حدث بأهل بلبيس⁽⁴⁾، ويقول ابن الأثير " فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس ملكوا مصر والقاهرة"⁽⁵⁾، ولكن يبدو أن الوقت لم يساعد شاوور في تحصين المدينة.

فأمر شاوور بإحراق الفسطاط وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة قبل وصول الصليبيين بيوم واحد (9 صفر 564هـ/12 نوفمبر) تشرين الثاني (1168م)⁽⁶⁾، وأمر الجنود بنهب الفسطاط، فهجرت ونهبت وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً⁽⁷⁾، وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نפט⁽⁸⁾ وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل، وأصاب أهل الفسطاط الفقر والعناء نتيجة هذا الحرق، حيث جاء الحريق على كامل الفسطاط⁽⁹⁾، كما احترق أيضاً الأسطول الموجود بها⁽¹⁰⁾، وقد لجأ شاوور إلى حرق الفسطاط حتى لا يتخذ الصليبيون من الفسطاط قاعدة يغيرون منها على القاهرة، كما أن القاهرة بأسوارها وأبوابها كانت قادرة على مقاومة هذا الهجوم إن تم.

(1) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط بمصر عشرة فراسخ (الفرسخ = 5565 متر؛ جمعه، على: المكييل، ص97) على طريق الشام؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص567.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص12؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص103.

(3) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص104.

(4) ابن واصل: مفرج، ج1، ص157؛ النويري: نهاية، ج28، ص223.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص12.

(6) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص48.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص13؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص105؛ المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج3، ص297.

(8) قارورة نפט: وهي تصنع من الزجاج، ويقوم بقدفها النفاطون، حيث تستعمل لأحراق السفن والمعدات الحربية، والأمتعة التي تصنع من الخشب؛ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص153، وكان يتم جلب النفط الخام من

جبل على ساحل البحر الأحمر؛ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص313.

(9) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص106؛ المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج3، ص297.

(10) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج3، ص297.

وفي عام (565هـ/1169م) قام المسلمون بحرق ست شواني للصليبيين في نهر النيل أثناء حصار مدينة دمياط⁽¹⁾، وذلك عندما قام أهل دمياط باستغلال الرياح الجنوبية باتجاه المراكب الصليبية، وقاموا بتعبئة قارب بالأخشاب والقطران والمواد المشتعلة، وأشعلوا النار فيه، وقذفوه باتجاه المراكب الصليبية، حتى استقر بينها بفعل الرياح القوية واشتعلت النار في المراكب الراسية هنالك، ولولا يقظة عموري لأحترق الأسطول الصليبي بالكامل حيث قام بفصل المراكب المحترقة عن بقية المراكب⁽²⁾، وفي يوم (21 ربيع الأول 565هـ/13 ديسمبر) كانون الأول (1169م) قام عموري بحرق أدوات الحصار والمنجنوقات وكل ما لا يستطيع حمله، كي لا يقع في يد المسلمين⁽³⁾، بعد أن حاصر مدينة دمياط لأكثر من خمسين يوماً يحاول أن يحتلها⁽⁴⁾، لتكون قاعدة له في مصر، يستطيع من خلالها احتلال بقية مصر وطرد جيوش نور الدين منها⁽⁵⁾، إلا أن تلك المحاولة فشلت فشلاً ذريعاً، بسبب صمود المدينة أمامه، وقيام نور الدين بشن هجمات قوية وناجحة في الشام من أجل التخفيف على دمياط، فاضطر عموري في النهاية إلى فك الحصار والانسحاب خوفاً على جيشه وممتلكات مملكة القدس في بلاد الشام⁽⁶⁾.

هجمات الصليبيين على مصر في العهد الأيوبي:

شهدت الإسكندرية في السنة الثالثة من قيام الدولة الأيوبية (569هـ/1174م) هجوماً من ملك صقلية بالاتفاق مع الفرنج وبعض الأطراف الداخلية، إلا أن صلاح الدين كشف المؤامرة واستطاع التخلص من المتآمرين في الداخل، لكن ملك صقلية لم يكن على علم بفشل المؤامرة⁽⁷⁾، وهاجم مدينة الإسكندرية بجيش كبير يتكون من ستمائة قطعة بحرية مختلفة، تحمل

(1) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين البحر المتوسط والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل الملابس الجيدة، وهي ثغر من ثغور الإسلام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص472.

(2) الصوري، وليم: تاريخ، ص337.

(3) الصوري، وليم: تاريخ، ص339؛ ابن شداد: النوادر، ج1، ص42؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص140-142؛ الجنزوري، علي: هجمات الروم، ص153.

(4) ابن شداد: النوادر، ج1، ص42؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص140-142؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص316.

(5) ابن شداد: النوادر، ج1، ص41؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص139؛ سيد، أيمن: الدولة الفاطمية، ص302.

(6) ابن شداد: النوادر، ج1، ص42؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص140؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص315-316..

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص63؛ سالم، السيد: تاريخ الإسكندرية، ص265.

ألفاً وخمسمائة فرس وثلاثين ألف مقاتل وآلات الحرب والحصار، بالإضافة إلى الأرواد و الخدم و الغلمان والصناع، فكان مجموع من اشترك في الحملة خمسون ألفاً، من بينهم ألف فارس⁽¹⁾. وكان مما حرق في المعارك التي دارت على مدار عدة أيام بين الصليبيين وأهل الإسكندرية، حرق بعض السفن داخل ميناء الإسكندرية، وذلك أن مراكب الصليبيين قصدت دخول الميناء الغربي يوم الأحد (26 ذي الحجة 569هـ/28 يوليو/تموز 1174م)، وكان فيه مراكب مقاتلة وأخرى معدة للإقلاع راسية، فعندما فطن المسلمون إلى قصد الصليبيين من دخولهم الميناء خافوا أن تقع السفن بما فيها في أيديهم وتصبح غنيمة باردة لهم، فسبقوهم إليها، وأغرقوها وأحرقوا بعضاً منها⁽²⁾، وأيضاً قام الصليبيون بإحراق الحقول المجاورة انتقاماً للمقاومة الشديدة من أهل الإسكندرية⁽³⁾.

وأيضاً كان مما حرق الدبابات⁽⁴⁾ المنصوبة على سور المدينة، ومعدات أخرى للحصار كان قد نصبها الصليبيون على السور، وخيام للصليبيين بالبر وعددها ثلاثمائة خيمة⁽⁵⁾، وذلك انه في اليوم الثالث من الحصار فتح أهل الإسكندرية أبواب مدينتهم فجأة، وهجموا بقوة على أعدائهم، وكثر الصياح في كل جانب، وتكاثروا عليهم فأحرقوا الدبابات المنصوبة، ومزقوا أعداءهم شر ممزق⁽⁶⁾، وفي اليوم الرابع واصل المسلمون القتال بضراوة وعنف وأحرقوا معدات الحصار التي كان قد نصبها الصليبيون⁽⁷⁾، وقد كان لحرق تلك الآلات الخاصة بالحصار أثر كبير في هزيمة الصليبيين وانسحابهم بكثير من الخسائر عن مدينة الإسكندرية.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص63؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص334-335؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص56؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص287.

(2) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص335.

(3) شاندر، البير: صلاح الدين، ص131.

(4) الدبابة: آلة خشبية كبيرة تستخدم في اقتحام الأسوار، ويدخل تحتها الكثير من المقاتلين ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، 140-141.

(5) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص335.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص63-64؛ ابن شداد: النوادر، ص49؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص336؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص57؛ ابن كثير: البداية، ج12، ص287.

(7) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص336.

وفي عام (578هـ/1182م) قام أرناط⁽¹⁾ بخرق الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين، وحاول الوصول إلى الأماكن المقدسة في البحر الأحمر، وهاجم الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الأحمر حتى وصل ميناء عيذاب⁽²⁾، وهناك حرق ست عشرة سفينة للمسلمين بما فيها من أطعمة ومناج⁽³⁾، ولم يسكت المسلمون على هذا التهديد السافر للأماكن الشريفة بالحجاز، فخرج حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصري على رأس قوة بحرية، أغارت على أيله⁽⁴⁾ حيث وجدوا بعض السفن الصليبية فأحرقوها وأسروا من فيها، ولحق بالباقي في البحر الأحمر وقتل وأسر منهم الكثير⁽⁵⁾.

استمرت محاولات الصليبيين في احتلال مصر، فقاموا في عام(616هـ/1219م) باحتلال دمياط، وعندما وصلت قوات إضافية من أوروبا وعكا بدأوا يزحفون جنوباً في اتجاه القاهرة⁽⁶⁾، فقام المسلمون بقطع السدود، وأغرقوا الأرض أمام زحفهم؛ حيث وجد الصليبيون أنفسهم محاصرين بالماء، وجيش المسلمين حولهم من كل جانب، فعمد الصليبيون إلى الخروج من هذا المأزق، فتقهقروا إلى دمياط في (رجب 618هـ/أغسطس(آب)1221م)⁽⁷⁾، بعد أن حرقوا خيامهم وأثقالهم، كي يستطيعوا مقاتلة المسلمين والعودة إلى دمياط⁽⁸⁾.

ظلت دمياط قبلة الصليبيين وطريقهم لاحتلال مصر، فقد هاجم الصليبيون دمياط في (صفر 647هـ/يونيو(حزيران)1249م)، واستولوا عليها دون مقاومة تذكر، لأن الرعب استولى

(1) أرناط: البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدّهم عداوة للمسلمين وأعظمهم ضرراً، قتله صلاح الدين بعد معركة حطين؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص142.

الكامل في التاريخ ج 10، ص 142

(2) ابن كثير: البداية، ج12، ص311؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص190؛ الشامي، أحمد: صلاح الدين، ص123.

(3) ابن جبير: رحلة، ص57؛ ابن كثير: البداية، ج12، ص311؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص190.

(4) أيله: مدينة على ساحل البحر الأحمر في طريق مكة بين مصر والحجاز، يجتمع بها حجاج مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس؛ الحميري: الروض المعطار، ص70.

(5) ابن كثير: البداية، ج12، ص311؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص190؛ غنيم، اسمت: الدولة الايوبية، ص33-34.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص377-378؛ عبده، قاسم: ماهية الحروب، ص125.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص379؛ الذهبي: سير، ج22، ص235؛ ماجد، عبد المنعم: الدولة الايوبية، ص127.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص380؛ الذهبي: سير، ج22، ص235.

على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم هارين⁽¹⁾، وحرقوا أبواب المدينة لكي يخرجوا منها بعد أن منعهم الجيش من الخروج⁽²⁾، كما قام بعض العسكر بحرق الزردخاناه⁽³⁾ قبل الخروج من المدينة⁽⁴⁾، ويبدو أن سبب حرق الزردخاناه لكي لا يستفيد الصليبيون من الأسلحة التي بها عند دخولهم دمياط.

بعد استيلاء الصليبيين على دمياط، قرروا التوجه ناحية القاهرة، و قاموا بعمل معسكر في الطريق وحوله الخنادق وسور خشبي، ودارت معارك كثيرة بينهم وبين المسلمين⁽⁵⁾، وفي يوم (22 شوال 647هـ/12 يناير (كانون الثاني) 1250م) دارت اشتباكات بين الأسطول الأيوبي والصليبي، واستطاع الأسطول الأيوبي من إحراق عدة سفن، ومنها سفينة كبيرة تسمى مرمة⁽⁶⁾، وكان ذلك نصراً عظيماً للمسلمين، واستمرت انتصارات المسلمين على الصليبيين حتى قرر لويس التاسع إشعال النار في أخشاب المعسكر وأسواره ليعلن بذلك استحالة البقاء وضرورة الانسحاب⁽⁷⁾.

هجمات الصليبيين على مصر في العهد المملوكي:

ظلت مدن الساحل المصري عرضة لهجمات الصليبيين خلال العهد المملوكي، وكان أول الهجمات في عهد الظاهر بيبرس يوم (20 شوال 668هـ/12 يونيو (حزيران) 1270م)، حيث دخل اثنا عشر مركباً للصليبيين ميناء الإسكندرية وقاموا بنهب أحد مراكب التجار ثم أحرقوه، ولم يجسر الوالي على أن يخرج مراكب للمسلمين للدفاع عن الميناء، وذلك لغياب رئيس الصناعة عند الظاهر بيبرس، وعندما علم الظاهر بهجوم الصليبيين، أمر بأخذ الاحتياطات والتحصينات اللازمة خوفاً من هجوم أكبر⁽⁸⁾.

(1) ابن الفوطي: الحوادث، ص188؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص41.

(2) ابن الفوطي: الحوادث، ص188؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص45.

(3) الزردخاناه: بيت السلاح ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المانع والقرقاتل المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك من الأطبار وسائر أنواع السلاح؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص11.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص42؛ المقرئ، السلوك، ج1، ص439.

(5) اليونيني، ذيل، ج1، ص238.

(6) اليونيني، ذيل، ج1، ص238؛ المقرئ، السلوك، ج1، ص447، عثمان، مرفت: التحصينات، ص370.

(7) المقرئ، السلوك، ج1، ص451؛ عثمان، مرفت: التحصينات، ص372.

(8) اليونيني، ذيل، ج1، ص302؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص149.

وعلى الرغم من طرد الصليبيين نهائياً من الشرق عام (690هـ/1291م)، إلا أن هجمات الصليبيين استمرت من البحر على السواحل المصرية في محاولة منها للنفوذ عبر البوابة المصرية إلى القدس⁽¹⁾، وكانت إحدى أكبر تلك الهجمات ما قام به ملك قبرص بغزو الإسكندرية في أسطول كبير من السفن القبرصية مدعومة بسفن من مدن أوروبية عديدة⁽²⁾، وفي يوم الجمعة (23 محرم 767هـ/10 أكتوبر (تشرين الأول) 1365م)⁽³⁾ استطاع الصليبيون اقتحام مدينة الإسكندرية بعد مقاومة ومعارك طاحنة بينهم وبين الأهالي وبعض القوات المملوكية حول أسوار المدينة⁽⁴⁾، وانسابت القوات الصليبية في شوارع المدينة يخربون الأسواق والخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال⁽⁵⁾، وذلك كله في ثمانية أيام مدة إقامتهم بالمدينة، حيث رحلوا بعد أن علموا بقرب قدوم الجيش المملوكي من القاهرة⁽⁶⁾.

كما حرقوا العديد من الأماكن⁽⁷⁾، وكان مما حرق المساجد والحوانيت والأسواق والقياسر والمدارس والقلاع والفنادق⁽⁸⁾ وأبواب المدينة⁽⁹⁾ ودار الصناعة⁽¹⁰⁾، والواضح من الحجم الكبير للحرق والتخريب هو إلحاق أكبر ضرر بالاقتصاد المصري، كما يوضح عدم نيتهم البقاء بالإسكندرية واحتلالها، وإلا كانوا أبقوا على تلك الأماكن سليمة ليستفيدوا منها.

-
- (1) الذهبي: العبر، ج5، ص365؛ الياضي: مرآة الجنان، ج4، ص209؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص135؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص109.
- (2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص283؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص109.
- (3) ابن كثير: البداية، ج14، ص314؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص283-284؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص112.
- (4) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص283-284؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص112.
- (5) ابن كثير: البداية، ج14، ص314؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص284؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص112.
- (6) المقرئ: السلوك، ج4، ص284؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص138؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص113.
- (7) ابن كثير: البداية، ج14، ص314؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص284.
- (8) المقرئ: السلوك، ج5، ص113-117؛ سالم، السيد: تاريخ الإسكندرية، ص334-344.
- (9) ابن كثير: البداية، ج14، ص314؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص284.
- (10) المقرئ: السلوك، ج4، ص284.

استمرت غارات الصليبيين على المدن والموانئ المصرية، وكانت عبارة عن غارات سريعة الهدف منها النهب والتخريب، ففي شهر (ربيع الأول 819هـ/مايو/أيار) 1416م) قام القراصنة الكيكلان بالهجوم على السواحل المصرية، وقاموا بنهب وحرق قرية نستروة⁽¹⁾. وفي شهر (شعبان 825هـ/ يوليو/تموز) 1422م) هاجمت مراكب الفرنجة مركباً لتجار بالقرب من ميناء الإسكندرية، واشتبك الفرنجة مع التجار فحرقوا المركب وعليه بضائع بمائة ألف دينار، ونجا من في القارب إلى البر⁽²⁾. وفي شهر (ربيع الأول 837هـ/ أكتوبر/تشرين الأول) 1433م) هاجم قراصنة الفرنجة ميناء دمياط وقاموا بحرق ثلاثة مراكب وأخذ أربع أخرى تعود إلى المغاربة المسلمين⁽³⁾، وفي يوم (21 محرم 840هـ/ 5 أغسطس/آب) 1436م) هاجمت ثلاثة سفن للكيكلان ميناء (أبو قير) خارج الإسكندرية، وأخذوا مركبين من الميناء، فتصدى لهم عسكر المماليك وتمكنوا من استرداد أحد المركبين، وحرق الفرنج الآخر ورحلوا⁽⁴⁾، وفي شهر (ذي الحجة 844هـ/ أبريل/نيسان) 1441م) هاجمت مراكب الفرنجة ساحل الطينة في سيناء، فأخذوا مركبين للتجار بما فيهما، ثم طوقوا الساحل فأحرقوا ما فيه من المراكب ونهبوا ما قدروا عليه⁽⁵⁾.

دخول العثمانيين مصر:

في نهاية الدولة المملوكية استطاع العثمانيون دخول القاهرة، ودارت معارك شديدة بينهم وبين المماليك داخل المدينة⁽⁶⁾، ذلك أنه بعد دخول العثمانيين القاهرة أمر طومان باي⁽⁷⁾

(1) المقرئزي: السلوك، ج6، ص 410؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص210.

نستروة: بحيرة نستروة وهي بحيرة ماء ملح بالقرب من البرلس في آخر بلاد الأعمال الغربية متسعة الأرجاء إذا توسطها المركب لا ترى جوانبها لعظمتها بعد مركزها عن البر وبالقرب منها قرية تسمى نستروة وهي التي تضاف إليها؛ الفلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص338.

(2) المقرئزي: السلوك، ج7، ص 463.

(3) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص298.

(4) المقرئزي: السلوك، ج7، ص325؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص411.

(5) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص136.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص352؛ المكي: سمط النجوم، ج4، ص67؛ موير، وليم: دولة المماليك، ص195.

(7) طومان باي: أبو النصر، الملقب بالملك الأشرف، من ملوك الجراكسة بمصر، اشتراه قانصوه الغوري بمصر، وقدمه إلى الأشرف قايتباي، فلما ولي الناصر محمد بن قايتباي أعتقه، فترقى، ولما آلت السلطنة لقانصوه الغوري، قدمه، ثم جعله دوادراً كبيراً وأتابه عن نفسه حين توجه من مصر، لحرب العثمانيين في حلب،

المماليك والأعراب الذين معه بدخول المدينة يوم الثلاثاء (5 محرم 923هـ/27 يناير) كانون الثاني (1517م)⁽¹⁾، فقاموا بحرق العديد من المواضع التي وصلوا إليها⁽²⁾، وتحصنوا داخل بعض البيوت، وحفروا الخنادق، واقاموا السواتر، من أجل عدم تمكين العثمانيين من السيطرة على القاهرة، إلا أن العثمانيين قاموا بالهجوم عليهم وخربوا ما عملوه من خنادق وسواتر، وحرقوا البيوت التي تحصنوا به، فهرب المماليك نحو النيل وخرجوا من القاهرة، فكان الحرق هناك متبادلاً بين الفريقين في أرض المعركة⁽³⁾.

ثالثاً: الفتن الطائفية.

على الرغم من روح الوفاق والتعايش التي كانت سائدة بين جميع الطوائف - المسلمين والنصارى واليهود- في مصر، إلا أن هذه الحال لم تكن هي السائدة على الدوام في العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة، فالواقع أن حوادث المشاحنات بين الفريقين قد حدثت في بعض الأحيان، وكان من نتيجة بعضها حدوث بعض الحرائق⁽⁴⁾.

النصارى واليهود يحرقون القاهرة عام (663هـ/1265م):

ومنها في شهر (جمادى الآخر 663هـ/ مارس) آذار (1265م)⁽⁵⁾، كثر الحريق في القاهرة، واحترقت حارة الباطنية فاحترق فيها ثلاث وستون داراً، كما احترق ربع فرج وربع العادل، ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة، ووجدت لفائف نبط وكبريت على أسطح بعض الدور⁽⁶⁾، فاتهم في ذلك النصارى واليهود⁽⁷⁾، فأمر السلطان بجمعهم، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم، فجمع منهم الكثير في القلعة، وأحضرت

وجاء الخبر بمقتل قانصوه بطلب، فاتفق الأمراء على تولية طومان باي، فبويع بالقاهرة عام 922هـ/1516م؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص102-103.

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص352.

(2) المكي: سمط النجوم، ج4، ص67.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور، ج5، ص155؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص352.

(4) المقرئزي: السلوك، ج2، ص495؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص165؛ عبده، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص101.

(5) اليونيني: ذيل، ج1، ص279.

(6) اليونيني: ذيل، ج1، ص279؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج49، ص17؛ ابن شاعر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص249؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص25.

(7) اليونيني: ذيل، ج1، ص279؛ ابن شاعر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص250؛ ابن كثير: البداية، ج13، ص245؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص313.

الأحطاب والحلفاء، وأمر بإلقائهم في النار، فطلبوا العفو، فشفع فيهم بعض الأمراء، على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار، فأفرج عنهم السلطان، والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات، ولا يخرجوا عما هو مترتب على أهل الذمة، وأطلقوا⁽¹⁾.

الفتنة الكبرى بين المسلمين والنصارى عام (721هـ/1321م):

وفي عام (721هـ/1321م) عانت مصر من فتنة طائفية كبيرة بين المسلمين والنصارى، وكان الحرق المتبادل بين الفريقين هو الحدث الأكثر بروزاً في هذه الفتنة، مما أدى إلى حرق وإتلاف الكثير من الممتلكات والمباني، وإلحاق ضرر عظيم بحياة الناس في ذلك الوقت⁽²⁾.

وكانت بداية تلك الفتنة عندما عزم السلطان الناصر محمد بن قلاوون⁽³⁾ على إنشاء الزريبة بجوار جامع الطيرسي على النيل، واحتاج إلى طين كثير فنزل بنفسه وعين مكاناً من أرض بستان الزهري قريباً من ميدان المهارة ليأخذ منه الطين ولينشئ في هذا المكان بركة⁽⁴⁾، وابتدأ الأمراء في الحفر يوم الثلاثاء (19 ربيع الأول 721هـ/ 18 أبريل نيسان) 1321م ورفعوا الطين على بغالهم ودوابهم إلى شاطئ النيل حيث عمل الزريبة، فلم يزل الحفر مستمراً إلى أن قرب من كنيسة الزهري وأحاط بها الحفر من حولها وصارت في الوسط بحيث تمنع من اتساع البركة، فعرف الأمير أقسنقر شاد العمائر السلطان بذلك فأمره أن يبالح في الحفر حولها حتى تتعلق وإذا دخل الليل فيدع الأمراء تهدمها ويشيع أنها سقطت على غفلة منهم فاعتمد الحفر

(1) اليونيني: ذيل، ج1، ص279؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج49، ص17؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص250؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص25.

(2) لمزيد من التفاصيل، الذهبي: من ذبول العبر، ص116؛ ابن الوردی: تاریخ، ج2، ص262، 263؛ الیافعی: مرآة الجنان، ج4، ص260؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص36-45؛ العيني: عقد الجمان، ص106؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص63-72؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص315.

(3) الناصر محمد بن قلاوون: محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي أبو الفتح، من كبار ملوك الدولة المملوكية، له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال، كانت إقامته في طفولته بدمشق، وولي سلطنة مصر والشام عام 693هـ/1294م وهو صبي، وتوفي عام 741هـ/1341م؛ ابن تغري بردي: مورد، ج2، ص45-47.

(4) ابن الوردی: تاریخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص36.

فيما حولها وكنتم ما يريده وصارت غلمان الأمراء تصرخ وتريد هدم الكنيسة وأقسنقر يمنعم من ذلك⁽¹⁾، وهنا يظهر حرص السلطان على عدم حدوث أي مشكلة تؤدي إلى الاضطرابات.

لكن الأمر خرج عن سيطرة السلطان، وقامت العامة بهدم ونهب الكنيسة، وانتقلوا إلى كنائس أخرى في القاهرة بالنهب والحرق، قد ظن بعض العامة أن ذلك بأمر السلطان، وقد كان السلطان والأمراء في ذلك الوقت في صلاة الجمعة في الجامع الأزهر يوم (9 ربيع الآخر 721/ 8 مايو (أيار) 1321م) وفي نهاية الصلاة خرج رجل مجذوب يصرخ في الناس بهدم الكنائس، وتعجب السلطان والأمراء من فعل هذا الرجل، وأمر الأمراء بإحضار هذا الرجل إلا أنهم لم يجده، وعندما خرج الناس من الجامع رأوا الغبار ودخان الحريق ارتفع إلى السماء، والعامة في الطرقات ومعها ما سلب ونهب من الكنائس⁽²⁾.

وعندما علم السلطان بما حدث غضب غضباً شديداً على العامة والأمراء، وأمر الأمراء بكف العامة عن الكنائس وحمايتها، والقبض على من تورط في تلك الأحداث وعقابهم، إلا أن اضطراب العامة كان كبيراً ووجد الأمراء صعوبة في السيطرة على تلك الفوضى، والغريب في الأمر أن حرق الكنائس وهدمها لم يكن في القاهرة فقط بل كان في نفس التوقيت في الإسكندرية و دمنهور⁽³⁾ والصعيد والوجه البحري حتى بلغ عدد الكنائس المنهوبة والمحترقة ستون كنيسة، مما جعل السلطان يشد غضبه ويزيد البطش في العامة فهرب منهم الكثير⁽⁴⁾.

ولعل اتفاق توقيت حرق وهدم الكنائس في وقت واحد يدل على وجود أحد يسعى لفساد الأمور في مصر، قد يكون الفاعل أحد الأمراء من الداخل بهدف إسقاط السلطان الناصر، وهو ممكن في ظل المنافسة الدائمة بين المماليك للوصول للحكم، وخاصة أن الناصر نفسه كان قد أقيل مرتين من قبل، أو تكون قوى خارجية تسعى لزعزعة الاستقرار الداخلي في البلاد لإضعافها، خاصة أن هناك قوى خارجية مثل القبارصة وبعض القوى الأوربية والمغول تسعى لتقليص نفوذ المماليك وتحكمهم في طرق التجارة الدولية، بالإضافة لما سبق لا نستطيع أن نغفل وجود حالة من النعمة لدى بعض المسلمين على النصارى، لما يحدث للمسلمين من أضرار من هجمات النصارى في أوروبا على بلادهم، وتعاطف بعض النصارى المحليين مع أفعالهم ضد بلاد المسلمين.

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص37.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص37.

(3) دمنهور: بلدة بينها وبين الإسكندرية يوم واحد في طريق القاهرة متوسطة في الصغر والكبر؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص472.

(4) المقرئزي: السلوك، ج3، ص37-39.

على أن الفتنة لم تنته بتلك الأحداث، بل كان يوم السبت (15 جمادى الأولى 721هـ/12 يونيو (حزيران) 1321م) بداية لعدد كبير من الحرائق في مصر⁽¹⁾، جاءت كَرَدَ فعل من النصارى على هدم وحرق كنائسهم، حيث بدأ بحريق في ريع أوقاف المارستان المنصوري بالقاهرة، ثم في اليوم التالي بحريق في حارة الديلم بزقاق العريسة، ودخل الليل واشتد هبوب الرياح، فسرت النار في عدة أماكن⁽²⁾.

وبعث السلطان عدد من الأمراء والمماليك لإطفائه خوفاً على الحواصل السلطانية ثم تفاقم الأمر، واحتاج أقسنقر شاد العمائر إلى جمع سائر السائقين والأمراء، ونزلت الحجاب وغيرهم، والنار تعظم طول نهار الأحد، وياتوا على ذلك، وأصبحوا يوم الإثنين والنار تتلف ما تمر به، والهدّ واقع في الدور التي تجاور الحريق خشية من تَعَلُّق النار فيها وسريانها في جميع دور القاهرة، فلما كانت ليلة الثلاثاء خرج أمر الحريق عن القدرة البشرية، وخرجت ريح عاصفة ألقت النخيل وغرقت المراكب، ونشرت النار، فنزل النائب بسائر الأمراء وجميع مَنْ في القلعة وجميع أهل القاهرة، ونقل الماء على جمال الأمراء، ومنعت أبواب القاهرة أن يخرج منها سقاء، ونقلت المياه من المدارس والحمامات والآبار، وجمع سائر البنائين والنجارين، فهدت الدور من أسفلها والنار تحرق في سقوفها، وعمل الأمراء الألوف وعدتهم أربعة وعشرون أميراً بأنفسهم على إطفاء الحريق؛ حيث صار من باب زويلة إلى حارة الروم بحراً، ثم خمدت النار وعاد الأمراء⁽³⁾.

فوق الصياح في ليلة الأربعاء (19 جمادى الأولى 721هـ/16 يونيو (حزيران) 1321م) بوقوع حريق بريع الملك الظاهر خارج باب زويلة وبقيسارية الفقراء، وهبت الرياح مع ذلك، فركب الحجاب والوالي وعملوا على أطفائها إلى بعد الظهر من يوم الأربعاء وهدموا دوراً كثيرة مما حوله، فما كاد أن يفرغ العمل من إطفاء النار حتى وقعت النار في بيت الأمير سلار بخط القصرين، فأقبلوا إليه وإذا بالنار ابتدأت من أعلاه وكان ارتفاعه من الأرض زيادة على مائة ذراع ورأوا فيه نفضاً قد عمل فيه فتيلة كبيرة، فما زالوا بالنار حتى أطفئت، من غير أن يكون لها

(1) الذهبي: من ذبول العبر، ص116؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ الياضي: مرآة الجنان، ج4، ص260؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص39؛ العيني: عقد الجمان، ص106؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص63.

(2) المقرئ: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64.

(3) المقرئ: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64-66.

أثر كبير، فلما كانت ليلة الخميس وقع الحريق بحارة الروم وبخارج القاهرة، وتمادى الحال كذلك، ولا تخلو ساعة من وقوع حريق بموضع من القاهرة ومصر⁽¹⁾.

وشاع بين الناس أن الحريق من جهة النصارى لما أنكاهم هدم الكنائس ونهبها⁽²⁾، وصارت النيران توجد تارة في منابر الجوامع وتارة في حيطان المدارس والمساجد⁽³⁾، ووجدت النار بالمدرسة المنصورية⁽⁴⁾، فزاد قلق الناس وكثر خوفهم، وزاد استعدادهم بادخار الآلات المملوءة ماء في أسطحة الدور وغيرها، وأكثر ما كانت النار توجد في العلو، ويوجد النفط قد لف في الخرق، المبللة بالزيت والقطران⁽⁵⁾.

وفي يوم الجمعة (21 جمادى الأولى 721هـ/18 يونيو/حزيران) 1321م) قبض على زَاهِيَيْنِ خَرَجَا من المدرسة الكهارية بالقاهرة، وقد أرميا النار، وأحضرا إلى والي القاهرة فشم منهما رائحة الكبريت والزيت، فأحضرهما من الغد إلى السلطان، فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا، فلما نزل الوالي بهما وجد العامة قد قبضت على نصراني من داخل باب جامع الظاهر بالحسينية، ومعه كعكة خرق بها نפט وقطران، وقد وضعها بجانب المنبر، فلما فاح الدخان وأنكروه وجد النصراني وهو خارج والأثر في يديه، فعوقب قبل صاحبيه، فاعترف النصراني أن جماعة من النصارى قد اجتمعوا وعملوا النفط⁽⁶⁾، وفرقوه على جماعة ليدوروا به على المواضع نكاية في المسلمين⁽⁷⁾.

وأمر السلطان بعقاب جميع النصارى المتسببين في تلك الأحداث⁽⁸⁾ رغم شفاعة بعض كبار النصارى فيهم، حتى أنه أحرق أربعة من الرهبان في حفرة أمام الناس، كما اشتدت العامة على النصارى وأهانوهم، وأحرق اثنان آخران في الميدان لما فعلوه من حرائق، ورغم كل تلك

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص66، 67.

(2) من ذيول العبر، ص116؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ العيني:

عقد الجمان، ص106؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص315.

(3) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(4) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41.

(5) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(6) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67-68.

(7) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68.

(8) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص42؛ العيني: عقد الجمان، ص106؛ ابن

تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص315.

العقوبات إلا أن العامة بقيت في حالة ثورة وهياج، حتى اضطر السلطان أن يقبض على بعضهم لوقف تلك الفوضى⁽¹⁾.

وبالرغم من العقوبات الشديدة من السلطان ضد من أشعلوا الحرائق، إلا أن الحريق استمر، حيث احترقت أماكن عدة بجوار جامع ابن طولون، وفي القلعة وفي بيت الأحمدى بحارة بهاء الدين من القاهرة، وبنفق طرنطاي خارج باب البحر⁽²⁾، فدهش السلطان، وقبض فيه على ثلاثة نصارى معهم فتائل النفط، اعترفوا أنهم فعلوا ذلك، مما أدى لزيادة التشديد على النصارى وتميزهم في الزي والمعاملة، وعوقب بعض الرهبان بالتسمير بعد ان اعترفوا بتمويل تلك الحرائق، لتنتهي تلك الفتنة بخسارة كبيرة في الأرواح والممتلكات والتضييق على النصارى في معاشهم لمدة من الزمن⁽³⁾.

فتن بين المسلمين والنصارى في الإسكندرية والأقاليم:

وفي فتنة أخرى وقعت يوم الجمعة (7 رجب 727هـ / 29 مايو (أيار) 1327م) شهدت مدينة الإسكندرية عدة حرائق⁽⁴⁾، بسبب مخاصمة وقعت بين رجل من المسلمين وآخر من الفرنج النصارى ووقع بينهما ضرب بالنعال⁽⁵⁾، فرفع الأمر إلى الوالي الذي أمر بغلق أبواب المدينة خوفاً من حدوث فتنة، فتعطلت مصالح الناس وحجز كثير منهم خارج الأبواب، ظلوا كذلك حتى الليل عندما احتج الناس وطالبوا بفتح الأبواب، فأمر الوالي بفتحها فحدث زحام كبير من الناس فقتل منهم عدد ونهب الكثير، فثارت الناس على الوالي وحرقت باب السجن وأخرجت عدداً من المحبوسين⁽⁶⁾، كما حرقت دار الوالي وبعض الدور لظلمه في المدينة⁽⁷⁾، وباب السلطان ويعرف بباب اليهود⁽⁸⁾، وكثر النهب والفساد في المدينة، ولم تهدأ الأوضاع إلا بتدخل السلطان وعزل الوالي والقاضي في المدينة⁽⁹⁾.

(1) المقرئبي: السلوك، ج3، ص42-43؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68-69.

(2) المقرئبي: السلوك، ج3، ص44؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص70؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص315.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص99؛ المقرئبي: السلوك، ج3، ص44-45.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص128.

(5) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص272؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص128.

(6) الذهبي: من ذيل العبر، ص150؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص128.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص128.

(8) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص272.

(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص128.

وفي عام (754هـ/1353م) نشب خلاف بين المسلمين والنصارى في أحد الأقاليم ناحية النحريرية، بسبب شخص نصراني ادعى بعضهم أن جده كان مسلماً وحبسه القاضي على اعتبار أنه يعد مرتداً عن الإسلام، ولكن النصارى في البلد لجأوا إلى الوالي الذي أمر بإطلاق سراح السجين ليلاً، فهاجت مشاعر عامة المسلمين وساندوا القاضي ضد الوالي، وقاموا بطرد الوالي وأعوانه، وهدموا الكنيسة وأحرقوا ما بها من الصلبان والتماثيل، ونبشوا قبور النصارى وأحرقوا رممهم، مما استدعى تدخل السلطان أيضاً للسيطرة على الفتنة، وقام بعزل كل من الوالي والقاضي في البلدة⁽¹⁾.

رابعاً: أسباب أخرى للحرائق.

بالإضافة للحرائق السابقة فقد حدثت في مصر عدد من الحرائق لأسباب أخرى مختلفة ومنها.

الحاكم بأمر الله يحرق الفسطاط:

الحاكم بأمر الله من الشخصيات التي اختلفت فيها آراء المؤرخين، ومن كلامهم نفهم أنه كان شاذاً في تصرفاته، وأنه جمع بين صفات متضاربة متناقضة، أي أن شخصيته لا يمكن أن تقاس بمقياس منطقي معقول، تجعل من الصعب معرفة الأسباب والمسببات التي دفعت الحاكم إلى اتباع هذه السياسة المتقلبة⁽²⁾.

فقد كان الحاكم سفاكاً للدماء حاد المزاج، قتل الكثير من الناس خاصة الأعيان ورجال الدولة، وسنكتفي هنا بعرض من قتلهم حرقاً أو حرق جثثهم بعد موتهم، في (محرم 393هـ/فبراير (شباط) 1002م) قتل أبا علي الحسن بن عسلوج وأحرقه، وكان من أكابر المباشرين لشؤون المال⁽³⁾، وفي (جمادى الأولى 393هـ/مارس (آذار) 1003م) قتل وزيره فهد بن إبراهيم النصراني وأحرقه، ثم قتل أخاه أبا غالب وأحرقه، وفي شعبان من العام نفسه قتل وزيره الجديد أبا الحسن علي بن عمر العداس وأحرقه، وفي العام نفسه قتل مجموعة من فتيان كتامة وأولاد المغزلي وابن خريطة وأولاد أبي الفضل ابن الفرات وأحرقهم جميعاً بالنار⁽⁴⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج4، ص184-185؛ عبده، قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص101.

(2) العبادي، احمد: في التاريخ، ص284.

(3) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج2، ص46؛ عنان، محمد: الحاكم، ص107.

(4) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج2، ص47؛ عنان، محمد: الحاكم، ص107.

وفي (محرم 395هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1004م) قتل القاضي الحسين بن النعمان وأحرق جثته، وكان أول قاضٍ يقتل وتحرق جثته⁽¹⁾، وقد شغل منصب القضاء خمس سنوات وكان مقرباً من الحاكم ويتمتع بعطفه وثقته، إلا أنه انقلب عليه بعد اختلاسه أموال الناس بغير حق⁽²⁾، وفي الشهر نفسه قتل الحاكم أبا قاسم الشاعر⁽³⁾ وأبا الطاهر المغازلي ومؤذن القصر، وأحرق جثث الثلاثة عند باب الفتوح⁽⁴⁾، وفي (396هـ/1005م) قام بقتل جماعة من بني قرّة وأحرقهم بالنار لفسادهم فبادر بنو قرّة وكانوا في أعمال برقة فأجابوه وانقادوا له وبايعوه⁽⁵⁾، وفي عام (405هـ/1014م) أمر الحاكم بحرق امرأة زانية، ويبدو أنه حرقها حية، وذلك لأنها تجرأت على خداع القاضي وخرجت إلى عشيقها، في وقت كان فيه الحاكم يضيق على النساء ويمنع خروجهن من البيوت⁽⁶⁾.

لم يقتصر الحاكم فقط على حرق البشر، بل امتد إلى كل شيء لأسباب مختلفة، فنجده في عام (395هـ/1004م) أمر بإحراق الشونة⁽⁷⁾، احتفالاً بمولده الجديد، ولكي يستمتع بمنظر النيران وهي ترتفع⁽⁸⁾، وفي شهر (رجب 398هـ/مارس (آذار) 1008م) منع النصاري من الاحتفال بعيد الشعانيين وقام بجمع صلبان كثيرة وحرقها⁽⁹⁾، وفي عام (402هـ/1011م) جمع كميات كبيرة من الرطب والزبيب وقام بحرقها⁽¹⁰⁾، واستمرت عملية الحرق أياماً لكثرة الموجود⁽¹¹⁾، وذلك لأنه منع بيع العديد من المأكولات ومنها الرطب والعنب⁽¹²⁾، كما قام في

(1) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص49.

(2) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص59؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الاصر، ج1، ص142؛ عنان، محمد: الحاكم، ص109.

(3) ابن خلكان: وفيات، ج7، ص35.

(4) ابن حجر العسقلاني: رفع الاصر، ج1، ص142.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص73؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص60.

(6) ابن حجر العسقلاني: رفع الاصر، ج1، ص319-320.

(7) الشونة: مخزن الغلة، واحد أنواع المراكب المعدة للحرب والقتال، والجمع الشواني ؛ مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ج35، ص298؛ إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ص501.

(8) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص55؛ عنان، محمد: الحاكم، ص128.

(9) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص71.

(10) الذهبي: العبر، ج3، ص107؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص90.

(11) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص90.

(12) الذهبي: العبر، ج3، ص107؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص90.

العام نفسه بجمع الشطرنج من أماكن متعددة وأحرق⁽¹⁾، كما قام بحرق حارة الجودية على أهلها من اليهود، وذلك لأنهم كانوا يجتمعون بها ويسخرون من المسلمين⁽²⁾.

وفي يوم الثلاثاء (28 شوال 411هـ/14 فبراير) شباط 1021م) قام الحاكم بأعرج حرقه، حيث أمر العبيد بنهب وحرق الفسطاط، لأن أهل الفسطاط عملوا تمثال امرأة من قراطيس بخف وأزوار ونصبوها في طريقه، وتركوا في يدها ورقة⁽³⁾، فلما رآها ظن أنها امرأة تشتكي فأمر بأخذ الورقة⁽⁴⁾، ففتحها فرأى في أولها ما استعظمه⁽⁵⁾ وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة وذكر حرمه بما يكره⁽⁶⁾، فأمر بطلب المرأة فقبل إنها من قراطيس، فأمر طوائف العبيد بمهاجمة المدينة، انتقاماً من أهل الفسطاط، فقام العبيد بعمليات سلب وحرق واغتصاب وقتل كثيرة⁽⁷⁾.

وتصدى أهل الفسطاط للعبيد، وقاوموا إلى أقصى درجات المقاومة مدافعين عن مدينتهم، ولم يلبث المشاركة والأترك أن أخذوا جانب أهالي الفسطاط وحاربوا معهم ضد العبيد لإيقاف الصراع الدائر، واستسمحوا الحاكم في إنهاء عمليات السلب والحرق لأن أموالهم وأولادهم وعقاراتهم موجودة في الفسطاط، ولكن الحاكم لم يستجب إليهم⁽⁸⁾، بل بدا عليه الانبهار بمنظر المدينة التي تحترق⁽⁹⁾، ولم يصدر أوامره بوقف هذه المأساة إلا بعد أن احترق من الفسطاط مقدار ثلثها ونهب نصفها⁽¹⁰⁾، وبعد أن هدد المشاركة والأترك بحرق القاهرة نفسها⁽¹¹⁾.

العقاب بالحرق:

استخدم الحكام وأصحاب القوى من الملوك والأمراء، أسلوب حرق جنث الموتى أو حرق الأحياء، كنوع من التعذيب والتكيل بالشخص في حياته وحتى بعد موته، وذلك لعدة أمور

(1) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج2، ص90.

(2) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص 54-55؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص402.

(3) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص139؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص128.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص128.

(5) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص139؛ الذهبي: سير، ج15، ص180.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص128.

(7) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص139-140؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج28، ص237-238.

(8) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص139-140؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص128؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج28، ص237-238.

(9) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص140.

(10) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص140؛ الذهبي: سير، ج15، ص181.

(11) ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص140؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص128؛ الذهبي: سير، ج15، ص181.

منها الانتقام وإشفاء الغليل أو العقوبة على جريمة كبيرة مثل الخيانة، أو الجزاء من جنس العمل كما تم حرق الرهبان أحياءً في فتنة عام (721هـ/1320م) التي ذكرناها سابقاً⁽¹⁾، لذلك فقد تعددت الأسباب لمثل هذا الفعل المريع وسنذكر ما ورد في كتب المؤرخين من ذلك الفعل.

أول ما ذكره المؤرخون لهذا الأسلوب من العقوبة في مدة الدراسة، هو ما قام به الحاكم بأمر الله من حرق جثث خصومه، وقد ذكرناه سابقاً بالتفصيل⁽²⁾، ومن بعده ابنه الظاهر⁽³⁾ الذي قام بحرق جثث الجوّاري للتخلص من تلك الجثث لكثرتها، وذلك أنه في يوم الجمعة (6 شوال 423هـ/15 سبتمبر (أيلول) 1032م) قام بجمع جميع الجوّاري في القصر، وطلب من الناس إحضار ما عندهم من جوّاري، ليصنع بهم يوماً حسناً لم ير مثله بمصر، فجمع جميع الجوّاري وهن مزيّنات بالحلي والحلل في المجلس، وكان عددهن ألفان وستمائة وستون جارية، وأمر البنائين ببناء أبواب المجلس عليهن، حتى متن عن آخرهن، وبعد ستة أشهر قام بحرق الجثث وما عليها من ثياب وحلي⁽⁴⁾، ومن المفهوم هنا أن حرق الجثث كان للتخلص منها لكثرة عددها، لكن الغريب والمستهجن هو قتلهن بتلك الطريقة البشعة⁽⁵⁾.

وفي عام (555هـ/1160م) قتل نصر بن عباس وصلب ثم أحرقت جثته انتقاماً، وذلك لأنه قتل الخليفة الفاطمي الظاهر⁽⁶⁾، وفي يوم (25 محرم 693هـ/26 ديسمبر (كانون الأول) 1293م) قام المماليك الأشرفية بقتل سيف الدين بهادر وجمال الدين أقوش الموصلية، ثم أخذوا جثتيهما وأحرقوهما في قمين جبر، انتقاماً منهما لقتلهم الأشرف قلاوون⁽⁷⁾، وفي عام (745هـ/1353م) قدم من الطور أحد النصارى وشكك في دين الإسلام، حيث ادعى أن لا دين

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص42-43؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68-69.

(2) راجع ص43.

(3) الظاهر: (395 - 427 هـ = 1005 - 1036 م)، علي الظاهر لإعزاز دين الله ابن منصور الحاكم بأمر الله ابن العزيز ابن المعز الفاطمي العبيدي، من ملوك الدولة الفاطمية، كانت له مصر والشام، ولي بعد وفاة أبيه عام 411هـ/1020م، واضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية في أيامه، توفي في القاهرة عام 427هـ/1036م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج15، ص184-185.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، ص309.

(5) الحادثة غريبه ولم تذكر إلا عند السيوطي، بالإضافة إلى أن شخصية الظاهر كانت معتدلة وليست مثل أبيه دموية ومنقلبه.

(6) البيهقي: مرآة الجنان، ج3، ص308؛ خليل، محمد: الاغتياالات، ص107.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص22.

إلا دين النصارى، فحاول القاضي تاج الدين المناوي أن يرجعه عن أقواله فأمر بضربه، لكنه أصر على موقفه، وعندما أبى الرجوع أفتى بقتله وأحرق جثمانه⁽¹⁾.

لم يقتصر الحرق على الأمراء والمتمردين فقط بل شمل بعض أصحاب الجنايات الكبيرة، ففي عام (1369هـ/771م) تم تسمير ساحر نصراني ثم حرقه، وذلك لأنه قام بسحر زوجة السلطان فماتت بسحره⁽²⁾، وفي عام (1379هـ/781م) قام رجل من الفرنجة بقتل شخص أمام الأمير بركة بسبب خصومة على مال، فقتله في موقف الدعوى بحضرة الناس ولم يخش العقوبة، فأمسك وسمر وقطعت يداه ورجلاه وأحرق خارج القاهرة⁽³⁾، وفي شهر (رمضان 818هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) 1415م) أخذ رجل سكران وهو يشرب الخمر في نهار رمضان، فأقيم عليه الحد وطيف به، فثار به العامة فقتلوه ثم أججوا ناراً فألقوه فيها حتى مات حريقاً⁽⁴⁾، وفي يوم السبت (6 شعبان 820هـ/ 18 سبتمبر (أيلول) 1417م) أمسك بنصراني زنا بامرأة مسلمة واعترافاً، فَرَجِمًا خارج باب الشعرية، وأحرق العامة النصراني ودفنت المرأة⁽⁵⁾، ونلاحظ هنا قيام العامة وليس السلطة الحاكمة في بعض الحالات بحرق المذنب انتقاماً منه على فعلته، ويبدو أن ذلك يحدث برضا السلطة وإلا كانت أوقفت العامة.

وفي العام نفسه يوم الأحد (22 ذي الحجة 820هـ/ 29 يناير (كانون الثاني) 1418م) ثار أهل دمياط على الوالي، بسبب ظلمه وأخذ الأموال والنساء والأولاد بغير حق، فقاموا عليه وقتلوه ثم سحبوه وأحرقوه بالنار انتقاماً منه لكثرة ظلمه لهم⁽⁶⁾.

وفي شهر (ربيع الآخر 843هـ/سبتمبر (أيلول) 1439م) ادعى جماعة من المجاهدين ومن انضم إليهم من أهل دمياط على شخص نصراني، أن النصراني كان سبباً في قتل عدد من المجاهدين، وأنه كاتب الفرنج بقضيتهم حتى استعدوا لهم ودلّ على عوراتهم، وأقيمت بذلك البيينة عند بعض نواب الحكم بدمياط مالكي المذهب، وثبت ذلك عليه فحكم بقتله وأمر بسجنه ليراجع السلطان، فاجتمع عليه جمع لا يحصون كثرة فنزعه من أيدي أعوان الحكم وحملوه إلى ظاهر البلد فقتلوه بين الكنائس وحرقوه، ومدوا أيديهم إلى الكنائس فهدموها ونهبوا ما فيها، ونرى هنا أن

(1) المقرئزي: السلوك، ج4، ص180-181؛ باحويرث، سماح: الأثر، ص224.

(2) المقرئزي: السلوك، ج4، ص335.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص80.

(4) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7 ص184.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص447؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7 ص275؛ ابن تغري بردي:

النجوم الزاهرة، ج14، ص57.

(6) المقرئزي: السلوك، ج6، ص455؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7 ص279.

قتل النصراني وحرقه لم يتم بأمر السلطان بل تسرع العامة وفعلوا ذلك به، مما دعا السلطان إلى إرسال مجموعة من المماليك لتأديب من فعل ذلك⁽¹⁾.

الظواهر الطبيعية:

لعبت الظواهر الطبيعية دوراً في إشعال بعض الحرائق في مصر، بسبب الصواعق⁽²⁾ أو الحرارة الشديدة أو العواصف، ومنها في عام(563هـ/1141م) أصابت صاعقة الجامع العتيق بمدينة الفسطاط فأحرقت جزءاً من منذنته⁽³⁾، وفي يوم عرفة (9 ذي الحجة 679هـ/1 ابريل/نيسان) 1281م) وقعت صاعقة على الجبل الأحمر فأدت إلى احتراق حجر كبير، فأخذ ذلك الحجر وسبك واستخرج منه الحديد⁽⁴⁾.

وفي عام (716هـ/1316م) حدثت عاصفة شديدة بمصر ضربت أسوان وأسنا⁽⁵⁾ وأرمنت⁽⁶⁾، وصاحب هذه العاصفة حدوث حريق في بعض المناطق الزراعية⁽⁷⁾، وفي عام (745هـ/1344م) جاءت حرارة شديدة أدت إلى تطاير الشرر وحرق الأشجار، ومن كثرة ما حرق لجأ الناس إلى الدعاء ليخفف الله عنهم هذا⁽⁸⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج7، ص439-440؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9 ص101-102.
(2) الصواعق: جمع صاعقة، وهي ظاهرة جوية كهربائية، وتُعد من الظواهر الكثيرة الحدوث في أرجاء الأرض كافة، ما عدا المناطق القطبية، والرعد الذي نسمعه ما هو إلا نتاج تفريغ الشرارات الكهربائية التي تُعرف بالبرق، وإذا كانت العاصفة الرعدية مؤشراً على حدوث اضطراب في الجو، فإنها بشير هطول أمطار وفيرة، غير أنها تحمل في طياتها مصادر خطر تتمثل في بعض التفريغات الكهربائية نحو سطح الأرض - الصاعقة - التي تؤدي إلى حرائق وخسائر بشرية ومادية، والبروزات فوق سطح الأرض هي الأكثر تعرضاً للصاعقة، بناءً من منزل، شجرة منفردة، مكان أثري مرتفع؛ موسى، علي: الجو وتقلباته، ص120-122؛ صلاح، محمد: الكوارث، ص25.

(3) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص176؛ صلاح، محمد: الكوارث، ص282.

(4) العيني: عقد الجمان، ص175.

(5) إسنا: مدينة بأقصى الصعيد وليس وراءها إلا أدفو وأسوان ثم بلاد النوبة وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص189.

(6) أرمنت: كورة بصعيد مصر بينها وبين قوص في سمت الجنوب مرحلتان (المرحلة = 44,520 متر؛ جمعه، علي: المكايل، ص85) ومنها إلى مدينة أسوان مرحلتان؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص158-159.

(7) المقرئزي: السلوك، ج2، ص516.

(8) المصدر نفسه، ج3، ص421.

وفي ليلة الأحد (29 جماد الآخر 774هـ/26 ديسمبر (كانون الأول) 1372م) وقعت صاعقة على قلعة الجبل بالقاهرة أدت إلى حريق كبير استمر لعدة أيام⁽¹⁾، واحترقت فيه الكثير من الدور السلطانية⁽²⁾.

وفي ليلة الإثنين (15 رمضان 778هـ/5 مايو (أيار) 1376م) أصابت صاعقة حاصل مدرسة السلطان تحت القلعة بالقاهرة، فاحترقت وأصابها التلف وخاصة آلات البناء حيث كانت تحت الإنشاء⁽³⁾.

الخطأ والإهمال:

من الشائع حدوث الحرائق نتيجة الأخطاء البشرية والإهمال، لكن لم تأت المصادر بالكثير عن هذه الحرائق وتركت أكثرها بدون توضيح السبب، ومما ذكر في المصادر عن هذه الحرائق، في شهر (رمضان 704هـ/مارس (آذار) 1305م) وقع حريق في دار أبي بكر ابن عثمان الشويكي، حيث كان يتبخر بمجمرة⁽⁴⁾ فغفل عنها فاحترق ومات نتيجة الحريق⁽⁵⁾. وفي عام (732هـ/1331م) احترق عيسى بن محب النابلسي⁽⁶⁾ ومات، بعد أن اشتعلت النار من طوافة كانت في يده عندما نعس ونام⁽⁷⁾.

وفي يوم (11 محرم 913هـ/23 مايو (أيار) 1507م) وقع حريق كبير في مركب يحمل كتان على شاطئ النيل، وامتد إلى شونة ومعصرة قصب قريبة من المركب، وكان سبب الحريق أن امرأة طبخت على شاطئ النيل فطارت منها شرارة فتعلقت بالمركب واحترق⁽⁸⁾.

وفي شهر (ربيع الآخر 919هـ/يونيو (حزيران) 1513م) وقع حريق كبير في الزردخاناه بالقلعة، وارتفاع الدخان بشكل كثيف في السماء، وكان سبب الحريق دخول عدد من صناع البارود إلى الزردخاناه، وأثناء عملهم في البارود أصابت النار سقف الزردخاناه وانتشرت

(1) المقرئزي: السلوك، ج4، ص352؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص317، صلاح، محمد: الكوارث، ص288.

(2) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص39.

(3) المقرئزي: السلوك، ج5، ص7.

(4) مجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص391.

(5) ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج1، ص535.

(6) عيسى بن محب النابلسي: شرف الدين الناسخ قدم القاهرة وكتب الخط المنسوب واتخذ التزوير صناعة؛ ابن

حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص245.

(7) ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص245.

(8) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص114.

النار فيها كلها واحترق عدد من الصانع وماتوا نتيجة الحروق⁽¹⁾، وبعده بعام في شهر (صفر 920هـ/مارس (آذار) 1514م) احترق عشرون من صناع البارود أيضاً وهم يعملون على مركب، حيث احترق المركب بهم نتيجة اشتعال النار في البارود⁽²⁾.

محاوية الفساد والبدع:

لجأ الحكام والأمراء إلى حرق بعض الأشياء والأماكن لمحاوية الفساد، ففي عام (724هـ/1323م) قام والي القاهرة بحرق الحشيش، فكان يقوم بحرق كميات منه على مدار شهر بشكل يومي عند باب زويلة للتخلص من تلك المادة المخدرة⁽³⁾.

وفي عام (747هـ/1346م) انتشرت على النيل في منطقة بولاق أخصاص صنعت من الرخام ودهنت بالدهان الجميل وحول كل خص الأزهار والرياحين، كانت تلك الأخصاص مكاناً للفساد وتجمع البغايا والمسكرات، فلما زاد أمرها قام الأمير أرغون العلاني⁽⁴⁾ بحرق هذه الأخصاص وضرب أصحابها⁽⁵⁾.

وفي شهر (رجب 755هـ/ يوليو (تموز) 1354م) قام السلطان بإحراق صندوق أصبع الشهيد، وهو صندوق مشهور عند النصارى، حيث يجتمع النصارى كل عام من أنحاء البلاد ويقومون بإلقاء أصبع الشهيد في النيل حتى يفيض، فقام السلطان بحرق ذلك الصندوق حتى يقضي على تلك البدعة⁽⁶⁾.

وفي يوم الجمعة (7 جمادى الأولى 819هـ/3 يوليو (تموز) 1416م) قام الأمير سوده بحرق الأخصاص التي على شاطئ النيل وطرد الناس ومنعهم من الاجتماع هناك، لما أظهره فيها من المنكرات والمسكرات واختلاط النساء بالرجال⁽⁷⁾.

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص314.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص366.

(3) ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص285.

(4) أرغون العلاني: من ممالك الناصر محمد بن قلاوون تنقل إلى أن استقر رأس نوبة الجمدارية عنده ثم تزوج أم الملك الصالح إسماعيل، فلما ولي السلطنة إسماعيل صار هو أكبر الأمراء ومدبر الممالك ثم اعتقل في دولة المظفر حاجي بالإسكندرية، وقتل عام 748هـ/1347م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص419-420.

(5) المقرئ: السلوك، ج4، ص26.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص204.

(7) المصدر نفسه، ج6، ص413.

وفي شهر (ربيع الآخر 831هـ/يناير(كانون الثاني) 1428م) أمر السلطان الأشرف برسباي بحرق كميات كبيرة من الحشيش في القاهرة وجميع المدن المصرية وكان أكثره بدمياط⁽¹⁾، كما أمر بمنع زراعته⁽²⁾، واستمرت عملية التخلص منه وحرقه في السنة التالية أيضاً⁽³⁾.

وفي شهر (شوال 910هـ/مارس(آذار) 1505م) أمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري بحرق أماكن الحشيش والبوزة بالقاهرة، بعد تفشي الأمراض في المدينة، فقام الوالي بحرق كل تلك الأماكن⁽⁴⁾.

ثورات العريان:

وجدت في مصر في العصور الوسطى قبائل عديدة من العريان وهؤلاء انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد، وكانوا مصدر متاعب لدولة المماليك، حيث كانوا مصدرًا لمتاعب سياسية في بداية دولة المماليك، لعدم اعترافهم بالمماليك كحكام بل يعدّونهم عبداً⁽⁵⁾، وهم أحقّ منهم بحكم مصر، إلا أن الدولة واجهتهم بقوة وحجمت من نفوذهم بشكل كبير⁽⁶⁾، لتتحول بعد ذلك ثورات العريان إلى ثورات اقتصادية بهدف جمع الأموال وطلب الرزق عرفها المؤرخون المعاصرون بفساد العريان، و التي تضرر منها المجتمع المصري بشكل كبير⁽⁷⁾.

ومن ثورات الأعراب التي ذكر بها المؤرخون حرائق، ثورة أولاد الكنز على الوالي بمدينة أسوان عام (767هـ/1365م)، وفيها ثار أولاد الكنز على الوالي بسبب تكيل وتسمير الوالي بعض أبناء القبيلة، فشق ذلك على أولادهم وعبيدهم واجتمعوا مع العكارمة، وذهبوا في جمع كبير إلى أسوان، فلقبهم الوالي وقاتلهم فهزموه وجرحوا عدد من مماليكه ومالوا على أهل أسوان يقتلون وينهبون ويخربون، وحرقوا عدداً من الدور ومات عدد من الناس في تلك الهجمة⁽⁸⁾.

(1) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص139.

(2) المصدر نفسه، ج8، ص149.

(3) المقرئزي: السلوك، ج7، ص185.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص76.

(5) المقرئزي: البيان والاعراب، ص40؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص479؛ عاشور، سعيد: المجتمع المصري، ص60؛ السيد، محمود: تاريخ القبائل العربية، ص126.

(6) المقرئزي: البيان والاعراب، ص40؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص480. السيد، محمود: تاريخ القبائل العربية، ص133.

(7) عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص329.

(8) المقرئزي: السلوك، ج4، ص294.

وفي شهر (صفر 825هـ/يناير (كانون الثاني) 1422م) تعرضت بلاد الصعيد لأزمة اقتصادية كبيرة، حيث قل بها القمح والزرع، وأصبحت البلاد خالية لا يوجد بها من يزرع الأرض، فكثرت فساد قبائل لهانة وهوارة في الصعيد وقطعوا الطرق وشنوا الغارات وأحرقوا أماكن عدة في الصعيد بمن فيها⁽¹⁾.

وكما قام أتباع موسى بن عمر شيخ عرب هوارة بإحراق الغلال وأفسدوا في البلاد في عام (834هـ/1340م)، وذلك بسبب قيام السلطان بحبس شيخ عرب هوارة موسى بن عمر، بعد أن طلبه في الحضور إليه⁽²⁾.

وفي عام (837هـ/1433م) قام أقبغا الجمالي⁽³⁾ بمهاجمة عرب البحيرة وحرقت بيوتهم وأخذ أولادهم، فقامت حرب بينه وبين عرب البحيرة، انتهت بقتله ومعه جماعة من المماليك، ونهب متاع أقبغا الجمالي⁽⁴⁾.

وفي شهر (ذي القعدة 872هـ/يونيو (حزيران) 1468م) تحالف العريان في البحيرة على الخروج عن طاعة السلطان، وقاموا بحرق أجران الغلال ونهب البلاد، فأرسل السلطان لهم من يؤدبهم⁽⁵⁾.

حريق بولاق (862هـ/1458م):

وفي يوم الجمعة (6 رجب 862هـ/ 20 مايو (أيار) 1458م) وقع حريق عظيم بساحل بولاق لم يسمع بمثله إلا قليلاً⁽⁶⁾؛ حيث أنه أتى على غالب أملاك بولاق من ساحل النيل إلى خط البوصة التي هي محل دفن أموات أهل بولاق، وعجزت الأمراء والحكام عن إخماده، وكان أمر هذا الحريق أنه لما كان صبيحة يوم الجمعة هبت ريح عظيمة وعظمت حتى اقتلعت الأشجار وأتلفت بعض مبانٍ، واستمرت في زيادة ونمو إلى وقت صلاة الجمعة⁽⁷⁾.

فلما كان وقت الزوال أو بعده بقليل احترق ريع الحاج عبيد بساحل النيل، وذهب الربيع في الحريق عن آخره ومات فيه جماعة من الناس، كل ذلك في أقل من ساعة، ثم انتقلت النار

(1) المقرئزي: السلوك، ج7، ص53.

(2) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص234.

(3) أقبغا الجمالي: هو أقبغا كمشبغا علاء الدين الرومي، أحد أمراء الطبلكاناه بالقاهرة عمل كشف الوجه القبلي وغيره، وساعات سيرته؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج2، ص317.

(4) المقرئزي: السلوك، ج7، ص263؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص37-38.

(5) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص12-13؛ السيد، محمود: تاريخ القبائل العربية، ص183-184.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص119؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص299.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص120.

إلى ربع القاضي زين الدين أبي بكر بن مزهر وغيره، وهبت الرياح وانتشرت النيران على الأماكن يميناً وشمالاً، هذا وحاجب الحجاب وغيره من الأمراء والأعيان وكل أحد من الناس في غاية الاجتهاد في تخميد النار بالطفي والهدم، وهي لا تزداد إلا قوة وانتشاراً في الأماكن، إلى أن وصلت النار إلى ربع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش، وإلى الحواصل التي تحته، وأحرقت أعلاه وأسفله، وذهب من بضائع الناس المخزونة فيه ما لا ينحصر كثرة، وسارت النار إلى الدور والأماكن من كل جهة⁽¹⁾.

هذا وقد حضر الحريق جميع أمراء الدولة بمماليكهم وحواشيهم، شيئاً بعد شيء، والأمر لا يزداد إلا شدة، إلى أن صار الذي حضر من الناس لأجل طفي النار كالمتفرج من عظم النار والعجز عن إخمادها، وصارت النار إذا وقعت بمكان لاتزال به حتى يذهب جميعه، ويضمحل عن آخره، فعند ذلك ظن الجميع أن النار تسير من دار إلى دار إلى أن تصل إلى القاهرة، لعظم ما شاهدوا من هولها⁽²⁾.

وكان سبب انتشار الحريق بهذه السرعة هبوب الرياح القوية من أول النهار إلى منتصف الليل، ولشدة هبوب الرياح صارت رياحاً؛ لأنها بقيت تهب من سائر الجهات، فيئس كل من كان له دار تحت الرياح، وتحقق زوالها، وشرع في نقل متاعه وأثاثه، واستمر الأمراء والأعيان يشاهدون الحريق، ويطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة؛ وأما الحريق العظيم فلا يستجري أحد أن يقربه لعظمه، بل يشاهدونه من بعد، واستمروا على ذلك إلى بعد أذان العشاء، ثم ذهب كل واحد إلى داره والنار عاملة إلى نصف الليل⁽³⁾.

ثم أخذ أمر الرياح في الانحطاط، فعند ذلك اجتهد الجميع في إخمادها، وأقاموا على ذلك أياماً كثيرة، والنار موجودة في الأماكن والجدر والحيطان، والناس تأتي لبولاق أفواجاً للفرجة على هذا الحريق العظيم، فكان عدة ما احترق فيه من الأرباع زيادة على ثلاثين ربعاً، كل ربع يشتمل على مائة سكن وأكثر، وما به من الحوانيت والمخازن ما خلا الدور والأماكن والأفران والحوانيت وغير ذلك⁽⁴⁾.

وقد عبر الأديب المعاصر الشهاب الحجازي عن هذا الحريق الكبير بالأبيات التالية:

لهفي على مصر وسكانها والدمع من عيني عليها طليق

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص120.

(2) المصدر نفسه، ج16، ص121.

(3) المصدر نفسه، ج16، ص121.

(4) المصدر نفسه، ج16، ص121، 122.

ما شاهدوا الحشر وأهواله ما بالهم ذاقوا عذاب الحريق⁽¹⁾

وقد اختلف في سبب هذا الحريق على أقوال كثيرة، منهم من قال: إنها صاعقة نزلت من السماء ومنهم من قال: إن الأرض كأن النار تتبع منها، ثم بعد ذلك بأيام أشيع أن الذي كان يفعل ذلك ويلقي النار في الأماكن هم جماعة من القرمانية ممن أحرق العسكر المصري أمكنتهم لما توجهوا إلى تجريدة ابن قرمان، وشاع القول في أفواه الناس، ثم ظهر للناس بعد ذلك أن الذي صار يحرق من الأمكنة بالقاهرة وغيرها بعد حريق بولاق إنما هو من فعل المماليك الجلبان، لينهبوا ما في بيوت الناس عندما تحرق⁽²⁾.

ولعل من الراجح هنا أن الحرائق التي استمرت لشهور بعد هذا الحريق هي من فعل المماليك الجلبان، خاصة وأنهم كانوا معروفين في تلك المدة بكثرة الثورات والنهب والسلب، حيث كانوا يفتعلون الحريق ثم يتوجهون لإطفائه وينهبون البيوت، وهو ما فعلوه في الحريق الكبير الأول، فاستحسنوا الفكرة فعادوا إليها على شكل حرائق أصغر⁽³⁾، لكن السبب الرئيسي لنشوب الحريق الكبير الأول يبقى غير محدد، هل هو من فعل المماليك الجلبان وهو أمر مقبول وغير مستبعد بناءً على ما سبق، أم هو نتيجة صاعقة نزلت من السماء، وهو أمر مقبول أيضاً إذ إن الظروف الجوية كما يصفها ابن تغري بردي تدل على أجواء غير مستقرة ورياح قوية⁽⁴⁾ بالرغم من حدوث الحريق في شهر مايو (أيار) الذي نقل به مثل هذه الأجواء في القاهرة.

حرائق مجهولة السبب:

ورد في المصادر الكثير من الحرائق التي لم يذكر له المؤرخون سبباً، إنما يذكرون الحريق وما نتج عنه من خسائر، وربما يكون عدم ذكرهم السبب لعدم معرفتهم به، وربما يعرفون السبب ولم يذكروه لعدم أهميته بالنسبة إليهم، خاصة تلك الحرائق التي تحدث نتيجة الأخطاء البشرية، مع العلم أن بعض هذه الحرائق حدثت وكان المؤرخون معاصرين لها وفي المدن التي يعيشون بها، وسيورد الباحث تلك الحرائق هنا حسب الترتيب الزمني لها.

في يوم (9 صفر 275هـ/24 يونيو/حزيران) 888م تعرضت مدينة الفسطاط للحريق⁽⁵⁾، وكان مما احترق جزء من جامع عمرو بن العاص⁽⁶⁾، وفي شهر ربيع الآخر

(1) السيوطي: نظم العقيان، ص77.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص122، 123.

(3) المصدر نفسه، ج16، ص123، 125.

(4) النجوم الزاهرة، ج16، ص120.

(5) الفلقشندي: مآثر، ج1، ص256.

(6) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص296.

319هـ/مارس(آذار) 931م) وقع حريق في مدينة الفسطاط في منطقة خولان فذهبت فيه دور بني عبد الوارث⁽¹⁾.

وفي عام (334هـ/945م) وقع حريق كبير في الفسطاط وذهبت فيه الكثير من الأسواق والدور والممتلكات⁽²⁾، وفي عام (343هـ/954م) وقع حريق كبير بالفسطاط احترق فيه ستة آلاف دار ومسكن⁽³⁾.

وفي شهر (ذي القعدة 362هـ/أغسطس(آب) 973م) احترق سوق القاهرة⁽⁴⁾، وفي شهر (محرم 405هـ/يوليو(تموز) 1014م) كثر الحريق في أكثر من مكان في مصر واستمر على ذلك مدة من الزمان، ويبدو أن تلك الحرائق كانت متعمدة بفعل أحد، ذلك أن الدولة اتخذت إجراءات لمنع تلك الحرائق⁽⁵⁾.

وفي عام (518هـ/1124م) تعرض جامع عمرو بن العاص للحريق⁽⁶⁾، وفي يوم (26 جمادى الآخر 579هـ/16 أكتوبر(تشرين الأول) 1183م) احترقت دار الشيخ السديد رئيس الأطباء في مصر، واحترق فيها الكثير من الأموال والأثاث والأمتعة والآلات⁽⁷⁾.

وفي شهر (ربيع الأول 590هـ/فبراير(شباط) 1194م) وقع الحريق في عدة أماكن بالقاهرة⁽⁸⁾، كما احترق المشهد الحسيني بالقاهرة عام(646هـ/1248م)⁽⁹⁾؛ وفي يوم (6 ذي الحجة 648هـ/1 مارس(آذار) 1251م) احترقت القاعة الصالحية والخزانة السلطانية بالقلعة⁽¹⁰⁾.

وفي ليلة الإثنين (16 ربيع الأول 687هـ/20 أبريل(نيسان) 1288م) وقع حريق بخزائن السلاح والمشهد الحسيني بالقاهرة⁽¹¹⁾، وفي يوم الجمعة (24 صفر 691هـ/15

(1) القرطبي: صلة، ص110.

(2) ابن تغري بردي: مورد، ص201.

(3) ابن عذاري: البيان، ج1، ص237.

(4) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص139.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص105.

(6) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص311.

(7) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص574.

(8) المقرئزي: السلوك، ج1، ص234.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص204.

(10) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص371.

(11) المقرئزي: السلوك، ج1، ص435.

فبراير (شباط) 1292م) وقع حريق كبير بقلعة الجبل، وأتلف الكثير من الذخائر والنفائس والكتب⁽¹⁾.

وفي عام (730هـ/1329م) احترقت الكنيسة المعقدة بالقاهرة، وأصبحت خراباً⁽²⁾، وفي عام (741هـ/1340م) وقعت عدد من الحرائق في أنحاء مصر، حيث احترقت أجران الغلال في قليبوب⁽³⁾ وسنديون⁽⁴⁾ والغربية والبحيرة، كما حرق ربع طقزدمر بدار التفاح في القاهرة، ولم يعلم سبب تلك الحرائق⁽⁵⁾.

وتعرضت القاهرة لحريق كبير استمر عدة أيام، وكان بدايته يوم الجمعة (12 ربيع الأول 751هـ/20 مايو (أيار) 1350م) في منطقة البندقانيين، وامتد الحريق بسرعة إلى أماكن أخرى، وذلك لوجود رياح قوية، بالإضافة إلى أن الدور كانت متلاصقة⁽⁶⁾، مما ساعد على انتشار الحريق بسرعة، فأتى على كثير من الأسواق والدور، واستمر على ذلك يومين بالرغم من المحاولات الكبيرة من الأمراء والأهالي للسيطرة على الحريق وإطفائه، وقد أصاب التعب الأمراء ومن معهم من المماليك نتيجة العمل المستمر في السيطرة على الحريق، إلا أن الحريق استمر بعد ذلك أكثر من شهر يصيب بعض المناطق في القاهرة، ولم يعرف من المتسبب في تلك الحرائق، إلا أنه وجد في أماكن الحريق كعكات زيت وقطران وبعض النشاب⁽⁷⁾ في وسطها نطف، مما يدل على أن الحريق متعمد، لكن لم يستدل على فاعليه⁽⁸⁾.

وفي يوم (23 رجب 769هـ/14 مارس (آذار) 1368م) وقع حريق كبير في القلعة، داخل الدور السلطانية، فاحترقت عدة أماكن قبل أن يستطيعوا إطفاءه⁽⁹⁾، وفي ليلة الأحد (25 محرم 780هـ/24 مايو (أيار) 1378م) وقع حريق كبير⁽¹⁰⁾ في منطقة دار التفاح خارج باب زويلة

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص233؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص33؛ وقد ذكر العيني والسيوطي الحريق في شهر محرم و ليس صفر؛ عقد الجمان، ص234؛ حسن المحاضرة، ج1، ص314.

(2) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284.

(3) قليبوب: تقع شمال القاهرة على نحو فرسخ ونصف منها؛ القلقشندي: صحاح الاعشى، ج3، ص457.

(4) سنديون: قرية بمصر في منطقة القليوبية؛ مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ج35، ص245.

(5) المقرئزي: السلوك، ج3، ص295.

(6) المقرئزي: السلوك، ج4، ص118-119؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص536.

(7) النشاب: السهم أو نبل؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص2210.

(8) المقرئزي: السلوك، ج4، ص118-119.

(9) المقرئزي: السلوك، ج4، ص317؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص75.

(10) المقرئزي: السلوك، ج5، ص45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص166.

بالقاهرة⁽¹⁾، وامتد الحريق إلى ربع الدهيشة تجاه باب زويلة⁽²⁾، ولولا وجود سور القاهرة لامتد الحريق إلى أماكن أخرى⁽³⁾، وإحداث أضرار أكبر، حيث ظلت النار في المكان لمدة يومين وخربت كل المكان، رغم جهود الأمراء في الإطفاء⁽⁴⁾، وبعد شهر في (صفر 780هـ/مايو/أيار) 1378م) وقع حريق خارج باب النصر في القاهرة⁽⁵⁾.

وفي عام (785هـ/1383م) احترقت شونة قصب للأمير جركس الخليلي، فأصيب في الحريق ومات نتيجة الإصابة⁽⁶⁾، وفي يوم الأحد (30 صفر 788هـ/2 أبريل/نيسان) 1386م) وقع حريق بالجسر قرب منطقة قنطرة الحاجب، مما أدى لاحتراق عدد من البيوت قبل أن يستطيع الأمراء إطفاءه⁽⁷⁾.

وفي ليلة السبت (12 ذي القعدة 800هـ/27 يوليو/تموز) 1398م) وقع حريق آخر بدار التفاح خارج باب زويلة بالقاهرة، وتم السيطرة عليه سريعاً من قبل الأمراء⁽⁸⁾، ولم يحدث تلف كبير مثل الحريق السابق⁽⁹⁾، و بعد أقل من ثلاثة أشهر في ليلة الأربعاء (4 صفر 801هـ/16 أكتوبر/تشرين الأول) 1398م) وقع حريق في منطقة المدرسة الصالحية حرق فيه عدة دور⁽¹⁰⁾، فبادر الأمراء إلى طفية⁽¹¹⁾، كما احترقت دار ابن الدماميني وذهب له فيها أموال ومتاع كثير⁽¹²⁾.

وفي يوم (6 ربيع الأول 816هـ/6 يونيو/حزيران) 1413م) وقع حريق كبير في الدور الموجودة بقلعة الجبل بالقاهرة، واستمر الحريق ثلاثة أيام حتى تم إطفائه⁽¹³⁾، وفي يوم الجمعة

(1) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص263.

(2) المقرئزي: السلوك، ج5، ص45.

(3) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص263.

(4) المقرئزي: السلوك، ج5، ص45؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص263؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص166.

(5) المقرئزي: السلوك، ج5، ص46.

(6) المصدر نفسه، ج5، ص150.

(7) المصدر نفسه، ج5، ص184.

(8) المصدر نفسه، ج5، ص416.

(9) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص383.

(10) المقرئزي: السلوك، ج5، ص429.

(11) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص5.

(12) السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص66.

(13) المقرئزي: السلوك، ج6، ص349؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص104.

9 جمادى الأولى 828هـ/29 مارس (آذار) 1425م) حدث حريق ضخم في مدينة دمياط⁽¹⁾، دمر وحرق ثلث المدينة، وهلك فيه الكثير من الناس والدواب⁽²⁾، وفي العام نفسه ليلة الخميس (18 شعبان 828هـ/5 يوليو (تموز) 1425م) وقعت حرائق في ثلاثة أماكن بالقاهرة، ولم تتم السيطرة عليها إلا بعد جهد كبير⁽³⁾.

وفي شهر (شعبان 836هـ/مارس (آذار) 1433م) احترق بيت البرهان المحلي التاجر الذي على شاطئ النيل بمصر، وكان أعجوبة زمانه في إتقان البناء وكثرة الرخام والزخرفة والمنافع الكثيرة من القاعات والأروقة، فاحترق جميعه⁽⁴⁾، وفي العام نفسه شهر (شوال 836هـ/مايو (أيار) 1433م) تعدد وقوع الحريق في أكثر من مكان بمصر، كان أولها احتراق الغلال في الجرون بمنطقة شيبين القصر⁽⁵⁾، واحترقت مركب على ساحل النيل بما يحمله من البضائع، كما احترقت عدة أماكن في القاهرة ومصر⁽⁶⁾.

وفي عام (838هـ/1434م) احترقت مركب بساحل الطور، واحترقت عليها كمية كبيرة من البضائع⁽⁷⁾، وفي عام (849هـ/1445م) احترق بيت الجكمي صاحب الحجاب⁽⁸⁾، وفي عام (864هـ/1459م) احترقت دار سنقر الزردكاش بجميع ما فيها، وما بقي من الحريق نهبتته الناس لكثرة ظلمه فيهم⁽⁹⁾.

وفي شهر (صفر 917هـ/ابريل (نيسان) 1511م) وقع حريق مهول عند قنطرة الأمير حسين بالقاهرة، وانتشرت النار بسرعة في البيوت، وذلك لوجود رياح عاصفة في ذلك الوقت، واستمر الحريق لعدة أيام، واحترق فيه أربعون بيتاً والكثير من البضائع والأقمشة⁽¹⁰⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج7، ص114.

(2) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص65-66؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص319.

(3) المقرئزي: السلوك، ج7، ص118.

(4) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص284-285.

(5) المقرئزي: السلوك، ج7، ص252؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص285.

(6) المقرئزي: السلوك، ج7، ص252.

(7) المصدر نفسه، ج7، ص282.

(8) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص241.

(9) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص149.

(10) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص217.

الفصل الثاني

أسباب الحرائق في بلاد الشام

(254-648هـ/868-1250م)

أولاً: الصراعات الداخلية.

ثانياً: الصراع الإسلامي البيزنطي.

ثالثاً: الصراع الإسلامي الصليبي.

رابعاً: أسباب أخرى للحرائق.

نظراً لما تتمتع به بلاد الشام من أهمية جغرافية، ودينية، وحضارية، واقتصادية، فقد كانت مطمعاً للكثير من القوى الداخلية والخارجية، مما أدى لكثير من الصراعات بين بعض القوى الداخلية، وهجمات واحتلال من قوى خارجية، خاصة الاحتلال الصليبي الذي خلف الكثير من الدمار والتخريب، ومما لا شك فيه أن هذه الصراعات والحروب كانت سبباً للكثير من الحرائق التي وقعت في بلاد الشام خلال هذه المدة من الدراسة.

أولاً: الصراعات الداخلية.

شهدت بلاد الشام خلال هذه المدة من الدراسة (648/254 هـ - 1250/868 م) العديد من الأحداث المهمة، من قيام دول وسقوط أخرى، وصراعات سياسية بين تلك الدول، أو صراعات سياسية داخل كل دولة على حده، كما شهدت حالات تمرد وعصيان من قوى داخلية، وصراعات طائفية، كل تلك الأحداث جعلت من بلاد الشام في بعض الأزمات مكاناً مضطرباً وغير مستقر، وكان أحد مظاهر عدم الاستقرار هي الحرائق المفتعلة من قبل بعض الأطراف لأسباب مختلفة سيحاول الباحث تحديدها فيما يلي.

اعتداءات القرامطة⁽¹⁾:

تعرضت المدن الشامية لعدد من الاعتداءات من قبل القرامطة، كان أولها في عام (289 هـ/901 م) عندما هاجم القرامطة مدينة الرصافة⁽²⁾، وكان بها شبل الديلمي مولى المعتضد، فقتلوه وقتلوا أصحابه ودخلوا الرصافة فأحرقوها وجاءوا مسجدها ونهبوها⁽³⁾، وأحرقوا جامعها⁽⁴⁾، واستمر القرامطة في اقتحام القرى ونهبها وحرقتها⁽⁵⁾، حتى وصلوا دمشق عام

(1) القرامطة: جماعة من غلاة الشيعة الإسماعيلية، نشأت بالعراق، تنسب إلى حمدان قرمط 293 هـ/906 م، تميزت حركتهم بالتنظيم الدقيق فكان لها شكل ديني وجوهر سياسي، تمكنوا من إنشاء دولة في البحرين وامتد نفوذهم ليشمل اليمن والإحساء والشام، لكن في بلاد الشام اتصاف تاريخ القرامطة القصير هناك بالمعارك المتصلة التي انتهت بقمع حركتهم؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص 349-350؛ الكيالي، واخرون: الموسوعة السياسية، ج 3، ص 516-517.

(2) الرصافة: رصافة الشام هي رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف، وبها قصور بناها خلفاء بني أمية وحولها مساكن وقرى عامرة وبها أسواق؛ انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 89؛ ابن جعفر: الخراج، ص 117؛ البكري: معجم ما استعجم، ج 2، ص 654؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 2، ص 649.

(3) ابن العديم: بغية الطلب، ج 2، ص 964.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 11، ص 85؛ زكار، سهيل: اخبار القرامطة، ص 17.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج 6، ص 410.

(290هـ/902م)، وهناك أمد المصريون أهل دمشق بالعساكر، فقاتلوا قائد القرامطة أبو القاسم⁽¹⁾ فقتل على باب دمشق⁽²⁾، حيث رماه بعض المغاربة بالنفط والنار فاحترق، كما قتل منهم الكثير⁽³⁾.

وعلى الرغم من مقتل قائدهم، إلا أن القرامطة استمروا في الهجوم على المدن الشامية، حيث سار قائدهم الجديد أبو العباس - أخو أبي القاسم - إلى بعلبك⁽⁴⁾ ففتحها وقتل أهلها ونهب وأحرق وسار منها إلى حمص⁽⁵⁾ فدخلها دون قتال، ودعا لنفسه بها وبث ولاته في أعمالها وضرب الدينار والدرهم⁽⁶⁾، ودخل معرة النعمان⁽⁷⁾ يوم الأربعاء (15 ذي الحجة 290هـ/9 نوفمبر (تشرين الثاني) 903م) بعد أن تمرد أهلها عليه، وشقوا العصا وبطلوا الدعوة وغيروا الأذان ومنعوا الخراج عنه، فأقام يقتل المشايخ والنساء والرجال والأطفال ويحرق وينهب خمسة عشر يوماً فذكر أن القتلى كانوا بضعة عشر ألفاً⁽⁸⁾.

ولعل من الملاحظ هنا أن القرامطة عمدوا إلى حرق ونهب وتخريب جميع المدن الشامية التي رفضت دخولهم أو شقت عصا الطاعة عنهم، وذلك انتقاماً من أهلها على ذلك العصيان، ولم تسلم من ذلك سوى مدينة حمص التي فتحت أبوابها دون قتال.

(1) أبو القاسم: يحيى بن زكرويه بن مهرويه القرمطي، كان يعرف بالشيخ أو المبرقع، من كبار القرامطة في أيام المعتضد والمكتفي العباسيين، وقتل عام 290هـ/902م؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج21، ص329.

(2) الطبري: تاريخ، ج5، ص645؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص417.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص417؛ زكار، سهيل: اخبار القرامطة، ص18-19.

(4) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل، حيث تقع شرق لبنان حالياً؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص302؛ الحميري: الروض المعطار، ص109.

(5) حمص: بلد مشهور قديم من أكبر بلاد الشام وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص302؛ المقدسي: احسن التقاسيم، ص143.

(6) ابن العديم: بغية الطلب، ج2، ص940.

(7) معرة النعمان: بالشام مدينة قديمة فيها خراب، بينها وبين حلب خمسة أيام (اليوم = 44,520 متر جمعه، على: المكابيل، ص56)، وهي مدينة كبيرة كثيرة المباني والأسواق، ولا في شيء من نواحيها ماء جار ولا عين، والغالب على أرضها الرمل وشرب أهلها من ماء السماء، وهي كثيرة الزيتون والكروم والتين والفسق والجوز وغير ذلك، وأهلها تتوخ. ولها سبعة أبواب؛ الحميري: الروض المعطار، ص555.

(8) ابن العديم: بغية الطلب، ج2، ص941؛ ابن الوردي: تاريخ، ج1، ص364.

صراعات الحمدانيين⁽¹⁾:

في شهر (رجب 332هـ / فبراير (شباط) 944م) قامت جيوش ناصر الدولة بن حمدان بمحاولة دخول مدينة الرقة⁽²⁾، لكن أهلها رفضوا دخولهم، فقاتلتهم جيوش ابن حمدان وهزمتهم، وقاموا بإحراق جزء من المدينة عقاباً على العصيان⁽³⁾، وفي صراع داخل البيت الحمداني بين سعد الدولة الحمداني⁽⁴⁾ وزهير الحمداني عام (365هـ/975م)، حاول سعد الدولة الاستيلاء على مدينة معرة النعمان، وكان بها زهير، واستطاع سعد الدولة الدخول من باب حناك، ولكن زهير استطاع إخراجه، فقام سعد الدولة بإحراق باب حمص لكي يستطيع دخول المدينة، مما أدى إلى استسلام زهير في نهاية الامر⁽⁵⁾.

الصراعات والفتن زمن الإخشيديين:

في عام (325هـ/937م) حدثت فتنة بين المسلمين والنصارى في القدس وعسقلان⁽⁶⁾، حيث ثار المسلمون ضد النصارى وأحرقوا كنيسة كبيرة لهم في القدس⁽⁷⁾، وقيل: إن اليهود هم من حرقوا الكنيسة وحرضوا المسلمين على النصارى⁽⁸⁾، وتجددت الفتنة بين المسلمين والنصارى مرة أخرى في عسقلان عام (328هـ/939م)، حيث ثار المسلمون على كنيسة كبيرة بعسقلان تعرف بكنيسة مريم، فهدموها ونهبوا جميع ما فيها وأحرقت، وقد ساند اليهود المسلمين في

(1) الحمدانيين: تتحدر الاسرة الحمدانية من أصل عربي صميم، وهو قبيلة تغلب، التي يعود نسبها إلى وائل بن قاسط بن هنب بن أفعى بن دهمي بن جديله بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان؛ النويري: نهاية، ج2، ص347؛ للمزيد عدوان، احمد: الدولة الحمدانية، ص73.

(2) الرقة: وهي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص59.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص185.

(4) سعد الدولة الحمداني: شريف بن علي بن عبد الله بن حمدان، أبو المعالي ابن سيف الدولة، صاحب حلب وحمص وما بينهما، تولى الحكم بعد أبيه عام 356هـ/967م؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج3، ص406.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص99؛ أبو الفداء: البيواقيت، ج1، ص30.

(6) عسقلان: هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام وكذلك يقال لدمشق أيضاً وقد نزلها جماعة من الصحابة والتابعين وحدث بها خلق كثير ولم تنزل عامرة حتى استولى عليها الصليبيون عام 645هـ/1247م؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص122.

(7) الأنطاكي: تاريخ، ص87.

(8) المقرئ: المواظ، ج4، ص412؛ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات، ص90؛ امطير، محمد: الحياة الاقتصادية، ص35.

حرقها، حيث كانوا يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر إلى أعلى السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها وتقع أعمدتها حتى خربت الكنيسة بالكامل⁽¹⁾.

ويرى البعض أن سبب تلك الفتن هو اشتداد عداة النصارى البيزنطيين للمسلمين في مناطق الثغور، لكن هناك من يرى أن هذا السبب وحده غير كافٍ لقيام المسلمين بهذا العمل الذي ينافي ما عرف عن أهل غزة وعسقلان من تسامح ديني مع النصارى، وأن هذا السبب كان سبباً غير مباشر، وأن السبب الحقيقي هو وجود خلافات جوهرية بين المسلمين والنصارى في داخل عسقلان أدت إلى هذا العمل⁽²⁾.

وفي عام (355هـ/965م) تمرد والي القدس في فلسطين على سلطة كافور⁽³⁾، حيث حاول والي القدس السيطرة على أموال بطريق القدس، فتوجه بطريق القدس لمصر وشكاه لكافور، فكتب كافور إلى والي الرملة الحسن بن طغج⁽⁴⁾، يأمره بحل المشكلة، فخاطب الحسن والي القدس، وأرسل قوة عسكرية لحماية البطريق والنصارى وحمايتهم من اضطهاده⁽⁵⁾.

فما كان من والي القدس إلا أن جمع جنوده وقبض على القوة العسكرية، وهاجم كنيسة القيامة بعد أن تحصن بها البطريق خوفاً منه، حيث أغلق البطريق جميع الأبواب، فقام الوالي ومن معه بحرق أبواب كنيسة ماري قسطنطين ودخلوا منها إلى كنيسة القيامة فوجدوها مغلقة، فأحرقوا أبوابها حتى سقطت قبة القيامة، ودخلوا الكنيسة ونهبوها، ثم توجهوا إلى كنيسة صهيون وأحرقوها أيضاً، كل ذلك في يوم الإثنين (5 جمادى الآخر 355/29 مايو/أيار 966م)، وفي اليوم التالي تم القبض على البطريق وقتل ثم أحرق، وقد استغل اليهود الموقف فقتلوا من النصارى أعداداً كبيرة، وخرّبوا ودمروا أكثر من الوالي ومن معه⁽⁶⁾.

(1) الأنطاكي: تاريخ، ص 96.

(2) أبو رحمة، زهير: الحياة العلمية، ص 30.

(3) كافور: كافور بن عبد الله الاخشيدى، أبو المسك، الأمير المشهور، صاحب المتنبى، كان عبدا حبشيا اشتراه الاخشيدى ملك مصر فنسب إليه، وأعتقه فترقى عنده، وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر عام 355هـ/966م، مدة إمارته على مصر اثنتان وعشرون عاماً، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 190-193.

(4) الحسن بن طغج: هو أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جف التركي، ولد عام 312هـ/924م، كان أميراً في دولة عمه الإخشيد وفي أيام كافور، وقاتل الفاطميين عند دخولهم مصر والشام، وتوفى عام 371هـ/981م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 223-224.

(5) الأنطاكي: تاريخ، ص 124-125؛ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات، ص 58.

(6) الأنطاكي: تاريخ، ص 125.

الصراعات زمن الفاطميين:

كانت الشام قبل قدوم الفاطميين ولاية عباسية اسمياً تحت السيادة الإخشيدية فعلياً، ويلي أمرها شمول بن عبد الله نيابة عن الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد، فأعدَّ الفاطميون جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي، فسار إليها وهزم شمول وأسرته عام (359هـ/970م)⁽¹⁾، فبعث إليه أهل دمشق وفداً لطلب الأمان، فأساء جنوده مقابلة الوفد وسلبوهم ثيابهم، فقرروا المقاومة وتولّى محمد بن عصودا، وهو أحد زعماء الأحداث، أمر تنظيم الدفاع، وصمد الدماشقة عدة أيام حتى انهزم القاسم بن أبي يعلى وهو قائد مشهور من أشرف دمشق، فخرج وفد إلى جعفر يطلبون الأمان فأمنهم، ولما دخل دمشق نهب جنوده المدينة ورد الناس بقتل كثير منهم، فتوعدّهم فلاح بحرق المدينة، لكنهم أرضوه بالأموال الكثيرة⁽²⁾.

ولكن نتيجة تكرر نهب الجنود وانتهاكهم لحرمة البيوت، قامت ثورة بزعامة ابن أبي يعلى الذي جمع أحداث دمشق وأبطل خطبة المعز الفاطمي، ودارت بين الثوار والفاطميين معارك داخل دمشق احترق فيه الكثير من الدور والأسواق، حتى تمكن جعفر بن فلاح من القبض على زعماء الثورة، وهرب بعضهم يستنجداً بالقرامطة في الإحساء فوافقوا على نجاتهم⁽³⁾.

وبالفعل توجه الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى دمشق عام (360هـ/970م) فهزم جعفر بن فلاح وقتله⁽⁴⁾، فأرسل الفاطميون جيشاً إلى دمشق سيطر عليها من جديد في شهر (رمضان 363هـ/يونيو (حزيران) 974م)⁽⁵⁾، لكن الثورة سرعان ما عادت إثر مقتل جندي مغربي، فتزعّم ابن المارود الحرب ضد المغاربة الذين أحرقوا دور المدينة، ووجهوا نقتهم ضد السكان دون تمييز⁽⁶⁾، وقد استمرت الحرب سبعة أشهر بين أهل دمشق والفاطميين⁽⁷⁾، واحترقت فيها مواضع كثيرة، حيث احترقت الكثير من الدور والحارات والأسواق، وقد اتخذ الجنود

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص310؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص123.

(2) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص124-125.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص311؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص124-126.

(4) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص127.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص3؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص344.

(6) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص4؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص212.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص345؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص64.

الفاطميون حرق بعض المواضع بدمشق كأسلوب ضغط عليهم لكي يستسلموا، بعد المقاومة القوية التي أبدوها ضدهم⁽¹⁾.

وفي عام (364هـ/974م) سمع أهل دمشق بوصول القائد التركي أفنكين⁽²⁾ إلى حمص فطلبوا مساعدته، فتوجه إليها وطرد إليها ريان الخادم وقطع خطبة المعز، ودعا للخليفة العباسي⁽³⁾، فخرج العزيز ومعه جوهر⁽⁴⁾ بجيوش مصر والتقى بأفنكين والقرامطة يوم (11 ربيع الأول 366هـ/7 نوفمبر تشرين الثاني) 976م) حيث هزمهم وهرب أفنكين، لكن أحوال جيش الفاطميين لم تكن جيدة، فأرسل جوهر في الصلح، فترددت الرسل بينه وبين أفنكين حتى تقرر الأمر أن جوهر يرحل، ولا يتبع عسكره أحد، فسر أفنكين بذلك، وبعث إلى جوهر بجمال ليحمل عليها ثقله لقلّة الظهر عنده، وبقي من السلاح والخزائن ما لم يقدر جوهر على حمله فأحرقه، ورحل عن دمشق في ثالث جمادى الأولى⁽⁵⁾.

وبعد عودة الجيش الفاطمي تغلّب على دمشق رجل من بني الحارث اسمه قسام التراب⁽⁶⁾، وحكم قسام مدينة دمشق مستقلاً باسم الفاطميين، واستتب حكمه حتى أنه ورد عليه بعض الشعراء ومدحوه⁽⁷⁾، لذلك فإن قساماً وجماعته من الأحداث أصابهم الغرور فأساءوا السيرة

(1) ابن الفلانسى: تاريخ، ج1، ص4-5؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص345-346؛ ابن الوردي، تاريخ، ص364؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص64-65.

(2) أفنكين التركي: أحد الشجعان والابطال من أمراء سبكتكين بالعراق، مات مخدومه سبكتكين بواسطة ومعهم الخليفة الطائع فتقدم أفنكين على الاتراك وحاربوا عز الدولة بختيار بن بويه أياماً، وانتصروا عليه، فسار أفنكين إلى الشام واستولى على كثير منها؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج16، ص307.

(3) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص227.

(4) جوهر: جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن القائد، دخل مصر عام 358هـ/969م بعد موت كافور الاخشيدي، وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها إليها، ومكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز فحل محله، وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها، إلى أن توفي بالقاهرة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج16، ص467-468.

(5) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص240.

(6) قسام التراب: قسام الحارثي من بني الحارث بن كعب من اليمن، كان من أهل قرية من قرى جبل سنير يقال لها تافيتا وكان ينقل التراب على الدواب ثم اتصل برجل يعرف بأحمد بن الجسطار من أحداث دمشق، فكان من حزبه ثم غلب على دمشق مدة فلم يكن للولاة معه أمر إلى أن قدم بلنكين التركي من مصر وغلب قساماً ودخل دمشق فبقي أياماً مستتراً ثم استأن قسام إليه فقيده وحمله إلى مصر فعُفي عنه وأطلق؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج49، ص324.

(7) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج49، ص324.

في أهل دمشق فكرهم أهلها⁽¹⁾، حتى أن الخليفة العزيز رأى ضرورة التخلص من قسام، فأرسل جيشاً بقيادة بلتكين التركي فحاصر دمشق⁽²⁾، وبعث بلتكين إلى قسام ليسلم البلد، ويكون آمناً هو ومن معه فأبى⁽³⁾.

فلما كان يوم (19 محرم 373هـ/3 يوليو 983م) ابتداء القتال مع قسام⁽⁴⁾، ووقع النفير في البلد، فلم يخرج مع قسام إلا المقربون منه فقط، فانهزم قسام وأصحابه ودخل بلتكين ومن معه أطراف المدينة فنهبوا وأحرقوا⁽⁵⁾، وكان مما حرق الكثير من الدور والمساجد وعدة مواضع أخرى في منطقة الشاغور وريض⁽⁶⁾ الباب الشرقي⁽⁷⁾، فكان حرق تلك المواضع له أكبر الأثر في خوف الناس وطلبهم من قسام أن يخرج إلى بلتكين ويصلح الأمر معه ويطلب الأمان، وهو ما فعله بعد ذلك⁽⁸⁾.

لم تستقر الأوضاع للفاطميين في دمشق لمدة طويلة، حيث استغل أهل دمشق اضطراب الدولة الفاطمية عقب تولي الحاكم بأمر الله الحكم وهو صغير السن عام (386هـ/996م)، وثاروا على الوالي الفاطمي ونهبوا داره وخزائنه وما فيها من مال السلطان، فأرسل لهم سليمان الكتامي والي الشام جيشاً لتأديبهم⁽⁹⁾، ورغم استقبال شيوخ دمشق الجيش وطلبهم السماح والعفو، إلا أن الجيش دخل دمشق وطرح النار في الموضع المعروف بحجر الذهب وهو أجل موضع في البلد وقتل خلقاً كثيراً من رجاله، فأصاب أهل دمشق الكثير من التلف في دورهم وأموالهم وأموالهم⁽¹⁰⁾.

(1) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص257.

(2) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص16؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص394؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص68؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص256.

(3) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص256.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص16؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص257.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص394؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص68؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص257.

(6) ريبض: هو المكان المحيط بالمدينة، ويقال أيضاً على مأوى المشية؛ الفراهيدي: العين، ج7، ص35؛ ابن فارس: معجم، ج2، ص477.

(7) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص16.

(8) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص16؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص394؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص68؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص257.

(9) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص31.

(10) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص31؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص479.

وفي عام (410هـ/1019م) وقعت الحرب بين الأحداث والجند في دمشق، وانتشر النهب والحرق في عدة أماكن في دمشق، وذلك بسبب الخلاف على والي دمشق الذي أحبه أحداث البلد، لأنه رخص للناس ما كان الحاكم نهاهم عنه، ولكن بغضه الجند لبخله، وكاتبوا فيه الحاكم وحذروا من خروجه⁽¹⁾.

لم تكن متاعب الفاطميين في بلاد الشام فقط في دمشق، بل ظهرت قوة مناهضة للفاطميين في بلاد الشام متمثلة في زعماء القبائل العربية المحلية الذين استغلوا ضعف النفوذ الفاطمي في جنوب الشام وحاولوا تكوين دول مستقلة⁽²⁾، ومن أشهر تلك القبائل بني الجراح⁽³⁾، التي تمكن قائدها حسان بن المفرج من دخول مدينة الرملة⁽⁴⁾ في (رجب 415هـ/سبتمبر) (أيلول) 1024م) وقام بحرق أكثرها ونهبها⁽⁵⁾، بعد أن هزم الجيش الفاطمي في عسقلان، بالتحالف مع صالح بن مرداس وسانان بن عليان الكلبي حيث قسموا بلاد الشام بينهم⁽⁶⁾، وفي عام (420هـ/1029م) أرسل الخليفة الفاطمي جيشاً إلى بلاد الشام، واستطاع هزيمة ابن الجراح، فهرب ابن الجراح ولكن قبل ذلك قام بحرق وتخريب مدينة الرملة، ويبدو أن هدف الحرق هنا هو عدم تمكين الخصوم من الاستفادة من المدينة بعد انسحابه منها⁽⁷⁾.

استمر اضطراب الأوضاع في بلاد الشام زمن الفاطميين، وتجددت المنازعات في دمشق، حيث قامت مجموعة من الأحداث والجند بحرق قصر أمير الجيوش بدر الجمالي يوم الجمعة (29 جمادى الأولى 460هـ / 4 أبريل (نيسان) 1068م)، وذلك بسبب تخوف العامة والجند في دمشق من بدر الجمالي⁽⁸⁾.

وبعد ذلك بعام في يوم الإثنين (15 شعبان 461هـ/ 8 يونيو 1069م) وقع حريق كبير في مدينة دمشق، احترق فيه الجامع الأموي فدمرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال

(1) ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج36، ص127؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج28، ص278.

(2) عثمانة، خليل: فلسطين، ص268.

(3) بني الجراح: قبيلة عربية، تمكنت من تأسيس كيان سياسي مستقل لهم في جنوب بلاد الشام عام 358هـ/ 968م؛ زامباور: معجم الانساب، ص160.

(4) الرملة : إلى الشمال عن بيت جبرين، وإلى الغرب من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلاً منها؛ ابن خردادبة: المسالك والممالك، ص76.

(5) العظيمي: تاريخ حلب، ص326؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص126.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص126؛ الجنزوري، عليّة: الحروب الصليبية، ص102-103.

(7) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص78.

(8) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص62؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الاصر، ج1، ص91.

النفيسة وتشوه منظره واحترقت سقوفه المذهبة، وكان سببه أن غلمان الفاطميين والعباسيين اختصموا فألقيت نار بدار الملك، وهي الخضراء المتاخمة للجامع من جهة القبلة، فاحترقت، وسرى الحريق إلى الجامع، وكانت العامة تعين الفاطميين فتركوا القتال واشتغلوا بإطفاء النار فعظم الأمر واشتد الخطب وأتى الحريق على الجامع⁽¹⁾.

وبذلك انتهى زمن الفاطميين في الشام بعدد من الحرائق التي كان سببها الصراعات والمنازعات، خاصة في مدينة دمشق التي شهدت العديد من تلك الصراعات لأنها أكبر مدن الشام ومكان أصحاب القرار، كما أن أهلها لم يستكينوا لحكم الفاطميين مما ولد أكثر تلك الصراعات، ويجب أن لا نغفل اهتمام المؤرخين بتدوين أحداث تلك المدينة المهمة التي عاش بعضهم بها مدة من الزمن .

الصراعات زمن السلاجقة والزنكيين:

بعد أن استقرت الأمور للسلاجقة في خراسان والعراق، تطلع سلطانهم ألب أرسلان إلى القضاء على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ثم الزحف إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية، وإعادتها للمذهب السني، خاصة مع حالة الضعف التي كانت تعاني منها الدولة الفاطمية، وبالفعل استطاع ألب أرسلان عام (463هـ/1070م) أن يدخل الشام ويستولي على حلب⁽²⁾ ومن ثم دمشق⁽³⁾.

لم تستقر الأحوال في بلاد الشام للسلاجقة، لذلك استمرت حروبهم مع القبائل العربية والفاطميين من أجل تثبيت سيطرتهم على بلاد الشام، وخلال تلك الحروب قام تاج الدولة تتش⁽⁴⁾ في شهر (ذي الحجة 471هـ/ أغسطس (آب) 1071م) بحرق ريبض وقلعة إعزاز⁽⁵⁾،

(1) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص63؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص281؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج16، ص96؛ ابن جبير: رحلة، ص188؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص383؛ ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص101؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج31، ص5؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج1، ص62؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص93؛ الطنطاوي، على: الجامع الاموي، ص43.
(2) حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء وهي قسبة جند قنسرين؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص282.

(3) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص64؛ طقوش، محمد: تاريخ السلاجقة، ص113-114.

(4) تاج الدولة تتش: هو ابن السلطان أبي شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكال السلجوقي أخو السلطان ملكشاه التركي، كان شجاعا مهيبا جبارا ذا سطوة وله فتوحات ومصافات وتملك عدة مدائن وخطب له ببغداد وصار من كبار ملوك الزمان؛ الذهبي: سير الأعلام، ج19، ص84.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص67؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص421؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص198. قلعة إعزاز: من أعمال حلب وتقع شمال مدينة حلب؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص63.

فاحترق الكثير من الغلال والأقمشة والمتاع، وكان سبب الحرق هو محاولة السيطرة على القلعة وإخراج المتحصنين بها⁽¹⁾، كما قام افشين في ذات العام بحرق بلدة معرتاج بجوار كفرطاب⁽²⁾، وذلك لأن أهلها تحصنوا في أبراجها ومنعوه من دخولها، فقام بحرقها، مما أدى لهلاك جميع من كان فيها⁽³⁾.

وأثناء صراع كل من تاج الدولة تنتش وقسيم الدولة آق سنقر⁽⁴⁾ على الاستحواذ على بلاد الشام، هاجم تاج الدولة تنتش الناعورة في عام (487هـ/1094م) وقام بحرق زرعها ورحل عنها⁽⁵⁾، ويبدو أن سبب الحرق هنا التضيق على قسيم الدولة في مدينة حلب ومنع الغلال عنه.

وفي صراع بين كل من قتلغ أبه⁽⁶⁾ نائب عز الدين مسعود في حلب، ونائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الارتقي على السيطرة على مدينة حلب⁽⁷⁾، قام أهل حلب يوم (2 شوال 521هـ/11 أكتوبر (تشرين الأول) 1127م) بمساعدة سليمان وحاصروا القلعة التي بها قتلغ أبه، وحرقوا القصر الموجود بها وهو قصر عظيم به كثير من النفائس والمتاع⁽⁸⁾. استمرت الصراعات الداخلية بين القوى الإسلامية في بلاد الشام، وكانت بعض تلك القوى تستعين بالصليبيين لتثبيت حكمها، وهو ما حدث عندما تحالف معين الدين أنر⁽⁹⁾ حاكم

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص198.

(2) كفرطاب: بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص470.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص200.

(4) قسيم الدولة: الأمير الكبير قسيم الدولة أبو الفتح آقسنقر التركي الحاجب مملوك السلطان ملكشاه السلجوقي وهو جد نور الدين محمود؛ الذهبي: سير الأعلام، ج19، ص129.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص74؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج4، ص1957.

(6) قتلغ أبه: هو من ممالك السلطان محمود بن ملكشاه، أستولى على حلب عام 521هـ/1127م، ثم دخل في صراع مع بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، الذي حاصره في القلعة بمساعدة أهل حلب، واستدعوا أتابك زنكي فوصل وتسلم حلب وأخذ قتلغ أبه وكحله؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج7، ص3217.

(7) ابن العديم: بغية الطلب، ج4، ص3217؛ طقوش، محمد: تاريخ السلاجقة، ص188.

(8) ابن العديم: بغية الطلب، ج4، ص3218. وفي رواية أخرى يقال إن من حرق القصر الصليبيون المحاصرون حلب في ذلك الوقت؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص299.

(9) أنر: ملك الأمراء بدمشق معين الدين الطغتكيني، أمير سائس رئيس شجاع مهيب فحل الرأي دبر دولة أولاد أستاذة، وكان يحب العلماء والصلحاء ويبدل المال وله مواقف مشهودة؛ الذهبي: سير الأعلام، ج20، ص229.

دمشق معهم ضد عماد الدين زنكي⁽¹⁾، الذي استطاع توحيد شمال الشام، وأراد استكمال فتح باقي المدن الشامية، فحاصر حمص وحرق الزرع الذي حولها في شهر (شوال 530هـ/ يوليو/ تموز) 1136م⁽²⁾، وأغلب الظن أن حرق الزرع كان الهدف منه قطع إمدادات الغلال عن المدينة لدفعها للاستسلام، وفي عام (534هـ/ 1140م) حاول زنكي الاستيلاء على دمشق لتكوين جبهة موحدة ومتصلة ضد الصليبيين، لكن تحالف معين الدين أنر مع الصليبيين حال دون ذلك، ولم يستطع زنكي الاستيلاء على دمشق، لكن قبل رحيله عن دمشق في السادس من شوال أحرق عدة قرى من المرج والغوطة⁽³⁾.

وفي عام (549هـ/ 1154م) قام مجير الدين حاكم دمشق، بقتل زين الدولة بن الصوفي، ونهب داره، كما أحرق دور بني الصوفي، ونهب أموالهم⁽⁴⁾، وذلك لظلمهم وتمردهم⁽⁵⁾. وخلال زمن حكم نور الدين محمود⁽⁶⁾ واجه العديد من المشكلات والمصاعب الداخلية ومن بين هذه المشكلات، الحركات السياسية المناوئة له متمثلة في نشاط الاسماعيلية⁽⁷⁾ الباطنية التي تفاقمت معارضتهم للدولة النورية السنية⁽⁸⁾، وكان من مظاهر تلك المعارضة

(1) عماد الدين زنكي: هو ابن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر، تولى الموصل وسائر بلاد الجزيرة، وضم إليها أجزاء من بلاد الشام وقاتل الصليبيين، وأخذ منهم الرها، وقتله جماعة من مماليكه؛ الذهبي: سير الأعلام، ج20، ص189-191.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص312؛ زيان، حامد: الصراع السياسي، ص67.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص313-314؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص321-322؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص320؛

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص373.

(5) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج20، ص242.

(6) نور الدين محمود: محمود بن عماد الدين زنكي ابن أفسنقر، الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، ولد في حلب وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه عام 541هـ/ 1146م، قاتل الصليبيين وهزمهم عدة مرات، وتوفي عام 569هـ/ 1174م؛ الذهبي: سير أعلام، ج20، ص531-539.

(7) الاسماعيلية: إحدى فرق الشيعة، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وهو الإمام السابع عندهم ولذلك أطلق عليهم أيضاً السبعية؛ زيان، حامد: الصراع السياسي، ص87.

(8) عوض، محمد: السياسة، ص34؛ حمد، محمد: السياسة الداخلية، ص39.

والعداء قيامهم ليلة الاربعاء (27 شوال 564هـ/23 يوليو (تموز) 1169م) بحرق جامع حلب والأسواق المجاورة له⁽¹⁾.

وفي عام (570هـ/1174م) وقعت فتنة كبيرة بين أهل حلب من السنة والشيعة، وقتل الكثير من الناس، كما نهبت العديد من الدور، وقام البعض بحرق دار أبي الفضل بن الخشاب زعيم الشيعة في المدينة⁽²⁾.

الصراعات زمن الأيوبيين:

استطاع صلاح الدين توحيد مصر وبعض بلاد الشام والقضاء على جميع خصومه من أجل التفرغ لمواجهة الصليبيين، لكن ذلك الأمر أثار مخاوف الشيعة الإسماعيلية، خاصة وأنه كان السبب في القضاء على الفاطميين الشيعة في مصر، ففرروا للتخلص منه عن طريق الاغتيال، فدبر مقدمهم سنان أكثر من مرة المؤامرات لاغتيال صلاح الدين، لكن باءت هذه المحاولات بالفشل⁽³⁾.

وقد أدى موقفهم المعادي له، إلى قيامه بالإغارة على حصونهم وقلاعهم عام (572هـ/1176م) فنهب بلدهم وخربه وأحرقه، وحاصر قلعة مصياف⁽⁴⁾، ولولا تدخل خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة، الذي تشفع لهم لاستغاثتهم به، ما تركهم صلاح الدين إلا بعد القضاء عليهم⁽⁵⁾.

وفي عام (575هـ/1179م) هاجم الإسماعيلية مدينة حلب وقاموا بحرق بعض الأسواق بها⁽⁶⁾، وكان ذلك الهجوم انتقاماً من الملك الصالح بعد أن استولوا على إحدى قرى الإسماعيلية⁽⁷⁾.

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص351؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص138؛ عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص14.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص363.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص81؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص295؛ زيان، حامد: الصراع السياسي، ص98-99.

(4) مصياف: حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشمالي قرب طرابلس؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص144.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص81؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص350؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص364؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص295؛ الشامي، احمد: صلاح الدين، ص111؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص55.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص54.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378.

وخلال جهود صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين من خلال ضم حلب والموصل، واجه مقاومة من حكام تلك المناطق لكي يفشلوا جهوده⁽¹⁾، فنجد أن عماد الدين الثاني حاكم حلب في شهر (رمضان 578هـ/ ديسمبر (كانون الأول) 1182م) يخرب ويهدم القلاع والحصون المحيطة بحلب حتى لا يستفيد منها صلاح الدين، كما وقام بحرق جسر قلعة جعبر⁽²⁾ لكي يصعب عليه الوصول للقلعة⁽³⁾، وفي بداية عام (579هـ/1183م) حاصر صلاح الدين آمد⁽⁴⁾ ونصب عليها عدة مجانيق وستائر ومنع الناس من أن يبدأوا بقتل رجل من المسلمين وكان غرضه أن يستأنوا فداخلهم الطمع، حتى أحرقوا بعض الستائر والتحصينات العسكرية الخاصة بجيش صلاح الدين، فأمر صلاح الدين بمهاجمة المدينة واستطاع فتحها وأعطى أهلها الأمان⁽⁵⁾.

وبعد وفاة صلاح الدين عام (589هـ/1193م) دخلت الدولة الأيوبية في صراع شديد بين خلفاء صلاح الدين سواء كانوا أبناءه أو إخوته⁽⁶⁾، حتى استقرت الأمور لابنه العزيز عثمان، لكن الصراع تجدد بعد وفاة العزيز أيضاً⁽⁷⁾، حيث اتفق كل من الملك الأفضل صاحب مصر والملك الظاهر صاحب حلب والملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص على عمهما الملك العادل، واتفقوا على المسير إلى دمشق وانتزاعها منه في (شعبان 595هـ/ مايو (أيار) 1199م)، وعندما علم بذلك العادل وكان في ذلك الحين خارج دمشق، عاد إليها مسرعاً قبل وصول الأفضل وحلفاؤه⁽⁸⁾، وقام بإحراق جميع ما كان خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت، وأحرق الثَّيرب وأبواب الطَّواحين، وأحرق بيادر⁽⁹⁾ غلَّة حرسنا⁽¹⁰⁾، ويبدو هنا

(1) الشامي، احمد: صلاح الدين، ص115.

(2) قلعة جعبر: تقع على الفرات بين بالس والرقعة قرب صفيين؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص142.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص388.

(4) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرا وأشهرها ذكرا، وهو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نهر دجلة؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص56.

(5) الأصفهاني: البرق الشامي، ج5، ص91؛ أبو المعالي: مضمرة الحقائق، ص136-137.

(6) ابن واصل: مفرج، ج2، ص378؛ زيان، حامد: الصراع السياسي، ص103.

(7) الذهبي: العير، ج4، ص286.

(8) أبو شامة: الروضتين، ج4، ص449.

(9) بيادر: جمع بيدر وهو موضع يجمع فيه القمح ونحوه ويدرس؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص269.

(10) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج42، ص24.

أن حرق العادل لتلك المواضع كان الهدف منه عدم تمكين المحاصرين من استغلال تلك الأماكن، مما يضعف موقفهم.

كما قام بعض جنود الأفضل بحرق مواضع في دمشق أثناء الحصار لدفعها للاستسلام⁽¹⁾، وقد استمر الحصار إلى أن دخل الشتاء فرفعوا الحصار عام (596هـ/1199م) وأحرقوا عند رحيلهم ما لم يتمكنوا من حمله من الأثقال والخيم والغلات⁽²⁾، وأحرق الملك الأفضل خيمة أهداها له الملك الظاهر كانت ثلاثين حملاً، وعادوا إلى بلادهم⁽³⁾.

وفي صراع آخر داخل البيت الأيوبي، هاجم الملك الكامل⁽⁴⁾ صاحب مصر مدينة دمشق التي كانت للملك الناصر داود بن المعظم عيسى، حيث حاصر الكامل دمشق في (جمادى الأولى 626هـ/مارس 1229م)، ونهب البساتين وحرق الحصون والقصور حول دمشق، واستطاع دخول المدينة وإحراق بعض المواضع عند باب توما، وقام الناصر أيضاً بحرق مدرسة أسد الدين، وخانقاه⁽⁵⁾ خاتون، وخانقاه الطّواويس، وذلك لأن جيش الكامل كان يتحصن بها، وفي نهاية الأمر استسلم الناصر وسلم المدينة لعمه الكامل⁽⁶⁾.

وفي شهر (ربيع الأول 635هـ/أكتوبر تشرين الأول 1237م) هاجم الكامل مدينة دمشق مرة أخرى، لأن أخاه الصالح إسماعيل⁽⁷⁾ صاحب بصرى استولى على دمشق ورفض

(1) أبو شامة: الروضتين، ج4، ص451؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص260.

(2) أبو شامة: الروضتين، ج4، ص454؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص263.

(3) ابن واصل: مفرج، ج3، ص107.

(4) الملك الكامل: محمد بن محمد بن أيوب، أبو المعالي، من سلاطين الدولة الأيوبية، ولد بمصر عام 576هـ/1180م، وأعطاه أبوه الديار المصرية، فتولاها مستقلاً بعد وفاته عام 615هـ/1218م، وحسنت سياسته فيها، واتجه إلى توسيع نطاق ملكه، فاستولى على حران والرها وسروج والرقّة وأمد وحصن كيفا، ثم امتلك بلاد الشام، وتوفي بدمشق عام 635هـ/1238م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج22، ص127-131.

(5) خانقاه: هو لفظ فارسي معناه بيت وجمعه خوانق، أطلق على الأماكن المعدة للزهاد وأتباع الطرق الصوفية ومن في حكمهم، وهذه الأماكن كانت مؤلفة من عدة أقسام وأجنحة خصص بعضها للعبادة والبعض الآخر للطعام والنوم؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص158.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج45، ص32-34.

(7) الصالح إسماعيل: أبو الخيش بن محمد بن أيوب، من ملوك الدولة الأيوبية، تسلطن بدمشق بعد وفاة أخيه الأشرف، وجاءه الملك الكامل فأخذها منه بعد حصار، ورحل إسماعيل إلى بعلبك، ثم هاجم دمشق وملكها، وأجرم بتسليمه قلعة الشقيف للصليبيين، وأخرجته الخوارزمية من دمشق ثم صالحهم ووالوه، وانتهى أمره بالخروج لاجئاً إلى حلب وفيها الناصر ابن أخيه، ثم أسره بعض رجال الملك الصالح نجم الدين وقتل في القاهرة عام 648هـ/1250م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج22، ص134-136.

تسليمها له، وقام الصالح إسماعيل بإرسال النفاطين، فأحرق العقبية جميعها وما بها من خانات وأسواق، لكي لا يحتمي بها الكامل وجنوده، ومع ذلك لم يستطع الصالح إسماعيل مواجهة الكامل وسلم له دمشق⁽¹⁾.

لكن لم تتوقف أطماع الصالح إسماعيل في دمشق، فاستغل وفاة الكامل، ثم خلو دمشق ممن يحفظها، وليس في دمشق سوى الملك المغيث عمر بن الملك الصالح، وأبوه بعيد عن دمشق، والملك المغيث لا يستطيع الدفاع عن المدينة وحده، فقام الصالح إسماعيل بالتحالف مع شيركوه صاحب حمص بمحاصرة دمشق في أواخر (صفر 637هـ/ سبتمبر (أيلول) 1239م)، والاستيلاء عليها⁽²⁾، وحاصروا القلعة وبها المغيث عمر ونقبوا القلعة من ناحية باب الفرج ودخلوها وتسلموها واعتقلوا المغيث في برج هنالك، واحترقت دار الحديث وما هنالك من الحوانيت والدور حول القلعة⁽³⁾.

وفي خضم الصراعات داخل البيت الأيوبي، استغل قلول الخوارزمية⁽⁴⁾ تلك الصراعات في محاولات لتوسيع ممتلكاتهم على حساب الأيوبيين في الشام، فقاموا بأعمال نهب وتخريب كبيرة في بلاد الشام، ومنها في عام (638هـ/1240م) حيث قاموا بحرق الأبواب التي في القرى، وأخذوا ما قدروا عليه، وأحرقوا بلدة كفر طاب⁽⁵⁾.

وفي عام (643هـ/1245م) أرسل الصالح نجم الدين أيوب الخوارزمية ومعهم معين ابن شيخ الشيوخ لأخذ دمشق من عمه الصالح إسماعيل⁽⁶⁾، ودارت معارك كبيرة بين الطرفين في أول شهر محرم، أدت إلى حرق أماكن متعددة من كليهما⁽⁷⁾، فنجد أن الخوارزمية قاموا بحرق قصر حجاج وحكر السماق وجامع جراح خارج باب الصغير ومساجد كثيرة، والصالح

(1) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص420؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج46، ص23؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص161؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص148.

(2) ابن العديم: بغية الطلب، ج4، ص1809؛ عاشور، سعيد: الأيوبيون والمماليك، ص117؛ طقوش، محمد: تاريخ الأيوبيين، ص356.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص153-154.

(4) قلول الخوارزمية: هم بقايا الدولة الخوارزمية، حيث استطاع جلال الدين منكبرتي إقامة الدولة الخوارزمية الثانية في أصفهان وأخذ في توسيع ممتلكاته على حساب الخلافة العباسية والدولة الأيوبية؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص443؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص402؛ زيان، حامد، الصراع السياسي، ص115.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص505-506؛ صيدم، فريد: جهاد السلطان الصالح، ص62.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص15؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص166.

(7) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص15؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص423.

إسماعيل أحرق جوسق⁽¹⁾ قصر والده العادل وامتد الحريق في زقاق الرمان إلى العقبية فأحرقت بأسرها، حيث كان كل منهم يحرق الأماكن التي يتحصن بها الآخر⁽²⁾.

لم يدم اعتماد الصالح نجم الدين أيوب على الخوارزمية في معاركه، حيث كان يخشى منهم لاتفاقهم مع عدوه الملك الناصر داود، لذلك شرع الصالح أيوب في محاربتهم للقضاء عليهم وعلى الناصر⁽³⁾، وأرسل ابن شيخ الشيوخ فحاربهم وأحرق مدينة السلط⁽⁴⁾ وهي للناصر وذلك في (27 ربيع الآخر 644هـ/11 سبتمبر (أيلول) 1246م)⁽⁵⁾.

ثانياً: الصراع الإسلامي البيزنطي.

كان الروم البيزنطيون أشد أعداء المسلمين حتى قدوم الصليبيين والمغول إلى العالم الإسلامي، لذلك تحتل العلاقات الإسلامية البيزنطية مكانة مهمة في التاريخ الإسلامي، لأنها تمثل صورة الصراع الحربي الطويل عند الثغور الشامية⁽⁶⁾ والذي استمر دون انقطاع طوال قرون، شهدت خلالها منطقة الثغور معارك كثيرة بينهم، كما كانت الهجمات المتبادلة بين الطرفين تصل إلى عمق الدولتين، حيث تعددت هجمات البيزنطيين على المدن الشامية خاصة في زمن الضعف والتشرذم والصراع الداخلي، مما كان له أكبر الأثر في تخريب وتدمير تلك المناطق، وكانت الحرائق أحد مظاهر التخريب خلال ذلك الصراع.

هجمات البيزنطيين على الثغور زمن العباسيين:

شهدت منطقة الثغور العديد من هجمات البيزنطيين، خاصة مع انشغال الخلافة العباسية بمشكلاتها الداخلية، وكان من هذه الهجمات، هجوم البيزنطيين على منطقة الثغور في

(1) جوسق: لفظ فارسي معرب معناه: القصر، أطلقه العرب على البروج العالية التي كانوا يرصدون من خلالها حركة الأفلاك؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص131.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص18؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص166.

(3) ابن العميد: اخبار الايوبيين، ص35.

(4) السلط: بلدة لطيفة من جند الأردن في جبل الغور الشرقي في جنوب عجلون على مرحلة منها وهي بلدة عامرة أهلة ذات بساتين وفواكه؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص110.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص24؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص428.

(6) الثغور الشامية: منطقة تقع في شمال بلاد الشام وهي جزء من بلاد الشام بعد إن فتحها المسلمون من الروم أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما، والثغور لا قصبه لها، وإنما كل مدينة قائمة بنفسها ومن أشهر مدنها وحصونها (الإسكندرونه، وطرسوس، وانطاكية، وأذنة والمصيصة، وعين زربة؛ والكنيسة، والهارونية، وبياس، ونقابلس، الخ...)؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص168؛ ابن جعفر: الخراج، ص186؛ الاصطخري: المسالك والممالك، ص27؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص234.

(شعبان 291هـ/ يونيو (حزيران) 904م) بجيش كبير من مائة ألف رجل، فسبوا عدداً كبيراً من المسلمين، وأحرقوا عدة أماكن في الحدث⁽¹⁾، وفي (شوال 293هـ/ يوليو (تموز) 906م) أغار البيزنطيون على قورس⁽²⁾، وقاتلهم أهلها فانهمزوا، وقتل منهم الكثير ودخلها البيزنطيون، فأحرقوا جامعها وأخذوا من بقي فيها⁽³⁾.

وفي إحدى غارات المسلمين، قام والي الثغور رستم بغزو الصائفة من ناحية طرسوس عام (299هـ/ 911م)، وحاصر حصن مليح الأرمني ثم دخل عليه وأحرق أرض حصن ذي الكلاع⁽⁴⁾، وفي عام (330هـ/ 941م) هاجم البيزنطيون حموص⁽⁵⁾ فأخربوا وأحرقوا وسبوا عشرة آلاف نسمة⁽⁶⁾، وفي عام (332هـ/ 943م) هاجموا رأس عين⁽⁷⁾ ونهبوها، وأحرقوا البلد قبل رحيلهم عنها⁽⁸⁾.

الصراع الحمداني البيزنطي:

شكلت الدولة الحمدانية حصناً منيعاً ضد هجمات البيزنطيين، وكان جهاد الحمدانيين ضد الروم من أبرز الأعمال التي خلدت ذكرى هذه الدولة، وفي حلب امتاز عهد سيف الدولة

(1) الطبري: تاريخ، ج 5، ص 656؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج 13، ص 23؛ ابن الأثير: الكامل، ج 6، ص 423. الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور ويقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء وقلعتها على جبل؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 227.

(2) قورس: مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب وهي الآن خراب وبها آثار باقية؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص 412.

(3) الطبري: تاريخ، ج 5، ص 664؛ ابن الأثير: الكامل، ج 6، ص 431؛ ابن العبري: تاريخ، ص 87؛ ابن خلدون: تاريخ، ج 3، ص 445.

(4) الطبري: تاريخ، ج 5، ص 675؛ القرطبي: صلة، ص 26؛ ابن الأثير: الكامل، ج 6، ص 471. حصن ذي الكلاع: من نواحي الثغور قرب المصيصة وقيل تفسير اسمه بالرومية الحصن الذي مع الكواكب؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 265.

(5) حموص: من أعمال حلب وهي على ستة فراسخ من حلب؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 274. (6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 24، ص 68؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 274.

(7) رأس عين: وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودينيسر وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران وهي إلى دنيسر أقرب بينهما نحو عشرة فراسخ وفي رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 14.

(8) الصولي: أخبار الرازي، ص 93.

الحمداني⁽¹⁾ بكثرة حروبه مع البيزنطيين وكثرة غزواته في عمق بلادهم، مما دفعهم إلى الرد على تلك الغزوات، بغارات مضادة داخل بلاد الشام أدت إلى الكثير من التخريب والدمار. ومن تلك الغارات هجوم البيزنطيين على سروج⁽²⁾ عام (341هـ/952م) فقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها⁽³⁾، وأحرقوا البلد⁽⁴⁾، وفي (جمادى الآخرة 345هـ/سبتمبر (أيلول) 956م) هاجموا طرسوس، وقتلوا من أهلها ألفاً وثمانمائة رجل، وأحرقوا القرى التي حولها، وسبوا أهلها⁽⁵⁾، وذلك جاء انتقاماً من دخول سيف الدولة إلى بلادهم وقتله وأسرته الكثير⁽⁶⁾.

وفي بداية عام (351هـ/962م) هاجم البيزنطيون منطقة الثغور بقيادة نقفور، وقتلوا وسبوا وأحرقوا عدة أماكن⁽⁷⁾، وبعد هذا الانتصار الذي حققه الروم في الثغور الشامية، تقدموا نحو عين زربة⁽⁸⁾ وقاموا بمحاصرتها، فلما رأى أهل عين زربة هذا وأن الجيش وصل إلى أسوار المدينة وبدأ ينصب الدبابات وينقب السور وأن لا أمل من مساعدة تأتيمهم، اتفقوا على الطلب من نقفور أن يسلموا إليه البلد بالأمان فأجابهم إلى ذلك لكنه شرط عليهم أن لا يحملوا معهم شيئاً من السلاح ولا يفسدوه، وتم الاتفاق بين الجانبين على ذلك، وأعطى نقفور أهل المدينة ليلة كاملة للخروج من منازلهم، وفي الصباح أطلق نقفور لأصحابه نهب المدينة إلى آخر النهار، وقام بعد ذلك بحرق الجامع والأسواق، وهدم الأسوار الحصينة، وقطع ما في المدينة من الأشجار ومن النخيل حتى لا يفكر المسلمون بالعودة إليها⁽⁹⁾.

وكان الهجوم الأكبر للبيزنطيين في (ذي القعدة 351هـ/ديسمبر (كانون الأول) 962م) على عاصمة سيف الدولة ومركز حكمه مدينة حلب، التي تعرضت لهجوم كبير من نقفور في

(1) سيف الدولة الحمداني: علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربيعي، أبو الحسن، سيف الدولة، اجتمع عنده الكثير من العلماء والأدباء، امتلك حلب ودمشق عام 333هـ/945م، أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة، وتوفى في حلب عام 356هـ/967م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج16، ص187-189.

(2) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص216.

(3) الهمداني: تكملة، ص166؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص225.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص308.

(5) ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص102؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص257؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج25، ص221؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص230.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص230.

(7) ابن العديم: بغية الطلب، ج10، ص4364.

(8) عين زربة: من الثغور قرب المصيصة، وهي بلدة من بلاد الجزيرة مما يقرب الرها وحران؛ السمعاني: الأنساب، ج4، ص270؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص136.

(9) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج25، ص221؛ الحيارى، مصطفى: نهاية الثغور الشامية، مقال.

غياب سيف الدولة، فقاتل أهلها أشد قتال⁽¹⁾، لكن استطاع نقفور اقتحام المدينة وأقام به تسعة أيام، وقام جنوده بنهب المدينة وأسر وقتل الكثير من أهلها⁽²⁾، وحرق قصر سيف الدولة⁽³⁾، والمسجد الجامع⁽⁴⁾، والأسواق وأكثر دور المدينة⁽⁵⁾، حتى عندما رحل حرق كل الغنائم التي لم يستطيع حملها، رغبة في كسر شوكة الحمدانيين وإضعاف قدرتهم على غزو الأراضي البيزنطية⁽⁶⁾.

وفي عام (353هـ/ 963م)، بدأت حملات البيزنطيين الكثيفة على ما تبقى بأيدي المسلمين من منطقة الثغور الشامية، وخاضوا معارك عديدة مع أهل الثغور، ونهبوا وقتلوا الكثير منهم، وأحرقوا كل المناطق المحيطة بمدن المصيصة⁽⁷⁾ وأذنة⁽⁸⁾ وطرطوس⁽⁹⁾ بهدف إضعافها وإخضاعها⁽¹⁰⁾.

وبالفعل سقطت تلك المدن في يد نقفور، واستطاع الاستيلاء عليها عام (354هـ/ 965م) بعد أن هجرها أكثر أهلها، بسبب قلة الأوقات والغلاء وانتشار الوباء بين الناس، ودخل طرسوس، آخر معاقل المسلمين في منطقة الثغور الشامية، وصعد على منبرها وقال يا معشر الروم أين أنا قالوا على منبر طرسوس فقال لا بل أنا على منبر بيت المقدس

(1) الهمداني: تكملة، ص181؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص140؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص273؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص81؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص220.

(2) ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص141؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص274؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص82؛ أبو الفداء: البواقيت، ص23؛ ابن تغري بردي: مرد اللطافة، ج1، ص201.

(3) الهمداني: تكملة، ص181؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص140؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص81؛ أبو الفداء: البواقيت، ص23.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص274؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص82؛ عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص13؛ أبو الفداء: البواقيت، ص24.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص82؛ أبو الفداء: البواقيت، ص24.

(6) الهمداني: تكملة، ص181؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص141؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص274؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص220؛ ابن تغري بردي: مرد اللطافة، ج1، ص201.

(7) المصيصة: وهي مدينة على شاطئ جبحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس وبها بساتين كثيرة يسقيها جبحان وكانت ذات سور وخمسة أبواب؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص145.

(8) أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص133.

(9) طرطوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص30.

(10) ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص155؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص282؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص253.

وهذه البلدة التي كانت تمنعكم من بيت المقدس، وجعل جامع طرسوس اصطبلًا وأحرق المنبر⁽¹⁾، في إشارة إلى نهاية حكم المسلمين لتلك البلاد.

وبعد أن انتهى نقفور من الثغور الشامية، بدأت غاراته على مناطق في العمق الشامي، فتوجه إلى منبج⁽²⁾ عام (355هـ/965م) وحرق ريفها⁽³⁾، وفي نهاية عام (357هـ/967م) هاجم معرة النعمان ودخلها، وأحرق جامعها وأكثر دورها، وسار إلى كفر طاب وشيزر⁽⁴⁾، وأحرق جامعها، ثم إلى حماة⁽⁵⁾ ففعل كذلك، ثم إلى حمص فوجد أهلها قد انتقلوا عنها فأحرقها، وأسر وقتل الكثير من الناس، ووصل إلى غرقة ففتحها وأسر أهلها، ثم نفذ إلى طرابلس⁽⁶⁾ وكان أهلها قد أحرقوا ريفها، فانصرف إلى جبلة فدخلها، ومنها إلى اللاذقية⁽⁷⁾، وأما القرى فلا يحصى عدد ما أخرج منها وأحرق أثناء مسيره بين المدن الشامية⁽⁸⁾، وسير نقفور سرية كبيرة إلى الجزيرة، فبلغوا كفر توثا⁽⁹⁾، ونهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا⁽¹⁰⁾، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض الأعراب كانوا يغيرون على

(1) الهمداني: تكملة، ص190؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص162؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص287؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص19؛ ابن الوردي: تاريخ، ج1، ص364.

(2) منبج: وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض كان عليها سور مبني بالحجارة محكم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص205.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص24.

(4) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان تعد في كورة حمص وهي قديمة؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص383.

(5) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضراً كبير جداً فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي، وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها وبينها وبين شيزر نصف يوم وبينها وبين دمشق خمسة أيام وبينها وبين حلب أربعة أيام؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص300.

(6) طرابلس: وهي مينا على ساحل الشام إليها تقدم المراكب من كل مكان، والمسافة من دمشق إلى طرابلس ثلاثة أيام؛ الواقي: فتوح الشام، ج1، ص98؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص469.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص92؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص32.

(8) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص93؛ أبو الفداء: البواقيت، ص27.

(9) كفر توثا: من كور نصيبين من ديار ربيعة، فتحها عياض بن غنم، ولها حصن قديم، وهي مدينة سورها لبن وبها منبر، وبها نهر خارج عن المدينة وآبار عذبة؛ الحميري: الروض المعطار، ص499.

(10) ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص196.

أطرافهم⁽¹⁾، وفي (13 ذي الحجة 358/ 28 أكتوبر (تشرين الأول) 969م) فتح أنطاكية⁽²⁾ وحرقتها أيضاً⁽³⁾.

ومن الواضح هنا كمية الحرق والتخريب الكبيرة في كل المناطق التي دخلها، بهدف تحقيق أكبر قدر من الخسائر لتظل تلك المناطق ضعيفة ومنهكة وغير قادرة على رد هجماته، خاصة مع انعدام أي مقاومة من الحمدانيين، كما نلاحظ استهداف المساجد بالحرق والتخريب، في إشارة إلى الدوافع الدينية لتلك الهجمات.

الصراع الفاطمي البيزنطي:

في وقت ظهور الفاطميين، كان الحمدانيون في حالة سيئة، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن ثغور الإسلام كما يجب، بسبب التنزاع فيما بينهم، ولم يستطع الفاطميون الوصول إلى البيزنطيين، لوجود الحمدانيين في شمال الشام، والقرامطة في جنوب الشام، واستغل البيزنطيون تلك الأوضاع وصلوا وجالوا في بلاد الشام⁽⁴⁾.

حيث إنهم في (رمضان 364هـ/مايو (أيار) 878م) استطاعوا هزيمة أفتكين، ودخلوا بعلبك، فأخذوا منها ومما حولها سلباً كثيراً، وأحرقوا، وانتشرت خيلهم وسراياهم في أعمال بعلبك والبقاع تحرق وتسبي، وامتدوا إلى الزيداني⁽⁵⁾، فأخذ الناس عليم المضايق، ومنعومهم من الدخول إلى الوادي⁽⁶⁾، وفي (19 جمادى الأولى 373هـ/29 أكتوبر (تشرين الأول) 983م) هاجم البيزنطيون حمص يريدون مالاً، فامتنع أهلها، فنهبوا وسبوا، وحرقوا الجامع ومواقع كثيرة في المدينة، كما احترق الكثير من الناس في تلك الحرائق⁽⁷⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص313.

(2) أنطاكية: بتخفيف الياء، مدينة عظيمة على أطراف بلاد الشام، وتقع على ساحل البحر، وهي مدينة حسنة الموضع كريمة البقعة ليس بعد دمشق أنزه منها داخلاً وخارجاً؛ الحميري: الروض المعطار، ص38.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص95؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص28.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص313؛ العبادي، أحمد: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص329؛ عبد المنعم، ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص118.

(5) الزيداني: كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك منها يخرج نهر البردي؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص130.

(6) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج1، ص221.

(7) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص18-19؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص102؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص31؛ المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج1، ص259.

لكن المواجهة المباشرة بين الفاطميين والبيزنطيين بدأت بعد وفاة سعد الدولة الحمداني، حيث قرر العزيز الفاطمي الاستيلاء على حلب بتشجيع من الوزير أبي الحسن المغربي، فجهز جيشاً كثيفاً أنفق عليه أكثر من مليون دينار سيّره إلى حلب بقيادة منجوتكين فلما وصل إلى دمشق تلقاه أهلها وقوادها، فأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب ومعه زهاء ثلاثين ألف مقاتل⁽¹⁾، ومن أجل مواجهة النفوذ الفاطمي اتصل أبو الفضائل⁽²⁾ ومولاه لؤلؤ، بالإمبراطور البيزنطي باسيل، فبعث إلى البرجي واليه على أنطاكية، فسار في جيشه، ونزل بجسر الحديد بين أنطاكية وحلب⁽³⁾.

استشار منجوتكين قادته فأشاروا عليه بمواجهة البيزنطيين وترك حصار حلب، ونزل على مشورتهم وباغت البيزنطيين قبل اجتماعهم بأبي الفضائل، وتمكن من هزيمتهم، ودخل منجوتكين أنطاكية عام (381هـ/991م)، وقام بنهبها وإحراقها وما حولها، فأنفذ أبو الفضائل جنده فنقل الغلال إلى حلب، وأحرق الباقي للإضرار بالجيش الفاطمي، ثم عاد منجوتكين لحصار حلب⁽⁴⁾.

واشتد الحصار على لؤلؤ وأبي الفضائل بحلب وعدمت الأقوات عندهم بداخل حلب، فكتبوا ملك الروم ثانياً وقالوا له: "متى أخذت حلب أخذت أنطاكية ومتى أخذت أنطاكية أخذت قسطنطينية"⁽⁵⁾، فلما سمع ملك الروم ذلك سار بنفسه في مائة ألف وتبعه من كل بلد من معاملته عسكريه⁽⁶⁾، فلما قرب من البلاد أرسل لؤلؤ إلى منجوتكين يقول إن الإسلام جامع بيني وبينك وأنا ناصح لكم وقد وافاكم ملك الروم بجنوده فخذوا لأنفسكم⁽⁷⁾، ثم جاءت جواسيس

(1) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص27؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص325.

(2) أبو الفضائل: سعيد بن شريف بن علي الحمداني، من ملوك الدولة الحمدانية في حلب، ولي بعد وفاة أبيه سعد الدولة عام 381هـ/991م، ولقب سعيد الدولة، دخل في نزاع مع الفاطميين، ومات مسموماً بحلب عام 392هـ/1002م؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص105، 109.

(3) أبو شجاع: ذيل تجارب الامم، ص132؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص27؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص455؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص105.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص27-28؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص456؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص106؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص325.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص456؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص120.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص120. وذكر المقرئ أن عدد جنود الروم أربعون ألفاً فقط؛ اتعاط الحنفا، ج1، ص285.

(7) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص120.

منجوتكين فأخبروه بمثل ذلك فأحرق منجوتكين الخزائن والأسواق⁽¹⁾، والبيوت والحوانيت التي كان بناها عسكريه أثناء حصار حلب، وولى منهزماً وبعث أثقاله إلى دمشق في (ربيع الأول 385هـ/ابريل/نيسان) 995م⁽²⁾، ومن المؤكد أن قيام منجوتكين بالحرق كان من أجل أن لا يستفيد خصومه من ما بناه.

وبعد انسحاب منجوتكين إلى دمشق، وصل ملك الروم فنزل على باب حلب وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ وعادا إلى حلب، ثم سار هو إلى الشام فدخل حمص وشيزر ونهبها وسار إلى طرابلس فنازلها فامتعت عليه وأقام عليها أكثر من أربعين يوماً، فلما يئس منها عاد إلى بلاده⁽³⁾.

وفي أوائل عهد الحاكم بأمر الله (9 رجب 388هـ/7 يوليو/تموز) 998م، استمرت الخصومة بين الفاطميين والبيزنطيين، واستطاع الفاطميون بقيادة جيش بن الصمصامة الانتصار على جيوش البيزنطيين، ودخول مرعش⁽⁴⁾ وحرقها⁽⁵⁾، ورد البيزنطيون بعد ذلك بعام في (ذي الحجة 389هـ/نوفمبر/تشرين الثاني) 999م) بهجوم على الشام، حيث هاجموا مدينة حمص وسبوا أهلها وأحرقوا بها عدة أماكن⁽⁶⁾.

ثم وقّع الحاكم بأمر الله هدنة مع البيزنطيين، واستمر الهدوء بين الطرفين لمدة طويلة لانشغال كل منهما بشئونه الداخلية، لكن على إثر خلاف بين المستنصر والإمبراطور البيزنطي عام (447هـ/1055م)، تجدد الصراع بينهم، وهاجم المستنصر حصن قسطل، وحاصر قلعة أفامية⁽⁷⁾ ورماها بالمجانيق، فطلب أهلها الأمان على أن يرحلوا عنها؛ فلما رحلوا أحرقوا القلعة وانهزموا، فلحقهم وقتلهم، وأطفأ النار من القلعة، وأغار على البلاد، حتى وصل أنطاكية⁽⁸⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص456؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص120؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص286.

(2) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص286.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص456؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص120-121؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص286.

(4) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني وبها روض يعرف بالهارونية؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص107.

(5) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج2، ص19.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص32.

(7) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص227.

(8) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج2، ص230.

وبعد ذلك خرجت مناطق شمال الشام عن سيطرة الفاطميين، وظل البيزنطيون مسيطرين على منطقة الثغور الشامية، يشنون الغارات من وقت لآخر داخل بلاد الشام، ومنها في (شوال 454هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1062م) حيث هاجموا مريمين العقبة⁽¹⁾، وأحرقوها، ونهبوها⁽²⁾، وفي عام (462هـ/1069م) دخل ملك الروم ثغر منبج وأحرقه⁽³⁾، وأحرق ما بينه وبين بلاد الروم من الضياع والقرى، وقتل رجالهم، وسبى نساءهم، وخاف أهل حلب خوفاً شديداً، ثم انقطعت الإمدادات عنهم فهلك من معه جوعاً فرجع إلى بلاده⁽⁴⁾، وفي عام (464هـ/1071م) هاجموا معرة مصرين⁽⁵⁾ وأحرقوا بعضها، وقتلوا من قدروا عليه⁽⁶⁾.

وبذلك تكون قد انتهت مرحلة الصراع الإسلامي البيزنطي بالعديد من الحرائق وكثير من الخراب والتدمير في منطقة الثغور الشامية، والأجزاء الشمالية من بلاد الشام، لتبدأ بعد ذلك مرحلة أخرى أكثر قسوة وأشد ضراوة حيث يعم الحريق والخراب والتدمير كل أنحاء بلاد الشام مع قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام.

ثالثاً: الصراع الإسلامي الصليبي.

لقد بعثت الحروب الصليبية الرعب والفرع والتخريب والتدمير، وجلبت الجذب والقحط أينما حلت، سيما البلاد الشامية، وكانت الحرائق إحدى تلك الطرق التي استخدمها المتحاربون في التدمير والتخريب، والقضاء على الاستحكامات الدفاعية والمعدات الهجومية، خاصة وأن مدة الحروب الصليبية كانت مليئة بالمعارك الطاحنة والغزوات المدمرة، لذلك سنتطرق إلى الحرائق التي حدثت نتيجة هذا الصراع مع توضيح الأسباب التي تقف وراء كل حريق.

الصراع الإسلامي الصليبي زمن الفاطميين والسلاجقة:

عندما دخل الصليبيون بلاد الشام كانت كل مدينة كبيرة تقريباً إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربي، تابع للفاطميين أو الأتراك السلاجقة، وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين

(1) مريمين العقبة: من قرى حلب المشهورة؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص119.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص162.

(3) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص64.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج16، ص116؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص99.

(5) معرة مصرين: بفتح أوله وثانيه وتشديد الراء، وهي بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها بينهما نحو خمسة فراسخ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص155.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص180.

هذه الكيانات السياسية الصغيرة سبباً في العداء السياسي والعسكري الذي سبب تنافر هذه القوى وعدم توحيدها في مواجهة الغزو الصليبي⁽¹⁾.

فكانت معرة النعمان من أوائل المدن الشامية سقوطاً في أيدي الصليبيين في (24 محرم 492هـ/21 ديسمبر (كانون الأول) 1098م)، فقتلوا فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي، وهدموا سور البلد وأحرقوا مساجدها ودورها وكسروا المناير⁽²⁾، وأشعلوا النيران في عدة مواضع لكي تطلق الدخان مع استخدام الأبخرة الكبريتية لإجبار المسلمين المختبئين في المغارات على الخروج، ونهبهم وقتلهم⁽³⁾.

واستمر تقدم الصليبيين في بلاد الشام يقتلون ويدمرون ويأخذون المدن، حتى وصلوا مدينة القدس، وكانت هذه المدينة من أمنع الحصون في العصور الوسطى، واهتم حكامها جميعاً بتعمير أسوارها وإصلاحها، فكانت الخنادق تحيط بها من جهاتها في الشرق والجنوب والغرب، سوى الطرف الجنوبي الغربي، حيث يقطعها الجبل، لهذا لم يتيسر الهجوم على المدينة إلا من هذا الطرف⁽⁴⁾، وبالفعل فقد نصب الصليبيون الأبراج الخشبية⁽⁵⁾، وأسندوا السلام الخشبية على أسوار القدس لاقتحامها، في المقابل فإن أهل القدس زادوا في تحصين المدينة وشددوا الحراسة على الأبراج والقلاع خاصة أثناء الليل⁽⁶⁾.

وفي يوم (21 شعبان 492هـ/13 يوليو (تموز) 1099م) قام الصليبيون بمحاولة لاقتحام المدينة، لكن هجومهم باء بالفشل، بسبب قلة السلام⁽⁷⁾، والمقاومة العنيفة التي أبدتها أهالي المدينة، حيث استطاعوا حرق أحد الأبراج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه⁽⁸⁾، كما احترقت الكثير من المعدات العسكرية للصليبيين⁽⁹⁾، لكن بعد يومين تمكن الصليبيون من دخول

(1) عبده، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص 98-99.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 244-245.

(3) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص 242.

(4) شاهين، رياض: أوضاع اليهود، ص 13.

(5) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص 282؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص 317؛ ابن القلانسي، تاريخ، ج 1، ص 81.

(6) مجهول: يوميات، ص 167-169.

(7) مجهول: أعمال الفرنجة، ص 115؛ الشارتر، فوشيه: تاريخ الحملة، ص 73.

(8) توديبود: تاريخ الرحلة، ص 316؛ الرهاوي مجهول: الحملتين، ص 93؛ ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 19.

(9) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص 294.

القدس، بعد حصار دام 38 يوماً⁽¹⁾، بعد أن أطلقوا النيران على تحصينات المسلمين مما أدى لحرقها وابتعاد المدافعين عن السور، وتمكن الصليبيون من الدخول إلى المدينة⁽²⁾، وارتكبوا فيها مجازر دموية بشعة، راح فيها من الشهداء ما يزيد على السبعين ألف شخص⁽³⁾، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف⁽⁴⁾، وكانت الجثث والأشلاء والدماء من الكثرة أن وصلت الدماء إلى قوائم خيول الصليبيين⁽⁵⁾، وقام الصليبيون بعد ذلك بطرح جثث المسلمين خارج القدس لحرقها خشية انتشار الأوبئة، ولشدة النتن المتصاعد منها وبلغ من كثرة عدد جثث المسلمين أنها حادت البيوت ارتفاعاً⁽⁶⁾، لكن الحرق لم يتوقف على الجثث فقط، فقد قام الصليبيون أيضاً بتعذيب بعض المسلمين وحرقهم أحياء حتى الموت في النار الملتهبة⁽⁷⁾، كما أن اليهود لم يسلموا من القتل، حيث أحرق الصليبيون حيهم بما فيه الكنيس الذي تجمعوا فيه⁽⁸⁾، وكذلك أحرقوا ما كان بيت المقدس من المصاحف والكتب⁽⁹⁾.

وعندما علم الأفضل الفاطمي بزحف الصليبيين إلى بيت المقدس، حشد العساكر وخرج إليهم، ليحول دون استيلائهم عليها، وسار إلى عسقلان⁽¹⁰⁾، ووصلها في (14 رمضان 492هـ/4 أغسطس (آب) 1099م) بعد عشرين يوماً من احتلال الصليبيين للقدس⁽¹¹⁾. وأرسل الأفضل إلى الصليبيين يوبخهم وينكر عليهم ما فعلوا ويتهدهم، فأعادوا الرسول بالجواب، وحشدوا جنودهم من المناطق كافة، وساروا إلى عسقلان لكي يأخذوا الأفضل على

(1) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص76؛ توديبود: تاريخ الرحلة، ص319.

(2) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص295.

(3) توديبود: تاريخ الرحلة، ص316؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص19.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص19.

(5) أتو: المدينتان، ص332.

(6) مجهول: أعمال الفرنجة، ص119-120؛ الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص75.

(7) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص295؛ جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص326.

(8) ابن القلانسي، تاريخ، ج1، ص81؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص19. الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص47.

(9) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص23.

(10) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

Roscoe, Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p302.

(11) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

حين غرة⁽¹⁾، بعد أن علموا بنيته التوجه للقدس وقتال الصليبيين⁽²⁾، وبالفعل وصلوا إلى عسقلان في غفلة من الأفضل وجنوده⁽³⁾ يوم (22 رمضان 492هـ/12 أغسطس (آب) 1099م)⁽⁴⁾، فانهزم الأفضل ودخل عسقلان⁽⁵⁾، ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز وكان هناك كثيراً فأحرق الصليبيين بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر⁽⁶⁾، تاركاً سكان مدينة عسقلان دون حماية من الجيش الصليبي⁽⁷⁾، وحاصر الصليبيون عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها عشرين ألف دينار ثم عادوا إلى القدس⁽⁸⁾.

وفي (رجب 494هـ/مايو (أيار) 1101م) دخل الصليبيون بقيادة بلدوين الأول قيسارية بمساعدة من الأسطول الجنوبي⁽⁹⁾ بعد حصار دام خمسة عشر يوماً⁽¹⁰⁾، ومقاومة شديدة من أهلها، وانتقاماً من أهلها، ارتكبوا مذبحه بشعة ضد سكان المدينة، ونهبوا كل ما فيها⁽¹¹⁾، كما قاموا بحرق جثث الموتى، وذلك للتخلص من رائحة الجثث المنتنة، والحصول على الدنانير الذهبية التي ابتلعوها كي لا يستولي عليها الصليبيون⁽¹²⁾، وهناك من يرى أن الصليبيين كانوا يأملون من وراء ذلك أن يلقوا في قلوب المسلمين الرعب، فيبادروا إلى الفرار من بلادهم ويتركوا

(1) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21؛ حبشي، حسن: الحرب الصليبية الأولى، ص87.

(2) توديبود: تاريخ الرحلة، ص337.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21.

(4) توديبود: تاريخ الرحلة، ص342؛ سميل: فن الحرب، ص259.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

(7) Roscoe, Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p303.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص86.

(9) قيسارية : مدينة بالشام على ساحل البحر كبيرة عظيمة وحصينة، بينها وبين يافا ثلاثون ميلاً وكانت من أمنع مدن فلسطين، وبينها وبين صور ثمانية فراسخ ؛ الحميري: الروض المعطار، ص486.

(10) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114-115؛ فنك، هارولد: تأسيس الإمارات اللاتينية، ص76.

(11) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114-115؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص43.

(12) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114-115.

Albert d, Aix, Historia Hierosolymitana, p 542.

أراضيهم، وبذلك يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على المزيد من الأراضي العربية اللازمة لاستيطانهم⁽¹⁾.

وخلال محاولات الصليبيين الاستيلاء على مدن الساحل الشامي التي مازالت مع الفاطميين، قام الصليبيون بقيادة بلدوين الأول بحصار مدينة عكا⁽²⁾ في (جمادى الآخرة 496هـ/مارس (آذار) 1103م)، ونصبوا عليها المنجنقات والأبراج، لكن المقاومة القوية من أهل المدينة حالت دون سقوطها في أيديهم، حيث هاجموا منجنقاتهم وأبراجهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم أيضاً⁽³⁾، وفي رجب من العام نفسه خرجت العساكر الفاطمية من مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية، فسمع بهم بلدوين الأول فسار إليهم في سبعمئة فارس، وقاتلهم فانتصر المسلمون وانهزم الصليبيون وكثر القتل فيهم⁽⁴⁾ وانهزم بلدوين الأول فاختفى بين القصب، فأحرق القصب ولحقت النار بعض جسده⁽⁵⁾.

وفي شمال بلاد الشام كانت هناك محاولات للصليبيين لفرض نفوذهم فهاجموا المناطق المحيطة بمدينة حلب وأحرقوها أكثر من مرة عام (496هـ/1103م)⁽⁶⁾، وفي (19 ذي الحجة 497هـ/12 سبتمبر (أيلول) 1104م) هاجم فخر الملك ابن عمار⁽⁷⁾ صاحب طرابلس الحصن الذي بناه الصليبيون بالقرب من طرابلس لمحاصرتها، فقتل من به ونهب ما فيه وأحرقه وأخرب

(1) الجندي، جمعة: الاستيطان الصليبي، ص32.

(2) عكا : مدينة كبيرة، من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان، بها ميناء نشيط تجارياً، ويلتقي بها التجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، وسككها وشوارعها تغص بالزحام؛ الحميري: الروض المعطار، ص410.

(3) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص130؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص56؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص214.

(4) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص126؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص56؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص44؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص126.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص56؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص44؛

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص247.

(7) ابن عمار: صاحب طرابلس كان من دهاة الرجال وأفراد الزمان شجاعة وإقداماً ورأياً وحزماً، ابتلي بلده بحصار الصليبيين خمسة أعوام، وهو يقاومهم وينكي في العدو ويستظهر عليهم ويراسل ملوك الأطراف ويتحفهم بالهدايا وهم حائرون في أنفسهم ولم ينجده أحد، وقد راسل صاحب الروم مرات وكان حسن التدبير في الحصار جيد المكيدة والمخادعة براً وبحراً شتاءً وصيفاً حتى تقانت رجاله وكلت أبطاله فركب في البحر وطلع حتى قدم دمشق وأخذت طرابلس منه؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص311.

وأخذ منه السلاح والمال والشيء الكثير، كما أحرق الريض المحيط به، وعاد إلى طرابلس⁽¹⁾، كما قام ظهير الدين أتابك في (شعبان 498هـ/ أبريل (نيسان) 1105م) بحرق حصن ريفية⁽²⁾ وهو من حصون الصليبيين الجديدة التي أقاموها في الشام⁽³⁾.

وفي (25 جمادى الأولى 505 / 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 1111م) حاصر الصليبيون مدينة صور⁽⁴⁾، ونصبوا ثلاثة أبراج من الخشب على سور المدينة، من أجل اقتحامها ورميها بالنيران، لكن أهل صور كانوا يواجهون كل حيل الصليبيين بحيل أقوى، واستطاعوا حرق الأبراج، ودحر الصليبيين عن المدينة⁽⁵⁾، ويروي ابن الأثير براعة أهل المدينة في حرق الأبراج: "وكانت صور للأمر بأحكام الله العلوي ونائبه بها عز الملك الأعز فأحضر أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج عنهم فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام ومع كل رجل منهم حزمة حطب فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا البرج الملتصق بالمدينة فألقى الحطب من جهاته وألقى فيه النار ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلصوا فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث فتمكنت النار منه فهلك كل من به إلا القليل وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلايب⁽⁶⁾ ثم أخذ سلال العنب

(1) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص87؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص95؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص73؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص364.

(2) ريفية: كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها ريفية تدمر، وقيل ريفية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص55؛ ابن الأثير: اللباب، ج2، ص32؛ ابن ناصر الدين: توضيح المشتبه، ج4، ص300.

(3) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص89.

(4) صور: مدينة على ساحل البحر المتوسط، تقع في جنوب لبنان في منتصف المسافة بين صيدا وعكا، بها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان، وهي حصينة ويضرب بها المثل في الحصانة، ولها بابان أحدهما في البر والآخر في البحر، ويحيط بها البحر إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، والذي في البحر هو مدخل بين برجين مقدرين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب؛ الحميري: الروض المعطار، ص369.

(5) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص150؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص144.

(6) الكلايب: آلة حديدية معوجة الرأس ينشل بها الشيء أو يعلق؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1949.

الكبار وترك فيها الحطب الذي قد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين⁽¹⁾.

وأثناء حصار صور من الصليبيين حاول طغتكين⁽²⁾ صاحب دمشق تخفيف الحصار على أهل صور، فقام بغارات متعددة على أعمال الصليبيين في أكثر من مكان، ومنها غارة على مدينة صيدا⁽³⁾، حيث قتل جماعة من الصليبيين وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل⁽⁴⁾، وأمام المقاومة الشديدة من أهل صور وهجمات طغتكين، اضطر الصليبيون إلى الرحيل عن صور وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها لسكناهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي أخذوا بعضاً من أخشابها لصنع الأبراج⁽⁵⁾.

وضمن غارات المسلمين الخاطفة على الصليبيين قامت حامية عسقلان عام (506هـ/1113م) بمهاجمة محيط مدينة القدس وحرقت المحاصيل المجمعة حول أسوار المدينة⁽⁶⁾، وفي عام (509هـ/1115م) حاصر المسلمون بقيادة برسق كفر طاب، فلما اشتد الحصار على الصليبيين، ورأوا الهلاك أحرقوا أموالهم والحصن، لكي لا يستفيد منه المسلمون، ودخل المسلمون البلد عنوة وقهروا وأسروا صاحبه وقتلوا من بقي فيه⁽⁷⁾، وعندما علم صاحب أنطاكية بما حدث، خرج بجيشه للانتقام فوجد بعض السوقية والغلمان فقتل بعضهم وأحرق الكثير منهم⁽⁸⁾، وفي عام (511هـ/1118م) قصد بلدوين الأول الأراضي المصرية، وأثناء

(1) الكامل، ج9، ص144. للمزيد ينظر ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص108-110.

(2) طغتكين: صاحب دمشق الملك أبو منصور طغتكين الأتابك من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، وكان شهماً شجاعاً مهيباً مجاهداً في الفرنج مؤثراً للعدل يلقب ظهير الدين، وتوفى في عام 522هـ/1128م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص519.

(3) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص437.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص108؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص146؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص24.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص110؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص182؛ عمران، محمود: تاريخ الحروب الصليبية، ص49.

(6) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص153.

(7) ابن المنقذ: الاعتبار، ص73؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص159.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص159؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص34.

مسيره دخل مدينة غزة وقام بالتخريب فيها وحرقت مساجدها⁽¹⁾، وفي عام (513هـ/1119م) قام أسامة بن منقذ بحرق حصنه في كفر طاب، خوفاً من استيلاء الصليبيين عليه⁽²⁾.

وبعد ذلك شن الصليبيون العديد من الغارات على الأراضي الإسلامية، ومنها وفي (شوال 514هـ/ديسمبر (كانون الأول) 1120م) أغار جوسلين على النقرة والأحص⁽³⁾، وقتل وسبى وأحرق كل ما في النقرة والأحص، بحجة أن حاكم منبج قام بأسر أحد رجاله⁽⁴⁾، وفي العام التالي هاجم الصليبيون بزاغا⁽⁵⁾ وأحرقوا بعض جدارها، وتعرض حصن الأثارب⁽⁶⁾ للهجوم ثلاث مرات وأحرقوا ما به من الدور والغلل والجدار⁽⁷⁾، ليسقط في أيديهم عام (517هـ/1123م)⁽⁸⁾.

وسار بلدوين الثاني⁽⁹⁾ في العام نفسه ليقا تل نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق، ويخلص جوسلين من الأسر، إلا أنه هزم ووقع في الأسر مع جوسلين في قلعة خرتبرت⁽¹⁰⁾، ثم سار بلك إلى أرض التيرب وجبرين⁽¹¹⁾، وأمر بحرق الغلة وأخذ الدواب، في محاولة مما يبدو للتضييق على خصومه⁽¹²⁾، وأثناء غارات بلك قام مجموعة من الأرمن بمهاجمة قلعة خرتبرت⁽¹³⁾

(1) العليمي: الأتس الجليل، ج1، ص309.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص274.

(3) النقرة والأحص: بلدتان من أعمال حلب؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص112.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص276؛ نيكلسون، روبرت: تطور الدويلات اللاتينية، ص109.

(5) بزاغا: مدينة صغيرة من أعمال حلب لها حصن مانع وعليه خندق؛ ابن العديم: بغية الطل، ج1، ص270.

(6) الأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، وتحت جبلها قرية تسمى

باسمها فيقال لها الأثارب؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص89.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص277.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص221.

(9) بلدوين الثاني: هو ابن هيو الأول، وهو ابن عم جود فري وبلدوين الأول، وقد خلف بلدوين الأول على ولاية الرها أولاً عام 494هـ/1100م، ثم على مملكة بيت المقدس عام 512هـ/1131م؛ الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص185؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص146.

(10) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص284؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص66.

(11) التيرب وجبرين: من القرى التي تقع بين دمشق و بعلبك وهي أقرب لدمشق؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان،

ج2، ص102؛ ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه، ج4، ص1505.

(12) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص284.

(13) خرتبرت: هو الحصن المعروف بحصن زياد في أقصى ديار بكر، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما

الفرات؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص355.

واستطاعوا تحرير جوسلين، لكن عسكر بك باغتهم وحاصرهم ومعهم بلدوين داخل القلعة حتى قدوم بك⁽¹⁾، الذي طلب من بلدوين تسليم القلعة إلا أنه رفض، فأمر بك بجلب الأخشاب وإشعال النيران في دعائم الأبراج حول القلعة، مما أدى إلى حرق الدعائم وانهيار البرج القريب من النار، وسقوط القلعة في يد بك وأسر بلدوين للمرة الثانية⁽²⁾، في تلك الأثناء في (رجب 517هـ/ أغسطس (آب) 1123م) وصل جوسلين إلى القدس، واستتجد بهم، فخرج مع قوة لتحرير بلدوين، أثناء مسيره هاجم بزاغا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق بابها وقطع أشجارها، وأحرق ما سواه من الوادي، وأحرق مشاهد القبور والبساتين⁽³⁾.

وفي (محرم 528هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1133م) أغار شمس الملوك⁽⁴⁾ صاحب دمشق على بعض المناطق التي كانت بحوزة الصليبيين، لأنهم نقضوا الهدنة مع دمشق⁽⁵⁾، حيث هاجم طبرية⁽⁶⁾ والناصرية⁽⁷⁾ وعكا وما يجاورها من البلاد فنهب وخرّب وأحرق⁽⁸⁾، ونلاحظ هنا كثرة أعمال التخريب والحرق بين المسلمين والصليبيين، حيث يهدف كل من الطرفين إلى القضاء على موارد الأخر، وإنهاكه للقضاء عليه.

وكانت الجبهة الجنوبية للصليبيين قد شهدت هدوءاً لمدة طويلة لعدم قيام الفاطميين بأي تحركات عسكرية ضد الصليبيين، ولم يتغير ذلك الوضع إلا عندما تولى الوزارة العادل بن السلار الوزير الفاطمي، الذي أرسل أسطولاً بحرياً من سبعين مركباً مشحوناً بالرجال والسلاح

(1) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص205؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص66؛ نيكلسون، روبرت: تطور الدويلات اللاتينية، ص111.

(2) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص205.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص286.

(4) شمس الملوك: صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بوري بن الأتابك طغتكين التركي، تملك بعد أبيه في رجب عام 526هـ/1132م، وقتل في ربيع الأول عام 529هـ/1135م وله ثلاث وعشرون سنة؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص575.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص150؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص273؛ الخطيب، إبراهيم: تاريخ الدولة الزنكية، ص48.

(6) طبرية: بلدية مظلة على بحيرة طبرية، ويطل عليها جبل الطور. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص150؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص17.

(7) الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص251.

(8) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص150؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص273.

لمهاجمة الصليبيين في سواحل الشام في (ربيع الأول 546هـ/يونيو/حزيران) 1151م⁽¹⁾، رداً على قيام الصليبيين بتخريب الفرما⁽²⁾، حيث قام ذلك الأسطول بمهاجمة الصليبيين في يافا⁽³⁾ وعكا وصيدا وبيروت⁽⁴⁾ وطرابلس، فقتلوا وأسروا منهم الكثير، واستولوا على العديد من المراكب والغنائم، وما عجزوا عن أخذه أحرقوه⁽⁵⁾.

رداً على هجوم الفاطميين حاصر الصليبيون مدينة عسقلان آخر المدن الساحلية التابعة للفاطميين في بلاد الشام عام (548هـ/1153م)، ونصبوا عليها الأبراج والمنجنيقات وغيرها من آلات الحصار، وشنوا هجمات عنيفة على المدينة، في ظل مقاومة شديدة من أهل عسقلان⁽⁶⁾، الذين حاولوا بعد خمسة أشهر من الحصار حرق آلات الحصار المنصوبة على السور، فقاموا بجمع الأخشاب الجافة ووضعوها بين السور والآلات وصبوا عليها القار والزيت وسوائل أخرى تزيد الاحتراق، وأشعلوا النار فيها فاتقدت بسرعة كبيرة، لكن الرياح عكست النار فأرمتها على سور المدينة فظل مشتعلًا طوال الليل، حتى وقع جزء من السور وتمكن مجموعة من الصليبيين من دخول المدينة، قبل أن يتمكن أهل عسقلان من إغلاق الثغرة بالدعائم الخشبية، وكان حرق السور وسقوطه من الأحداث المهمة التي أدت في نهاية الأمر إلى استسلام المدينة وسقوطها في يد الصليبيين⁽⁷⁾.

(1) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص190؛ أبو شامة: الروضتين، ص266؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص202.

(2) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص202.

(3) يافا: تقع على ساحل البحر إلى الغرب من الرملة على ثمانية أميال منها، وهي من موانئ فلسطين؛ ابن خردادبة، المسالك والممالك، ص79؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص174.

(4) بيروت: إلى الشمال من صيدا على اثنين وعشرين ميلاً منها؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص525.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص190؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص266؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص202.

(6) الصوري، وليم: تاريخ، ص171؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص193؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص107.

(7) الصوري، وليم: تاريخ، ص171-172؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص107-108.

وفي عام (550هـ/1155م) كانت مرة يتصدى فيها الفاطميون للصليبيين في الشام، حيث قام الأسطول الفاطمي بالهجوم على ميناء صور وحرقه، وإحراق سفينة كبيرة للصليبيين، بعد أن نهبها وقتل من فيها⁽¹⁾.

الصراع الإسلامي الصليبي زمن الزنكيين:

كان ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث في بلاد الشام، مصدر قلق كبير للصليبيين، ذلك أن زنكي حقق العديد من الانتصارات عليهم واستطاع توحيد الكثير من المدن الشامية تحت قيادته، والأهم من ذلك هو رغبة زنكي القوية في القضاء على الصليبيين من بلاد الشام من خلال تكوين جبهة موحدة من الموصل وبلاد الشام ضدهم، لذلك استعان الصليبيون بالإمبراطور البيزنطي لمساعدتهم في القضاء على زنكي، وبالفعل حاصرت قوات التحالف الصليبي البيزنطي مدينة حلب، فتصدى لهم سوار بن إيتكين عامل زنكي على المدينة وأهالي حلب، مما أجبر القوات الغازية على الانسحاب أمام صلابة المقاومة والهجمات التي أدخلت الرعب في قلوبهم، واتجهوا بعد ذلك إلى حصن الأثارب في (8 شعبان 532هـ/20 أبريل/نيسان 1138م) فخاف من بقلعة الأثارب من الجند المسلمين، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان، وأحرقوا خزانهم لكي لا تقع في يد الصليبيين، الذين استولوا على الحصن وتوجهوا إلى شيزر وحاصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً، لكن صمود أهل المدينة، وقدم قوات سلاحفة الروم وقوات زنكي لنجدة المدينة، أجبر الصليبيين على الانسحاب وحرقت آلات الحصار قبل رحيلهم⁽²⁾.

بعد سقوط الرها في يد المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي، جهز ملوك أوروبا حملة جديدة لوقف التمدد الإسلامي، فخرجوا ومعهم أمراء الإمارات الصليبية في الشام لمحاصرة مدينة دمشق والاستيلاء عليها في (ربيع الأول 543هـ/ يوليو/تموز 1148م)⁽³⁾، لكن المقاومة العنيفة من أهل المدينة، والإمدادات العسكرية القادمة مع أبناء زنكي، أجبرت الصليبيين على

(1) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص199؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص320؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص224؛ زيود، محمد: العلاقات بين الشام و مصر، ص 282-283.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص316-318؛ للمزيد ينظر الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص86-87؛ الخطيب، إبراهيم: تاريخ الدولة الزنكية، ص57؛ نيكلسون، روبرت: تطور الدويلات اللاتينية، ص122-123.

(3) الصوري، وليم: تاريخ، ص122؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص12-13؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص101.

الانسحاب عن دمشق مخلفين خلفهم الكثير من القتلى⁽¹⁾، وكانوا قد أحرقوا جامع داريا⁽²⁾ الكبير أثناء الحصار⁽³⁾، كما وكعادة الجيوش المنسحبة حرقوا ما لا يستطيعون حمله من أدوات ومنشآت الحصار كي لا تقع في أيدي المسلمين، الذين استبشروا خيراً برؤية الحرائق التي تدل على بداية فك الحصار عن المدينة وانسحابهم عنها⁽⁴⁾.

وبعد أن تمكن نور الدين محمود من توحيد الجبهة الشمالية في بلاد الشام تحت قيادته، وتبادل هو والصليبيون الغارات كل على أراضي الطرف الآخر، حدثت العديد من عمليات الحرق المتبادل بين الطرفين ومنها، قيام نور الدين بحرق وتخريب عدد من حصون الصليبيين أثناء فتح حصن أنطرسوس عام (547هـ/1152م)⁽⁵⁾، وفي (صفر 553هـ/مارس) آذار (1158م) أغار الصليبيون على أعمال حوارن وقاموا بحرق وتخريب الضياع هناك، ثم قصدوا داريا في نهاية الشهر نفسه فأحرقوا منازلها وجامعها، حتى خرج لهم الناس والعسكر وصدوهم عن المدينة⁽⁶⁾، وذلك كان في غياب نور الدين عن دمشق ووجوده في الشمال⁽⁷⁾.

واستمرت بعد ذلك غارات نور الدين على الأراضي الصليبية، فهاجم عام (562هـ/1166م) عدد من المناطق والحصون، ولما علم الصليبيون بقدمه إلى حصن هونين⁽⁸⁾ أحرقوه، فوصل إليه نور الدين وخرّب سورته وعاد⁽⁹⁾، وفي (جمادى الآخرة 565هـ/فبراير) شباط (1170م) أرسل نور الدين إلى صلاح الدين أباه نجم الدين وأهله، فسيرهم نور الدين إليه مع عسكر، وعدد كبير من التجار، وخاف نور الدين عليهم من الصليبيين،

(1) الصوري، وليم: تاريخ، ص127-130؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص180-181؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص12-13؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص102، موسي، تيسير: غزوات الأفرنج، ص137.

(2) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص431.

(3) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص332؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص376.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص181؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص188.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج1، ص280.

(6) الصوري، وليم: تاريخ، ص235؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص211؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص361.

(7) الصوري، وليم: تاريخ، ص235؛ جب، هاملتون: سيرة نور الدين، ص168.

(8) هونين: حصن للإفرنج بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ؛ ابن جبير: رحلة، ج1، ص210.

(9) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص5؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص349؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص128؛ بعض المصادر المتأخرة ذكرت ان نور الدين هو من حرق الحصن. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص7؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص291.

فسار في عساكره إلى الكرك⁽¹⁾ فحاصرها ونصب عليها المنجنيق، فتجمع الصليبيون، وساروا إليه، فرحل نور الدين نحوهم قبل أن تلحقهم بقية عساكر الصليبيين فرجعوا خوفاً منه، وسلك نور الدين وسط بلادهم، وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاده⁽²⁾.

وفي (ربيع الأول 566هـ/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1170م) انطلق صلاح الدين من مصر، وحاصر قلعة الداروم⁽³⁾ في السابع والعشرين من الشهر، ونصب عليه المنجنيق، وأشعل النار في أحد أبراج القلعة، مما أدى لسقوطه نتيجة الحريق، وكان قد علم صلاح الدين بقدم الصليبيين لنجدة القلعة فسار لملاقاتهم وترك القلعة⁽⁴⁾.

وبعد ذلك عقد نور الدين هدنة مع الصليبيين، لكنهم غدروا واستولوا على مراكب تجارية للمسلمين في البحر، فقام نور الدين بمهاجمة المناطق الصليبية حول طرابلس في عام (567هـ/1171م) وخرّب وحرّق وغنم الكثير، كما أرسل مجموعة أخرى إلى ناحية أنطاكية وفعلوا مثل ما فعل في طرابلس من التخريب والتحريق⁽⁵⁾، وفي (ربيع الأول 568هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1172م) هاجم الصليبيون حوران⁽⁶⁾ من أعمال دمشق، فما كان من نور الدين إلا أن بعث سرية إلى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخرّبوا فسمع الصليبيون ذلك فرحلوا إليهم ليمنعوهم عن بلادهم، فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا⁽⁷⁾، وفي العام نفسه أغار صلاح الدين على المناطق المحيطة بالكرك والشوبك وخرّب تلك المناطق وحرّق كل ما هو موجود خارج القلاع والحصون، وكان الهدف من ذلك تسهيل طريق التواصل بين مصر والشام⁽⁸⁾.

(1) الكرك : حصن منيع يبعد عن القدس مسافة يوم أو أقل، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ينتهي إلى أربع مائة قرية؛ الحميري: الروض المعطار، ج1، ص202.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص23؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص352.

(3) قلعة الداروم: (حصن الدير) تقع على بعد خمسة أميال من البحر، وأربعة أميال من غزة، وهو دير قديم للنصارى، وموقعه على قمة مرتفعة، وقد اتخذها الصليبيون حصناً؛ الصوري، وليم: تاريخ، ص345؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص145.

(4) الصوري، وليم: تاريخ، ص343؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص185.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص37؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص224؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص149.

(6) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة الجنوب ذات قرى كثيرة ومزارع وقصبتها بصرى؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص317.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص45.

(8) الصوري، وليم: تاريخ، ص365؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص152.

الصراع الإسلامي الصليبي زمن الأيوبيين:

بعد وفاة نور الدين محمود ضعفت قوة الدولة الزنكية، فوجد صلاح الدين نفسه أمام مهمة توحيد الجبهة الإسلامية في مصر والشام تحت قيادته ضد الصليبيين، لتبدأ بذلك الدولة الأيوبية في النمو على حساب الزنكيين الذين دخلت مدنها تحت تبعية صلاح الدين الواحدة تلو الأخرى⁽¹⁾، وبوجود صلاح الدين على قيادة الحكم في مصر والشام تبدأ أقوى وأشرس أزمنة الصراع الإسلامي الصليبي التي ستشهد الكثير من الحرائق، خاصة الناتجة عن العمليات العسكرية بين الطرفين.

وأثناء انشغال صلاح الدين في حلب بتوطيد حكمه، أغار الصليبيون على نواحي دمشق وهي خالية من الجيش، في وقت الحصاد عام (572هـ/1176م)، حيث حرقوا المحاصيل النامية والبيادر المجمععة في الحقول وذلك بالإضافة إلى الغلال التي كانت مخزنة في مخازن الحبوب، واستمروا في ذلك حتى وصلوا داريا بالقرب من دمشق⁽²⁾، وتبدو هنا رغبة الصليبيين في أضعاف صلاح الدين من خلال القضاء على الموارد الزراعية في المناطق المحيطة بدمشق.

كما نجد أن صلاح الدين استخدم نفس الأسلوب في القضاء على الكثير من موارد الدولة الصليبية، فقد عمل على إحداث أكبر قدر من الخسائر في المناطق التي يصل إليها من أراضيهم، حيث قام في (جمادى الأولى 573هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) 1177م) بمهاجمة جنوب فلسطين حتى وصل جنوده إلى الرملة⁽³⁾، وكان يرسل الجنود في شكل سرايا متفرقة إلى عدة جهات تقوم بحرق وتخريب كل ما تجده من بيوت وقرى، وقد طال الحرق الكثير من المناطق في جنوب فلسطين⁽⁴⁾، كما احترقت مدينة الرملة⁽⁵⁾.

ويرى البعض أن سبب قيام صلاح الدين بذلك نتيجة قلة القوات الصليبية الموجودة في المنطقة⁽⁶⁾ التي كانت تهاجم حصن حارم⁽⁷⁾ في الشمال، ورغبته في تخفيف هذا الهجوم على

(1) ابن العديم: زبدة الطلب، ج1، ص349؛ حسن، صفوان: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص54.

(2) الصوري، وليم: تاريخ، ص389؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص78.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص85؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص131.

(4) الصوري، وليم: تاريخ، ص408-409؛ الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص45.

(5) الصوري، وليم: تاريخ، ص409؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص151.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص85؛ دجاني، هادية: القاضي الفاضل، ص246.

(7) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب وفيها أشجار كثيرة ومياه؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص205.

الحصن⁽¹⁾، بالإغارة على المناطق الجنوبية وجذبهم إليه، وهو ما حدث فعلاً بقدوم القوات الصليبية إليه بشكل مباغت عن طريق الساحل وهم يشاهدون الحرائق التي قام بها جنود صلاح الدين⁽²⁾، والتقى الفريقان في تل الصافية⁽³⁾ وهُزِمَ صلاح الدين نتيجة عامل المباغته من الصليبيين وتفرق جنوده في أعمال الحرق والتخريب⁽⁴⁾.

استمرت عمليات الحرق والتخريب بين الطرفين، حيث قام الصليبيون بمهاجمة محيط مدينة حماة في (ربيع الأول 574هـ/أغسطس (آب) 1178م)⁽⁵⁾، حيث نهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا⁽⁶⁾، وفي نهاية العام نفسه قام صلاح الدين بحرق الغلال بالقرب من مدينة بانياس⁽⁷⁾، وفي يوم الخميس (24 ربيع الأول 575هـ/30 أغسطس (آب) 1179م) استطاع صلاح الدين حرق أسوار حصن بيت الأحزان المنيعة بالقرب من صفا⁽⁸⁾، بعد محاولات استمرت لمدة خمسة أيام؛ حيث كان يتم نقب السور وإشعال النار في الحطب بداخل النقب حتى ينهار السور، وبالفعل نجح في حرق السور وحرق الأخشاب التي وضعها الصليبيون المدافعون عن الحصن لسد مكان النقب، مما أدى لحرق البيوت القريبة من السور وحرق العديد من سكان الحصن، بالإضافة لانهايار السور ودخول المسلمين الحصن والاستيلاء على ما فيه⁽⁹⁾.

(1) الصوري، وليم: تاريخ، ص406-407؛ هادية: القاضي الفاضل، ص246.

(2) الصوري، وليم: تاريخ، ص410؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص151-152.

(3) تل الصافية: حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص42.

(4) الصوري، وليم: تاريخ، ص412؛ عوض، محمد: صلاح الدين، ص131؛ جب، هاملتون: ظهور صلاح الدين، ص229؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص152.

(5) الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص128؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص91؛ جب، هاملتون: ظهور صلاح الدين، ص229.

(6) الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص128؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص91؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص179.

(7) الصوري، وليم: تاريخ، ص423؛ الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص157؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص153.

(8) صفا: مدينة في جبال عاملة المطللة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص412.

(9) الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص179-180؛ أبو المعالي: مضمرة الحقائق، ص28-29؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص36-37؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص181.

وبعد ذلك قام صلاح الدين بمهاجمة المناطق المحيطة بطرابلس وإحراق المحاصيل الزراعية في الحقول، وجميع المحاصيل التي تم جمعها في المخازن أيضاً⁽¹⁾، كما قام عز الدين فرخشاه⁽²⁾ في يوم الأربعاء (18 ذي القعدة 575هـ/16 ابريل/نيسان) 1180م بمهاجمة محيط قلعة صفا فغنم الكثير وحرق الأماكن المحيطة بالقلعة من المراعي والبيوت⁽³⁾.

تجددت هجمات المسلمين بقيادة صلاح الدين على الأراضي الصليبية بعد خرق أرنات للهدنة المعقودة بين المسلمين والصليبيين بمحاولاته الاعتداء على المدينة المنورة، حيث هاجم عز الدين فرخشاه الكرك ونهب وحرق المناطق المحيطة بها عام (577هـ/1182م)⁽⁴⁾، كما أغار على منطقة دبورية⁽⁵⁾ عام (578هـ/1182م)⁽⁶⁾ وغنم منها الكثير وحرق المراعي فيها، ثم توجه إلى حصن حبيس جلدك⁽⁷⁾ وفتحه⁽⁸⁾.

وفي رد من الصليبيين على الهجمات المتتالية لصلاح الدين، استغلوا فرصة مغادرته إلى حلب والموصل لتسوية أوضاعها مع الزنكيين، فقاموا بالإغارة على منطقة حوران ودرعا، حيث قاموا بعمليات تخريب وحرق لكثير من الأماكن والمحاصيل الزراعية⁽⁹⁾، ثم أغاروا مرة أخرى على منطقة بيت جن⁽¹⁰⁾ وداريا وما حولهما من قرى، حيث قاموا بحرق وتخريب كل شيء وجدوه هناك⁽¹¹⁾.

(1) الصوري، وليم: تاريخ، ص432.

(2) عز الدين فرخشاه: ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي استتابه عمه صلاح الدين على دمشق، لما عاد منها إلى الديار المصرية، فقام بضبط أمورها وإصلاح أحوالها أحسن قيام؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص104، 118.

(3) أبو المعالي: مضممار الحقائق، ص31.

(4) المقرئزي: السلوك، ج1، ص185؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص185؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص161.

(5) دبورية: بليد قرب طبرية من أعمال الأردن؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص437.

(6) الصوري، وليم: تاريخ، ص457؛ أبو المعالي: مضممار الحقائق، ص31.

(7) حبيس جلدك: قلعة بالسواد من أعمال دمشق؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص216.

(8) أبو المعالي: مضممار الحقائق، ص31؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص162.

(9) الصوري، وليم: تاريخ، ص472.

(10) بيت جن: قرية عند جبل التلج من أعمال دمشق؛ ابن ناصر الدين: توضيح المشتبه، ج2، ص149؛ ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه، ج1، ص290.

(11) الصوري، وليم: تاريخ، ص478؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص175.

وبعدما رتب صلاح الدين جميع الأمور في حلب توجه إلى بيسان⁽¹⁾ في (9 جمادى الآخرة 579هـ/29 سبتمبر (أيلول) 1183م) فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقل الأقمشة والغلال والأمتعة بها⁽²⁾، فنهبها العسكر وغنموا وحرقوا ما لم يمكن أخذه⁽³⁾، كما حرقوا وخرّبوا المدينة⁽⁴⁾، وفي (جمادى الأولى 580هـ/أغسطس (آب) 1184م) حاول صلاح الدين فتح الكرك لكنه لم ينجح، وعمل على إلحاق أكبر قدر من الخسائر في المناطق الصليبية، فهاجم نابلس⁽⁵⁾ وما حولها من القرى والرساتيق وجنين وزرعين وعين جالوت، حيث قام بحرق ونهب وتخريب تلك المناطق، بالإضافة إلى من قتلهم وأسره هناك⁽⁶⁾.

وقام أرناط بالغدر بإحدى القوافل التي تسير بين مصر والشام ونهب منها الكثير من الأموال والسلاح، وسجن من كان فيها، كما رفض رد تلك الأموال والإفراج عن المسجونين⁽⁷⁾، فقام صلاح الدين بمهاجمة منطقة الكرك والشوبك لتأمين الطريق بين مصر والشام، فأحرق الضياع المحيطة بهما في (محرم 583هـ/مارس (آذار) 1187م)، وأقام هناك شهرين⁽⁸⁾، ثم

(1) بيسان: مدينة بالغور الشامي ويقال هي لسان الأرض وهي بين حوران وفلسطين؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص527.

(2) الصوري، وليم: تاريخ، ص489؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص61؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص184.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص61؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص184؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص181.

(4) الأصفهاني: البرق الشامي، ج5، ص149؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص124؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص176.

(5) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل، أرضها حجر، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ ولها كورة واسعة؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص248.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص127-128؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص67؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص204؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص197.

(7) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص17؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص193؛ عطية، عزيز: الحروب الصليبية، ص65.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص146-147؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص17؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص193.

توجه إلى طبرية ودخلها يوم الخميس (23 ربيع الآخر 583هـ / 2 يوليو (تموز) 1187م)، وأخذ ما فيها وأحرقها وأحرق ما تخلف مما لا يحمل، واحتمت القلعة وحدها⁽¹⁾.

ثم تحرك صلاح الدين للقاء القوات الصليبية المجتمعة من أجل قتاله، واستخدم مجموعة من التكتيكات العسكرية المبدعة لضمان تحقيق نصر تاريخي عظيم، فقام في البداية بإكراه الصليبيين على التخلي عن المنطقة الغنية بالينابيع والمراعي الخضراء في صفورية⁽²⁾، كما وحال بينهم وبين بحيرة طبرية⁽³⁾، وحاصروهم في أرض حطين⁽⁴⁾ وهي هضبة من الأراضي الملتهبة التي لا يمكنهم معها أن يجدوا فيها أي مصدر للمياه⁽⁵⁾، ثم خنق عليهم الحصار في يوم السبت (25 ربيع الآخر 583هـ / 4 يوليو (تموز) 1187م) وأشعل بعض المتطوعة النيران في الحشائش والأعشاب الجافة بأسفل الهضبة وكانت الرياح على الصليبيين، فحملت إليهم حرارة النار والدخان الخانق، ثم تلاحقت هجمات المسلمين على الصليبيين وكثر فيهم القتل والجرح والأسر⁽⁶⁾، واجتمعت عليهم حرارة الصيف الحارقة، وحرارة النار الملتهبة حولهم، وغبار الدخان الخانق، والعطش وحر القتال، فكان نصراً كبيراً للمسلمين وهزيمة مدوية وقاصمة للصليبيين، فقدوا فيها الكثير من الجنود بين قتيل وجريح وأسير، ولم ينج إلا القليل⁽⁷⁾، فنلاحظ هنا أن الحرائق المفتعلة حول الصليبيين كانت أحد أسباب النصر الرئيسية في هذه المعركة الفاصلة في تاريخ الحروب الصليبية.

(1) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص281؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص194؛ غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية، ص36.

(2) صفورية: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص414.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص145-146؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص280؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص151؛ سيد: الأخبار السنوية، ص196؛ شاندور، البير: صلاح الدين، ص206؛ إبراهيم، محمود: حطين، ص28.

(4) حطين: منطقة بين طبرية وعكا وتبعد عن طبرية فرسخين؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص274.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص145-146؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص151؛ شاندور، البير: صلاح الدين، ص205؛ إبراهيم، محمود: حطين، ص28.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص147؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص282؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص20؛ غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية، ص37؛ عطية، عزيز: الحروب الصليبية، ص67.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص147؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص151؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص196؛ غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية، ص37؛ عطية، عزيز: الحروب الصليبية، ص67.

بعد الانتصار الكبير في حطين، سار صلاح الدين يفتح المدن الساحلية التي سقطت الواحدة تلو الأخرى في يد المسلمين باستثناء مدينة صور⁽¹⁾، ثم فتح مدينة القدس بعد حصار دام اثني عشر يوماً شهد قتالاً عنيفاً بين الطرفين⁽²⁾، وقيام المسلمين بنقب السور وإشعال النار فيه، فسقط جزء من السور، مما أربع الصليبيين وجعلهم يسعون بكل الطرق لطلب الأمان من صلاح الدين⁽³⁾، الذي استلم المدينة يوم الجمعة (27 رجب 583هـ/2 أكتوبر) (تشرين الأول) 1187م) وأقام بها صلاة الجمعة بعد عقود من تعطيلها⁽⁴⁾، ثم توجه صلاح الدين إلى صور لكي يفتحها، وحاصر المدينة من البر والبحر، لكن الصليبيين نجحوا في كسر الحصار البحري بالهجوم على الأسطول الإسلامي وحرق بعض المراكب والاستيلاء على البعض الآخر⁽⁵⁾، ونتيجة لصدور المدينة في وجه الهجمات الإسلامية، قرر صلاح الدين رفع الحصار عن المدينة في (29 شوال 583هـ/1 يناير) (كانون الثاني) 1188م) بعد ضغوط شديدة من الجند وقادتهم، فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو⁽⁶⁾.

واستمر صلاح الدين بعد ذلك في فتح المدن والحصون الصليبية، فوصل إلى طرطوس وفتحها⁽⁷⁾، وقام بتخريب سور البلد وغنم خزائن السلاح، وقبل رحيله في يوم (14 جمادى الأولى 584هـ/11 يوليو) (تموز) 1188م) حرق جميع دور ومساكن المدينة⁽⁸⁾، ثم فتح قلعة

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص410-411؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص232؛ شاندور، البير: صلاح الدين، ص215؛ عطية، عزيز: الحروب الصليبية، ص67.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص411؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص339؛

(3) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص340؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص323.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص412؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص345.

(5) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص412؛ الفيتري: تاريخ بيت المقدس، ص155، الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص213؛ بلدوين، مارشال: اضمحلال وسقوط بيت المقدس، ص278.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص413؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص456؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص214؛ بلدوين، مارشال: اضمحلال وسقوط بيت المقدس، ص278.

(7) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص75؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص16-17؛ مجهول: ذيل، ص344.

(8) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص75؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص16-17؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص189؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص456-457؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص221؛ شاندور، البير: صلاح الدين، ص246.

برزية⁽¹⁾ في (27 جمادى الآخرة 584هـ/23 أغسطس (آب) 1188م) وهي من أحسن القلاع، حيث فتحها بعد قتال شديد، فملكها المسلمون عنوة وغنموا وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله، وأمست خالية لا ديار بها وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت⁽²⁾. وفي عام (585هـ/1189م) هاجم الصليبيون عكا وحاصروها، ودار بينهم وبين المسلمين العديد من المعارك، في محاولة من المسلمين فك الحصار عن المدينة، وفي المقابل محاولة الصليبيين فتح المدينة والاستيلاء عليها، ونتج عن تلك المعارك احتراق العديد من المعدات الحربية، وكان أولها عندما صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، وعملوا كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة، وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وأصلحوا الطرق لها، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها، فأشرفت على السور⁽³⁾، وبدأ قتال من عليها استمر ثمانية أيام، مع محاولات عديدة من المسلمين لحرقها، حتى أستطاع شاب دمشقي يعرف بعلي بن عريف في (28 ربيع الأول 586هـ/5 مايو (أيار) 1190م)، من اختراع مادة حارقة قوية ووضعها في القدر، ورميت تلك القدر على الأبراج فاحترقت الأبراج الثلاثة عن آخرها، مما أدخل الفرح والسرور على أهل عكا⁽⁴⁾.

كما استطاع المسلمون حرق عدد من المنجنيقات المحيطة بمدينة عكا في (شعبان 586هـ/سبتمبر (أيلول) 1190م)⁽⁵⁾، وفي (22 شعبان 586هـ/24 سبتمبر (أيلول) 1190م) حاول الصليبيون حرق برج الذبان وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب الميناء لحراسته، وجهزوا لذلك ثلاثة مراكب مملوءة بالوقود والحطب والمقاتلين، ولكن عندما

(1) برزية: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب بها المثل بالحصانة تحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلو قلعتها خمسمائة وسبعون ذراعاً (الذراع = 53 سم؛ جمعه، على: المكايل، ص85)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص383.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص172-173؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص366.

(3) ابن الأثير: الكامل، ص191؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص120؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص121؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص335؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص84.

(4) ابن الأثير: الكامل، ص192-193؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص120؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص122؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص335؛ حسن، صفوان: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص80.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص135؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص148؛ العلمي: الأئس الجليل، ج1، ص366؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص245.

حاولوا إحراق البرج ارتدت النار إليهم بسبب الرياح، واحترقت المراكب وهلك عدد من المقاتلين نتيجة الحريق⁽¹⁾.

كما استطاع المسلمون حرق العديد من المعدات الحربية الجديدة التي صنعها الصليبيون الجدد القادمون من أوروبا خلال حصار عكا في (3 رمضان 586هـ / 4 أكتوبر (تشرين الأول) 1190م)، حيث حرقوا دبابة وكبشاً وسنوراً⁽²⁾ بعد أن ألقوا فيهم النار والنفط وتمكّنوا من حريقهم، وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء لكبر الحريق⁽³⁾، وفي محاولة أخرى للسيطرة على برج الذبان أعدّ الصليبيون في البحر مركباً كبيراً وضعوا فيها برجاً بخرطوم إذا أرادوا قلبه في السور انقلب بالحركات، ويُنقّي طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه تمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به⁽⁴⁾، لكن استطاع المسلمون حرق المركب بقوارير النفط في (15 رمضان 586هـ / 16 أكتوبر (تشرين الأول) 1190م)، وارتفع لهبها في البحر ارتفاعاً عظيماً⁽⁵⁾، واستطاع المسلمون حرق دبابة أخرى أكبر من السابقة ومكونة من أربع طبقات من الخشب والرصاص والحديد والنحاس، حيث ضربوها بالنفط ليلاً ونهاراً حتى احترقت، كما استطاع الصليبيون نقب سور المدينة وحرقه وسقوط جزء من السور نتيجة ذلك الحرق، ودخول بعض القوات الصليبية من هذا الجزء⁽⁶⁾.

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص138-139؛ العليمي: الأُنس الجليل، ج1، ص367؛ عثمان، مرفت: التحصينات، ص361؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص246.

(2) دبابة وكبش وسنورا : كما يصفها ابن شداد "الدبابة آلة عظيمة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم مليسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة عظيمة ويجرها عدد كبير فتهدمه بتكرار نطحها؛ وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال لسحب ذلك إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ورأس البرج مدور وهذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سنوراً؛ النوادر السلطانية، 140-141.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص140-142؛ مجهول: ذيل، ص378؛ العليمي: الأُنس الجليل، ج1، ص368.

(4) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص141.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص143؛ العليمي: الأُنس الجليل، ج1، ص368.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص162؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص256؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12؛ ص343؛ العليمي: الأُنس الجليل، ج1، ص373.

كان حرق تلك المعدات الحربية لها أكبر الأثر في صمود المدينة طوال هذه المدة، لكن الصليبيين لم ييأسوا من الاستيلاء على المدينة، وقد نجحوا في ذلك عندما استسلمت في (17 جمادى الآخرة 587هـ/12 يوليو/تموز) 1191م) بعد معارك كبيرة، وستين من الحصار⁽¹⁾. وبعد سقوط عكا توجه الصليبيون جنوباً للاستيلاء على بقية المدن الساحلية، فعمل صلاح الدين على تخريب مدينة عسقلان في (شعبان 587هـ/سبتمبر/أيلول) 1191م)، حيث قام بحرق وهدم وتخريب البلد والأبراج والصور، خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس وتنقطع بها طريق مصر⁽²⁾، وبعد ذلك سار صلاح الدين إلى الرملة في يوم الأربعاء (3 رمضان 587هـ/25 سبتمبر/أيلول) 1191م) وأشرف عليها وأمر أيضاً بإحراقها وإخراب قلعتها فأحرقت وأخرت قلعتها خوفاً من الصليبيين⁽³⁾، واستمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين بعد ذلك حتى تم توقيع الهدنة بين الطرفين، وانتهاء تلك الحقبة التاريخية المليئة بالحرائق نتيجة المعارك والحروب⁽⁴⁾.

لكن لم ينتهِ الصراع الإسلامي الصليبي في العهد الأيوبي بتلك الهدنة، بل استمر بعد ذلك لكن بوتيرة أقل، وشهدت بعض الحرائق نتيجة هذا الصراع، كان أولها عندما هاجم العادل طرابلس في عام (604هـ/1207م) وأحرق وسبى وغنم، وذلك رداً على غارات الصليبيين على أعمال حمص⁽⁵⁾، وفي عام (614هـ/1217م) أغار الصليبيون على بيسان وكان فيها العادل، فانسحب منها وحرقها⁽⁶⁾، ثم أغاروا على المناطق ما بين بيسان وبانياس ونهبوا وقتلوا وأحرقوا الكثير⁽⁷⁾.

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص171؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص246؛ مجهول: ذيل، ص396.
(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص187-188؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص277-280؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص197-198؛ الياضي: مرآة الجنان، ج3، ص460-461.
(3) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص189؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص281؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص47.
(4) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص235؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص326؛ مجهول: ذيل، ص443.
(5) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص341؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص260؛ الشامي، احمد: صلاح الدين، ص196.
(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج44، ص17؛ الذهبي: العبر، ج5، ص48.
(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص374؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج44، ص18؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص307

وفي (صفر 642هـ/ يوليو (تموز) 1244م) استطاعت قوات الخوارزمية اقتحام مدينة القدس وتخليصها من الصليبيين، وقاموا بحرق كنيسة القيامة وبعض الكنائس⁽¹⁾، ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا عظام الموتى⁽²⁾، كما أرسل الصالح نجم الدين جيشاً كبيراً لفتح مدينة عسقلان في (جمادى الأولى 645هـ/ سبتمبر (أيلول) 1247م)، واستطاع هزيمة الصليبيين وفتح المدينة، وكان مما أحترق في تلك المعركة بعض المنجنقيات والمتاريس الخاصة بالجيش الإسلامي، وحرق للصليبيين احد الأبراج التي كانوا يتحصنون بها⁽³⁾.

رابعاً: أسباب أخرى للحرائق.

سيذكر هنا الباحث بعض الحرائق التي خرجت عن الأسباب السابقة، وهي حرائق لأسباب متعددة أو مجهولة لم تطلعنا المصادر التاريخية عليها. ويعد الخطأ والإهمال أحد أسباب الحرائق، لكن لم يرد في المصادر الكثير عن هذه الحرائق، ومما ذكر حريق كبير في منطقة اللبادين بمدينة دمشق في (شوال 562هـ/ يوليو (تموز) 1167م)، احترق فيه حي اللبادين بالكامل بما فيه من دور وحوانيت⁽⁴⁾، كم احترق باب الساعات⁽⁵⁾ وجزء من جامع دمشق⁽⁶⁾، وسببه أن أحد الطباخين أوقد ناراً عظيمة تحت قدر هريسة ونام فاحتترقت دكانه واشتعلت النار في اللبادين وغيرها⁽⁷⁾.

ويوجد أيضاً حرق الجثث وقد كان لعدة أسباب منها التخلص من رائحة الجثث المتعفنة والوقاية من انتشار الأوبئة، والحصول على الدنانير الذهبية التي ابتلعوها، وهو ما فعله الصليبيون بالكثير من الجثث في عدة مناطق من بلاد الشام وهو ما ذكر سابقاً بالتفصيل⁽⁸⁾،

(1) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص33؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص393؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص11.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص347؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص419؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص323.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص33-34؛ كلود، كاهن: الشرق والغرب، ص303.

(4) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص237؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص8؛ الذهبي: العبر، ج4، ص177؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص373.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص8؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص373.

(6) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص237؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص159.

(7) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص8؛ الذهبي: العبر، ج4، ص177؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص373.

(8) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص114-115.

Albert d, Aix, Historia Hierosolymitana, p 542.

لكن كانت هناك حوادث حرق جثث لأسباب أخرى، حيث أحرقت جثة أبو تغلب الحمداني بعد هزيمته من ابن الجراح بالتعاون مع الفاطميين، حيث انهزم أبي تغلب شر هزيمة وهرب من المعركة لا يدري إلى أي طريق يتجه أو يسير، فقبض عليه جنود ابن الجراح وطافوا به في شوارع الرملة، ثم قتل وأحرق جثمانه في (صفر 369هـ/سبتمبر (أيلول) 979م)⁽¹⁾، ويبدو السبب الواضح هنا لحرق جثمانه هو الانتقام وإشفاء الغليل، ومن أسباب حرق الجثث أيضاً العقاب، حيث ظهر بحلب الشهاب السهروردي الفيلسوف الساحر، "وكان فقيهاً واعظاً، ملعون الاعتقاد، بارعاً في علوم الأوائل"، فعقد صاحب حلب الملك الظاهر له مجلساً، فأفتوا بكفره، فحبس في عام (587هـ/1191م) ثم أحرق بعد أن قتل⁽²⁾.

أما عن الحرائق مجهولة السبب فمنها، عندما دخل أحمد بن طولون دمشق في عام (264هـ/877م) وقع فيها حريق عند كنيسة مريم، احترقت فيه المنطقة المحيطة بالكنيسة⁽³⁾، وفي (ذي القعدة 448هـ/يناير (كانون الثاني) 1057م) احترق المركز الشرقي بقلعة حلب، عندما استلم المستنصر الفاطمي مدينة حلب من معز الدولة⁽⁴⁾، وفي عهد المستنصر أيضاً عام (451هـ/1059م) احترق برج من أبراج سور مدينة حلب⁽⁵⁾.

وفي (ذي الحجة 559هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1164م) احترق قصر جيرون بدمشق حريقاً عظيماً فحضر في تلك الليلة الأمراء وبذلوا مجهوداً كبيراً في إطفاء هذا الحريق⁽⁶⁾، وفي عام (570هـ/1174م) وقع حريق في مدرسة الكلاسة في دمشق، فاحترقت هي والمنذنة التي بجانبها والمسماة بمنذنة العروس⁽⁷⁾، وفي عام (600هـ/1203م) احترقت خزانة السلاح بدمشق، وذهب جميع ما كان فيها⁽⁸⁾.

(1) ابن القلاسي: تاريخ، ج1، ص14-15؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص384-385؛ المقرئ: اتعاض الحنفا، ج1، ص252.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص74.

(3) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص356؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج20، ص48؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11؛ ص46.

(4) ابن العديم: زبدة الطلب، ج1، ص155.

(5) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص476؛ عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص38.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12؛ ص248.

(7) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص340؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص144.

(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج42، ص51.

وفي عام (604هـ/1207م) وقع حريق بقلعة حلب، احترق فيه المقام الأعلى كله، وهو المكان الذي تقام به صلاة الجمعة في القلعة⁽¹⁾، وفي يوم (11 جمادى الأولى 609هـ/9 أكتوبر) (تشرين الأول) 1212م) تعرضت قلعة حلب لحريق آخر احترق فيه الكثير من الفرش والمصاغ والآلات والأواني، كما واحترقت الزردخاناه بكل ما فيها من الخيم والآلات والسلاح⁽²⁾. وفي ليلة الأحد (25 رجب 646هـ/14 نوفمبر) (تشرين الثاني) 1248م) وقع حريق بالمنارة الشرقية بجامع الأموي، فأحرق جميع حشوها وكانت سلامها سقالات من خشب وهلك للناس ودائع كثيرة كانت فيها⁽³⁾.

(1) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص459.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص450؛ عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص11.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13؛ ص175؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص435؛ النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص313.

الفصل الثالث

أسباب الحرائق في بلاد الشام

(649-923هـ/1251-1517م)

أولاً: الصراعات الداخلية.

ثانياً: الصراعات مع القوى الخارجية.

ثالثاً: أسباب أخرى للحرائق.

كانت بلاد الشام في العصر المملوكي مكاناً لكثير من الصراعات والأخطار، التي شكلت أسباباً للعديد من الحرائق في بلاد الشام، سواءً كانت تلك الحرائق بسبب الصراعات الداخلية، أو بسبب الصراعات الخارجية مع الصليبيين أو التتار الذين سببوا الكثير من الدمار والتخريب في المدن الشامية، ولم تقتصر أسباب الحرائق فقط على تلك الصراعات والأخطار، بل كانت هناك حرائق بسبب الإهمال والظواهر الطبيعية، بالإضافة إلى الكثير من الحرائق مجهولة السبب والتي لم ترد في المصادر أسباب لها، ربما لاهتمام المؤرخين في ذلك الوقت بتدوين الأحداث السياسية والعسكرية بشكل خاص، مع ذكر بعض الحرائق وآثارها دون الاهتمام بذكر أسبابها.

أولاً: الصراعات الداخلية.

تعددت أشكال الصراعات الداخلية في بلاد الشام في العصر المملوكي والتي أدت لحرائق مفتعلة من المتصارعين، فمن هذه الصراعات صراعات سياسية بهدف الانفصال عن الدولة المركزية، أو صراعات بين الأمراء على النفوذ والسلطة، بالإضافة إلى الثورات وحركات التمرد والعصيان والفساد من بعض القوى الداخلية، وسنذكر هنا تلك الصراعات وما أحدثته من حرائق في زمن كل من المماليك البحرية والبرجية.

الصراعات الداخلية زمن المماليك البحرية:

عندما تولى الظاهر بيبرس مقاليد الحكم في مصر والشام عام (658هـ/1260م)، كتب إلى ملوك وأمراء الشام يخبرهم بسلطنته، فأجابوه كلهم بالسمع والطاعة، إلا بعضهم ممن استاءوا لمقتل قطز، فكلف بيبرس نائبه بدمشق الأمير علاء الدين البندقدار⁽¹⁾ القبض على بعض الأمراء الذين توهم منافستهم له مثل الأمير شمس الدين أقوش البرلي⁽²⁾، لكن البرلي استطاع الفرار ومعه بعض المماليك العزيرية والناصرية⁽³⁾، واستولوا على مدينة حلب، وحاولوا استمالة

(1) علاء الدين البندقدار: الأمير الذي ينسب إليه السلطان ركن الدين بيبرس البندقداري؛ كان من كبار الأمراء الصالحية، ولاء بيبرس نيابة دمشق في عام 659هـ/1261م، وتوفي بالقاهرة وقد ناهز السبعين؛ اليونيني: ذيل، ج1، ص204؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص192-193.

(2) شمس الدين أقوش البرلي: من كبار المماليك العزيرية (مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب)، ولاء قطز أمر غزة والسواحل عام 658هـ/1259م، وتوفي عام 661هـ/1262م؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص453، 470؛ عطا الله، محمود: نيابة غزة، ص277.

(3) اليونيني: ذيل، ج1، ص204؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص205؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص439.

صاحب حمص وحماة إلى جانبهم⁽¹⁾، لكن صاحب حماة رفض طلبهم وأغلق أبواب المدينة دونهم، فقام البرلي ومن معه بحرق الغلال بالقرب من الباب الغربي للمدينة، وعاثوا فساداً وتخريباً في محيط المدينة وذلك في (15 رجب 659هـ/15 يونيو/حزيران) 1261م، واستطاع بيبرس في العام نفسه إخماد ذلك التمرد والقضاء عليه⁽²⁾.

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام (712هـ/1313م)، قام مهنا بن عيسى⁽³⁾ ومعه خمسة وعشرون ألفاً من القبائل العربية بمهاجمة مدينة حلب وحرقت باب قلعتها، واستخلاص مال الأمير قراسنقر⁽⁴⁾ الذي استجار بمهنا، خوفاً من السلطان الناصر الذي كان يريد القبض عليه⁽⁵⁾.

كما شهدت دمشق حريقاً كبيراً في نهاية عهد السلطان الناصر في ليلة الثلاثاء (26 شوال 740هـ/25 ابريل/نيسان) 1340م، احترق فيه عدد من الأحياء والأسواق المحيطة بالجامع الأموي⁽⁶⁾، حتى وصلت النار إلى المنارة الشرقية في الجامع الأموي فاحتترقت بالكامل وتفجرت أحجارها، واستطاع العامة والمماليك من منع الحريق من الوصول إلى بقية الجامع، وبالرغم من ذلك كانت الخسائر فادحة في الأموال والممتلكات نتيجة ذلك الحريق⁽⁷⁾.

(1) اليونيني: ذيل، ج1، ص204؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص205؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص439؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص168.

(2) اليونيني: ذيل، ج1، ص205، 204، 198؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص205.

(3) مهنا بن عيسى: التدميري أمير آل فضل من بني طي ولد بعد سنة 650هـ/1253م، كان يلقب أمير العرب بالشام، وقد كان كبير القدر محترماً عند الملوك كلهم بالشام ومصر والعراق وكان ديناً خيراً متحيزاً للحق؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص172؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج6، ص133.

(4) قراسنقر: الجوكندار الجركسي المنصوري، تولى نيابة حلب، ثم كان فيمن سعى في قتل الأشرف بن قلاوون، فلما تسلطن الناصر أراد قتله، لكنه استجار بمهنا بن عيسى، ثم رحل عند ملك التتار في ماردين حتى مات في عام 728هـ/1328م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص287-288.

(5) أبو الفداء: المختصر، ج2، ص5؛ النويري: نهاية، ج32، ص141؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ج1، ص94؛

(6) أبو الفداء: المختصر، ج2، ص51؛ الذهبي: من ذبول العبر، ص213؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، ج1، ص284؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص282؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص88؛ العملة، عبد الجبار: نيابة دمشق، ص129.

(7) الذهبي: من ذبول العبر، ص213؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص282؛ العملة، عبد الجبار: نيابة دمشق، ص129.

ويعود السبب في نشوب الحريق إلى قيام جماعة من قيادات النصارى اجتمعوا في كنيستهم، وجمعوا الكثير من المال، وأعطوه إلى راهبين قداما من القسطنطينية⁽¹⁾ يحسنان صناعة المواد المشتعلة التي لا يظهر تأثيرها إلا بعد أربع ساعات أو أكثر؛ حيث قام الراهبان بصناعة العديد من تلك المواد التي يدخل في تركيبها النفط والكبريت والفحم وصنعا ما يشبه القنابل الزمنية التي تعمل بعد مدة من الزمن⁽²⁾، ثم تخفيا في زي المسلمين بمساعدة من بعض قيادات النصارى المحليين، ونزلا الأسواق في آخر النهار يضعان تلك المواد المشتعلة في شقوق الدكاكين وبين البضائع داخلها دون أن يشعر بهم أحد⁽³⁾.

وبالفعل بعد عدة ساعات ومع دخول الليل اشتعلت النيران في تلك الدكاكين وامتدت سريعاً في البضائع والأسواق حتى كادت النيران أن تحرق الجامع الأموي، الذي كان فيما يبدو الهدف الرئيس لهذه العملية التخريبية من قبل الراهبين والنصارى، لكن توفيق الله وجهد العامة والمماليك حال بين الحريق والجامع⁽⁴⁾.

كما استطاع تتكز⁽⁵⁾ نائب السلطان في دمشق بعد التحري الدقيق والتحقيق من معرفة المتسببين في الحريق من النصارى، فقبض على عدد منهم، وصادر أموالهم وعاقب بعضهم بالضرب والبعض الآخر بالصلب والقتل ثم أحرق جثثهم بالنار⁽⁶⁾.

بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون عام (1340م/741هـ) دخلت البلاد في مرحلة من عدم الاستقرار، وازدياد نفوذ الأمراء على حساب أبناء الناصر⁽⁷⁾، وتدخلهم في شئون الحكم على

(1) القسطنطينية: واسمها إسطنبول وهي دار ملك الروم بينها وبين بلاد الشام البحر المتوسط، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص347.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص282؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص88؛ عدوان، أحمد: التاريخ الاقتصادي، ص255.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص283.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص283.

(5) تتكز: الأمير الكبير سيف الدين نائب السلطنة بالشام، ولاء الناصر محمد بن قلاوون نيابة دمشق عام 712هـ/1313م، وكان مقرباً جداً منه، وكان السلطان لا يفعل شيئاً في الغالب حتى يسير إليه يشاوره فيه، لكنه غضب عليه في آخر عمره وحبسه، ثم توفي في محبسه عام 741هـ/1341م؛ ابن شاعر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص262-266؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج2، ص64-72.

(6) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص283؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص90؛ العملة، عبد الجبار: نيابة دمشق، ص130.

(7) المقرئ: السلوك، ج3، ص301-302؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص126.

حساب السلطان، مما دفع أحمد بن الناصر⁽¹⁾ إلى اللجوء لمدينة الكرك والتحصن بها خوفاً من الأمراء، وجعلها تتعرض للهجوم أكثر من مرة للقبض عليه⁽²⁾، وخلال تلك الهجمات احترق أحد المنجنيقات المنصوبة على المدينة عام (743هـ/1343م)⁽³⁾، كما احترق باب القلعة وأحد الأبراج بها في (23 صفر 745هـ/6 يوليو 1344م)، حيث تم اقتحام القلعة والقبض على أحمد بن الناصر وقتله بعد ذلك⁽⁴⁾.

ومع استمرار حالة عدم الاستقرار في البلاد لعدم وجود حاكم قوي ومسيطر في تلك المدة، فقد انتشرت الصراعات بين القبائل العربية فيما بينها أو بينها وبين السلطة، فنجد أنه في عام (745هـ/1344م) كثر فساد العريان والافتتال فيما بينهم ببلاد الشام، وقطعوا الطرق ونهبوا عدة أماكن في طرابلس وبلعبك، كما أحرقوا العديد من المواضع هناك، وأضرموا النار على موضع احترق فيه زيادة على عشرين امرأة⁽⁵⁾، وفي عام (764هـ/1362م) قام العريان من أصحاب خيار بن مهنا⁽⁶⁾ بتخريب وتدمير بلدة تدمر⁽⁷⁾ وحرقوا الكثير من أشجارها، وذلك لأن الدولة أخذت منهم بعض إقطاعاتهم وأملاكهم⁽⁸⁾.

(1) أحمد بن الناصر: هو أحمد بن محمد بن قلاوون الملك الناصر بن الناصر بن المنصور ولد عام 716هـ/1316م وبعثه أبوه إلى الكرك، فأقام بها يربيه ويعلمه الفروسية، فاستمر فيها أيام أبيه (الناصر الأول) وأخويه أبي بكر (المنصور) والأشرف (كجك) وتولى السلطنة سنة 742هـ/1341م بعد خلع الأشرف، فانتقل إلى القاهرة، وتلقب بلقب أبيه (الناصر) وقتل جماعة من أمراء الجيش كانوا في السجن، وجمع أموالاً من الخزائن السلطانية وتحفها، وعاد إلى الكرك، واتهم بالانغماس في اللهو، فكتب قواد الشام إلى قواد مصر في خلعه، فخلعوه في أوائل سنة 743هـ/1342م، وولوا أخاه إسماعيل (الصالح) وأرسلوا الجيش لمحاصرة أحمد في الكرك، فقاتل وقوتل إلى أن أمسكه الأمير منجك اليوسفي فذبحه وأحضر رأسه في علبة إلى القاهرة عام 745هـ/1344م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج1، ص348-351؛ الزركلي: الاعلام، ج1، ص223.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص205، 213؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص341، 388، 406، 412؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج1، ص351.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص205؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص388.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص213؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص412.

(5) المقرئ: السلوك، ج3، ص417.

(6) خيار بن مهنا: أمير آل فضل وجميع أحياء طيء، ولاء حسين بن الناصر عام 762هـ/1360م، تراوحت علاقته مع الدولة بين الطاعة والعصيان؛ وتوفي عام 777هـ/1375م؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص502.

(7) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في بركة الشام بينها وبين حلب خمسة أيام؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص17.

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص301.

الصراعات الداخلية زمن المماليك البرجية:

بدأت دولة المماليك البرجية بصراع بين أمراء المماليك من أجل السيطرة على حكم البلاد، وفي محاولة من برقوق التخلص من منطاش الذي كان يحكم الدولة في عام (791هـ/1389م)، حاصر برقوق مدينة دمشق التي كان يتحصن بها منطاش، وخلال ذلك الحصار والمعارك بين الطرفين، أحرق برقوق الكثير من البيوت على أصحابها في منطقة القبيبات، ومات الكثير من الناس جراء تلك الحرائق⁽¹⁾، وذلك لتصدي أهل دمشق لمحاولة برقوق دخول مدينتهم⁽²⁾، ونتيجة لضمود المدينة وأهلها رحل برقوق إلى القاهرة، فقام منطاش بإرسال قواته إلى حلب في (792هـ/1390م) لأخذها من يد كمشبغا الحموي نائب حلب وهو حليف لبرقوق، فحاصروا قلعة حلب التي يتحصن بها كمشبغا، وأحرقوا باب القلعة والجسر الواصل إليها، ودارت معارك طويلة بينهم، انتهت بانسحاب تلك القوات بعد فرار منطاش من دمشق⁽³⁾.

وفي (صفر 794هـ/يناير (كانون الثاني) 1392م) هاجم مجموعة من المماليك المعارضين لبرقوق دمشق، ونقبوا السجن وأخرجوا المعتقلين به من أصحاب منطاش، ثم تحصنوا بالقلعة، لكن عساكر برقوق توجهوا إليهم وحاصروهم ثلاثة أيام، ثم أحرقوا باب القلعة، ودخلوها ثم قبضوا عليهم وقتلهم⁽⁴⁾.

وبعد وفاة السلطان الظاهر برقوق، تولى ابنه السلطان الناصر فرج بن برقوق⁽⁵⁾ شئون الحكم، لكن لم تستقر له الأمور، حيث ثار عليه في (محرم 811هـ/يونيو (حزيران) 1408م)

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص556؛ المقرئ: السلوك، ج5، ص260؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص356؛ عبد السيد، حكيم: قيام دولة المماليك الثانية، ص89.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص556؛ المقرئ: السلوك، ج5، ص260؛ لايبوس، إيراما: مدن الشام، ص253؛ للمزيد عن دور الأهالي والزعر في المدن الشامية على سير العمليات العسكرية؛ لايبوس، إيراما: مدن الشام، ص250-281.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص560؛ المقرئ: السلوك، ج5، ص292؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص19؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص12؛ عبد السيد، حكيم: قيام دولة المماليك الثانية، ص95.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص569؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص108.

(5) السلطان الناصر: فرج بن برقوق بن أنس، أبو السعادات بن الظاهر الجركسي، ولد في سنة 791هـ/1369م، وتولى السلطنة بعهد من أبيه وبعده في شوال سنة 801هـ/1398م وسنه دون عشر سنين، واختلف ممالك أبيه فيه وثار بعضهم عليه وقتلوه في سنة 815هـ/1412م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص168؛ المكي: سمط النجوم، ج4، ص42-43.

الأمير نوروز⁽¹⁾، وجمع جنوده لقتال السلطان، فتصدى له الأمير بكتمر جلق⁽²⁾ بالشام، والنقى الجيشان بالقرب من صدد، واقتتلا قتالاً شديداً قتل فيه أناس كثيرون وحرقت الزروع وخربت البلاد ثم عاد نوروز إلى الرملة⁽³⁾، وتحالف مع الأمير شيخ⁽⁴⁾ نائب دمشق على عصيان السلطان الناصر، فخرج السلطان ومن معه من المماليك إلى الشام للقضاء على الأمير شيخ في (محرم 812هـ/يونيو/حزيران) 1409م، وحاصروه في قلعة صرخد، ودار بينهما قتال شديد استمر ثلاثة أيام، احترق فيه الجسر الواصل إلى القلعة⁽⁵⁾.

لم ينته الصراع بين السلطان الناصر والأمير شيخ ومن معه بعد تلك المعركة، بل إن السلطان خرج في (محرم 815هـ/ابريل/نيسان) 1412م) للقضاء على الأمراء المتمردين بالشام، ودخل دمشق في الشهر نفسه وحصنها⁽⁶⁾، فقام الأمير شيخ بمحاصرة دمشق ومهاجمتها، ودار بينه وبين السلطان قتال شديد استمر عدة أيام، استخدم فيه النفط والسهام النارية المحملة بالنفط من الطرفين، مما أدى لاحتراق الأسواق الموجودة عند باب الفراديس يوم الأحد (19 محرم 815هـ / 1مايو/أيار) 1412م، وفي يوم الأربعاء 22 محرم احترقت عدة حوانيت بدمشق⁽⁷⁾، وفي يوم الجمعة 24 محرم احترق سوق خان السلطان وما حوله⁽⁸⁾،

(1) نوروز: الحافظي نائب طرابلس في عهد فرج بن برقوق، تحالف مع المؤيد شيخ على خلع فرج بن برقوق، ونجح في ذلك، ثم تخلص منه المؤيد شيخ وقتله بعد أن خرج عن طاعته واستقل بالشام؛ القلقشندي: مآثر، ج2، ص205، 211؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج4، ص9.

(2) بكتمر جلق: نائب طرابلس ودمشق، مات سنة 815هـ/1412م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص17.

(3) المقرئزي: السلوك، ج6، ص203؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج6، ص86.

(4) شيخ: المحمودي ثم الظاهري برقوق المؤيد أبو النصر الجركسي الأصل، أصبح مقدم ألف، في دولة الناصر فرج بن برقوق، فنائباً لطرابلس، ثم نائباً في دمشق، ثم سجنه الناصر وأطلقه، فخرج إلى الشام، فاشترك في العصيان والهيلاج، إلى أن قتل الملك الناصر وولي السلطنة العباس بن محمد سنة 815هـ/1412م فجعله أتباعاً للعسكر، ومديراً للمملكة، وعاد معه إلى مصر، فلم يلبث أن خلع العباس، وتولى السلطنة في السنة نفسها، وتلقب بالملك المؤيد، فأطاعه الجند، وعصاه نوروز الحافظي نائب الديار الشامية، فقصدته إلى دمشق، فقتله سنة 817هـ/1414م وعاد إلى مصر، واستمر حكمه ثماني سنوات؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص308-310؛ ابن إياس: بدائع الزهور ج2، ص3-5.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص234؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص85.

(6) المقرئزي: السلوك، ج6، ص316-317.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص318؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص145.

(8) المقرئزي: السلوك، ج6، ص323؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص194.

واستطاع بعد ذلك الأمير شيخ من دخول المدينة بعد أن هزم جنود السلطان؛ حيث قام بحرق باب الجابية ودخل المدينة وقبض على السلطان وقتله⁽¹⁾.

وبذلك فقد أصبح الأمير شيخ هو سلطان البلاد، وتلقب بالملك المؤيد، لكن في (جمادى الآخرة 818هـ/ أغسطس (آب) 1415م) قام مجموعة من الأمراء بالخروج عن طاعة المؤيد شيخ، وكان على رأسهم الأمير قاني باي المحمدي⁽²⁾ نائب الشام، الذي دخل دمشق وحاصر أتباع المؤيد في القلعة، ورمى القلعة بالمدافع، وأحرق جملون⁽³⁾ دار السعادة، فرماه من بالقلعة بالمجانيق⁽⁴⁾، وبعد ذلك خرج لهم المؤيد من مصر وقضى على التمرد وقتل قاني باي⁽⁵⁾.

وفي عهد المؤيد شيخ ظهر عصيان بعض القبائل العربية عام (819هـ/1416م)؛ حيث قام حسين بن نعيم أمير العرب بحصار مدينة الرحبة⁽⁶⁾ عشرين يوماً، وبعد قتال شديد أخذها ونهبها ثم أحرقها حتى جعلها فحمة سوداء، وذلك بسبب اعتقال وقتل إخوته⁽⁷⁾.

وفي (18 شعبان 842هـ/3 فبراير (شباط) 1439م) أظهر تغري برمش العصيان للسلطان الظاهر جقمق، وحاول الاستيلاء على مدينة حلب، إلا أن نائب قلعة حلب وبمساعدة أهاليها تصدى لهذه المحاولة من تغري برمش، ودارت بين الطرفين معارك شديدة، انتهت بتراجع تغري برمش عن حلب في يوم الثلاثاء (22 شوال 842هـ/7 أبريل (نيسان) 1439م)⁽⁸⁾، بعد أن قام بنهب وحرق وتخريب القرى المحيطة بحلب، كما قام بحرق أسواق بانقوسا⁽⁹⁾ وبيوتها⁽¹⁰⁾، وحرق الزروع في المنطقة الممتدة ما بين حلب وشيزر⁽¹¹⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج6، ص324؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13، ص196.

(2) قاني باي المحمدي: الظاهري برقوق، تولى نيابة الشام في سنة 517هـ/1123م فأقام بها مدة ثم خرج هو وجماعته عن طاعة السلطان الذي خرج لقتالهم، فأدركه السلطان وهزمه في ماعة، وحبس السلطان ثلاثة أيام، ثم قتله بقلعة دمشق في أواخر شعبان سنة 518هـ/1124م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص196.

(3) الجملون: سقف محذب على هيئة سنام الجمال؛ مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ص136.

(4) المقرئزي: السلوك، ج6، ص388-390؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص32-33.

(5) ابن تغري بردي: مورد، ص137.

(6) الرحبة: مدينة بالشام بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام وإلى بغداد مائة فرسخ وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص34.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص416؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص208.

(8) المقرئزي: السلوك، ج7، ص418-419؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص73.

(9) بانقوسا: جبل في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص331.

(10) المقرئزي: السلوك، ج7، ص419.

(11) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص73.

وشهدت الدولة المملوكية في أواخر عهدها عدة حرائق نتيجة صراعات داخلية بعضها بين الأمراء فيما بينهم، والبعض الآخر بين العامة والأمراء، ومنها ما كان في عهد السلطان الأشرف قايتباي⁽¹⁾ عام (893هـ / 1488م) عندما قام ابن باكلوا⁽²⁾ بحرق قرية الصبورة، لكون أهلها من جهة ابن العزقي⁽³⁾ منافسه وغريمه⁽⁴⁾.

وبعد وفاة السلطان الأشرف قايتباي دخلت البلاد في حالة من عدم الاستقرار والفوضى، نتيجة تعاقب سلاطين ضعاف لا تتجاوز فترة حكم الواحد منهم العام⁽⁵⁾، مما دفع الكثير من الأمراء المماليك إلى العصيان والتمرد على السلاطين في تلك المدة، وهو ما قام به أينال الفقيه نائب حلب، الذي أعلن العصيان⁽⁶⁾ وقام بنهب مدينة حلب وحرقها في يوم الأربعاء (8 رمضان 902هـ / 10 يونيو/حزيران) 1497م⁽⁷⁾.

وفي عام (903هـ / 1497م) أعلن بعض أمراء المماليك العصيان وكان معهم جماعة من مشايخ العشائر والمماليك الأجلاب، وتوجهوا نحو دمشق من أجل الاستيلاء عليها، لكن تصدى لهم الأمراء الطائعون ومعهم أهل دمشق، ودارت بين الطرفين معارك طويلة وكثيرة استمرت ما يزيد عن شهر من الزمان، احترقت فيها العديد من المواضع في دمشق وضواحيها⁽⁸⁾؛ حيث حرق العصاة مواضع في ناحية الشاغور بالقرب من زاوية المغاربة في يوم الجمعة (8 ربيع

(1) قايتباي: الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري، تولى أمرة عشرة في عهد الأشرف أينال، ثم مقدم ألف في عهد الظاهر خشقدم، ثم أتاكب العسكر في عهد الظاهر تمرغا، ثم أصبح السلطان في سنة 872هـ/1468م، وكانت مدة حكمه حافلة بالأحداث والحروب، ومات سنة 901هـ/1496م؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص3-4.

(2) ابن باكلوا: هو المقدم محمد بن باكلوا مقدم الزيداني ووادي بردي من أعمال دمشق، قتله عز الدين العزقي في قرية دمر سنة 893هـ/1488م، في صراع بينهما على منصب المقدم؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص79.

(3) ابن العزقي: هو المقدم عز الدين بن العزقي مقدم الزيداني ووادي بردي من أعمال دمشق، قتله النائب عام 894هـ/1489م، وعلق جثته على شجرة بالقرب من اليعمورية؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص79، 85.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص79.

(5) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص332، 379، 404، 438، 463؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص138-187؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص184.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص141.

(7) المصدر نفسه، ص143.

(8) ابن إياس: بدائع الزهور، ج3، ص381-382؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص154.

الأول 903هـ/3 نوفمبر (تشرين الثاني) 1497م، وفي يوم الأحد 10 ربيع الأول احترق سوق المزار بالشاغور⁽¹⁾.

وبالرغم من أن الأهالي وضعوا المتاريس والحواجز بين الحارات لوقف أعمال الحرق والنهب، لكن الحرائق استمرت واحترق جزء من قصر حجاج قرب باب الجابية على يد العصاة يوم الثلاثاء 19 ربيع الأول، وفي اليوم التالي حرقوا الكثير من البيوت والمقابر في منطقة ما بين المقبرة والجامع الصابوني، كما قام الطائعون بحرق بعض المواضع بالسويقة المحروقة والتي كان يتواجد بها العصاة، وفي يوم السبت 7 ربيع الآخر حرق الطائعون مكتب ومسجد المدرسة المزلقية بمحلة مسجد الذبان، وفي يوم الأربعاء 11 ربيع الآخر احترقت المئذنة البصية بمسجد الذبان⁽²⁾.

ومع اقتراب وصول العسكر المصري إلى دمشق، الذي كان قد غادر القاهرة في وقت سابق لمساندة الطائعين، هاجم الطائعون بعض بيوت العصاة وحرقوها ليلة الأحد 15 ربيع الآخر، وفي ليلة الثلاثاء 17 ربيع الآخر انسحب العصاة من دمشق وحرقوا جامع جراح قبل رحيلهم، لينتهي هذا الصراع بعدد كبير من الحرائق التي دمرت العديد من المباني والأسواق في مدينة دمشق وضواحيها⁽³⁾.

وفي (محرم 908هـ/ يوليو (تموز) 1502م) قبض مماليك نائب دمشق على أحد زعر⁽⁴⁾ الشاغور، فثار الغوغاء عليهم، فقام المماليك بحرق عدة مواضع، فهرب زعر الشاغور، لكن جماعات من زعر الحارات هاجمت المماليك، فخرجت لهم جماعات من مماليك الأجلاب فقامت بكسر أبواب الدور والحوانيت ونهب ما فيها، وأطلقت النار في مخازن القصب، وفي السويقة المحروقة، ونهبت بيوتاً كثيرة هناك أيضاً، وفي اليوم التالي خرجت جماعة من مماليك النائب وأكملوا حرق ما لم يحترق من الشاغور⁽⁵⁾، ويبدو هنا أن افتعال تلك الحرائق من المماليك لم يكن الهدف منه فقط القضاء على ثورة الزعر والغوغاء، ولكن كانت طريقة يستطيعون من خلالها استغلال الاضطراب الحادث أثناء الحريق للقيام بأعمال النهب والسرقة.

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص155.

(2) المصدر نفسه، ص156-159.

(3) المصدر نفسه، ص159-160.

(4) زعر: جمع الأزعر، وهو الشخص سيء الخلق؛ مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ص393.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص211.

ثانياً: الصراعات مع القوى الخارجية.

شهدت بلاد الشام العديد من المعارك والحروب مع القوى الخارجية في العهد المملوكي، سواءً من الصليبيين المحتلين لأجزاء داخل بلاد الشام، أو القوى القادمة من الخارج كالمغول الذين هاجموا المدن الشامية وأحدثوا بها أضراراً كبيرة قلما شهد التاريخ مثلها، وكانت أبرز تلك الأضرار هي الحرائق المدمرة في المدن والقرى الشامية.

الصراع الإسلامي الصليبي:

كانت من أهم أولويات السلاطين المماليك طرد الصليبيين من الشام، واستكمال مجهودات الأيوبيين في القضاء على الاحتلال الصليبي في بلاد الشام، لكن لم تكن الأوضاع قد استقرت للمماليك في بداية عهدهم في الشام حيث كان الملك الناصر⁽¹⁾ الأيوبي يسيطر على شمال الشام⁽²⁾، وفي محاولة من المماليك التخلص منه تحالفوا مع الصليبيين للقضاء عليه⁽³⁾، حيث قام الصليبيون بافتعال حريق كبير عام (650هـ/1252م) في مدينة حلب احترقت فيه ستمائة دار⁽⁴⁾، وجاء رد الملك الناصر بعد ذلك في عام (651هـ/1253م) بمهاجمة عكا والاستيلاء على كردانة⁽⁵⁾ وحرق الطواحين بها⁽⁶⁾.

إلا أن التحالف مع الصليبيين لم يدم طويلاً، وانتهى بسيطرة المماليك على كل بلاد الشام باستثناء ما بقي في يد الصليبيين؛ لذلك كانت الخطوة التالية للمماليك هي إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، لتصبح كلها للمماليك بدون منازع، وكانت البداية في عهد الظاهر بيبرس الذي جاهد الصليبيين بكل قوة وعنف، حيث قام في عام (659هـ/1261م) بإرسال

(1) الملك الناصر: يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب، صاحب حلب ودمشق، ولد عام 627هـ/1229م، وفي عام 648هـ/1250م استولى على دمشق وجعلها دار ملكه ثم سارع ليأخذ مصر فانكسر، وقتله المغول عام 656هـ/1257م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج23، ص205-206.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص179.

(3) العيني: عقد الجمان، ص17؛ العبادي، أحمد: قيام دولة المماليك، ص127؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص57.

King, Edwin: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p250.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص182؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص478؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص223.

(5) كردانة: قرية قريبة من عكا، يوجد بها طواحين للفرسان الأستبارية؛ اليونيني: ذيل، ج1، ص329؛ النويري: نهاية، ج30، ص188.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص389.

الجيش للإغارة على المناطق الصليبية في أنطاكية، وغنم منهم الكثير وحرق الغلال وأحرق الميناء بما فيه من المراكب⁽¹⁾، وفي (جمادى الآخرة 661هـ/ إبريل (نيسان) 1263م) هاجم بيبرس عكا، فقام بهدم الأبراج وحرق الأشجار التي حولها حتى أصبح دخانها كالغيوم، وذلك بعد أن تحصن الصليبيون داخل أسوار المدينة⁽²⁾.

تصاعدت هجمات بيبرس على الصليبيين بعد ذلك، وأصبحت أكثر قوة وتحولت من مجرد غارات إلى فتح مدن وحصون، فقد استطاع بيبرس في نهار الخميس (9 جمادى الأولى 663هـ/ 26 فبراير (شباط) 1265م) اقتحام مدينة قيسارية بعد أن أحرق أبواب المدينة، ثم حاصر القلعة داخل المدينة حتى استسلمت، وقام جنوده بتسليق أسوار القلعة وحرقوا أبوابها ودخلوها⁽³⁾، ثم هاجم قلعة عثليث⁽⁴⁾ الخاضعة للدواية يوم 26 جمادى الأولى، وسير في الوقت ذاته جيشاً بقيادة مجموعة من الأمراء إلى حيفا، وصل الجيش فجأة إليها فلاذ بالفرار من تنبهه للأمر، ولقي الباقون مصرعهم، ودخل الجيش المدينة ودمرها مع قلعتها بعد أن حرق أبوابها⁽⁵⁾. ولكن قلعة عثليث صمدت في وجه بيبرس، فأمر بإحراق القرية الواقعة خارج الأسوار، ثم تخلى عن حصارها وغادرها⁽⁶⁾، إلى أرسوف⁽⁷⁾ التي وصلها في (1 جمادى الآخرة 663هـ/ 21 مارس (آذار) 1265م) وقام بجمع كميات كبيرة من الأخشاب لردم الخندق المحيط بالقلعة ليستطيع عبوره، لكن الصليبيين تمكنوا من إحراق تلك الأخشاب باستخدام الحيلة، واستمرت محاولات بيبرس في اقتحام المدينة حتى سقط أحد أبراج المدينة نتيجة ضربة المنجنيق في الخميس (8 رجب 663هـ/ 26 إبريل (نيسان) 1265م) ، فدخل المسلمون المدينة وحرقوا

(1) المقرئزي: السلوك، ج1، ص537، 543؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص91.

(2) المقرئزي: السلوك، ج1، ص554؛ العيني: عقد الجمان، ص92؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص91.

(3) المقرئزي: السلوك، ج2، ص18؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص336؛ العبادي، أحمد: قيام دولة المماليك، ص223.

(4) عثليث: حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر، وهو من أعمال صفد يقع بين قاقون وعكا؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص85؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص157.

(5) المقرئزي: السلوك، ج2، ص20؛ العيني: عقد الجمان، ص103؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص96؛ أبوعون، عبد الرحيم: أقطاعية حيفا، ص151.

(6) المقرئزي: السلوك، ج2، ص20؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص97؛ أبوعون، عبد الرحيم: أقطاعية حيفا، ص151.

(7) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويفا استولى عليها الصليبيون عام 494هـ/ 1100م؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص151.

أبواب القلعة ودخلوها وقتلوا وأسروا من بها كما غنموا الكثير من داخلها، وتم تدمير وتخريب المدينة⁽¹⁾، والواضح هنا أن كمية الحرق والتدمير التي استخدمها بيبرس مع المدن والحصون التي فتحها كان الهدف منها عدم تمكين الصليبيين من العودة لتلك المدن مرة أخرى.

وفي السنة التالية هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة في الشام، وهي قلعة صدف التي كانت قاعدة لفرسان الداوية، وبعد حصار وقتال عنيف تمكن يوم الجمعة (18 شوال 664/ 23 يوليو/تموز) 1266م من الاستيلاء عليها، حيث نصب عليها المنجنوقات ونقب السور وأشعل فيه النيران، فاستسلم الصليبيون داخل المدينة وسلموها⁽²⁾، وفي العام ذاته هاجم بيبرس العديد من الحصون والقلاع الصليبية في شمال الشام، حيث قام بحرق وهدم تلك الحصون، ومنها قلعة الساب وهي قلعة حصينة شاهقة للداوية حيث حرقها بما فيها من الحواصل والذخائر، كما هاجم المصيصة وأذنة وطرسوس وقتل وأسروا وحرق، وهدم قلعة للدواوية والمعروفة بالبنية⁽³⁾.

وكان بعض فرسان الصليبيين يخرجون من عكا فيغيرون على أراضي المسلمين، فقام بيبرس في (11 شعبان 665هـ/7 مايو/أيار) 1267م بمهاجمة محيط مدينة عكا، وعمل على هدم وحرق البساتين والأبنية والأشجار المحيطة بالمدينة عقاباً على غاراتهم على المسلمين⁽⁴⁾، وفي يوم الأربعاء (26 رجب 666هـ/11 أبريل/نيسان) 1268م تمكن بيبرس من فتح شقيف أرنون⁽⁵⁾، واستولى على القلعتين الموجدتين بها، لكن الصليبيين قاموا بحرق إحدى القلعتين قبل تسليمها⁽⁶⁾.

على أن أكبر الانتصارات التي حققها بيبرس كانت فتح أنطاكية في (رمضان 666هـ/ مايو/أيار) 1268م، وهي أكبر وأقوى الإمارات الصليبية في ذلك الوقت، وكان عدد سكانها مائة ألف نسمة، أصبحوا ما بين قتيل وأسير في يد المسلمين، وغنم المسلمون من المدينة غنائم

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص20؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص97.

(2) اليونيني: ذيل، ج1، ص285-286؛ العبادي، أحمد: قيام دولة المماليك، ص223.

(3) العيني: عقد الجمان، ص109؛ النويري: نهاية، ج30، ص185.

(4) المقرئزي: السلوك، ج2، ص44؛ العيني: عقد الجمان، ص112؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص103.

(5) شقيف أرنون: الشقيف كالكهف أضيف إلى أرنون اسم رجل إما رومي وإما إفرنجي وهو قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص356.

(6) اليونيني: ذيل، ج1، ص302؛ العيني: عقد الجمان، ص114؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص105.

كثيرة جداً، كما أمر ببيرس بحرق القلعة حتى عم الحريق أنطاكية كلها⁽¹⁾، واحتترقت كنائسها المشهورة عالمياً⁽²⁾، وبأدر الناس إلى أخذ حديد الأبواب ورمصاص الكنائس، وأقيمت الأسواق خارج المدينة لبيع تلك الغنائم⁽³⁾.

وتجددت هجمات ببيرس على الصليبيين عام (669هـ/1271م) واستطاع فتح حصن الأكراد⁽⁴⁾ وتوصل إلى اتفاق مع الفرسان الاسبتارية يقضي بتسليم بعض الحصون مقابل هدنة، وكان منها قرفيص التي أخلوها، وأحرقوا ما لم يمكن حمله⁽⁵⁾، لكن رغم الهدنة مع الاسبتارية، قام مجموعة من الصليبيين بمهاجمة منطقة الشاغور وأحرقوا ما بها من الغلال، ذلك أن الهدنة كانت فقط مع الاسبتارية ولم تكن مع كل الصليبيين⁽⁶⁾، وفي عام (673هـ/1275م) فتح ببيرس المصيصة، وقام بحرق عدة مواضع بها⁽⁷⁾.

وبذلك يكون ببيرس قبل وفاته قد استطاع تحرير الكثير من المدن والحصون من يد الصليبيين، ولم يبق في أيديهم سوى بعض المدن الساحلية، التي حررت على يد الأشرف خليل بن قلاوون، الذي تمكن من فتح عكا في يوم الجمعة (17 جمادى الأولى 690هـ/18 مايو/أيار) 1291م) بعد قتال عنيف وحصار دام أربعة وأربعين يوماً، نقب فيه الأسوار وأشعل فيها النيران حتى تهدمت، ولكي لا تبقى عكا محط أنظار الغرب والحصن الذي يحتمون فيه وموطئ القادم لهم للانطلاق نحو القدس، قام بحرق وتدمير الكنائس والأسوار وعدة أماكن أخرى بالمدينة⁽⁸⁾.

ولما فتحت عكا دبَّ الرعب في قلوب جميع الصليبيين بساحل الشام، فأخلوا صيدا وانتقلوا إلى الجزيرة المجاورة لها، ثم إنهم أحرقوا الجزيرة بما فيها في (18 رجب 690هـ/17

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص50؛ العيني: عقد الجمان، ص117؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص176؛ العبادي، أحمد: قيام دولة المماليك، ص226.

(2) ابن العبري: تاريخ، ص180.

(3) المقرئزي: السلوك، ج2، ص50؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص108.

(4) حصن الأكراد: هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب وهو بين بعلبك وحمص؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص264.

(5) العيني: عقد الجمان، ص127.

(6) المقرئزي: السلوك، ج2، ص71.

(7) العيني: عقد الجمان، ص141.

(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص44، 48؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص224؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص202-203؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص135-136.

يوليو (تموز) 1291م) ورحلوا إلى قبرص⁽¹⁾، كما قام أهل عثليث بحرق أموالهم ومتاعهم وما لم يقدروا على حمله، وعرقبوا دوابهم⁽²⁾، وحرقوا محاصيلهم، وهربوا بحراً، فدخلها المسلمون مستهل شعبان وهدموها، وكذلك فعل سكان طرسوس عندما سمعوا بسقوط القلاع والحصون، وهكذا تم تحرير بلاد الشام من الصليبيين بشكل كامل في عام (690هـ/1291م)⁽³⁾.

لكن بالرغم من انتهاء الوجود الصليبي في الشام، إلا أن السواحل الشامية شهدت العديد من الهجمات الصليبية القادمة من أوروبا، والتي كانت في أغلبها عبارة عن أعمال قراصنة وغارات سريعة للتخريب والاعتداء على الموانئ المملوكية في الشام، حيث هاجموا ميناء طرابلس عام (767هـ/1366م)، وأخذوا مركباً وحرقوه، والناس ينظرون دون القدرة على دفعهم أو منعهم، ثم انسحبوا وقد أسروا ثلاثة من المسلمين⁽⁴⁾، وفي عام (785هـ/1383م) تمكن الصليبيون من دخول صيدا، بعد انسحاب أهلها منها، فوجدوا بعض ممتلكات السكان فنهبوها وأخذوا ما وجدوا من زيت وصابون وأحرقوا السوق، ثم توجهوا إلى بيروت⁽⁵⁾.

كما تعرضت السواحل الشامية في عام (806هـ/1403م) إلى هجوم من أسطول صليبي من جنوا مؤلف من أربعين مركباً⁽⁶⁾، حيث هاجم مدينة طرابلس وحاول دخولها، لكن أهل المدينة تمكنوا من صددهم عنها، ثم توجه الأسطول بعد ذلك إلى بيروت⁽⁷⁾، ولم يكن فيها ما يكفي من القوات العسكرية للدفاع عنها، فقام أهل بيروت بمغادرة المدينة عند اقتراب الأسطول منها، فما كان من الجنوبية إلا أن دخلوا المدينة في (20 محرم 806هـ/9 أغسطس (آب) 1403م)، ونهبوها⁽⁸⁾ وأحرقوا بعض المنازل والسوق القريب من الميناء⁽⁹⁾.

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص50؛ الحريري، سيد: الاخبار السنية، ص355.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص52.

(3) الذهبي: العبر، ج5، ص365؛ الياضي: مرآة الجنان، ج4، ص209؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص138.

(4) ابن كثير: البداية، ج14، ص323.

(5) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج2، ص127؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص123.

(6) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص55؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص133؛ ذكر المقرئ ان الأسطول مكون من ثلاثين مركباً؛ السلوك، ج6، ص99.

(7) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص56؛ المقرئ: السلوك، ج6، ص99؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص133.

(8) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص56؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص133.

(9) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص56؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص126.

واستمر الجنوبية مقيمين في المدينة ذلك اليوم إلى أن قدم أمير المدينة ومعه الجند والمتطوعون، ودار بينهم قتال في أزقة المدينة، قتل فيه بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير⁽¹⁾، مما اضطر الجنوبية إلى الانسحاب من المدينة وترك قتلاهم، فلما وصل نائب الشام في اليوم التالي لنجدة المدينة ووجدهم قد انسحبوا، أمر بجمع جثث الجنوبية وحرقتها⁽²⁾. وفي عهد الأشرف برسباي⁽³⁾ أرسل حملة حربية لغزو جزيرة قبرص، واستطاع الاستيلاء على الكثير من الغنائم والأسرى، وفي ردة فعل من ملك قبرص على تلك الغزوة، أرسل سفينتين مشحونتين بالرجال والعدة إلى سواحل الشام عام (828هـ/1424م)، بهدف التخريب ومحاولة الحصول على أسرى وغنائم، لكن القوات الإسلامية المرابطة على طول الساحل تمكنت من صددهم، فاتفق أنهم احتاجوا إلى الماء فانتهوا إلى مكان يقال له نهر الكلب⁽⁴⁾، فلما رآهم الحرس كمنوا لهم، حتى دخلت إحدى السفينتين النهر، فانقضوا عليها وحرقوها وأسروا من فيها وفرت السفينة الأخرى إلى قبرص⁽⁵⁾، وفي العام نفسه استولى الصليبيون على مركب للمسلمين ونهبوا ما فيه ثم حرقوه، وكان المركب قد خرج من اللاذقية⁽⁶⁾ باتجاه مصر، حيث استولوا عليه بالقرب من جزيرة أرواد⁽⁷⁾.

وفي عام (837هـ/1433م) تمكن بعض العسكر في طرابلس من الاستيلاء على مركب بضائع للجنوبيين، وقاموا بقتل وأسروا من فيه ثم إحراقه، بالرغم من وجود معاهدة صلح

(1) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص56؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص99؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص133.

(2) المقرئزي: السلوك، ج6، ص99؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص133.

(3) برسباي: الأشرف سيف الدين برسباي، ولاة المؤيد شيخ نيابة طرابلس ثم غضب منه فاعتقله نائب دمشق فلما دخل ططر الشام بعد المؤيد استصحبه إلى القاهرة وقرره دواداراً كبيراً فلما استقر ابنه الصالح محمد كان نائباً عنه في التكلم مدة أشهر إلى أن اجتمع الرأي على خلعه وسلطنة برسباي وذلك في 825هـ/1422م، شهد عصره حالة من الاستقرار، وفتحت في أيامه قبرص؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص8.

(4) نهر الكلب: يقع بين بيروت وطرابلس على البحر المتوسط؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص323.

(5) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص71؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص131.

(6) اللاذقية: مدينة على ساحل البحر المتوسط تعد من أعمال حمص، وبها ميناء للمراكب، وتقع بين جبلة وأنطاكية؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص645؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص5.

(7) المقرئزي: السلوك، ج7، ص117.

جزيرة أرواد: وهي جزيرة تقابل مدينة طرسوس، اجتمع فيها الصليبيون بعد طردهم من بلاد الشام، وحصنوها وأحاطوها بسور، كما شكلت ضرراً كبيراً على مدن ساحل الشام؛ النويري: نهاية، ج32، ص10.

بين المماليك والجنوبيين في تلك المدة، فكان ذلك الفعل من العسكر مرفوضاً من السلطان لخرقهم العهود⁽¹⁾.

الصراع المملوكي المغولي:

يُعدُّ الغزو المغولي للعالم الإسلامي من أشد الأخطار التي كادت أن تعصف بكيان الأمة الإسلامية، فكان هدف موجات الزحف المغولي إلحاق الدمار والخراب وتدمير التراث الفكري والحضاري للمسلمين، فالمغوليون الرعاة الذين عاشوا حياة تعسة ذاقوا فيها مرارة الفقر والحرمان، فقست نفوسهم، وخشنت طباعهم، لم يرحموا صغيراً ولا كبيراً في العالم الإسلامي، وانطلقوا يدمرون كل شيء في طريقهم حتى انتشر الفرع والهلع في كل مكان، ويقول ابن الأثير: " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أُمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً"⁽²⁾.

وبالطبع كانت بلاد الشام من أكثر البلاد التي تعرضت لويلات هذا الغزو، وشهدت مدنها الكثير من الحرائق المدمرة التي نتج عنها الكثير من الخسائر البشرية والمادية، وكانت حلب أول المدن الشامية التي اقتحمها المغول بقيادة هولاكو، بعد حصار وقتال شديد، حيث رفض نائب حلب الاستسلام للمغول، فاقتحموا المدينة في (10 صفر 658هـ/26 يناير كانون الثاني 1260م) واستولوا عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلاً وأسراً⁽³⁾، وقاموا بحرق العديد من الأماكن حيث احترق الحائط القبلي من جامع حلب، وامتد الحريق حتى حرق المدرسة الحلاوية وسوق البزازين⁽⁴⁾، وبقي القتل والأسر والحرق إلى يوم الجمعة 14 صفر، ثم أعطى أهل المدينة الأمان⁽⁵⁾، ولكن قلعة حلب بقيت عصية عليهم حتى استسلمت في (9 ربيع الأول 658هـ/23 فبراير شباط 1260م)، فقاموا بتخريب سورها، وأحرقوا ما كان بها من الذخائر والآلات

(1) المقريزي: السلوك، ج7، ص271.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص399.

(3) ابن العبري: تاريخ، ص175؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص49-50؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص218.

(4) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص15.

(5) النويري: نهاية، ج27، ص261؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص50.

الحربية⁽¹⁾، كما أمر هولاءكو نائب حماة بحرق الزردخانه في قلعتها وتخریب سور المدينة ففعل⁽²⁾.

ثم توجهت القوات المغولية لمدينة دمشق، التي استسلم أهلها للمغول وطلبوا الأمان⁽³⁾، لكن والي قلعة دمشق امتنع فيها ومعه الكثير من الناس، فحاصر المغول القلعة وضربوها بالمنجنیقات حتى هدمت بعض الحوائط، فطلب من بالقلعة الأمان من المغول في (14 جمادى الأولى 658هـ/27 إبریل/نیسان 1260م)، فأمنوهم ودخل المغول القلعة ونهبوا ما فيها، وحرقوا مواضع كثيرة بها، وهدموا عدداً من أبراجها وحرقوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد⁽⁴⁾.

وفي تلك الأثناء قويت شوكة النصارى بالمغول في دمشق، وذلك بتشجيع من هولاءكو⁽⁵⁾، فقاموا بالكثير من الأعمال التي تهين المسلمين، حيث رفعوا أصواتهم في الشوارع وهم يرفعون الصليب، ويرشون الخمر على الناس، وفي أبواب المساجد، وألزموا الناس من الدكاكين بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أحرقوا بابه وأقاموه غصباً⁽⁶⁾.

لكن لم يكد يمر على المسلمين في دمشق وسائر بلاد الشام سوى أربعة أشهر من المعاناة من المغول الهمجيين والنصارى الحاقدين، حتى جاءت البشارات بانتصار المسلمين على المغول في عين جالوت في (25 رمضان 658هـ/3 سبتمبر/أيلول 1260م) وأن جيوش الإسلام تتبع المغول حتى دمشق، فعندما طارت الأخبار بذلك فرح المسلمون فرحاً شديداً، وانطلقوا يردون الصاع صاعين للنصارى الحاقدين فاتجه المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فأحرقوها وأحرقوا دور النصارى حولها، كما أحرقوا كنيسة اليعاقبة وكنيسة

(1) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص12.

(2) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص199.

(3) اليونيني: ذيل، ج1، ص133.

(4) اليونيني: ذيل، ج1، ص134؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص199؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص513.

(5) كانت معاملة هولاءكو للنصارى معاملة طيبة وجيدة في جميع المدن التي فتحها، على عكس معاملته للمسلمين التي تميزت بالقسوة والعنف، وذلك لأن زوجته دوقوز خاتون كانت تدين بالنصرانية؛ ابن العبري: تاريخ، ص164؛ اليونيني: ذيل، ج2، ص84؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص29.

(6) اليونيني: ذيل، ج1، ص138؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص60.

مريم، وأطلقوا الأسرى من يد المغول، وقتلوا من وجدوه من المغول والمنافقين الذين كانوا يساعدونهم⁽¹⁾.

وبعد مقتل قطز عاد المغول مرة أخرى لحلب في (محرم 659هـ/ ديسمبر) كانون الأول (1260م)، "فرأوا في القلعة برجاً قد بُني للحمام بأمر قطز، فأنكروا عليهم بناءه وخربوا القلعة خراباً شنيعاً وما فيها من الدور والخزائن ولم يبقوا فيها مكاناً للسكنى"، كما حرقوا جامع القلعة⁽²⁾.

وعندما تولى بيبرس السلطنة عمل على تحصين الثغور والأطراف لمواجهة أي غزو مغولي آخر، فأمر نائبه بحلب عام (660هـ/1262م) بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاكو أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام، فأحرق تلك المروج جميعها، وهي مسيرة عشرة أيام، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل والطرق المؤدية إلى الشام⁽³⁾، وقد شرح القلقشندي طريقة هذا الإحراق " وذلك أنه كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيولهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض فإذا كانت تلك الأرض مخصبة سلكوها وإذا كانت مجدبة تجنبوها وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذكر أرضاً مخصبة تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرفق والدفع عن مباغته الأطراف ومهاجمة الثغور وكان طريقهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد فيكمنون عند أمعاء النصاح في كهوف الجبال ويطون الأودية ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهواؤه زرع تعلق النار موثقة في أذنان تلك الثعالب والكلاب ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها وقد جوعت لتجد الثعالب في العدو والكلاب في الطلب فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات وتعلق الريح النار منه فيما جاوره مع ما يلقيه الرجال بأيديهم في الليالي المظلمة وعشاء الأيام المعتمة"⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من قيام بيبرس بتأمين حدود الدولة المملوكية، إلا أن الصراع بين بيبرس والمغول استمر طوال فترة حكمه، وفي محاولة من المغول التغلب على المماليك بقيادة بيبرس،

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص62؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص221؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص517.

(2) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص12، 16.

(3) المقرئ: السلوك، ج1، ص544.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص448-449.

تحالفوا مع معين الدين سليمان⁽¹⁾ البرواناه⁽²⁾، وحاصروا قلعة البيرة⁽³⁾ يوم الخميس (8 جمادى الآخرة 674هـ/28 نوفمبر (تشرين الثاني) 1275م) بثلاثين ألف مقاتل، نصفهم من المغول والنصف الآخر من عسكر البرواناه، ونصبوا المنجنيقات على القلعة، لكن أهل البيرة استغلوا عتمة الليل وخرجوا من القلعة، فقتلوا الكثير من المحاصرين، ونهبوا وأحرقوا المنجنيقات وعادوا، ثم شدد المغول الحصار، لكن صمود أهل البيرة أجبرهم على الرحيل في 29 جمادى الآخرة⁽⁴⁾. وفي عام (679هـ/1280م) استغل المغول بقيادة ملكهم أبغا⁽⁵⁾ عدم استقرار الأوضاع في الشام بعد وفاة بيبرس، والخلاف بين سنقر الأشقر⁽⁶⁾ والمنصور قلاوون⁽⁷⁾، وقاموا في يوم الجمعة (21 جمادى الآخرة 679هـ/18 أكتوبر (تشرين الأول) 1280م) بمهاجمة مدينة حلب الخالية من العسكر، وأقاموا بها لمدة يومين ينهبون ويحرقون، حيث حرقوا جامع حلب والعديد من المدارس ودار السلطنة ودور الأمراء الكبار، ثم رحلوا يوم الأحد 23 جمادى الآخرة ومعهم

(1) معين الدين سليمان: كان وزيراً عند سلاجقة الروم والمتحكم في مقاليد الحكم، أعلن ولاءه للمغول عندما كانوا أصحاب السيادة في منطقة آسيا الصغرى، فلما تغلب بيبرس عليهم أعلن ولاءه للمماليك وتحالف معهم ضد المغول، مما أغضب المغول فهاجموا بلاده وقتلوه عام 676هـ/1277م، الصفي: الوافي، ج15، ص249؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص455.

(2) البرواناه: لفظ فارسي معناه الحاجب، أطلق كلقب في دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص75.

(3) البيرة: قلعة حصينة على نهر الفرات، تقع شمال بلاد الشام في أرض الجزيرة؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص113.

(4) اليونيني: ذيل، ج1، ص383؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص17؛ العيني: عقد الجمان، ص141.

(5) أبغا: تولى حكم مغول فارس بعد وفاة أبيه هولاکو، وكان ملكاً عظيماً، خبيراً بالحروب، كان وثيقاً على مذهب المغول، له مملكة كبيرة ومتسعة، دخل في عدد من الحروب مع المماليك، ومات في عام 680هـ/1282م في الخمسين من عمره؛ اليونيني: ذيل، ج2، ص43.

(6) سنقر الأشقر: أمير كبير من أعيان البحرية، حبس في عهد الملك الناصر، وحرره التتار عندما دخلوا حلب، ثم جاء للظاهر بيبرس وأكرمه، تولى نيابة دمشق عام 678هـ/1279م، ودخل في صراع مع المنصور قلاوون على السلطنة انتهى بهزيمته؛ الصفي: الوافي، ج15، ص297؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص119.

(7) المنصور قلاوون: سيف الدين أبو المعالي، تولى سلطنة الدولة المملوكية عام 678هـ/1279م، واستطاع التخلص من منافسيه في الداخل، وجاهد ضد المغول والصليبيين وحقق عليهم العديد من الانتصارات، وكانت مدة حكمه أحد عشر عاماً، وتوفي عام 689هـ/1290م؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص225؛ ابن تغري بردي: مرد اللطافة، ص38-40.

الكثير من الغنائم والغلال، وكان سبب رحيلهم اتفاق كلمة المماليك على الخروج لطردهم من حلب⁽¹⁾.

وفي العام التالي جمع المغول جيشاً كبيراً يقدر بمائة ألف فارس لمهاجمة المماليك في بلاد الشام، وتقدم المغول ببطاء على غير عادتهم، حتى وصلوا ضواحي حماة، وهناك حرقوا بستان السلطان وقصره وعدداً من الأبنية، في حين كان المنصور قلاوون ينتظرهم بالقرب من حمص، حيث دارت هناك معركة كبيرة بين الفريقين في يوم الخميس (15 رجب 680هـ/ 30 أكتوبر (تشرين الأول) 1281م)، استطاع فيها المماليك إلحاق هزيمة ساحقة بالمغول⁽²⁾، وقتلوا منهم الكثير وطاردوا قلولهم حتى نهر الفرات، حيث اختبأت هناك مجموعات من المغول الفارين بين الأحرش (الأزوار) على الفرات، فأمر المنصور قلاوون بحرق الأحرش فاحترق عدد كبير منهم ذلك اليوم⁽³⁾.

وبعد تلك الهزيمة توفى أبغا ملك المغول، وتولى بعده أخوه أحمد توكدار بن هولوكو الذي كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتلائه العرش⁽⁴⁾، وتحسنت العلاقات بين المماليك والمغول أثناء حكمه، لكن سرعان ما قتل توكدار، وعادت حالة العداء بينهما في عهد خلفاء توكدار⁽⁵⁾، ورغم وصول غازان⁽⁶⁾ بن أرغون إلى حكم المغول والذي كان مسلماً أيضاً، إلا أن العداء مع المماليك بقي على حاله، لأنه أبقى على سياسة أسلافه التوسعية على حساب جيرانه، بالإضافة إلى استغلاله حالة الضعف وعدم الاستقرار في دولة المماليك في ذلك الوقت، واستقبال كل من المملكتين المعارضين والخصوم السياسيين في المملكة الأخرى⁽⁷⁾.

(1) اليونيني: ذيل، ج2، ص23-24؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص50؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص190؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص136.

(2) اليونيني: ذيل، ج2، ص40؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص295؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص303.

(3) المقرئزي: السلوك، ج2، ص148.

(4) ابن العبري: تاريخ، ص184؛ اليونيني: ذيل، ج2، ص58؛ النويري: نهاية، ج27، ص271.

(5) اليونيني: ذيل، ج2، ص85؛ النويري: نهاية، ج27، ص273؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص214.

(6) غازان: هو غازان بن أرغون بن أبغا بن هولوكو، تولى حكم مغول فارس عام 694هـ/1295م، أشهر إسلامه بعد ذلك، لكنه دخل في صراعات مع المماليك ومات عام 703هـ/1304م؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص617-619؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص248-251.

(7) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص472-473؛ العيني: عقد الجمان، ص293؛ عاشور، سعيد: العصر المماليكي، ص49.

فقام غازان بإعداد جيش كبير وهاجم بلاد الشام، وحاول المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون التصدي لهجوم المغول، غير أن المماليك لم يصمدوا في وجه المغول الذين أنزلوا الهزيمة بهم عند مجمع المروج بين حمص وحماة في يوم الأربعاء (27 ربيع الأول 699هـ / 23 ديسمبر (كانون الأول) 1299م)⁽¹⁾، ثم زحف غازان نحو دمشق التي كان الأهالي فيها في حالة من الذعر والقلق، لكن غازان أعطى أهلها الأمان، ودخل دمشق بسلام بعد أن استسلمت في منتصف ربيع الآخر، ولكن عصت عليه القلعة التي تحصن بها مجموعة من المماليك، فأمر غازان بحصارها، لكن المحاصرين في القلعة صمدوا وصبروا على الحصار ولم يسلموا القلعة، بل عملوا على حماية القلعة من أي اختراق فقاموا، بحرق عدة أماكن حول القلعة، فاحترقت دار السعادة التي كانت مقر نواب السلطنة، ودار الحديث الأشرفية وعدة مدارس إلى المدرسة العادلية، كما احترقت عدة قصور ويساتين حول القلعة⁽²⁾، وكان الهدف من حرق تلك الأماكن عدم تمكين المغول من استغلالها في الحصار والدخول إلى القلعة، وقد نجح المحاصرون في عدم تمكين المغول من دخول القلعة حتى رفعوا الحصار عنها في 22 جمادى الأولى⁽³⁾.

وأثناء حصار القلعة نقض المغول الأمان الذي أعطوه لأهل دمشق، حيث قاموا بعمليات نهب وتخريب كبيرة في دمشق وسائر بلاد الشام، وقتلوا وأسروا الكثير من الناس، كما حرقوا العديد من الأماكن داخل دمشق وخارجها، وكان مما احترق جامع التوبة بالعقبية ومارستان⁽⁴⁾ الجبل والدهشة، والمدرسة الصاحبية والرباط⁽⁵⁾ الناصري، والمساجد والمدارس بالصالحية وأماكن كثيرة أخرى⁽⁶⁾، بالإضافة إلى أنهم كانوا السبب الرئيس في جعل المحاصرين

(1) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص434؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص239؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص473.

(2) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص434؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص85-86؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص240؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص8-9؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص474؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص323-324.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص89؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص9.

(4) مارستان: لفظ فارسي بمعنى المستشفى أو المكان المعد لمعالجة المرضى؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص96.

(5) الرباط: مكان للعبادة والدرس يتجمع فيه المجاهدون الذين كانوا في غالبيتهم من الجماعات الصوفية؛ الخطيب، مصطفى: معجم المصطلحات، ص205.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص87-88؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص8؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص474؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص323.

يحرقون ما حول القلعة؛ لأنهم كانوا يخرجون سكان تلك المناطق ويصعدون على أسطح الأبنية لرمي القلعة ومحاولة اختراقها، كما نصبوا منجنيقاً في صحن الجامع الأموي لرمي القلعة، لكن أهل القلعة تمكنوا من حرق ذلك المنجنيق⁽¹⁾.

وبعد هذا الكم الكبير من الخراب والتدمير والقتل غادر غازان بلاد الشام وترك بها حامية ونائباً عنه⁽²⁾، لكن سرعان ما خرج السلطان الناصر قلاوون من مصر واسترد المدن الشامية من المغول وطردهم، مما أثار غضب غازان الذي عاد وهاجم بلاد الشام مرة أخرى، لكنه في هذه المرة مني بهزيمة شنيعة في مرج الصفر بالقرب من حمص في يوم السبت (2 رمضان 702هـ/20 أبريل/نيسان 1303م)، هلك فيها معظم جيشه، وتوفي غازان بعد تلك الهزيمة، ولم تحدث هجمات كبيرة من المغول بعد ذلك إلا عند قدوم تيمورلنك⁽³⁾ إلى بلاد الشام⁽⁴⁾.

ولعل هجمة تيمورلنك على بلاد الشام في عام (803هـ/1400م) كانت أشد وأقسى الهجمات المغولية، لما أحدثته من قتل وتعذيب وأسر وتدمير وتخريب يفوق الوصف، وكان سبب قدوم تيمورلنك لغزو بلاد الشام، هو الخلاف الحاد بينه وبين المماليك حول النفوذ والسيطرة على المناطق المحيطة بالمملكتين، حيث تصدى السلطان برقوق لطموحات تيمورلنك التوسعية في المناطق المتاخمة لدولة المماليك⁽⁵⁾، لكن وفاة السلطان برقوق وتولي ابنه الصغير فرج الحكم، وحالة عدم الاستقرار والخلافات الداخلية بين أمراء المماليك في ذلك الوقت، شجعت تيمورلنك على القيام بهجوم كبير على الدولة المملوكية⁽⁶⁾.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص9؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص474؛ المقريزي: السلوك، ج2، ص324.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص87؛ المقريزي: السلوك، ج2، ص325.

(3) تيمورلنك: قائد من أصل مغولي، ولد عام 728هـ/1328م في كش بالقرب من سمرقند، كون امبراطورية كبيرة وقام بحملات توسعية شرسة وسط آسيا ودخل الهند وآسيا الصغرى والشام والعراق، حقق الكثير من الانتصارات والفتوحات المصحوبة بقتل الكثير من الناس وتدمير مدن بأكملها، وتوفي عام 807هـ/1405م وهو في طريقه إلى فتح الصين؛ للمزيد ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص254-270.

(4) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص493-494؛ النويري: نهاية، ج27، ص280؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص25-26.

(5) القلقشندي: مآثر، ج2، ص190؛ المقريزي: السلوك، ج5، ص345، 352؛ ابن عريشاه: عجائب المقذور، ص22؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص44-45، 56.

(6) القلقشندي: مآثر، ج2، ص191-192؛ المقريزي: السلوك، ج6، ص7-9؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص264.

فانطلق من سمرقند بجيش جرار يفتح البلاد والمدن، ويقتل أفراد الحاميات وأهل المدن التي احتلها كما كانت عادته في غالبية غزواته، حتى وصل مشارف بلاد الشام⁽¹⁾، وأرسل تيمورلنك رسالة إلى نائب السلطنة في حلب يهدده بالويل والثبور لكي يستسلم ويفتح أبواب المدينة أمام جيشه، فما كان من الأمير المملوكي سوى قطع رؤوس الرسل جواباً، واجتمع عنده نواب المدن الشامية للتصدي لحملة تيمورلنك⁽²⁾.

وصل تيمورلنك إلى حلب بعدما عاث في القرى المحيطة بها وحاصرها في يوم الجمعة (10 ربيع الأول 803هـ/ 29 أكتوبر (تشرين الأول) 1400م)، وجرت بينه وبين المماليك الذين أتوا من كل المدن الشامية وأهل حلب مناوشات عدة، ولكن المماليك، وبعد يومين من القتال الشديد، انهزموا وقتل منهم الكثير ولجأوا إلى قلعة حلب⁽³⁾، ونجح تيمورلنك في نقب سور القلعة وردم الخندق المحيط بها، واقتحامه وأخذ من كان فيها، وتركت حلب وأهلها لمصيرهم، الذي كان فعلاً فظيماً⁽⁴⁾.

فقد قتل المغول سكان البلد الذين خرجوا أساساً مع المماليك ثم دخلوا المدينة وأجهزوا على من تبقى منهم، حتى أولئك الذين التجأوا إلى الجوامع والمدارس، واغتصبوا النساء والفتيات والغلمان وقتلوا الأطفال أيضاً بعد أن كانوا قد قضوا على الرجال والفتيان، ثم أشعلوا النار في المدينة حتى احترق الكثير من مساجدها ومدارسها وبيوت أهلها⁽⁵⁾، "وأصبحت مظلمة بالحريق موحشة قفراء"⁽⁶⁾، وبنى تيمورلنك برجاً من الرؤوس التي قطعها جنوده، قيل أن عدته عشرين ألف رأس تنتظر كلها للخارج، واستمر القتل والنهب والتخريب في حلب وما حولها مدة شهر⁽⁷⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج6، ص37-38؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص189-190؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص265؛ محمد، محمد: الغزو التيموري، ص12.

(2) المقرئزي: السلوك، ج6، ص41؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص190-193؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص221.

(3) المقرئزي: السلوك، ج6، ص41-42؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص195-196؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص48؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص222.

(4) المقرئزي: السلوك، ج6، ص42؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص224؛ محمد، محمد: الغزو التيموري، ص19.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص42؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص49؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص223؛ سليمان، أحمد: تيمورلنك، ص33.

(6) المقرئزي: السلوك، ج6، ص42.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص42؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص225.

وبعد مجزرة حلب، فتحت حماة أبوابها لابن تيمورلنك ميران شاه خوفاً من بطش المغول، ولكن اغتيال اثنين من جنده في الليل من بعض المتحصنين بقلعة حماة في يوم الجمعة (17 ربيع الأول 803هـ / 5 نوفمبر (تشرين الثاني) 1400م)، جعله يعود إلى المدينة ويضع السيف في أهلها ويحرقها بالكامل⁽¹⁾.

وفي جمادى الأولى وصلت جيوش تيمورلنك إلى مشارف دمشق تسبقها أخبار التقتيل والتدمير، وكانت المدينة قد تحصنت وبانت تنتظر وصول السلطان فرج من مصر ليفرج عنها، ومع أن السلطان والجيش المملوكي قدموا للدفاع عن دمشق⁽²⁾، فإنهم كانوا متنافرين فيما بينهم، كل يتحين الفرصة للانقضاض على الآخر⁽³⁾، وكان فرج صبيّاً أهوج يفتقر إلى الحنكة والسياسة وإلى النصحاء الخالص⁽⁴⁾، على الرغم من أن بلاطه قد حوى على بعض ألمع مفكري العصر⁽⁵⁾، وكان تيمورلنك الداهية عالماً بالانشقاقات في المعسكر المملوكي وبضعف السلطان وقلة حيلته، فخادعهم بعد ابتداء المناوشات بين الجيشين بأن أظهر التقهقر والانحدار وطلب الصلح ثم عاود الكرة عليهم وهزمهم⁽⁶⁾، وقام بإشعال النيران حول معسكرهم لسد كافة الطرق حولهم للهروب إلى مصر، فكانت حرائق كبيرة غطت مساحة ما يقرب من مائة وخمسين ميلاً⁽⁷⁾، لكن بعض الأمراء المماليك تمكنوا من الفرار إلى مصر، ثم تبعهم السلطان وبطانته خلال الليل خوفاً من أن يقوم الأمراء المماليك الفارين من خلعه وتولية غيره سلطاناً على البلاد، تاركين وراءهم عتادهم وأثقالهم ومدينة دمشق من غير جيش يحميها⁽⁸⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج6، ص43؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص226.

(2) المقرئزي: السلوك، ج6، ص47؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص232.

(3) المقرئزي: السلوك، ج6، ص46؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص200؛ سليمان، أحمد: تيمورلنك، ص30.

(4) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص4؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص217.

(5) كان منهم العالم والمؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون، الذي استقبله تيمورلنك وأكرمه وأجله وأنزله عنده، ثم أذن له بالمسير إلى مصر عند رحيله؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص54.

(6) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص20؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص49-50؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص200؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص235-236؛ سليمان، أحمد: تيمورلنك، ص33.

(7) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص20-21.

(8) المقرئزي: السلوك، ج6، ص49-50؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص200؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص236.

لذلك دافع سكان دمشق ومن بقي من المماليك الشامية ومن انضم إليهم من الذين هربوا من حلب وحماة وغيرها من المدن عن دمشق دفاعاً مستميتاً ولكن من دون قيادة ولا دراية بأمر الحرب، وخدمهم تيمور بأن أرسل في طلب الصلح، فأخرجوا إليه واحداً من علمائهم، قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي⁽¹⁾، فتلطف إليه تيمورلنك في الكلام ومدح دمشق بلاد الأنبياء والصحابه وقال له إنه سيعتق البلد ولكنه يريد التقدّمات (طغرات بالمغولي) التي اعتاد أخذها من المدن المفتوحة صلحاً قبل مغادرته، فخدع ابن مفلح بكلام تيمور المعسول وعاد إلى دمشق وشرع يخذل الناس عن القتال ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناءً عظيماً، وتمكن خلال يومين من إقناع أهل البلد بالكف عن القتال وبدفع الطغرات التي يريدها تيمور ومبلغها مليون دينار، وهو رقم هائل تلك الأيام، ولكن المدينة كانت غنية بزراعتها وصناعاتها وتجاريتها، وتمكنت بسرعة من جمع المبلغ الذي حمله ابن مفلح وغيره من وجهاء البلد إلى الأمير تيمورلنك⁽²⁾.

ولما رأى تيمورلنك المال وتيقن من سهولة جمعه من هذه المدينة الغنية، استشاط غضباً وادعى أن المال بحساب المغول ناقص وأن ما حمل إليه مما تركه المصريون هو له أصلاً، فسلم أهل البلد كل ما كان فيها من أموال وعتاد المصريين⁽³⁾، ثم طالبهم تيمور بأموال التجار الذين فروا من البلد وبالذواب التي لديهم وكل آلة السلاح، فسلموها حتى لم يتبق لديهم شيء للدفاع عن أنفسهم أو للهرب⁽⁴⁾، خاصة بعد سقوط قلعة دمشق في يد المغول بعد حصار ومعارك لمدة تسعة وعشرين يوماً⁽⁵⁾، استطاع خلالها المحاصرون الصمود هذه المدة بعدما أحرقوا ما بجانب القلعة من الأدوات الهجومية للمغول⁽⁶⁾.

ولكن جشع تيمور لم يهدأ فقبض على ابن مفلح وأصحابه بعدما كان أمنهم، وألزمهم أن يدلوه على أقسام المدينة وحواراتها وطرقها، فكتبوا ذلك، ثم قسم تيمور المدينة بين أمرائه لكي يستخرج كل منهم ما استطاع من قسمه، فنزلوا المدينة وتفننوا في سوم الناس ألوان العذاب لكي

(1) المقرئزي: السلوك، ج6، ص50؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص207؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص238-239.

(2) المقرئزي: السلوك، ج6، ص51؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص207؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص239-241.

(3) المقرئزي: السلوك، ج6، ص52؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص241.

(4) المقرئزي: السلوك، ج6، ص53؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص243-244.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص52؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص242.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص243.

يعطوهم ما بقي لديهم⁽¹⁾، وقد خلف لنا المؤرخون أوصافاً مذهلة لما فعله عسكر تيمورلنك بالدمشقيين بعدما استخلصوا منهم جل ما لديهم، نقتبس منها التالي من المقرئزي وابن تغري بردي "فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه، ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، وربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً"⁽²⁾.

دام هذا العذاب تسعة عشر يوماً حتى يوم الثلاثاء 28 رجب، قتلت خلاله أعداد كبيرة من الناس وفرغت المدينة من كل ثرائها⁽³⁾، ولكن غل تيمورلنك لم يشف بما فعله، فاستباحها لجيشه لمدة ثلاثة أيام أخرى ثم قاد منها جمعاً غفيراً من الصناع والأعيان والنساء والغلمان ليعود بهم إلى سمرقند، وأشعل النار فيما تبقى من البلد لكي يكمل عليها، وأقامت النار ثلاثة أيام كاملة احترق فيها الجامع الأموي وما حوله وغالبية معالم دمشق ومنازلها وصارت مدينة أشباح يدب فيها العجائز والأولاد الصغار ممن تركهم تيمورلنك وراءه لعدم حاجته إليهم⁽⁴⁾، ثم رحل تيمورلنك عن دمشق بعد ثمانين يوماً في (3 شعبان 803هـ / 19 مارس (آذار) 1401م)⁽⁵⁾، حتى وصل حلب في 17 شعبان ولم يدخلها بل أمر جنوده بتخريب وحرق ما بقي من المدينة وللحاق به، كل ذلك والسلطان فرج وجيشه المملوكي بعيدون في مصر كأنما ما حصل في دمشق لا يعنيه بشيء⁽⁶⁾.

(1) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص33؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص53؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص208؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص244.

(2) السلوك، ج6، ص53؛ النجوم الزاهرة، ج12، ص244.

(3) المقرئزي: السلوك، ج6، ص53؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص245.

(4) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص34؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص54؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص208؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص60؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص245.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص54؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص208؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص60؛ محمد، محمد: الغزو التيموري، ص15.

(6) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص209؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص50.

وبعد كل هذه الأفعال الشنيعة من تيمورلنك، وخاصة حرق المدن وتدميرها، نتساءل عن الدوافع والأسباب وراء كل تلك الأعمال الدموية التخريبية، ونستطيع القول أن الدوافع المذهبية كانت أهم الأسباب وراء المبالغة في القتل والتدمير، ذلك أن تيمورلنك كان شيعي مغالياً، وكثيراً ما كان يستحضر عداة بنى أمية للعلويين، وكان يناقش به علماء دمشق وحلب أثناء عملية الغزو، ويعد المدينتين مسئولتين عن ذلك بحكم أن الشام كانت مصدر قوة الأمويين ومكان حكمهم⁽¹⁾.

من الأحداث السابقة يمكن أن نستنتج أيضاً أن من أهداف تيمورلنك من تلك الهجمة هو القيام بعملية تأديب لدولة المماليك على مواجهتهم للحملات التوسعية للمغول، وهو ما يبدو واضحاً في كم التخريب والتدمير الذي ألحق أكبر الضرر بالاقتصاد المملوكي، لكن هناك من يرى أن تلك الأحداث كان بها الكثير من المبالغة والتهويل ومخالفة الحقيقة من قبل المؤرخين المسلمين والذي كان جلهم ممن عاش في ظل الدولة المملوكية، وعاصر بعض تلك الأحداث وهم متحملون على تيمورلنك لأنه عدو دولتهم⁽²⁾، لكن ما يبده ذلك الرأي هو ما ذكرته المصادر الأجنبية المعاصرة للحدث عن كمية الخراب والتدمير الموجود، ومنه مؤلف دي ميغانللي، وهو تاجر إيطالي كان موجوداً في مدينة دمشق وقت هجوم تيمورلنك وغادرها مع السلطان فرج أثناء انسحابه إلى مصر، وعاد إليها بعد رحيل تيمورلنك وشاهد خراب دمشق، فبالرغم من كره هذا التاجر لأهل دمشق نتيجة معاملتهم السيئة للتجار الإيطاليين⁽³⁾، إلا أنه انزعج كثيراً من الدمار والتخريب الذي عم مدينة دمشق بعد الغزو ووصفها بأنها أصبحت كومة رماد، وأن النار ظلت مشتعلة بضراوة حتى بعد رحيل تيمورلنك عن المدينة وهو ما شاهده أثناء زيارته للمدينة، التي كانت مدمرة لا يوجد بها مكان للسكن والروائح الكريهة منتشرة فيها نتيجة الجثث المتعفنة في الطرقات، وقد وصف تيمورلنك بأنه رجل شرير دموي نتيجة أفعاله بالمدينة، وهو ما يتفق إلى حد كبير مع روايات المؤرخين المسلمين المعاصرين⁽⁴⁾.

(1) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 49-50؛ محمد، محمد: الغزو التيموري، ص 23.

(2) شيخو، محمد: حقيقة تيمورلنك، ج 1، ص 7؛ الكاتب في هذا الكتاب يظهر محاسن تيمورلنك وحبه للعلم والعلماء وجهوده في نشر الإسلام، ومقاومة الفساد، وينفي عنه الكثير من الأفعال البشعة التي ذكرها المؤرخون المعاصرون، خاصة حريق مدينة دمشق الذي يظن أن المماليك هم من افتعلوه، لكن الكاتب يفتقد إلى المصادر والأدلة التي تثبت ظنونه؛ راجع، شيخو، محمد: حقيقة تيمورلنك، ج 2، ص 72.

(3) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص 40.

(4) المصدر نفسه، ص 41-42.

صراع المماليك مع الإمارات التركمانية:

تشكلت في الدولة المملوكية عدد من الإمارات التركمانية على حدود بلاد الشام، وكانت تلك الإمارات تدين بالطاعة لسلطنة المماليك في مصر والشام، ولكن بعضها كانت تشق عصا الطاعة وتعلن العصيان بل وتهاجم أراضي المماليك في بعض الأحيان، وفي (جمادى الآخرة 821هـ/ يوليو (تموز) 1418م) خرجت بعض الإمارات التركمانية شمال الشام عن طاعة المؤيد شيخ، ومنها قلعة كركر⁽¹⁾ التي حاصرها الأمير يشبك⁽²⁾ نائب حلب لمدة أربعين يوماً، ولما لم يستطع فتحها حرقها وحرق القرى التي حولها، ثم رحل عنها⁽³⁾.

وفي عام (832هـ/1429م) هاجم قرابلك⁽⁴⁾ أراضي الدولة المملوكية في شمال بلاد الشام، واستطاع الاستيلاء على قلعة خرتبرت ومدينة الرها⁽⁵⁾، فخرج إليهم نواب المماليك في بلاد الشام، وحاصروا مدينة الرها، ودار بينهم قتال شديد لعدة أيام⁽⁶⁾، تمكن خلاله المماليك من دخول المدينة والاستيلاء على القلعة، وقاموا بعمليات نهب وقتل وفساد بالنساء والصبيان بشكل كبير ومروع، كما أشعلوا النيران في المدينة، فاحترقت أماكن كثيرة⁽⁷⁾، ويصف المقرئ أحد مشاهد الفساد والحرق الشنيعة داخل المدينة: "ولقد أخبرني من لا أتهمه أنه شاهد المماليك وقد أخذوا النساء وفجروا بهن فكانت الواحدة منهن إذا قامت من تحت واحد منهم مضت - إن كان لها ولد - هي وولدها إلى موضع كان به تبن لتختفي فيه، قال فاجتمع بذلك الموضع نحو

(1) قلعة كركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد، وبالقرب منه حصن الران؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص453.

(2) يشبك: اشتراه المؤيد وهو نائب طرابلس، ثم ترقى عنده إلى أن ولاه نيابة طرابلس ثم نيابة حلب سنة 820هـ/1417م، وقتل في محرم 824هـ/يناير (كانون الثاني) 1421م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج10، ص279.

(3) المقرئ: السلوك، ج6، ص473؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص322.

(4) قرابلك: هو الأمير عثمان بن طور علي المعروف بقرا يلك صاحب آمد، وأحد أمراء التركمان، دخل في صراعات مع المماليك ومع الأمراء التركمان الآخرين، وقتل عام 839هـ/1435م وعلق رأسه على باب زويلة؛ المقرئ: السلوك، ج7، ص194، 302؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص70.

(5) الرها: مدينة كبيرة بالجزيرة بين الموصل والشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص106.

(6) المقرئ: السلوك، ج7، ص194.

(7) المقرئ: السلوك، ج7، ص195؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص174؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص278.

الثمانين امرأة ومعهن أو مع غالبهن أولادهن وقد زنوا بهن جميعاً ثم أضرموا النار عليهن فاشتعل التبن فاحترقن جميعاً⁽¹⁾.

وتجددت هجمات قرابلك على ممتلكات الدولة المملوكية، حيث هاجم مدينة ملطية⁽²⁾ وما حولها عام (834هـ/1430م) وقام بعمليات حرق ونهب في تلك المنطقة، مما دفع نواب المماليك بالشام إلى صده عن تلك المناطق⁽³⁾.

وفي تمرد آخر من الإمارات التركمانية على سلطة المماليك المركزية، خرج ناصر الدين بن دلغادر نائب أبلستين⁽⁴⁾ عن طاعة السلطان برسباي، فقام السلطان بإرسال الأمير تغري برمش⁽⁵⁾ نائب حلب ومعه العسكر القادم من مصر لقتال ابن دلغار، وبالفعل تمكن تغري برمش من دخول أبلستين في يوم الثلاثاء (9 رمضان 839هـ / 27 مارس 1436م) وقام العسكر بنهب المدينة وإحراقها⁽⁶⁾، ثم أمر العسكر بنهب جميع قراها وإحراقها فنهبها وأخذوا منها شيئاً كثيراً ثم عاد نائب حلب بمن معه وترك أبلستين "خراباً قاعاً صفصفاً"⁽⁷⁾.

ثالثاً: أسباب أخرى للحرائق.

إضافة لما سبق ذكره من حرائق يعود فيها السبب للصراعات الداخلية والخارجية، هناك حرائق تعود لأسباب أخرى مثل الخطأ والإهمال والظواهر الطبيعية وحرق الجثث، كما وذكر المؤرخون في العصر المملوكي الكثير من الحرائق ولكن لم يذكروا أسباباً لتلك الحرائق.

الخطأ والإهمال:

ومن الحرائق التي كانت بسبب الخطأ والإهمال، حريق كان بسبب إهمال أحد الباعة في سوق دمشق، عندما علق مجمرة نار⁽⁸⁾ على باب دكانه، لكن المجرمة وقعت عندما أغلق

(1) المقرئزي: السلوك، ج7، ص195.

(2) ملطية: مدينة مشهورة تقع على التخوم الشمالية لبلاد الشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص192.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص350.

(4) أبلستين: هي مدينة مشهورة شمال بلاد الشام وهي قريبة من أبسس؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص75.

(5) تغري برمش: ولاء برسباي نيابة حلب في سنة 839هـ/1422م، ثم شق العصا في أيام الظاهر جقمق، وقتل في سنة 842هـ/1439م؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج3، ص35.

(6) المقرئزي: السلوك، ج7، ص313؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص375-376؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص78-79.

(7) المقرئزي: السلوك، ج7، ص313؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص79.

(8) مجمر: هو الشيء الذي يوضع فيه النار والبخور؛ ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص145.

الدكان مسرعاً وذهب للإفطار⁽¹⁾ في يوم الإثنين (11 رمضان 681هـ/14 ديسمبر) كانون الأول (1282م)⁽²⁾، فعملت النار في محتويات الدكان، واشتد الدخان، والناس في ذلك الوقت مشغولين بالإفطار، فعلمت النار في سقف الدكان، وانتشرت في السوق كله⁽³⁾، وامتدّت النيران لتحرق عدداً كبيراً من الأسواق والقياسر والمنازل من منطقة اللبادين شمال دمشق حتى كادت النار تصل الجامع الأموي⁽⁴⁾ لولا الجهود الكبيرة في إطفاء الحريق من الناس والأمراء⁽⁵⁾، كما احترق عدد كبير من الكتب في سوق الكتبيين⁽⁶⁾، وكان الحريق كبيراً، حيث استمر الدخان يخرج من بين الركاب والأبنية لمدة أسبوع بعد الحريق⁽⁷⁾، وأسفر الحريق عن خسائر مادية كبيرة، لكن دون خسائر بشرية⁽⁸⁾.

وفي حريق آخر نتيجة خطأ في أحد أفران دمشق يقال له فرن العوتية، خرجت منه النيران ليتحول لحريق كبير بالقرب من منطقة الظاهرية وذلك في (ذي الحجة 707هـ/ يونيو) حزيران (1308م)⁽⁹⁾، وفي دمشق أيضاً بالقرب من باب الصغير وقع حريق ليلة الأربعاء (22 جمادى الآخرة 757هـ/ 22 يونيو) حزيران (1356م) بسبب خطأ في مطبخ للسكر، أدى لاحتراق المطبخ وما حوله من الدكاكين في السوق، وما ساعد على انتشار الحريق وجود رياح قوية في ذلك الوقت⁽¹⁰⁾.

وفي صباح يوم الجمعة (5 ربيع الأول 902هـ/ 11 نوفمبر) تشرين الثاني (1496م) وقع حريق في حوانيت الإخصاصيين⁽¹¹⁾ في دمشق، احترقت فيه الحوانيت وما فوقها من الطوابق،

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص300؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص163؛ ذكر اليونيني أن الحريق يوم الأحد 10 رمضان؛ ذيل، ج2، ص60.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7.

(4) اليونيني، ذيل، ج2، ص60؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7.

(5) اليونيني، ذيل، ج2، ص60؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص300.

(6) اليونيني، ذيل، ج2، ص60؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص8؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص163.

(7) اليونيني، ذيل، ج2، ص60.

(8) ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص370.

(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص46.

(10) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص255؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص227.

(11) (تختص ببيع ما يلزم لبناء البيوت التي تصنع من القصب أو الخشب) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص652.

وكان سبب الحريق خروج النار من حانوت إخصاصي في ذلك السوق⁽¹⁾، وفي ليلة الأحد (8 محرم 917هـ/6 ابريل (نيسان) 1511م) خرجت نار من حانوت لتحميص القضمانيّة داخل باب الجابية بدمشق، مما أدى لحرق كل ما حول الحانوت حتى وصل الحريق بالقرب من المنذنة الجركسية⁽²⁾.

الظواهر الطبيعيّة:

بالإضافة لحرائق الخطأ والإهمال كانت الصواعق أحد أسباب الحرائق، حيث تعرضت منطقة جبال عكا لرياح وعواصف شديدة في عام (740هـ/1339م)، وسقطت صاعقة قوية مصحوبة بصوت رعد عظيم، على أرض الجون بالقرب من عكا، أدت لحرق الأشجار وعدد من المنازل، وفي نفس العاصفة وقعت صاعقة أخرى على قبة خشب في قرية الفيحة⁽³⁾، فاحترقت القبة وثلاثة بيوت بجانبها⁽⁴⁾.

وفي (رجب 851هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1447م) احترق الجانب الغربي من سقف قبة الصخرة المشرفة، وذلك بسبب سقوط صاعقة على القبة أدت لحرق جزء منها، وأسرع الناس وأخمدوا الحريق قبل انتشاره، ويقال أيضاً أن الحريق لم يكن بسبب الصاعقة، بل بسبب لهو بعض الأولاد في سقف القبة ومحاولاتهم صيد الحمام، ومعهم شمعة موقدة فتعلقت النار من الشمعة في الخشب فكان سبب الحريق⁽⁵⁾.

ومن أسباب الحرائق الأخرى القيام بحرق التعدادات على الطرق، حيث أمر نائب قلعة دمشق في عام (894هـ/1489م) بحرق كل شيء بني تحت القلعة، وكان الهدف من الحرق إزالة التعدادات وتسهيل حركة السير إلى القلعة⁽⁶⁾.

(1) البصري: تاريخ، ص 195-196؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 139.

(2) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 284-285.

(3) الفيحة: قرية بين دمشق والزبداني عندها مخرج نهر بردى وبحيرة؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 282.

(4) الذهبي: من ذبول العبر، ص 211؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج 4، ص 303؛ المقرئ: السلوك، ج 3، ص 282.

(5) العلمي: الأنس الجليل، ج 2، ص 97.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 86.

العقاب بالحرق:

ذكر المؤرخون عدداً من حوادث حرق الجثث كعقوبة في العصر المملوكي، وكان منه ما ذُكر سابقاً في حرق جثث النصارى المتسببين في حريق دمشق عام (740هـ/1340م)⁽¹⁾، وحرق جثث الجنوية الذين قتلوا عام (806هـ/1403م) أثناء غاراتهم على مدينة بيروت⁽²⁾. ومن حوادث الحرق الأخرى، حرق توما الراهب بعد ضرب عنقه عام (726هـ/1326م)، وهو نصراني أسلم لثلاثة سنين ثم ارتد سراً، فعلم بذلك قاضي القضاة في دمشق فأمر بقتله⁽³⁾.

كما قام العوام بحرق جثة علي بن أبي الفضل بن محمد الحلبي الرافضي، وذلك بعد ضرب عنقه في (19 جمادى الأولى 755هـ/ 11 يونيو/حزيران) 1354م، لأنه قدم إلى دمشق وأظهر التشيع وجاهر به حتى دخل الجامع الأموي ولعن الخلفاء الراشدين الثلاثة ومعوية ويزيد، فقبض عليه وسجن وجلد وعرضت عليه التوبة مراراً، لكنه استمر في السب واللعن الصريح، فحكم القاضي بضرب عنقه⁽⁴⁾، وفي حادثة مشابهة تماماً قام محمود بن إبراهيم الشيرازي بسب ولعن الصحابة وخاصة الشيخين في دمشق عام (766هـ/1365م)، فقبض عليه وحبس أربعين يوماً لعله يتوب، لكنه أصر على السب واللعن حتى في الجامع الأموي، فقبض عليه وأمر القاضي بضرب عنقه، وقامت العامة بحرق جثته بعد ذلك⁽⁵⁾.

وفي عام (795هـ/1393م) اجتمع بمدينة القدس أربعة رهبان نصارى ودعوا الفقهاء المسلمين لمناظرتهم، فلما اجتمعوا لم يرع الرهبان قواعد الأدب في المناظرة، واحترام الرأي الآخر، فشنعوا بالإسلام وأهله وبنبيه محمد ﷺ واتهموه بالسحر والكذب، فثار الناس عليهم وقتلهم ثم أحرقوا جثثهم⁽⁶⁾.

(1) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئ: السلوك، ج3،

ص283؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص90؛ العملة، عبد الجبار: نيابة دمشق، ص130.

(2) المقرئ: السلوك، ج6، ص99؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص133.

(3) الذهبي: من ذبول العير، ص143؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص75.

(4) ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج4، ص113.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص310.

(6) المقرئ: السلوك، ج5، ص341؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص167؛ باحويرث، سماح:

الآثر، ص224.

وفي عام (799هـ/1396م) اشتد الغلاء بدمشق، وكان هناك رجل يدعى محمد بن عبدالله بن النشو يقوم باحتكار الغلال، فثار العوام عليه ورجموه حتى قتل ثم أحرقوه بالنار⁽¹⁾، وفي عام (885هـ/1480م) ثار أهل حلب على وكيل السلطان ابن الصوا المشرقي؛ لأنه يريد اخذ أموالهم بغير حق، فذهبوا إليه ليقتلوه فهرب، فأدركوه في حارة الكلاسة، فجرروه برجليه إلى تحت قلعة حلب وأحرقوه⁽²⁾، كما قام العوام في دمشق بقتل شخص وحرقه عام (893هـ/1488م)، لأنه جاء ومعه مرسوم من السلطان، بفرض بعض الضرائب على الأموال⁽³⁾.

وفي عام (906هـ/1500م) قبض على مملوك من أصل إفرنجي، لأنه قتل مجموعة من الناس وأخفاهم، وأخذ أموالهم، وعزى جماعة من النساء، وأخذ الأساور من أيديهن مجاهرة عند باب المرستان النوري في دمشق، فأمر نائب دمشق بقطع يده ورجله، لكن العوام لم يكتفوا بذلك، بل سحبوه وضربوه بالخناجر ثم حرقوه بالنار، فبلغ ذلك النائب ولم يرض عنه، وأمر جنوده بالخروج إلى العوام والقبض على من فعل ذلك⁽⁴⁾.

وشهدت دمشق ثورة للعوام على نائب الشام وجماعته من المماليك لكثرة ظلمهم عام (907هـ/1501م)، استطاع خلالها العوام قتل جماعة من المماليك ثم حرقهم، انتقاماً منهم على كثرة ظلمهم، ولم تهدأ الثورة إلا عندما استجاب نائب الشام لمطالب العوام⁽⁵⁾.

حرائق مجهولة السبب:

ذكرت المصادر خلال العصر المملوكي عدداً كبيراً من الحرائق في بلاد الشام، فمنها ما اهتموا بتوضيح أسبابه، ومنها ما ذكروا آثاره ومكانه وزمانه بدون توضيح لأسبابه، ربما لعدم أهمية تلك الأسباب بالنسبة للمؤرخين في ذلك الوقت؛ حيث كانوا يهتمون بتدوين الأحداث السياسية وبعض التفاصيل اليومية المهمة دون التطرق لكل التفاصيل، أو ربما لجهلهم بالسبب من الأساس، وسيورد الباحث هنا تلك الحرائق مجهولة السبب حسب الترتيب الزمني لها.

في (رجب 667هـ/مارس آذار) 1269م) احترق سوق جبل الصالحية بدمشق كله من أوله إلى آخره من الجهتين، وكان حريقاً كبيراً راح فيه الكثير من الأقمشة والبضائع⁽⁶⁾، وفي

(1) المقرئبي: السلوك، ج5، ص398؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص360.

(2) ابن طولون: مفاكحة الخلان، ص23.

(3) المصدر نفسه، ص81.

(4) المصدر نفسه، ص191.

(5) المصدر نفسه، ص203.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج49، ص46.

(رجب 689هـ/ يوليو (تموز) 1290م) وقع حريق كبير بدمشق كانت بدايته في درب اللبان وامتد حتى وصل درب الوزير⁽¹⁾، وفي الشهر نفسه في مدينة حماة احترقت دار حاكم المدينة، واستمرت النيران لمدة يومين حتى احترق كل ما فيها من الأموال والمتاع الكثير، دون أن يتجاسر أحد على دخول الدار لإطفاء الحريق، خوفاً من صاحبها الذي كان غائباً عنها في الصيد⁽²⁾.

وفي عام (712هـ/1312م) وقع حريق بالقرب من باب السلامة بدمشق، احترقت فيه دور كثيرة⁽³⁾، وفي (13 جمادى الأولى 715م/15 أغسطس (آب) 1315م) وقع حريق مقابل مسجد الشنباشي بالقرب من باب الصغير بدمشق، احترق فيه عدد من الدكاكين والدور⁽⁴⁾، كما شهدت دمشق حريقاً كبيراً في ليلة السبت (5 جمادى الأولى 728هـ/19 مارس (آذار) 1328م) كانت بدايته بسوق الفرائين⁽⁵⁾ حتى وصل سوق الرماحين، واحترقت فيه القيسارية التي هناك بما فيها من الأقمشة والفراء والجوخ، واحترق أيضاً المسجد الموجود هناك⁽⁶⁾.

وشهدت أسواق مدينة حماة حريقاً كبيراً في (شوال 735هـ/مايو (أيار) 1335م) احترق فيه مائتان وخمسون حانوتاً، وفي الشهر نفسه وقع حريق ضخم في مدينة أنطاكية أتى على أغلب المدينة⁽⁷⁾، وفي عام (736هـ/1335م) احترق سوق النحاسين⁽⁸⁾ بدمشق⁽⁹⁾، وفي (صفر 737هـ/سبتمبر (أيلول) 1336م) احترق عدد من الدكاكين والدور في منطقة قصر حجاج بدمشق⁽¹⁰⁾، وفي (ربيع الآخر 744هـ/أغسطس (آب) 1343م) وقع حريق كبير بسفح جبل

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص39.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص39؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص317.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص65.

(4) المصدر نفسه، ج13، ص73.

(5) (يختص ببيع الفراء والأقمشة) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1689.

(6) الذهبي: من ذبيل العبر، ص317؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص275؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص134.

(7) الذهبي: من ذبيل العبر، ص185؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص300-301؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص170.

(8) (يختص ببيع الأدوات النحاسية) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص2178.

(9) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص296؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص361.

(10) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص177.

قاسيون بدمشق، احترق فيه سوق الصالحية بالقرب من جامع المظفري، وكان عدد الدكاكين المحروقة ما يقارب مائة وعشريناً دكاناً⁽¹⁾.

وفي مدينة دمشق ذكر ابن كثير المؤرخ المعاصر وشاهد العيان على عدد كبير من تلك الحرائق، ووقع حريق في (15 جمادى الآخرة 752هـ/10 يوليو تموز) 1351م شمال السوق الكبير ودرب القلى ودرب العميد، وأدى لخسائر مادية كبيرة، لكن دون خسائر بشرية⁽²⁾، وفي ليلة الاثنين (16 صفر 753هـ/2 أبريل نيسان) 1352م وقع حريق كبير عند باب جيرون أحد أبواب دمشق ومن معالمها المهمة، احترق فيه باب جيرون وعدد من الدكاكين حوله⁽³⁾، وفي نهار الاثنين (19 شوال 756هـ/26 أكتوبر تشرين الأول) 1355م وقع حريق هائل في سوق القطانين⁽⁴⁾ بدمشق، احترق فيه عدد كبير من الدكاكين والدور⁽⁵⁾.

كما شهد عام (757هـ/1356م) أكثر من حريق كبير في بلاد الشام ومنها، في ليلة الأربعاء (24 جمادى الأولى 757هـ/27 أبريل نيسان) 1356م وقع حريق كبير خارج باب الفرج بدمشق، احترقت فيه الكثير من الدور والقياسر والدكاكين، وتلفت فيه الكثير من البضائع والأمتعة⁽⁶⁾، وفي ليلة الجمعة (15 رجب 757هـ/15 يوليو تموز) 1356م وقع حريق كبير في سوق الصالحية على سفح جبل قاسيون، احترق فيه السوق القبلي كله بالقرب من جامع الحنابلة⁽⁷⁾.

وفي (ذي القعدة 757هـ/نوفمبر تشرين الثاني) 1356م وقعت حرائق هائلة في الجبال ما بين طرابلس وبيروت، احترقت فيه الأشجار الموجودة بتلك المناطق، وماتت الكثير من الحيوانات التي تعيش هناك، كما هرب سكان تلك المناطق نحو الساحل هرباً من الحرائق، حيث احترقت العديد من الدور أيضاً، وظلت الحرائق لمدة ثلاثة أيام حتى نزل المطر وأطفأها⁽⁸⁾.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ص210.

(2) المصدر نفسه، ج14، ص239.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص241؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص173.

(4) (يختص ببيع القطن) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1840.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص253.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص254-255؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص227؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص182.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص256؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص227.

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص256؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص229.

وفي يوم السبت (21 شعبان 794هـ / 13 يوليو (تموز) 1392م) وقع حريق حول الجامع الأموي بدمشق، احترقت فيه المئذنة الشرقية وسقطت، واحترقت بعض الأسواق حول الجامع⁽¹⁾، وفي ليلة السبت (20 شوال 800هـ / 6 يوليو (تموز) 1398م) وقع حريق كبير بدمشق، احترق فيه عدد من الأسواق حتى وصلت النار إلى حائط الجامع الأموي، واستمر الحريق إلى يوم الثلاثاء 23 شوال⁽²⁾، وفي (ذي القعدة 802هـ / يونيو (حزيران) 1400م) وقع حريق بمنطقة البراقية بدمشق⁽³⁾، وفي عام (805هـ / 1402م) احترق السوق المجاور لجامع كريم الدين بدمشق⁽⁴⁾.

وشهدت دمشق عدداً من الحرائق المختلفة كان من أبرزها، احتراق المدرسة الجوزية في عام (820هـ / 1417م)⁽⁵⁾، واحتراق دار النياية مقابل المدرسة العذراوية عام (871هـ / 1466م)⁽⁶⁾، ووقع حريق بمسجد القصب في السوق عام (872هـ / 1467م)⁽⁷⁾، واحترق جزء من سوق الصالحية جنوب الجامع المظفري وسوق العمارة خارج باب الفراديس في (محرم 880هـ / مايو (أيار) 1475م)⁽⁸⁾، واحترقت المنطقة بين جامع منجك إلى قرب قناة العوني في (ربيع الآخر 883هـ / يوليو (تموز) 1478م)⁽⁹⁾.

وفي ليلة الأربعاء (27 رجب 884هـ / 13 يوليو (تموز) 1479م) احترق الجامع الأموي وما حوله من الأسواق، وكانت بداية الحريق من سوق الأمتعة غربي الجامع، ثم امتدت إلى الجامع والأسواق الأخرى⁽¹⁰⁾.

وقد ذكر ابن طولون الكثير من الحرائق في مدينة دمشق خلال فترة حياته 880-953هـ، حيث كان معاصراً وشاهد عيان لكثير من تلك الحرائق، ومما كتبه عنها حتى نهاية العصر المملوكي: في ليلة الجمعة (4 محرم 890هـ / 21 يناير (كانون الثاني) 1485م) احترق

(1) المقرئبي: السلوك، ج5، ص324؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص107.

(2) المقرئبي: السلوك، ج5، ص416؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص382.

(3) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص481.

(4) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص323.

(5) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص48؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص227.

(6) البصروي: تاريخ، ص25.

(7) المصدر نفسه، ص25.

(8) المصدر نفسه، ص70.

(9) المصدر نفسه، ص85.

(10) المصدر نفسه، ص88.

الفرن الذي تحت القلعة وما حوله من دور، كما احترق جزء من سوق المارستان⁽¹⁾، وفي ليلة الأحد (3 ربيع الأول 890هـ/20 مارس (آذار) 1485م) احترق نصف سوق الشاغور، وفي اليوم التالي احترق سوق القبيبات المجاور لجامع كريم الدين⁽²⁾.

وفي ليلة الأحد (8 رجب 894هـ/7 يونيو (حزيران) 1489م) وقع حريق حول جامع الجوزة جنوب حمام إسرائيل، وفي الليلة التالية زحفت النار نحو سوق مسجد القصب والأحياء المحيطة به، واحترق كثير من الناس في هذا الحريق؛ لأن النار باغتهم ليلاً وهم نيام على أسطح الدور⁽³⁾، وفي (شوال 894هـ/سبتمبر (أيلول) 1489م) احترق حاصل الخواجا عيسى القاري بحارة الحاجب وتلفت فيه الكثير من الغلال⁽⁴⁾، وفي يوم الأحد (21 ذو الحجة 894هـ/15 نوفمبر (تشرين الثاني) 1489م) وقع حريق بمساكن الإفرنج، احترقت فيه قيسارية ابن دلامة وما حولها⁽⁵⁾، وفي ليلة الأحد (1 ربيع الآخر 895هـ/21 فبراير (شباط) 1490م) وقع حريق بحكر السماقي، احترقت فيه سويقة ثاني بك⁽⁶⁾.

وفي ليلة الخميس (18 رجب 899هـ/24 أبريل (نيسان) 1494م) احترق مربع باب الجابية وشمالها وشرقيها إلى الباب، وفي ليلة الأربعاء (2 شعبان 899هـ/7 مايو (أيار) 1494م) وقع حريق بمنطقة القرييين احترق فيه أحد الأفران وما حوله⁽⁷⁾، وفي ليلة السبت (28 ذي القعدة 899هـ/30 أغسطس (آب) 1494م) احترقت المنطقة ما بين العقبية والعلبيين، وفي الليلة التالية احترق عدد من الحوانيت بالقرب من حمام جكاره بجانب خندق سور دمشق⁽⁸⁾.

وفي (30 رمضان 900هـ/24 يونيو (حزيران) 1495م) وقع حريق تحت القلعة حتى وصل إلى مسجد النخلة، احترق فيه جسر الزلايية والحديد، وما بينهما من أسواق وبيوت⁽⁹⁾، وفي (6 ربيع الأول 902هـ/12 نوفمبر (تشرين الثاني) 1496م) وقع حريق بحارة الحكر الغربي، احترقت فيه عدد من الدور، وفي الشهر نفسه يوم 13 ربيع الأول احترقت الطبقات

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص57.

(2) المصدر نفسه، ص58.

(3) المصدر نفسه، ص90.

(4) المصدر نفسه، ص92.

(5) البصري: تاريخ، ص137؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص94.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص99.

(7) المصدر نفسه، ص129.

(8) المصدر نفسه، ص131.

(9) البصري: تاريخ، ص161-162؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص135-136.

فوق قيسارية في سوق الدهيناتية⁽¹⁾، وفي (7 ربيع الآخر 902هـ/13 ديسمبر) كانون الأول (1496م) وقع حريق داخل باب الجابية، احترق فيه سوق القضاة والقطنين⁽²⁾.

وفي صباح يوم الأربعاء (7 ربيع الآخر 904هـ/21 نوفمبر) تشرين الثاني (1498م) احترق سوق الشخي بكل ما فيه من بضائع⁽³⁾، وفي يوم الإثنين (4 صفر 905هـ/9 سبتمبر) (أيلول) 1499م) احترق عدد كبير من الحوانيت خارج باب الفرع حتى وصل الحريق إلى نهر بردي، وتزامن الحريق مع أعمال نهب في الأسواق المجاورة لمكان الحريق⁽⁴⁾، وفي الشهر نفسه يوم 22 احترق دكان الطباخ بجوار الجامع الأموي، وتم اخلاء الأسواق المجاورة خوفاً من النهب، والسيطرة على الحريق قبل أن تصل للجامع⁽⁵⁾.

وفي ليلة الجمعة (25 ذي القعدة 906هـ/11 يونيو) حزيران (1501م) وقع حريق تحت القلعة، احترق فيه سوق النحاسين وبعض الدور حوله حتى وصل الحريق إلى جسر الزلابية⁽⁶⁾، وفي ليلة الأحد (15 جمادى الأولى 909هـ/5 فبراير) شباط (1503م) وقع حريق عند باب الحديد، احترق فيه سوق الفراء وسوق الخلعين⁽⁷⁾، وتم نهب ما سلم من الحريق⁽⁸⁾، وفي ليلة السبت (17 جمادى الأولى 910هـ/26 أكتوبر) تشرين الأول (1504م) احترقت الحوانيت وما فوقها من الطوابق في الطريق الواقع جنوب مسجد الرأس⁽⁹⁾.

وفي ليلة الجمعة (11 شوال 911هـ/6 مارس) آذار (1506م) احترق جانب كبير من سوق عمارة الأحنائي الواقع شمال غرب باب الفراديس⁽¹⁰⁾، وفي ليلة السبت (14 ربيع الآخر 914هـ/12 أغسطس) آب (1508م) احترق غالب سوق الرصيف الواقع شمال المدرسة

(1) البصري: تاريخ، ص 196-197؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 140.

(2) البصري: تاريخ، ص 199.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 167.

(4) المصدر نفسه، ص 182.

(5) المصدر نفسه، ص 183.

(6) المصدر نفسه، ص 196.

(7) (يختص ببيع الملابس المستعملة) مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ص 250.

(8) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 219.

(9) المصدر نفسه، ص 227.

(10) المصدر نفسه، ص 240.

المجاهدية⁽¹⁾، وفي ليلة الجمعة (12 رجب 917هـ/4 أكتوبر) تشرين الأول (1511م) احترقت الدور والحوانيت الواقعة بين حمام العلائي وعمارة الأخنائي⁽²⁾.
وفي يوم الثلاثاء (8 ربيع الآخر 921هـ/22 مايو) أيار (1515م) وقع حريق في المنطقة شمال مسجد التوبة خارج باب الفراديس⁽³⁾، وفي يوم الثلاثاء (6 ربيع الأول 922هـ/8 مارس) آذار (1516م) احترقت قيسارية وبعض الدكاكين جنوب المدرسة القميرية بمحلة الحريميين⁽⁴⁾، وفي ليلة الأحد (24 شعبان 922هـ/21 سبتمبر) أيلول (1516م) وقع حريق في بعض الدور للأكراد جنوب حمام الزين⁽⁵⁾.

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص270.

(2) المصدر نفسه، ص289.

(3) المصدر نفسه، ص310.

(4) المصدر نفسه، ص319.

(5) المصدر نفسه، ص337.

الفصل الرابع

آثار الحرائق في مصر وبلاد الشام

(254-923هـ/868-1517م)

أولاً: أثر الحرائق على المعالم العمرانية.

ثانياً: أثر الحرائق على الأوضاع الاقتصادية.

ثالثاً: أثر الحرائق على العمليات العسكرية.

رابعاً: أثر الحرائق على الأوضاع العلمية.

خامساً: أثر الحرائق على الأوضاع النفسية والاجتماعية.

تركزت الحرائق العديد من الآثار السلبية على مختلف مناحي الحياة في مصر وبلاد الشام، فقد كانت الحرائق سبباً رئيسياً في زوال الكثير من المعالم والآثار العمرانية التي كانت شاهداً على مدى الإبداع والتقدم الحضاري في كل من مصر والشام، كما أثرت على الأوضاع الاقتصادية بشكل كبير نتيجة تضرر القطاعات الاقتصادية والخسائر المادية الفادحة جراء تلك الحرائق، كما أن الحرائق كان لها تأثير كبير في العمليات العسكرية وما يعقبها من تغيير في الوضع السياسي في المنطقة، وبالإضافة لما سبق فقد أثرت الحرائق أيضاً بشكل مباشر على الأوضاع التعليمية والعلمية والاجتماعية.

أولاً: أثر الحرائق على المعالم العمرانية.

تعد المعالم العمرانية أكبر قطاع يتعرض للتدمير والضرر المباشر من الحرائق، فتأثير الحرائق على المعالم العمرانية تأثير ملحوظ ومحل اهتمام الكثير من المصادر التاريخية، التي حرصت على إبراز الضرر الحاصل في مختلف المنشآت العمرانية مثل المساجد والكنائس والبيمارستانات والمباني السكنية والمرافق العامة، وما ألحقه هذا الضرر من فقدان الحضارة الإنسانية معالم عمرانية كانت غاية في الحسن والاتقان، وسيذكر الباحث هنا جميع المعالم العمرانية باستثناء الأسواق والمدارس والتحصينات العسكرية، حيث ستذكر لاحقاً في مواضع خاصة بها منعاً للتكرار.

دور العبادة:

تعرضت الكثير من المساجد والكنائس وغيرها من دور العبادة خلال زمن الدراسة إلى حرائق أدت إلى إلحاق تدمير كامل أو أضرار جزئية بها، ومنها في عام (275هـ / 888م) احترق جزء من جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط مما أدى لخراب هذا الجزء⁽¹⁾، وعندما دخل القرامطة الرصافة حرقوا جامعها عام (289هـ / 901م)⁽²⁾، وتعرض جامع قورس من أعمال حلب إلى الحرق على يد البيزنطيين في (شوال 293هـ / يوليو تموز 906م)⁽³⁾.

ونتيجة للفتن الطائفية تعرضت بعض الكنائس للحرق، ومنها كنيسة مريم بدمشق عام (312هـ / 924م) بعدما تعرضت لنهب ما فيها من الآلات والأواني⁽⁴⁾، وكنيسة قسطنطين في

(1) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص296.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص85؛ زكار، سهيل: أخبار القرامطة، ص17.

(3) الطبري: تاريخ، ج5، ص664؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص431؛ ابن العبري: تاريخ، ص87؛ ابن خلدون: تاريخ، ج3، ص445.

(4) المقرئ: المواظ، ج4، ص412.

القدس عام (325هـ/937م)⁽¹⁾، وكنيسة مريم بعسقلان، حيث أحرقت بالكامل ووقعت سقوفها وأعمدتها عام (328هـ/939م)⁽²⁾.

وعندما هاجم البيزنطيون سروج عام (341هـ/952م) حرقوا مساجدها⁽³⁾، ودخلوا مدينة حلب عام (351هـ/962م) فحرقوا عدداً من مساجدها⁽⁴⁾، كما احترق جامع حلب وخرّب ما فيه من الزخرفة والرخام والفسيفساء، وكان ذلك الجامع يضاهي الجامع الأموي بدمشق في الجمال والإتقان، ليخرب ذلك المعلم الفني الحضاري الذي كان إنشاءه في العهد الأموي⁽⁵⁾.

كما تعرضت عدد من الكنائس في مدينة القدس إلى أضرار نتيجة حرق والي القدس لها عام (355هـ/965م)، حيث احترقت أبواب كنيسة ماري قسطنطين وأبواب كنيسة القيامة وسقطت قببتها، واحترقت كنيسة صهيون أيضاً⁽⁶⁾.

وخلال هجمات البيزنطيين على بلاد الشام عام (357هـ/967م)، حرقوا الجوامع في معرة النعمان، وشيزر، وحماة⁽⁷⁾.

وأثناء اقتحام بلتكين مدينة دمشق عام (373هـ/983م) احترق عدد من المساجد بمنطقة الشاغور⁽⁸⁾، وفي (373هـ/983م) هاجم البيزنطيون حمص وحرقوا الجامع ومواضع كثيرة في المدينة⁽⁹⁾، وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي احترقت كنيسة الجوردية عندما أمر الحاكم بحرق حارة الجوردية لليهود⁽¹⁰⁾.

وفي عام (461هـ/1069م) احترق الجامع الأموي بدمشق ذلك البناء الذي يدل على قمة الإبداع الهندسي في العمارة الإسلامية، وكان هذا أول حريق يتعرض له الجامع منذ إعادة بنائه في العهد الأموي عام (786هـ/1075م)، "حيث إنه لم يكن في الدنيا بناء أحسن منه لا

(1) الأنطاكي: تاريخ، ص 87.

(2) المصدر نفسه، ص 96.

(3) الهمداني: تكملة، ص 166؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 11، ص 225.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج 7، ص 274.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 82؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص 24.

(6) الانطاكي: تاريخ، ص 125.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 92؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص 27؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 26، ص 32.

(8) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 16.

(9) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 18؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 102؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص 31؛ المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج 1، ص 259.

(10) المقرئزي: المواعظ، ج 4، ص 374.

قصور الملوك ولا غيرها"، وقد ذهبت محاسن ذلك الجامع من السقوف المذهبة، والجدران المذهبة والملونة ومصور عليها كل أقاليم الدنيا، والأرضية المصنوعة من الفسيفساء، والسائر المنسدلة على الأبواب والنوافذ⁽¹⁾، لكن كل ذلك تبدل بعد الحريق، وصارت أرضه طيناً في زمن الشتاء وغباراً في زمن الصيف محفورة مهجورة⁽²⁾، ولم يزل كذلك فترة من الزمن حتى شرع الملوك في تجديده وترميمه وتحسينه، لكن مع كل ذلك لم يعد مثل ما كان سابقاً⁽³⁾.

ومع دخول الصليبيين بلاد الشام عام (492هـ/1098م) اقتحموا مدينة معرة النعمان وحرقوا مساجدها وكسروا منبرها⁽⁴⁾، وفي العام نفسه عندما استولى الصليبيون على مدينة القدس قاموا بجمع اليهود في كنيسة وأحرقوها عليهم⁽⁵⁾، كما قام بلدوين الأول بحرق مساجد مدينة غزة أثناء مسيره لغزو مصر عام (511هـ/1118م)⁽⁶⁾، وعندما وصل مدينة الفرما بمصر قام بحرق جامعها وسائر مساجدها⁽⁷⁾، وفي عام (518هـ/1124م) احترق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط⁽⁸⁾.

واحترق جامع داريا الكبير على يد الصليبيين مرتين إحداهما أثناء حصار مدينة دمشق عام (543هـ/1148م)⁽⁹⁾، والأخرى عام (553هـ/1158م) خلال هجمات تخريبية من الصليبيين في محيط مدينة دمشق⁽¹⁰⁾.

وفي عام (564هـ/1169م) احترق جامع حلب وسقطت أعمدته على يد الإسماعيلية⁽¹¹⁾، وفي العام نفسه احترقت كنيسة بومرقورة في حريق الفسطاط على يد شاور⁽¹²⁾.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص97-98.

(2) المصدر نفسه، ج12، ص98.

(3) المصدر نفسه، ج12، ص93.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص244-245.

(5) ابن القلانسي، تاريخ، ج1، ص81؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص19.

(6) العلمي: الأتس الجليل، ج1، ص309.

(7) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص301؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج36، ص124؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص364.

(8) السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص311.

(9) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص332؛ بدران، عبد القادر: مناداة الأطلال، ص376.

(10) الصوري، وليم: تاريخ، ص235؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص211؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص361.

(11) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص351؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص138.

(12) المقرئزي: المواعظ، ج4، ص415.

وأثناء هجوم الملك الكامل صاحب مصر على دمشق وبها الناصر داود بن المعظم عيسى عام (626هـ/1229م)، حرق الناصر خانقاة خاتون وخانقاة الطواويس لأن جيش الكامل كان يتحصن بها⁽¹⁾.

وفي عام (642هـ/1244م) تعرضت كنيسة القيامة وبعض الكنائس الأخرى بالقدس للحرق على يد الخوارزمية أثناء تخليصها من الصليبيين⁽²⁾، كما حرقوا جامع جراح خارج باب الصغير بدمشق⁽³⁾، وبعض المساجد الأخرى بالمدينة عام (643هـ/1245م) في حربهم مع الصالح إسماعيل⁽⁴⁾.

وفي عام (646هـ/1248م) احترق المشهد الحسيني بالقاهرة⁽⁵⁾، واحترقت المنارة الشرقية بجامع الأموي، وكانت سلالها سقالات من خشب، وهلكت للناس ودائع كثيرة كانت فيها⁽⁶⁾.

وعلى أثر الغزو المغولي لبلاد الشام عام (658هـ/1260م) احترق الحائط القبلي من جامع حلب⁽⁷⁾، وبعد هزيمة المغول في عين جالوت قام المسلمون في دمشق بحرق كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم، وذلك انتقاماً من النصارى على أفعالهم المهينة بحق المسلمين وقت وجود المغول بالمدينة⁽⁸⁾، وأثناء انسحاب المغول من بلاد الشام بعد الهزيمة قاموا بحرق جامع قلعة حلب⁽⁹⁾.

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج45، ص33.

(2) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص33؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص393؛ نصر الله سعدون: رحيل الصليبيين، ص11.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص18؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص329؛ بدران، عبد القادر: مناداة الأطلال، ص372.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص166.

(5) المقرئزي: السلوك، ج2، ص204.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص435؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص313.

(7) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص15.

(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص62؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص221؛ المقرئزي: السلوك، ج1، ص517.

(9) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص16.

وأثناء فتح مدينة أنطاكية على يد بيبيرس عام (666هـ/1268م)، احترقت كنائسها المشهورة في الحريق الذي عم أغلب المدينة⁽¹⁾، وفي عام (679هـ/1280م) احترق جامع حلب نتيجة هجمة مغولية على المدينة⁽²⁾.

وعند تحرير مدينة عكا من الصليبيين عام (690هـ/1291م) وطردهم منها نهائياً، تم حرق وهدم كنائس المدينة⁽³⁾.

وخلال هجوم المغول بقيادة غازان على بلاد الشام عام (699هـ/1299م)، احترق في مدينة دمشق جامع التوبة بالعقبية⁽⁴⁾، والرباط الناصري⁽⁵⁾، وعدد من المساجد بالصالحية⁽⁶⁾.

وعندما وقعت الفتنة الطائفية بين المسلمين والناصري عام (721هـ/1321م)، تعرضت الكثير من الكنائس في مصر لعدد من أشكال التخريب ومنها الحرق والهدم والنهب⁽⁷⁾، وقد بلغ عدد هذه الكنائس ستين كنيسة في كل أنحاء مصر، وقد أحصى المقريري بعضها على النحو التالي " كنيسة بقلعة الجبل، وكنيسة بأرض الزهري موضع البركة الناصرية، وكنيسة بالحمراء، وكنيسة بجوار السبع سقايات، وكنيسة أبي المنا بجوارها، وكنيسة الفهادين بحارة الحكر، وكنيسة بحارة الروم من القاهرة، وكنيسة البندقانيين منها وكنيسة بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخدق خارج القاهرة، وأربع كنائس بالإسكندرية، وكنيستين بدمهور الوحش، وأربع كنائس بالغربية، وثلاث كنائس بالشرقية، وست كنائس بالبهنساوية، واسيوط ومنفلوط ومنية بن خصيب ثمان كنائس، وقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة، والإطيفية كنيسة⁽⁸⁾، وجاء رد الناصري سريعاً في العام نفسه فأحرقوا الكثير من المباني في القاهرة وخاصة المساجد، حيث

(1) ابن العبري: تاريخ، ص 180.

(2) اليونيني: ذيل، ج 2، ص 23-24؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 50، ص 50.

(3) المقريري: السلوك، ج 2، ص 224.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 52، ص 88؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 14، ص 8؛ المقريري: السلوك، ج 2، ص 324.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 52، ص 88.

(6) المقريري: السلوك، ج 2، ص 323.

(7) ابن الوردي: تاريخ، ج 2، ص 262؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج 14، ص 99؛ المقريري: السلوك، ج 3، ص 39؛ المقريري: المواعظ، ج 4، ص 440.

(8) المقريري: السلوك، ج 3، ص 39.

اشتعلت النار في العديد من منابر وجدران المساجد⁽¹⁾، كما طالت النيران جامع ابن طولون وما حوله⁽²⁾.

وفي عام (728هـ/1328م) احترق المسجد الموجود في سوق الفرايين بدمشق⁽³⁾، وفي عام (730هـ/1329م) احترقت الكنيسة المعلقة بالقاهرة، وأصبحت كوماً⁽⁴⁾، وتعرض الجامع الأموي للحرق عام (740هـ/1340م) على يد النصارى، مما أدى لاحتراق المنارة الشرقية للجامع، حيث احترقت بالكامل وتفجرت أحجارها⁽⁵⁾.

وأثناء هجوم ملك قبرص على الإسكندرية عام (767هـ/1365م)، احترق سقف رباط ابن سلام الموجود خارج أسوار مدينة الإسكندرية على يد القبارصة، وذلك لتحصن بعض المقاتلين المسلمين به⁽⁶⁾.

وفي عام (794هـ/1392م) وقع حريق حول الجامع الأموي بدمشق، احترقت فيه المئذنة الشرقية للجامع وسقطت⁽⁷⁾، كما تعرض الجدار القبلي للجامع لأضرار عام (800هـ/1398م)، نتيجة احتراق الأسواق المجاورة له⁽⁸⁾.

وخلال الهجمة البربرية لتيمورلنك على بلاد الشام عام (803هـ/1400م)، احترقت الكثير من المساجد في حلب⁽¹⁾ ودمشق، كما احترق الجامع الأموي كله وسقطت سقفه، وتقطر رخامه، ولم يبق فيه غير الجدران قائمة⁽⁹⁾.

وفي عام (851هـ/1447م) احترق الجانب الغربي من سقف قبة الصخرة المشرفة بالقدس، وقيل أن الحرق كان بسبب صاعقة أو عبث بعض الأولاد⁽¹⁰⁾، وفي عام (872هـ/1467م) احترق مسجد القصب بدمشق⁽¹¹⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص44؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص315.

(3) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص275؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص134.

(4) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284.

(5) الذهبي: من ذبول العبر، ص213؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص282.

(6) المقرئزي: السلوك، ج5، ص110.

(7) المقرئزي: السلوك، ج5، ص324؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص107.

(8) المقرئزي: السلوك، ج5، ص416؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص382.

(9) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص225.

(10) العليمي: الأتس الجليل، ج2، ص97.

(11) البصروي: تاريخ، ص25.

وفي عام (884هـ/1479م) احترقت أجزاء كبيرة من الجامع الأموي بدمشق، حيث احترقت الناحية القبلية حتى سقف المقصورة، والإيوان الغربي، وتخلخت القبة العظمى في وسط الجامع وسقط منها جانب عظيم وسقط نصف المئذنة الغربية⁽¹⁾، وفي عام (894هـ/1489م) احترق مسجد القصب وعشرين آخرين في حريق كبير بدمشق⁽²⁾.
وخلال تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان في دمشق عام (903هـ/1497م)، احترقت المئذنة البصية بمسجد الذبان⁽³⁾، واحترق جامع جراح⁽⁴⁾.
وبهذا الكم الكبير من دور العبادة المحترقة، تكون الإنسانية قد خسرت أماكن عديدة للعبادة والعلم، بالإضافة لكون الكثير منها أيضاً معالم عمرانية وحضارية كان بها الكثير من إبداعات وخبرات السابقين.

المساكن والمرافق العامة:

تعد المرافق العامة والمساكن من أكثر المنشآت عرضة للحريق لأنها تشكل أغلب المدن، بالإضافة إلى طابع البناء في المدن القديمة الذي يساعد على انتقال الحريق من بيت إلى آخر، حيث البيوت متلاصقة وتتكون من مواد سريعة الاشتعال⁽⁵⁾.
عندما دخل أحمد بن طولون دمشق في عام (264هـ/877م) وقع فيها حريق عند كنيسة مريم، احترق فيه عدد من الدور⁽⁶⁾، وعندما دخل العباسيون مصر عام (292هـ/905م) حرقوا القطائع بما تحتويه من مساكن ومرافق⁽⁷⁾.
وأدى حريق في مدينة الفسطاط في منطقة خولان إلى احتراق عدد من دور بني عبد الوارث في (ربيع الآخر 319هـ/مارس (آذار) 931م)⁽⁸⁾، وفي الفسطاط أيضاً تعرضت دار الماذرائي ودور أهله ودور كثير من أتباعه للحرق مرتين خلال عام (321هـ/933م)⁽⁹⁾.

(1) البصري: تاريخ، ص 88.

(2) البصري: تاريخ، ص 135؛ ابن طولون: مفاهمة الخلان، ص 96.

(3) ابن طولون: مفاهمة الخلان، ص 159.

(4) المصدر نفسه، ص 160.

(5) ابن جبیر: رحلة، ص 198؛ المقرئ: السلوك، ج 4، ص 118؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 536.

(6) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج 1، ص 356؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 20، ص 48.

(7) الكندي: ولاية مصر، ج 1، ص 76؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 137.

(8) القرطبي: صلة، ص 110.

(9) الكندي: ولاية مصر، ج 1، ص 76، 86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 242.

وفي عام (334هـ/945م) وقع حريق كبير في الفسطاط احترقت فيه ألف وسبعمائة دار⁽¹⁾، وفي الفسطاط أيضاً وقع حريق كبير عام (343هـ/954م) احترقت فيه ستة آلاف دار ومسكن⁽²⁾.

وعندما دخل البيزنطيون مدينة حلب عام (351هـ/962م) أحرقوا أكثر دور المدينة⁽³⁾، وأحرقوا قصر سيف الدولة الحمداني⁽⁴⁾، كما أحرقوا أكثر دور معرة النعمان عندما دخلوها عام (357هـ/967م)⁽⁵⁾.

وخلال الصراع بين أهل دمشق والفاطميين عام (359هـ/970م) احترقت الكثير من الدور في دمشق⁽⁶⁾، وعلى أثر نفس الصراع حرق الفاطميون الكثير من الدور والحارات في دمشق عام (363هـ/974م)⁽⁷⁾.

وأثناء اقتحام بلتكين مدينة دمشق عام (373هـ/983م) احترق عدد من الدور⁽⁸⁾، وفي عام (411هـ/1021م) حرق عبيد الحاكم بأمر الله أطراف وضواحي مدينة الفسطاط حتى غطى الحريق ثلث المدينة⁽⁹⁾، وفي عام (448هـ/1057م) احترق المركز الشرقي بقلعة حلب⁽¹⁰⁾.

وعلى اثر مشكلات داخلية قام مجموعة من العامة والجنود بحرق قصر أمير الجيوش بدر الجمالي في دمشق عام (460هـ/1068م)⁽¹¹⁾، وفي عام (461هـ/1069م) احترقت دار

(1) ابن تغري بردي: مورد، ص 201.

(2) ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 237.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 82؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص 24.

(4) الهمداني: تكملة، ص 181؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج 14، ص 140؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 81؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص 23.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 92؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص 27.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج 7، ص 311.

(7) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 4-5؛ ابن الأثير: الكامل، ج 7، ص 345-346؛ ابن الوردي، تاريخ، ص 364؛ ابن خلدون: تاريخ، ج 4، ص 64-65.

(8) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 16، المقريزي: اتعاط الحنفا، ج 1، ص 257.

(9) ابن الجوزي: المنتظم، ج 15، ص 140؛ الذهبي: سير، ج 15، ص 181.

(10) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 155.

(11) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 62؛ ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر، ج 1، ص 91.

الإمارة بدمشق وأصبحت كومة تراب بعد ما كانت في غاية الإحكام والإتقان وحسن المنظر، حيث كانت دار الخلافة والملك والإمارة منذ أسسها معاوية بن أبي سفيان⁽¹⁾. وفي عام (463هـ/1071م) قام جنود ناصر الدولة بن حمدان بحرق الكثير من الدور على ساحل النيل في الحيزة⁽²⁾. ومع دخول الصليبيين بلاد الشام عام (492هـ/1098م) اقتحموا مدينة معرة النعمان وحرقوا دورها⁽³⁾، كما تعرضت الدور والأسوار للحرق أكثر من مرة في حصن الأثارب على يد الصليبيين عام (516هـ/1122م)⁽⁴⁾. وأثناء مهاجمة طغتكين لمدينة حمص عام (517هـ/1123م) قام بحرق عدد من الدور حول المدينة⁽⁵⁾، وفي العام نفسه خلال محاولة جوسلين تحرير بلدوين الثاني من قبضة المسلمين قام بحرق باب بزغا وبعض جدارها⁽⁶⁾. وخلال هجمات تخريرية من الصليبيين عام (553هـ/1158م) حرقوا عدة منازل في داريا⁽⁷⁾، واحترق قصر جيرون بدمشق حريقاً كبيراً عام (559هـ/1164م)، وفي العام نفسه تحولت القاهرة وما حولها لساحة معركة بين المتصارعين على الحكم، مما أدى لاحتراق عدد من الدور عند باب السعادة⁽⁸⁾، وعدد آخر من الدور في المنطقة ما بين باب زويلة والنيل⁽⁹⁾. ونتيجة إهمال وخطأ أحد الطباقين بدمشق عام (562هـ/1167م)، احترق عدد كبير من الدور في منطقة اللبادين وباب الساعات⁽¹⁰⁾، حتى وصلت النار النافورة عند درج جيرون بالجامع الأموي، فاحتترقت وسقطت قبتها وأعمدتها⁽¹¹⁾.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص93.

(2) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج2، ص305.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص244-245.

(4) المصدر نفسه، ص277، 281.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص128.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص286.

(7) الصوري، وليم: تاريخ، ص235؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص211؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص361.

(8) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص269.

(9) المصدر نفسه، ج3، ص276.

(10) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص8؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص373.

(11) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص237؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ص159.

وأثناء الصراع داخل البيت الأيوبي بين الأفضل والعاقل عند مدينة دمشق عام (595هـ/1199م)، احترقت العديد من الفنادق والحوانيت وأبواب الطواحين⁽¹⁾، وفي صراع آخر بين الملك الكامل صاحب مصر، والناصر داود بن المعظم عيسى عام (626هـ/1229م)، احترقت عدة جواسق وخانات، كما احترقت مناطق بظاهر باب توما وقصر حجاج بالشاغور في دمشق⁽²⁾، وفي عام (637هـ/1239م) احترق عدد من الدور حول قلعة دمشق أثناء هجوم الصالح إسماعيل عليها⁽³⁾، وفي المعارك بين الملك الصالح نجم الدين، والصالح إسماعيل في دمشق عام (643هـ/1245م) احترقت عدة مناطق في دمشق بما فيها من دور ومرافق، حيث احترقت العقيبة وحكر السماق وقصر حجاج والشاغور وزقاق الرمان وجوسق قصر العادل⁽⁴⁾. وفي عام (650هـ/1252م) احترقت ستمائة دار في مدينة حلب على يد الصليبيين⁽⁵⁾، كما قام النصارى بالقاهرة عام (663هـ/1265م) بحرق حارة الباطنية، مما أدى لحرق ثلاثة وستين داراً، وربع فرج وربع العادل⁽⁶⁾.

وعندما هاجم المغول مدينة حلب عام (679هـ/1280م)، قاموا بحرق دار السلطنة ودور الأمراء الكبار⁽⁷⁾، وفي العام التالي هاجموا مدينة حماة وحرقوا بستان السلطان وقصره وعدداً من الأبنية⁽⁸⁾.

وفي عام (689هـ/1290م) احترق درب اللبان ودرب الوزير بدمشق⁽⁹⁾، كما احترقت دار صاحب حماة في العام نفسه، واحترق فيها الكثير من الأموال والأمتعة⁽¹⁰⁾.

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج42، ص24.

(2) المصدر نفسه، ج45، ص32-33.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص153-154.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص18؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص166.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص182؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص478؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص223.

(6) اليونيني: ذيل، ج1، ص279؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج49، ص17؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص250؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص25.

(7) اليونيني: ذيل، ج2، ص23-24؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص50؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج4، ص190؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص136.

(8) اليونيني: ذيل، ج2، ص40؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص295؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص303.

(9) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص39.

(10) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص39؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص317.

وخلال هجوم المغول بقيادة غازان على بلاد الشام عام (699هـ/1299م)، تعرضت مدينة دمشق لكثير من أعمال الحرق والتخريب التي طالت الكثير من الدور والمرافق العامة، فاحترق فيها دار السعادة التي كانت مقر نواب السلطنة، والدور حول القلعة⁽¹⁾، وحبس باب الصغير⁽²⁾، ومارستان الجبل والدهشة⁽³⁾، ومارستان النوري، وعدة قصور وجواسق بالمدينة⁽⁴⁾.

وفي دمشق عام (712هـ/1312م) احترقت دور كثيرة داخل باب السلامة⁽⁵⁾، كما احترق عدد من الدور داخل باب الصغير مقابل مسجد الشنباشي عام (715هـ/1315م)⁽⁶⁾. وعندما وقعت الفتنة الطائفية بين المسلمين والنصارى عام (721هـ/1321م)، قام النصارى بحرق العديد من الأحياء في القاهرة بما فيها من الدور والمرافق⁽⁷⁾، حيث احترق ربع بالشوايين، وحارة الديلم بزقاق العريسة، والمنطقة بين باب زويلة وحارة الروم، وربع الملك الظاهر خارج باب زويلة، وبيت الأمير سلار بالقصرين، أماكن بالقلعة، وبيت الأحمدى بحارة بهاء الدين، وفندق طرنطاي خارج باب البحر⁽⁸⁾.

وفي مدينة الإسكندرية عام (727هـ/1327م) حرق أهل الإسكندرية دار والي المدينة وثلاثة دور لأعوانه، وذلك لظلمه الناس والتسبب في مقتل بعضهم⁽⁹⁾، وفي القاهرة عام (751هـ/1350م) وقعت عدة حرائق، احترق فيها الكثير من دور الناس ومتاعهم⁽¹⁰⁾.

ومن المعالم الأثرية المهمة التي ذهبت نتيجة الحريق في عام (753هـ/1352م)، باب جيرون وهو أحد أهم أبواب دمشق وأقدمها، الذي احترق وذهبت محاسنه التي يصفها ابن كثير " لم ير باب أوسع ولا أعلى منه فيما يعرف من الأبنية في الدنيا وله علمان من نحاس أصفر

(1) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص434؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص85-86؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص240؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص9؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص474؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص325.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص73.

(3) المصدر نفسه، ج52، ص88.

(4) المقرئ: السلوك، ج2، ص324-325.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص65.

(6) المصدر نفسه، ج13، ص73.

(7) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص99؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص41-45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص63-70.

(8) المقرئ: السلوك، ج3، ص41-45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص63-70.

(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص128.

(10) المقرئ: السلوك، ج4، ص118-119؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص536.

بمسامير نحاس أصفر أيضاً بارزة من عجائب الدنيا ومحاسن دمشق ومعالمها... ويبدنه الذي هو من خشب الصنوبر الذي كأن الصانع قد فرغ منه يومئذ وقد شاهدت الفؤوس تعمل فيه ولا تكاد تحيل فيه إلا بمشقة⁽¹⁾.

وخلال هجوم ملك قبرص على الإسكندرية عام (767هـ/1365م)، احترقت كثير من الدور والفنادق والعديد من مرافق المدينة على يد القبارصة والأوربيين، وكان مما احترق بعض الفنادق في شارع المرجانيين، وفندق الطيبة، وفندق الجوكندار، وفندق الدماميني، وفندق الكيتلانيين، وفندق الجنوبيين، وفندق الموزة، وفندق الموسليين⁽²⁾، ومما احترق أيضاً من معالم المدينة قلعة ضرغام والمكان المعروف بالمكديس⁽³⁾، وقد كانت الخسائر في المنشآت كبيرة وفادحة، ذلك أن القبارصة حرصوا على تخريب المدينة نكاية بالمسلمين، حيث تعمدوا حرق تلك الأماكن وجلبوا معهم حلقات مغموسة بالزيت والقطران والزفت والنفط، كانوا يضعونها في نصل السهم ثم يشعلون النار فيها، ويلقونها على أسقف المباني فتشتعل النار في أخشاب السطح وتنزل لتحرق كل المبنى⁽⁴⁾.

كما حدث في العام نفسه قيام بعض العريان من أولاد كنز والعمارمة بحرق وتخريب بيوت الناس في مدينة أسوان جنوب مصر، وكان فعلهم بالمدينة من الحرق والتخريب كفعل القبارصة في الإسكندرية⁽⁵⁾، وفي القاهرة عام (769هـ/1368م) حدث حريق كبير بقلعة الجبل احترقت فيه الدور السلطانية⁽⁶⁾، وتعرضت لحريق آخر عام (774هـ/1372م) استمر عدة أيام بسبب صاعقة سماوية⁽⁷⁾، وفي عام (788هـ/1386م) احترق جسر وعدد من الدور بالقرب من قنطرة الحاجب بالقاهرة⁽⁸⁾.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص241-242.

(2) المقرئزي: السلوك، ج5، ص114.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص117.

(4) المصدر نفسه، ج5، ص114.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص294.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص317؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص75.

(7) المقرئزي: السلوك، ج4، ص352؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص317، صلاح، محمد: الكوارث، ص288.

(8) المقرئزي: السلوك، ج5، ص184.

وأثناء صراع بين الأمراء المماليك عند دمشق عام (791هـ/1389م)، احترق عدد من البيوت على أصحابها في القبيبات⁽¹⁾، وفي عام (800هـ/1398م) احترقت بعض الأماكن بدمشق، ومنها حمام نور الدين، وزقاق العميان، والخضراء، وبيت القاضي شمس الدين الأحنائي⁽²⁾، وفي عام (801هـ/1398م) احترق عدد كبير من الدور بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة⁽³⁾.

وخلال الهجمة البربرية لتيمورلنك على بلاد الشام عام (803هـ/1400م)، احترقت أغلب الدور والمرافق في حلب⁽⁴⁾ وحماة⁽⁵⁾ ودمشق⁽⁶⁾، ومن المعالم المهمة التي احترقت في مدينة دمشق، دار السعادة⁽⁷⁾، والقصر الأبلق⁽⁸⁾، وأثناء هجوم الأسطول الجنوبي على السواحل الشامية عام (806هـ/1403م)، قام بحرق عدة منازل في مدينة بيروت⁽⁹⁾.

وفي مصر عام (816هـ/1413م) احترقت الدور الموجودة بقلعة الجبل بالقاهرة، واستمر الحريق ثلاثة أيام حتى تم إطفائه⁽¹⁰⁾، وفي مدينة دمياط وقع حريق ضخم عام (828هـ/1425م) دمر الكثير من البيوت، وقدر ما حرق فيه ثلث المدينة⁽¹¹⁾، وفي القاهرة عام (836هـ/1433م) احترق عدد من الدور، وكان منها بيت التاجر البرهان المحلي الذي على

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص556؛ المقرئزي: السلوك، ج5، ص260؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص356؛ عبد السيد، حكيم: قيام دولة المماليك الثانية، ص89.

(2) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص382.

(3) المقرئزي: السلوك، ج5، ص429؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص5.

(4) المقرئزي: السلوك، ج6، ص42؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص49؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص225.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص43؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص50؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص226.

(6) المقرئزي: السلوك، ج6، ص54؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص208؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص56؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص245.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص87.

(8) المقرئزي: السلوك، ج2، ص45؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص56.

(9) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص56.

(10) المقرئزي: السلوك، ج6، ص349؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص104.

(11) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص65-66؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص319.

شاطئ النيل، وكان أعجوبة زمانه في إتقان البناء وكثرة الرخام والزخرفة والمنافع الكثيرة من القاعات والأروقة، فاحترق جميعه⁽¹⁾.

وعندما هاجم أقبغا الجمالي عرب البحيرة عام (837هـ/1433م) قام بحرق بيوتهم⁽²⁾، وخلال محاولة تغري برمش الاستيلاء على مدينة حلب عام (842هـ/1439م)، قام بحرق الكثير من القرى حول حلب، كما قام بحرق البيوت في بانقوسا خارج حلب⁽³⁾.

وفي عام (862هـ/1458م) وقع حريق ضخم بساحل بولاق بالقاهرة، احترق فيه الكثير من الأحياء بما فيها من مساكن ومرافق، حيث احترق ما يزيد على ثلاثين ربعاً، كل ربع يشتمل على مائة مسكن وأكثر⁽⁴⁾.

وفي دمشق عام (871هـ/1466م) احترقت دار النيابة مقابل المدرسة العذراوية وحدث ضرر كبير نتيجة الحريق⁽⁵⁾، كما احترقت الكثير من دور الناس بين خان البقسماط ودار الأظعمة بدمشق عام (894هـ/1489م)⁽⁶⁾، وفي العام نفسه احترقت مساكن الإفرنج بدمشق وحدث فيها خسائر كبيرة للإفرنج⁽⁷⁾. وفي عام (900هـ/1495م) احترق بدمشق جسرا الزلابية والحديد، وما بينهما من المرافق والبيوت⁽⁸⁾، كما احترق عدد من البيوت والطباق بحارة الحكر الغربي عام (902هـ/1496م)⁽⁹⁾.

وخلال تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان في دمشق عام (903هـ/1497م)، احترقت الكثير من الدور والأماكن بالمدينة، وكان مما حرق وقتها عدد كبير من البيوت والتراب بالقرب من الجامع الصابوني، ومناطق عدة بالسويقة المحروقة⁽¹⁰⁾، وبيت المنوفي الطباخ، وبيت زقروق، وجزء من منطقة قصر حجاج⁽¹¹⁾.

(1) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص 284-285.

(2) المقرئزي: السلوك، ج7، ص263؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص37-38.

(3) المقرئزي: السلوك، ج7، ص419.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص122.

(5) البصري: تاريخ، ص25.

(6) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص90.

(7) البصري: تاريخ، ص137.

(8) البصري: تاريخ، ص161-162؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص135-136.

(9) البصري: تاريخ، ص196-197؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص140.

(10) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص157.

(11) المصدر نفسه، ص159.

وأثناء قمع المماليك الأجلاب ثورة للزرع والغوغاء بدمشق عام (908هـ/1502م)، قاموا بحرق عدد كبير من الدور والأماكن في منطقة الشاغور حتى أحرقوها كلها⁽¹⁾، وفي عام (917هـ/1511م) وقع حريق مهول عند قنطرة الأمير حسين بالقاهرة، وانتشرت النار بسرعة في البيوت؛ وذلك لوجود رياح عاصفة في ذلك الوقت، واستمر الحريق لعدة أيام، واحترق فيه أربعون بيتاً والكثير من الأموال⁽²⁾، ونتيجة محاولة أحد المماليك حرق بيت أستاذه من أجل النهب، احترقت عدة بيوت وربوع بالقاهرة عام (918هـ/1512م)⁽³⁾.

وفي عام (922هـ/1516م) وقع حريق في بعض الدور للأكراد جنوب حمام الزين بدمشق⁽⁴⁾، وخلال المعارك بين المماليك والعثمانيين داخل مدينة القاهرة عام (923هـ/1517م)، احترق عدد من البيوت والمواقع أثناء تحصن كل من الطرفين في بعض تلك الأماكن⁽⁵⁾.

ثانياً: أثر الحرائق على الأوضاع الاقتصادية.

مما لا شك فيه أن الحرائق كان لها كبير الأثر على الأوضاع الاقتصادية، فكل منشأة محروقة كانت تمثل خسارة اقتصادية وضيقاً للجهد والمال، كما أن احتراق المحاصيل الزراعية والمنشآت الاقتصادية كان له أثر كبير في غلاء الأسعار وزيادة معدل الفقر بين من احترقت ممتلكاتهم، وسيوضح الباحث هنا الضرر الواقع على القطاع الزراعي والصناعي والتجاري نتيجة تلك الحرائق.

تضرر القطاع الزراعي:

أثرت الحرائق على القطاع الزراعي أثراً كبيراً، نتيجة احتراق وتلف المحاصيل الزراعية والغلال والأشجار، ومن تلك الحرائق قيام أبو الفضائل الحمداني عام (381هـ/991م) بحرق الغلال الموجودة حول مدينة حلب بهدف قطع الميرة والإضرار بالجيش الفاطمي المحاصر للمدينة⁽⁶⁾.

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص211.

(2) ابن اياس: بدائع الزهور، ج4، ص217.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص258.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص337.

(5) ابن اياس: بدائع الزهور، ج5، ص155؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص352.

(6) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص28؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص456؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص106.

وفي عهد الحاكم بأمر الله تم حرق كميات كبيرة من الرطب⁽¹⁾، "وأحرق زيبياً كثيراً كان في محارق التجار، وتوالى إحراق الزبيب عدة أيام بحضوره اليهود؛ وتولى مؤنة الإنفاق على حملته وإحراقه متولي ديوان النفقات، فأحرق منه ألفان وثمانمائة وأربعون قطعة بلغت مؤنة الإنفاق عليها خمسة آلاف دينار في مدة خمسة عشر يوماً"⁽²⁾.

وخلال محاولات السلاجقة تثبيتهم حكمهم في بعض مناطق بلاد الشام، قام تاج الدولة تنتش عام (471هـ/1071م) بحرق روض قلعة إزاز، فاحتترقت الغلال الخاصة بالمتحصنين حول القلعة⁽³⁾، كما هاجم الناعورة في عام (487هـ/1094م) وقام بحرق زرعها ورحل عنها⁽⁴⁾. وضمن محاولات المسلمين إلحاق أكبر قدر من الخسائر الاقتصادية بالصليبيين عام (506هـ/1113م)، قامت حامية عسقلان بمهاجمة محيط مدينة القدس وحرقت المحاصيل المجمعرة حول أسوار المدينة⁽⁵⁾.

كما تعرضت الغلال للحرق أكثر من مرة في حصن الأتابك على يد الصليبيين عام (516هـ/1122م)⁽⁶⁾، وخلال مناوشات بلك بن بهرام للاستيلاء على حلب وفي إطار التضييق على خصومه قام بحرق الزرع والغلال حولها عام (517هـ/1123م)⁽⁷⁾، كما قام جوسلين في العام نفسه بحرق بعض الأشجار والبساتين في أعمال حلب أثناء محاولته تحرير بلدوين الثاني من يد بلك⁽⁸⁾.

وخلال محاولات عماد الدين زنكي توحيد بلاد الشام تحت قيادته، حاصر مدينة حمص عام (530هـ/1136م) وحرق الزرع حولها، بهدف قطع إمدادات الغلال عن المدينة لدفعها للاستسلام⁽⁹⁾.

وأثناء انشغال صلاح الدين في حلب بتوطيد حكمه، أغار الصليبيون على نواحي دمشق وهي خالية من الجيش، في وقت الحصاد عام (572هـ/1176م)، حيث حرقوا

(1) الذهبي: العبر، ج3، ص107.

(2) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج2، ص90.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص1، ص198.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص74؛ ابن العديم: بغية الطلب، ج4، ص1957.

(5) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص153.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص277، ص281.

(7) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص128؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص284.

(8) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص286.

(9) المصدر نفسه، ص312.

المحاصيل النامية والبيادر المجمعمة في الحقول وذلك بالإضافة إلى الغلال التي كانت مخزنة في مخازن الحبوب، واستمروا في ذلك حتى وصلوا داريا بالقرب من دمشق⁽¹⁾، وقد استخدم صلاح الدين نفس الأسلوب في الرد على الصليبيين حيث قام بحرق الغلال بالقرب من مدينة بانياس عام (574هـ / 1178م)⁽²⁾، وفي السنة التالية قام بمهاجمة المناطق المحيطة بطرابلس وإحراق المحاصيل الزراعية في الحقول، وجميع المحاصيل التي تم جمعها في المخازن أيضاً⁽³⁾، كما قام عز الدين فرخشاه بمهاجمة محيط قلعة صغد وحرق المراعي المحيطة بها⁽⁴⁾. وعاد الصليبيون لاستغلال انشغال صلاح الدين في حلب والموصل عام (578هـ / 1182م) وأغاروا على منطقة حوران ودرعا، وحرقوا الكثير من الأماكن والمحاصيل الزراعية⁽⁵⁾.

وأثناء الصراع داخل البيت الأيوبي بين الأفضل والعاقل عند مدينة دمشق عام (595هـ / 1199م)، احترقت الكثير من البساتين والمحاصيل الزراعية والغلال، مما أدى لقلّة الأقطاف في مدينة دمشق⁽⁶⁾.

وفي بداية العصر المملوكي عام (659هـ / 1261م) قام البرلي وهو أحد المعارضين للظاهر بيبرس بحرق الغلال ببيدر الشعير بالقرب من الباب الغربي لمدينة حماة⁽⁷⁾، كما قام الظاهر بيبرس بحرق الغلال الخاصة بالصليبيين بالقرب من أنطاكية عام (659هـ / 1261م)⁽⁸⁾، وفي عام (665هـ / 1267م) حرق البساتين والأشجار المحيطة بمدينة عكا عقاباً على غاراتهم على المسلمين⁽⁹⁾، وكذلك قام الصليبيون عام (669هـ / 1271م) بمهاجمة منطقة الشاغور وأحرقوا الغلال الموجودة بها⁽¹⁰⁾.

(1) الصوري، وليم: تاريخ، ص 389؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 6، ص 78.

(2) الصوري، وليم: تاريخ، ص 423؛ الأصفهاني: البرق الشامي، ج 3، ص 157؛ شاندر، البير: صلاح الدين، ص 153.

(3) الصوري، وليم: تاريخ، ص 432.

(4) أبو المعالي: مضمّار الحقائق، ص 31.

(5) الصوري، وليم: تاريخ، ص 472.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج 4، ص 451.

(7) اليونيني: ذيل، ج 1، ص 205؛ ابن الوردي: تاريخ، ج 2، ص 205.

(8) المقرئزي: السلوك، ج 1، ص 537؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص 91.

(9) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 44؛ العيني: عقد الجمان، ص 112.

(10) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 71.

وخلال هجوم المغول بقيادة غازان على بلاد الشام عام (699هـ/1299م)، احترق عدد من البساتين المحيطة بمدينة دمشق⁽¹⁾.

ونتيجة عاصفة شديدة ضربت أسوان وأسنا وأرمنت بجنوب مصر عام (716هـ/1316م)، احترقت العديد من أجران الغلال بتلك المنطقة⁽²⁾، وفي عاصفة أخرى بمنطقة جبال عكا عام (740هـ/1339م) احترقت الأشجار وتلفت الثمار بالمنطقة⁽³⁾، وفي عام (741هـ/1340م) احترقت أجران الغلال في قليوب وسنديون والغربية والبحيرة بمصر⁽⁴⁾، كما احترقت شونة قصب للأمير جركس الخليفي في عام (785هـ/1383م) وتلف كل ما فيها⁽⁵⁾.

وفي عام (757هـ/1356م) احترقت الأشجار في المنطقة الجبلية فيما بين طرابلس وبيروت، واحترق في ذلك الحريق الكثير من شجر الزيتون، وفر أهل تلك المناطق نحو الساحل خوفاً من النار، وماتت الكثير من الحيوانات البرية مثل النمر والدببة والثعالب والخنازير⁽⁶⁾. كما تعرضت الكثير من الأشجار للحرق في بلدة تدمر عام (764هـ/1362م)، وذلك على يد العربان من أصحاب خيار بن مهنا، ذلك لأن الدولة كانت قد أخذت منهم بعض إقطاعاتهم وأملاكهم⁽⁷⁾.

وأثناء القتال بين الأمير نوروز والسلطان الناصر فرج بن برقوق عام (811هـ/1408م) احترقت الكثير من المحاصيل الزراعية ونهبت القرى بالقرب من صغد شمال فلسطين⁽⁸⁾، وفي مصر قام العربان بحرق الغلال عام (834هـ/1340م)، وذلك بسبب قيام السلطان بحبس شيخ عرب هواره موسى بن عمر، بعد أن طلبه في الحضور إليه⁽⁹⁾، كما احترقت كميات كبيرة من الغلال وقت الدرس بناحية شيبين القصر عام (836هـ/1433م)⁽¹⁰⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج2، ص324.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص516.

(3) الذهبي: من ذبول العبر، ص211؛ الياضي: مرآة الجنان، ج4، ص303؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص282.

(4) المقرئزي: السلوك، ج3، ص295.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص150.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص256؛ المقرئزي: السلوك، ج4، ص229.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص301.

(8) المقرئزي: السلوك، ج6، ص203؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج6، ص86.

(9) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص234.

(10) المقرئزي: السلوك، ج7، ص252؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص285.

وخلال محاولة تغري برمش الاستيلاء على مدينة حلب عام (842هـ/1439م)، قام بحرق الزروع في المنطقة الممتدة ما بين حلب وشيزر⁽¹⁾، وفي عام (872هـ/1468م) احترقت أجران الغلال بالبحيرة على يد العريان، بعد خروجهم عن طاعة الدولة⁽²⁾.

تضرر القطاع الصناعي والتجاري:

تعرضت المنشآت الصناعية والتجارية لأضرار كبيرة نتيجة الحرائق، وكانت الأسواق بما تحتويه من الحرف والبضائع الأكثر تعرضاً للحرائق، حيث احترق سوق الزياتين⁽³⁾ وقيسارية العسل بالفسطاط عام (334هـ/945م)⁽⁴⁾.

وعندما دخل نفقور البيزنطي مدينة حلب في عام (351هـ/962م) حرق أسواق المدينة⁽⁵⁾، وقام بنهب الأموال وبضائع التجار، وحرق كل ما لم يستطع حمله، مما ألحق ضرراً كبيراً بالاقتصاد الحلبي⁽⁶⁾.

وخلال الصراع بين أهل دمشق والفاطميين عام (359هـ/970م) احترق عدد من الأسواق في دمشق على يد الفاطميين⁽⁷⁾.

وفي عام (362هـ/973م) احترق سوق القاهرة⁽⁸⁾، وخلال مدة عدم الاستقرار في عهد المستنصر الفاطمي عام (461هـ/1068م) احترقت الكثير من الأمتعة والنفائس المختلفة، التي نهبت من خزائن المستنصر، كما احترقت خزانة البنود بما تحتويه من بنود وآلات حرب وأمتعة، ومما احترق أيضاً "عشرات الألواف من السيوف وغير ذلك مما لا يحصى لكثرتة"⁽⁹⁾.

وفي بلاد الشام نتيجة إهمال وخطأ أحد الطباقين بدمشق عام (562هـ/1167م)، احترق سوق اللبادين وما به من حوانيت في دمشق، كما نهبت الكثير من الأموال أثناء الحريق،

(1) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص73.

(2) ابن اياس: بدائع الزهور، ج3، ص12-13؛ السيد، محمود: تاريخ القبائل العربية، ص183-184.

(3) (يختص ببيع الزيت) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص1013.

(4) ابن تغري بردي: مورد، ص201.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص82؛ أبو الفداء: البواقيت، ص24.

(6) الهمداني: تكملة، ص181؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص141؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص274؛

أبو الفداء: المختصر، ج1، ص220؛ ابن تغري بردي: مرد اللطافة، ج1، ص201.

(7) المقريزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص124.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص139.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص278-280.

مما أدى لخسائر اقتصادية كبيرة⁽¹⁾، واحتترقت بعض الأسواق بمدينة حلب على يد الإسماعيلية في عام (564هـ/1169م)⁽²⁾، وتجدد هجوم الإسماعيلية على مدينة حلب مرة أخرى عام (575هـ/1179م) فاحترق سوق البز⁽³⁾ الكبير، وسوق العطارين، وسوق مجد الدين المعد للبز، وسوق الخليع، وسوق الكتانيين⁽⁴⁾، وسوق السراجين، والسوق الواقع إلى الغرب من الجامع، إلى أن انتهى الحريق إلى المدرسة الحلاوية، مما خلف خسائر مادية كبيرة للتجار بالمدينة⁽⁵⁾.

وخلال حصار الملك الكامل صاحب مصر مدينة دمشق عام (635هـ/1237م)، احتترقت منطقة العقبية وجميع ما بها من خانات وأسواق⁽⁶⁾، مما سبب خسائر مادية كبيرة لسكان المنطقة⁽⁷⁾، كما احتترقت الحوانيت حول قلعة دمشق عام (637هـ/1239م) أثناء هجوم الصالح إسماعيل عليها⁽⁸⁾.

وخلال محاولة الملك الناصر حاكم حلب الرد على اعتداءات الصليبيين عليه وإلحاق خسائر بهم، قام في عام (651هـ/1253م) بمهاجمة عكا والاستيلاء على كردانة وحرقت الطواحين بها⁽⁹⁾.

وعندما هاجم المغول بلاد الشام عام (658هـ/1260م)، احترق سوق البزازين بمدينة حلب⁽¹⁰⁾.

وفي عام (667هـ/1269م) احترق سوق جبل الصالحية بدمشق كله، وراح فيه الكثير من الأقمشة والبضائع، وقدرت خسائر التجار فيه بخمسة عشر ألف درهم⁽¹¹⁾، كما وقع حريق كبير في منطقة اللبادين بدمشق عام (681هـ/1282م) احترقت فيه الكثير من الأسواق

(1) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص237؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص8؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص373.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص351؛ أبو شامة: الروضتين، ج2، ص138؛ عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص14.

(3) (يختص ببيع نوع من الثياب) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص200.

(4) (يختص ببيع الكتان) مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1907.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378.

(6) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص420؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص161.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص148.

(8) المصدر نفسه، ج13، ص153-154.

(9) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص389.

(10) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص15.

(11) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج49، ص46.

والقياسر⁽¹⁾، ومن تلك الأسواق المحترقة سوق الكتبيين، والخواتميين، والزجاجيين، والأساكفة، والمرجانيين، والفوارة⁽²⁾، وسوق القماش المعروف بسوق عسا الله، وسقاية جيرون⁽³⁾، وسبب ذلك الحريق خسائر كبيرة للتجار "ذهب للناس فيه من الأموال ما لا يوصف"⁽⁴⁾، ومما يدل على تلك الخسائر الكبيرة، أن واحداً فقط من تجار الكتب قدرت خسارته بمائة ألف درهم⁽⁵⁾.

كما احترقت مجموعة من الدكاكين في دمشق داخل باب الصغير مقابل مسجد الشنباشي عام (715هـ/1315م)⁽⁶⁾، وفي عام (721هـ/1321م) تضررت مدينة القاهرة اقتصادياً من الحرائق التي وقعت على يد النصارى، حيث احترقت قيسارية الفقراء⁽⁷⁾، واحترق فندق كبير للتجار القادمين من الشام، وتلف فيه لتاجر واحد ما قيمته تسعون ألف درهم⁽⁸⁾، بالإضافة إلى إغلاق الأسواق في أيام وقوع الحرائق⁽⁹⁾.

وفي عام (728هـ/1328م) وقع حريق كبير بسوق الفرايين بدمشق حتى وصل سوق الرماحين، وهلك للتجار الكثير من الفرا والجوخ والأقمشة⁽¹⁰⁾، كما شهدت أسواق مدينة حماة حريقاً كبيراً في عام (735هـ/1335م) احترق فيه مائتان وخمسون حانوتاً، مما أدى لخسائر كبيرة في البضائع والأوقاف⁽¹¹⁾، وفي عام (736هـ/1335م) احترق سوق النحاسين بدمشق⁽¹²⁾.

(1) اليونيني، ذيل، ج2، ص60؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7.

(3) اليونيني، ذيل، ج2، ص60.

(4) الذهبي: العبر، ج5، ص333.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص8.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص73.

(7) المقرئ: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص66.

(8) المقرئ: السلوك، ج3، ص44؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص70.

(9) المقرئ: السلوك، ج3، ص43؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص69.

(10) الذهبي: من ذبول العبر، ص317؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص275؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص134.

(11) الذهبي: من ذبول العبر، ص185؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص300-301؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص170.

(12) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص296؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص361.

وعندما قام النصارى بحرق عدة أماكن بدمشق عام (740هـ/1340م)، احترق عدد كبير من الأسواق⁽¹⁾، حيث عم الحريق منطقة اللبادين كلها حتى سوق الكتب، وكان مما احترق سوق الوارقين، وسوق الدهشة، وحاصل الجامع الأموي وما حوله⁽²⁾، وقيسارية القواسين والكفتيين، وسوق الخيل، ولحقت بالتجار خسائر كبيرة في البضائع والأموال، وقدرت تلك الخسائر بمليون وستمئة ألف دينار، كما ذهب في الحريق خمسة وثلاثون ألف قوس⁽³⁾.

وتعرض سوق الصالحية في دمشق عام (744هـ/1343م) لحريق كبير احترق فيه ما يقارب مائة وعشرين دكاناً⁽⁴⁾، وفي القاهرة عام (751هـ/1350م) احترقت العديد من الأسواق، وامتدت النار من دكاكين البندقانيين إلى دكاكين الرسامين ودكاكين الفقاعين، كما واحترقت قيسارية طشتمر⁽⁵⁾.

وشهدت مدينة دمشق احتراق عدد كبير من الأسواق في منتصف القرن الثامن الهجري، ففي عام (752هـ/1351م) وقع حريق في السوق الكبير بدمشق، احترقت فيه دكاكين الفواخرة والمناجلين، ولحقت بالناس خسائر كبيرة في المتاع والأثاث والأموال، واحترقت أوقاف للجامع الأموي بما يساوي مائة ألف درهم⁽⁶⁾، وفي عام (756هـ/1355م) وقع حريق هائل في سوق القطنين بدمشق، احترق فيه عدد كبير من الدكاكين⁽⁷⁾، وفي عام (757هـ/1356م) وقع حريق كبير خارج باب الفرج بدمشق، احترقت فيه الكثير من القياسر والدكاكين، وقدر ما حرق في سبعمئة دكان من الخسائر ما يزيد على مليون درهم⁽⁸⁾، كما وقع حريق آخر في سوق الصالحية على سفح جبل قاسيون، احترق فيه السوق القبلي كله بالقرب من جامع الحنابلة⁽⁹⁾.

(1) الذهبي: من ذبول العبر، ص213؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج1، ص284؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئ: السلوك، ج3، ص282؛ البصري: تاريخ، ج1، ص88.

(2) الذهبي: من ذبول العبر، ص213.

(3) المقرئ: السلوك، ج3، ص282.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص210.

(5) المقرئ: السلوك، ج4، ص118-119.

(6) البداية والنهاية، ج14، ص239.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص253.

(8) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص254-255؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص227؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص182.

(9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص256؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص227.

وأثناء هجوم ملك قبرص على الإسكندرية عام (767هـ/1365م)، احترق عدد كبير من الحوانيت والأسواق والقياسر والخانات، فقد دخل القبارصة تلك الأماكن ونهبوا ما فيها ثم حرقوا ما بقي من البضائع التي لا يقدرّون على حملها، وكان مما أحرّقه حوانيت الحرف بكمالها، وسوق القشاشين، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم، وحوانيت شارع المرجانيين، ووكالة الكنان، وسوق الخشابين، ودار الطراز⁽¹⁾، كما أحرّقوا دار الصناعة الشرقية والغربية بما فيها من السفن والمعدات الحربية، وبذلك فقد لحقت بالتجار والصناع خسائر كبيرة نتيجة نهب وحرق بضائعهم وأماكن عملهم⁽²⁾.

وفي عام (780هـ/1378م) احترقت دكاكين الفاكهانيين والنقلين والبرادعيين خارج باب زويلة بالقاهرة، واستمر موضع الحريق خراباً من أول السنة إلى آخرها⁽³⁾، وفي عام (785هـ/1383م) احترق سوق مدينة صيدا في إحدى هجمات الصليبيين على ساحل الشام⁽⁴⁾، وفي عام (794هـ/1392م) احترق سوق الصاغة وسوق الدهيشة حول الجامع الأموي بدمشق، وتلف من الأموال ما لا يحصى⁽⁵⁾، وفي دمشق أيضاً عام (800هـ/1398م) احترق عدد من الأسواق، ومنها الحريريين، والقواسيين، والسيوفيين، والصراف، وبعض النحاسيين⁽⁶⁾.

ولعل أكبر ضرر أصاب الاقتصاد المملوكي في بلاد الشام، كان بسبب الهجمة البربرية لتيمورلنك على بلاد الشام عام (803هـ/1400م)، فقد احترقت مدن بأكملها بكل ما تحتويه من منشآت اقتصادية وغيرها⁽⁷⁾، ورغم أن الضرر لم يكن بسبب الحرائق فقط، بل لعدة أسباب منها الأموال التي نهبها تيمورلنك وجنوده وكانت كثيرة جداً⁽⁸⁾، وأخذه أرباب الحرف والفنون السوريين وترحيلهم إلى سمرقند، مما أفقد بلاد الشام العديد من الصناعات والحرف التي

(1) المقرئزي: السلوك، ج5، ص114.

(2) المصدر نفسه، ج5، ص117.

(3) المقرئزي: السلوك، ج5، ص45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص166؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص263.

(4) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج2، ص127؛ أبو عليان، عزمي: مسيرة الجهاد، ص123.

(5) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص107.

(6) المصدر نفسه، ج3، ص382.

(7) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص41؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص54؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص208؛ ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص60؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص245.

(8) دي ميغانللي: حياة تيمورلنك، ص41؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص51-53؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص207؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص241-242.

اشتهرت بها⁽¹⁾، لكن برغم كل تلك الأسباب فقد كان للحرائق وخاصة حرق مدينة دمشق الأثر الأكبر في الإضرار بالاقتصاد المملوكي، حيث يصف ابن عريشاه ذلك بقوله " ومع ذلك فلو أخذ من نفائس دمشق أضعاف ما أخذ، وقلد من أكباد ذخائرها آلاف ما فلذ، ما غاض ذلك ما في يمينها، ولا نقص من بحار معينها ولكن النار كانت هي البلاء الداهي، والمصاب المتناهي، لأنها أحرقت غالب من كان داخل البلد، لعدم الغواث، فما ظنك بما يكون من العمائر والأقمشة والأثاث"⁽²⁾، لذلك فقد تحولت بلاد الشام بعد الهجمة التيمورية من بلاد كثيرة الميرة والرزق⁽³⁾، إلى بلاد فقيرة لا يجد الناس فيها قوت يومهم بسبب الفقر والغلاء وقلّة الأقدوات⁽⁴⁾.

وأثناء هجوم الأسطول الجنوبي على السواحل الشامية عام (806هـ/1403م)، قام بحرق سوق مدينة بيروت القريب من الميناء⁽⁵⁾، وبسبب القتال بين الأمير شيخ المحمودي والسلطان الناصر فرج بن برقوق عام (815هـ/1412م)، احترقت الأسواق الموجودة عند باب الفراديس بدمشق⁽⁶⁾، وسوق خان السلطان وما حوله⁽⁷⁾،

وفي عام (825هـ/1422م) تكبد التجار في مدينة الإسكندرية خسائر كبيرة في البضائع تقدر بمائة ألف دينار، بسبب حرق الفرنجة مركباً محملاً بالبضائع بالقرب من الميناء⁽⁸⁾، كما احترق مركب آخر بساحل الطور عام (838هـ/1434م)، واحترقت به كمية كبيرة من بضائع التجار⁽⁹⁾، وفي اعتداء آخر للفرنجة عام (844هـ/1441م) قاموا بحرق مراكب التجار بساحل الطينة في سيناء⁽¹⁰⁾.

(1) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص 61.

(2) المصدر نفسه، ص 60.

(3) المقرئزي: السلوك، ج 6، ص 51؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 12، ص 241.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 12، ص 242.

(5) ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص 56.

(6) المقرئزي: السلوك، ج 6، ص 318؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 13، ص 145.

(7) المقرئزي: السلوك، ج 6، ص 323؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 13، ص 194.

(8) المقرئزي: السلوك، ج 7، ص 463.

(9) المصدر نفسه، ج 7، ص 282.

(10) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج 9، ص 136.

وفي حريق ساحل بولاق بالقاهرة عام (862هـ/1458م) لحق بالتجار والصناع الكثير من الخسائر المادية نتيجة الحريق؛ حيث احترقت الكثير من الحوانيت والمخازن المملوءة بالبضائع⁽¹⁾.

وفي نهاية العصر المملوكي رصد المؤرخون الكثير من الحرائق في أسواق مدينة دمشق، والتي خلفت خسائر اقتصادية كبيرة للتجار ولأصحاب الحرف المختلفة، ومنها ما كان في عام (880هـ/1475م) حيث احترق جزء من سوق الصالحية جنوب الجامع المظفري وسوق العمارة خارج باب الفراديس⁽²⁾، وفي عام (884هـ/1479م) احترقت الأسواق المحيطة بالجامع الأموي، ومنها سوق الأمتعة، وسوق العنبريين، وسوق الذراع⁽³⁾، وفي عام (890هـ/1485م) احترق جزء من سوق المارستان⁽⁴⁾، ونصف سوق الشاغور، وسوق القبيبات المجاور لجامع كريم الدين⁽⁵⁾، وفي عام (895هـ/1490م) احترقت سوقة تاني بك بحكر السماقي، وفي عام (899هـ/1494م) احترقت أسواق الحريرية، والشماعين، والحبالين، والحدادين بجوار باب الجابية، وحدثت أعمال نهب في تلك المناطق حتى قبل وصول الحريق إليها، مما أدى لخسائر كبيرة في البضائع والأموال⁽⁶⁾.

كما احترق سوق القضاة والقطنيين داخل باب الجابية عام (902هـ/1496م)⁽⁷⁾، وفي عام (904هـ/1498م) احترق سوق الشخي الواقع شرق خان الليمون بكل ما فيه من بضائع وأموال⁽⁸⁾، وفي عام (905هـ/1499م) احترق عدد كبير من الحوانيت خارج باب الفرج حتى وصل الحريق إلى نهر بردي، وتزامن الحريق مع أعمال نهب في الأسواق المجاورة لمكان الحريق، وذهب للناس فيه مال كثير لا يمكن حصره⁽⁹⁾، وفي عام (906هـ/1501م) احترق سوق النحاسين الواقع تحت القلعة⁽¹⁰⁾، وفي عام (909هـ/1503م) احترق سوق الفراء، وسوق

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص121، 122.

(2) البصروي: تاريخ، ص70.

(3) المصدر نفسه، ص88.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص57.

(5) المصدر نفسه، ص57.

(6) المصدر نفسه، ص129.

(7) البصروي: تاريخ، ص199.

(8) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص167.

(9) المصدر نفسه، ص182.

(10) المصدر نفسه، ص196.

الخلعيين عند باب الحديد⁽¹⁾، وفي عام (911هـ/1506م) احترق جانب كبير من سوق عمارة الأحنائي الواقع شمال غرب باب الفراديس⁽²⁾، وفي عام (914هـ/1508م) احترق غالب سوق الرصيف الواقع شمال المدرسة المجاهدية⁽³⁾، وفي عام (922هـ/1516م) احترقت قيسارية وبعض الدكاكين جنوب المدرسة القميرية بمحلة الحرميين⁽⁴⁾.

وربما تعود كثرة الحرائق في أسواق مدينة دمشق، لأهمية هذه المدينة التجارية والصناعية وكثرة الأسواق بها، وبحكم أنها أكبر المدن الشامية، ومقر إقامة عدد كبير من المؤرخين الذين كانوا شهود عيان على تلك الحرائق، وهو ما لم تحظ به بقية المدن الشامية والمصرية أيضاً باستثناء مدينة القاهرة، التي شهدت أيضاً بعض الحرائق في نهاية العصر المملوكي والتي أضرت بالاقتصاد، ومنها في عام (913هـ/1507م) عندما وقع حريق كبير في مركب يحمل كتاناً على شاطئ النيل، وامتد إلى شونة ومعصرة قصب قريبة من المركب، وكان سبب الحريق أن امرأة طبخت على شاطئ النيل فطارت منها شرارة فتعلقت بالمركب فاحترق⁽⁵⁾، وفي عام (917هـ/1511م) احترق عدد من الحوانيت عند قنطرة الأمير حسين، وتلف بها الكثير من البضائع والأقمشة⁽⁶⁾.

كما كان لانتشار صناعة البارود في القاهرة في ذلك الوقت، وخطورة تلك المادة دور في احتراق أماكن صنعها، وموت عدد من صناع البارود في تلك الحرائق، ومن تلك الحوادث احتراق الزردخاناه بالقلعة عام (919هـ/1513م)، وارتفاع الدخان بشكل كثيف في السماء، أثناء عمل بعض الصناع في البارود، حيث أصابت النار سقف الزردخاناه وانتشرت النار فيها كلها واحترق عدد من الصناع وماتوا نتيجة تلك الحروق⁽⁷⁾، وفي العام التالي احترق عشرون من صناع البارود أيضاً وهم يعملون على مركب، نتيجة اشتعال النار في البارود وهم على متته⁽⁸⁾.

(1) ابن طولون: مفاكحة الخلان، ص 219.

(2) المصدر نفسه، ص 240.

(3) المصدر نفسه، ص 270.

(4) المصدر نفسه، ص 319.

(5) ابن اياس: بدائع الزهور، ج 4، ص 114.

(6) المصدر نفسه، ج 4، ص 217.

(7) ابن اياس: بدائع الزهور، ج 4، ص 314.

(8) المصدر نفسه، ج 4، ص 366.

غلاء الأسعار وانتشار الفقر:

يقترن حدوث الحريق بخسائر اقتصادية، يختلف حجمها باختلاف حجم الحريق وما احترق فيه، فعندما يكون الحريق كبيراً تكون الخسائر كبيرة أيضاً، مما يؤدي لشح البضائع وغلاء الأسعار، كما يؤدي لافتقار كل من ذهب أمواله في الحريق، خاصة في ظل غياب نظام لتعويض المتضررين.

عندما دخل البيزنطيون مدينة حلب عام (962/هـ/351م) حرقوا الكثير من الأموال والبضائع بها، مما أدى لحدوث حالة غلاء شديدة في حلب والمناطق المحيطة بها⁽¹⁾، كما حدث شح في الأقوات وغلاء في الأسعار في منطقة الثغور الشامية عام (963/هـ/353م) بعد حرق القرى المحيطة بمدن المصيصة وأذنة وطرطوس على يد البيزنطيين⁽²⁾.

وكان حرق بلق بن بهرام الزرع والغلال في محيط حلب عام (517/هـ/1123م) سبباً للغلاء العظيم في المنطقة⁽³⁾.

وعندما قام شاور بحرق الفسطاط عام (564/هـ/1168م)، أصاب أهلها الفقر والعناء الشديد نتيجة هذا الحرق، لأنهم خرجوا على عجلة من أمرهم قبل وصول الصليبيين بيوم واحد فقط، وتركوا أغلب متاعهم وأموالهم، بالإضافة للخسائر الضخمة في الدور الخاصة بهم، ولا ننسى الخسائر الاقتصادية الكبيرة في أسواق المدينة التي ذهبت كلها في الحريق، مما أفقر الكثير من التجار والصناع أيضاً⁽⁴⁾.

كما افتقر الكثير من الناس والتجار في مدينة حلب بعد حرق الإسماعيلية الأسواق بها عام (575/هـ/1179م)، حيث احترقت الكثير من البضائع والآلات بتلك الأسواق⁽⁵⁾، وافتقر الكثير من الناس في دمشق عام (635/هـ/1237م) بعد حرق الصالح إسماعيل الخانات والأسواق بمنطقة العقبية لكي لا يحتمي بها جنود الملك الكامل المحاصر للمدينة⁽⁶⁾.

وكان حرق الغلال ببيدر الشعير في حماة عام (659/هـ/1261م) على يد البرلي من أسباب الغلاء الشديد في المنطقة⁽⁷⁾.

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص82-83.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص282.

(3) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص285.

(4) المقرئ: اتعاط الحنفا، ج3، ص296، 297، 299، 303.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص54.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص148.

(7) اليونيني: ذيل، ج1، ص205.

وافتقر الكثير من الناس والتجار في مدينة الإسكندرية عام (767هـ/1365م)، بعد حرق ممتلكاتهم وبضائعهم على يد القبارصة والأوربيين، ويصف المقرئزي حال المدينة " فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها وقلت أموالهم وزالت نعمهم"⁽¹⁾.

كما افتقر الكثير من الناس بعد الحريق الذي وقع في ساحل بولاق بالقاهرة عام (862هـ/1458م)، ذلك بعد احتراق بيوتهم وحوالياتهم بما فيها من أموال ومتاع وبضائع⁽²⁾. وفي عام (904هـ/1498م) احترق سوق الشيخي بدمشق، وافتقر من سكانه جماعات من الأغنياء ، أما الفقراء فكادوا أن يهلكوا⁽³⁾.

ومن الطبيعي أن الكثير من الحرائق تسببت في غلاء الأسعار، أو افتقار من أصابهم الحريق، لكن حرص الباحث هنا فقط على ذكر الحرائق التي نوه المؤرخون إلى حدوث غلاء أو افتقار أصحاب الحريق عقب حدوثها.

ثالثاً: أثر الحرائق على العمليات العسكرية.

كان استخدام المواد الحارقة أمراً شائعاً في الحروب والمعارك، بهدف تحقيق النصر في المعركة، وكان للحرائق أثر رئيس في حسم بعض العمليات العسكرية، وأحياناً دور ثانوي يساهم في تحقيق الغاية المرجوة، كما واستخدم الحرق لإتلاف المدن والحصون والمعدات؛ لعدم تمكن الخصوم من الحصول عليها والاستفادة منها، مما يؤثر عليهم بشكل ما.

أثر حرق التحصينات الدفاعية والمعدات الهجومية:

شكل حرق التحصينات الدفاعية مثل (الأسوار والقلاع والأبراج والستائر وغيرها) دوراً كبيراً في حسم الكثير من المعارك والحروب وتدمير مقاومة الطرف الآخر، كما أن حرق المعدات الهجومية مثل (المراكب والدبابات والأبراج والمنجنيقات وغيرها)، أدى في كثير من العمليات العسكرية إلى إحباط الهجمات الحربية، وزاد من قدرة المدافعين في صد هجمات الغزاة.

وكان مما أوقف الهجمات البحرية للمسلمين ضد البيزنطيين في عهد المعتضد، وأضر كثيراً بالقدرات الهجومية للمسلمين، حرق الأسطول الإسلامي في مدينة طرسوس عام (287هـ/899م)، حيث كان يحتوي ذلك الأسطول على خمسين مركباً مجهزة بجميع معدات

(1) المقرئزي: السلوك، ج4، ص485.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص123.

(3) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص167.

الحرب⁽¹⁾، وشكل خسارة كبيرة يصفها الطبري: " فأحرق ذلك كله وكان في المراكب نحو من خمسين مركباً قديماً قد أنفق عليها أموال جليلة لا يعمل مثلها في هذا الوقت فأحرقت فأضر ذلك بالمسلمين وكسر ذلك في أعضادهم وقوي به الروم وأمنوا أن يغزوا في البحر"⁽²⁾.

وأدى حرق مراكب من الأسطول الفاطمي على يد الأسطول العباسي أثناء معركة بحرية في مياه رشيد يوم الثلاثاء (20 شوال 307هـ / 14 مارس (آذار) 920م)، إلى هزيمة الفاطميين وعودتهم عن مصر⁽³⁾.

كما أن الأسطول الفاطمي في مصر تعرض للحرق مرتين في عهد العزيز عام (377هـ/987م)⁽⁴⁾ وعام (386هـ/996م)⁽⁵⁾، مما أدى لتعطيل هجوم العزيز على البيزنطيين في كلتا المراتين⁽⁶⁾.

وأثناء محاولات السلاجقة تثبيت حكمهم في بعض مناطق بلاد الشام عام (471هـ/1071م)، قاموا بحرق روض قلعة إغزاز⁽⁷⁾، وأبراج بلدة معرتاج بجوار كفرطاب، مما أدى لهلاك جميع من كان فيها⁽⁸⁾.

وخلال الغزو الصليبي للمنطقة شهدت مصر وبلاد الشام العديد من المعارك الكبيرة والطاحنة، وكان لحرق التحصينات الدفاعية والمعدات الهجومية دور كبير في حسم العديد من تلك المعارك، وكانت أولى تلك المعارك في مدينة القدس عام (492هـ/1099م)، حيث استطاع خلالها أهالي مدينة القدس الصمود لمدة ثمانية وثلاثين يوماً، بفضل المقاومة القوية وحرقتهم أحد الأبراج الذي كان بباب صهيون وقتل من فيه⁽⁹⁾، كما حرقوا الكثير من المعدات العسكرية للصليبيين⁽¹⁰⁾.

(1) الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص634-635؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص400.

(2) الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص635.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص501؛ ابن خلدون: تاريخ ج4، ص50.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص151.

(5) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص290.

(6) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج1، ص290؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص151.

(7) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص67؛ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص421؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص198.

(8) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص200.

(9) توديبود: تاريخ الرحلة، ص316؛ الرهاوي مجهول: الحملتين، ص93؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص19؛

الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص19.

(10) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص294.

ولكن بالرغم من حرق تلك المعدات العسكرية للصليبيين التي بلا شك أجلت اقتحام المدينة، فإن إصرار الصليبيين وحرقتهم لتحصينات المسلمين الدفاعية على أسوار القدس، أدى لابتعاد المدافعين عن السور، وتمكّن الصليبيين من الدخول والاستيلاء على المدينة⁽¹⁾.

وكان لحرق المسلمين سفن ومنجنيقات وأبراج الصليبيين المحاصرة لمدينة عكا دور كبير في عدم سقوط المدينة في يد الصليبيين ورحيلهم عنها عام (496هـ/1103م)⁽²⁾، كما تمكن أهل مدينة صور من صد هجمات الصليبيين على المدينة وحصارهم لها عام (505/1111م)، عن طريق حرق الأبراج الملاصقة لسور المدينة - وكان علو البرج سبعين ذراعاً وفي كل برج ألف رجل - مما أفقد الصليبيين القدرة على اقتحام المدينة بدون أبراج⁽³⁾، وخاصة أن صنعها استنفذ منهم كثيراً من الجهد والوقت والمواد⁽⁴⁾، ومما ساعد أيضاً على رفع الحصار عن المدينة هجمات طغتكين على الصليبيين، حيث استطاع حرق عشرين مركباً لهم على الساحل⁽⁵⁾، فاضطر الصليبيون إلى الرحيل عن صور وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها لسكانهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي أخذوا جزءاً من أخشابها لصنع تلك الأبراج⁽⁶⁾.

وكان لحرق المسلمين عدداً من مراكب الصليبيين في النيل أثناء حصارهم مدينة دمياط عام (565هـ/1169م)، أثر كبير في صمود المدينة ودحرهم عنها⁽⁷⁾؛ حيث انسحبوا وقاموا بحرق أدوات الحصار والمنجنيقات وكل ما لا يستطيعون حمله⁽⁸⁾، لكن لم يتوقف الصليبيون عن مهاجمة المدن الساحلية المصرية، حيث هاجم الأسطول الصقلي مدينة الإسكندرية وحصارها عام (569هـ/1174م)، لكن المسلمين نجحوا في فك الحصار وهزيمة الصقليين شر

(1) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص 295.

(2) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص 130؛ ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 56؛ ابن خلدون: تاريخ، ج 5، ص 214.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 145.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 109.

(5) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 108؛ ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 146؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 35، ص 24.

(6) ابن القلانسي: تاريخ، ج 1، ص 110؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 182؛ عمران، محمود: تاريخ الحروب الصليبية، ص 49.

(7) الصوري، وليم: تاريخ، ص 337.

(8) الصوري، وليم: تاريخ، ص 339؛ ابن شداد: النوادر، ج 1، ص 42؛ أبو شامة: الروضتين، ج 2، ص 140-142؛ الجنزوري، عليّة: هجمات الروم، ص 153.

هزيمة، بعد ما قاموا بحرق العديد من أدوات الحصار والمنجنوقات والدبابات والأبراج والخيام أثناء المعارك معهم حول أسوار الإسكندرية⁽¹⁾.

واستخدم الحرق لتدمير الأسوار بالرغم من منعها وبنائها من الأحجار، فكان يتم نقب تلك الأسوار بنقوب ووضع الأخشاب بها، ثم إشعال النار فيها فيتضعع السور ويقع، وقد استخدم ذلك الأسلوب بكثرة في الحروب الصليبية لتدمير أسوار المدن والحصون، ومنها عندما قام صلاح الدين عام (575هـ / 1179م) باقتحام حصن بيت الأحران بعد نقب سورها وحرقه أكثر من مرة حتى انهار رغم مناعته وقوته، فلجأ الصليبيون إلى سد مكان الانهيار بالأخشاب، فقام صلاح الدين بحرق الأخشاب، مما أدى لحرق الأخشاب والبيوت القريبة من السور، ثم دخول المسلمين الحصن واستيلائهم على ما فيه⁽²⁾.

وكان حرق المراكب الصليبية في أيله عام (578هـ / 1182م) على يد الأسطول المصري، له الدور الرئيسي في إحباط عملية أرناط التخريبية التي كانت تستهدف الأماكن المقدسة بالمدينة المنورة⁽³⁾.

وبعد انتصار حطين الكبير للمسلمين، قام صلاح الدين بفتح العديد من المدن والحصون، واستخدم فيه الحرق لتدمير دفاعات الصليبيين، فعندما حاصر مدينة القدس عام (583هـ / 1187م) استطاع هدم جزء من سور المدينة عن طريق النقب وإشعال النار فيه، مما كان له أكبر الأثر في استسلام الصليبيين بعد ذلك⁽⁴⁾.

وفي حصار مدينة عكا الذي استمر أكثر من سنتين حتى سقطت المدينة عام (587هـ / 1191م)⁽⁵⁾، تمكن المسلمون من حرق العديد من المعدات الحربية الهجومية، التي كان لحرقها دور كبير في صمود المدينة طوال هذه المدة، والتي لولا حرقها لسقطت المدينة سريعاً بكل سهولة في يد الصليبيين لما تتميز بها تلك المعدات من الضخامة والتقنية المتطورة في عصرها، حيث استطاع المسلمون حرق ثلاثة أبراج كل برج منها خمس طبقات، مملوءة

(1) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص335-336.

(2) الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص179-180؛ أبو المعالي: مضمار الحقائق، ص28-29؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص36-37؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص181.

(3) ابن كثير: البداية، ج12، ص311؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص190؛ غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية، ص33-34.

(4) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص340؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص323.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص171؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص246؛ مجهول: ذيل، ص396؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص255.

بالمقاتلين⁽¹⁾، وحرقوا عدداً من المنجنيقات في محيط المدينة⁽²⁾، وعدداً من الدبابات الضخمة والمحصنة⁽³⁾، كما حرقوا عدداً من المراكب المحاصرة لمدينة من جهة البحر⁽⁴⁾، ولم يستطع الصليبيون دخول المدينة إلا بعد نقب السور وحرقه، مما أدى لانهايار جزء منه وتمكنت بعض القوات الصليبية من دخول المدينة⁽⁵⁾.

كما تمكن الصليبيون في العام نفسه من نقب سور قلعة الدروام وحرقتها، واستولوا عليها مستفيدين من أخذهم نقابيين حلبيين في حصار عكا، مما يدل على مهارة النقابيين المسلمين في هذا المجال⁽⁶⁾، واستطاع صلاح الدين في عام (588هـ/1192م) نقب سور مدينة يافا وإحراقه حتى سقط السور مخلفاً وراءه غباراً ودخاناً أظلم الأفق⁽⁷⁾.

واستطاع الملك الصالح نجم الدين تحرير مدينة عسقلان من الصليبيين عام (645هـ/1247م)، وكان مما ساهم في هذا النصر سقوط أحد الأبراج الحجرية بعد نقبه وحرقه، فدخل المسلمون إلى باقي الأبراج وهرب من فيها، وقد لحقت ببعض منجنيقات المسلمين أضرار نتيجة حرق الصليبيين لها، لكن لم يتأثر الجيش الإسلامي بها كثيراً؛ نظراً لوجود عدد كبير من المنجنيقات⁽⁸⁾.

كما استطاع الملك الصالح هزيمة الصليبيين في مصر عام (647هـ/1250م)، وكان مما ساهم في نصر المسلمين، تمكن الأسطول الأيوبي من إحراق عدة سفن للصليبيين في النيل ومنها سفينة كبيرة تسمى مرمة⁽⁹⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل، ص192-193؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص120؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص122؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص335؛ حسن، صفوان: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص80.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص135؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص148؛ العليمي: الأنس الجليل، ج1، ص366؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص245.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص140-142؛ مجهول: ذيل، ص378؛ العليمي: الأنس الجليل، ج1، ص368.

(4) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص143؛ العليمي: الأنس الجليل، ج1، ص368.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص162؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص256؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج12؛ ص343؛ العليمي: الأنس الجليل، ج1، ص373.

(6) أبو شامة: الروضتين، ج4، ص300.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص316.

(8) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص33-34.

(9) اليونيني، ذيل، ج1، ص238؛ المقرزي، السلوك، ج1، ص447، عثمان، مرفت: التحصينات، ص370.

ومع بداية العهد المملوكي وتولي الظاهر بيبرس السلطنة عمل على مهاجمة الصليبيين وإضعافهم بكل الوسائل، فقام عام (1261م/659هـ) بمهاجمة ميناء أنطاكية وحرق المراكب الموجودة به⁽¹⁾، وعندما قام بيبرس بمحاصرة قلعة أرسوف عام (1265م/663هـ) وجمع كميات كبيرة من الأخشاب لردم الخندق المحيط بالقلعة ليستطيع عبوره، تمكن الصليبيون من حرق تلك الأخشاب باستخدام الحيلة، مما أفشل تلك المحاولة لاقتحام القلعة، لكن محاولات بيبرس استمرت حتى تمكن من اقتحام القلعة⁽²⁾.

وكان نقب وحرق سور قلعة صغد الحصينة، واشتعال النار عند المقاتلين الصليبيين له دور كبير في هزيمتهم وتسليم المدينة عام (1265م/664هـ)؛ حيث يصف اليوناني ذلك الأثر عليهم " وفي ضمن ذلك لصق الحجارون بجداره وتعلقوا بأذيال أسواره ففتحوها أسراباً، وأججوها جحيماً يستعر جمرها التهاباً فصلى أهل النار بنارين من الحريق والقتال، ومنوا بعذابين من حر الضرام وحد النصال، هذه تستعر عليهم وقوداً وهذه تجعل هامهم للسيف غموداً"⁽³⁾. كما تمكن أهل قلعة البيرة في عام (1275م/674هـ) من إحراق منجنيقات المغول وحلفائهم المحاصرين للمدينة، مما كان له الأثر في صمود المدينة ورحيل المغول وحلفائهم عنها⁽⁴⁾.

وخلال تحرير بقية المدن الإسلامية من يد الصليبيين على يد الأشرف خليل بن قلاوون عام (1291م/690هـ) وطردهم نهائياً من بلاد الشام، تم اقتحام مدينة عكا بعد نقب وحرق الأسوار التي تهدمت بفعل الحرق، كما كان لحرق المسلمين أحد السفن القبرصية عام (1424م/828هـ) أثر كبير في رد الهجمات التخريبية لسفن القبرصية على الساحل الشامي. **أثر حرق الأشجار والمروج والنباتات الجافة:**

استخدم المتحاربون حرق الأشجار والنباتات كوسيلة لتحقيق أهداف عسكرية، ومنه عام (1099م/492هـ) عندما باغت الصليبيون الجيش الفاطمي وهزموه بالقرب من عسقلان⁽⁵⁾، ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز وكان هناك كثيراً، فأحرق الصليبيون

(1) المقرئزي: السلوك، ج1، ص537، 543؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص91.

(2) المقرئزي: السلوك، ج2، ص20؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص97.

(3) ذيل، ج1، ص286.

(4) اليوناني: ذيل، ج1، ص383؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص17؛ العيني: عقد الجمان، ص141.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21.

الأشجار حتى هلك من فيها وقتلوا من خرج منها⁽¹⁾، مما أدى لانسحاب من تبقى من الجيش الفاطمي، تاركاً سكان مدينة عسقلان دون حماية من الجيش الصليبي⁽²⁾، ونزل الصليبيون عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها عشرين ألف دينار ثم عادوا إلى القدس⁽³⁾.

وفي عام (496هـ/1103م) حاول الصليبيون بقيادة بلدوين الأول صد هجوم للجيش الفاطمي القادم لوقف التمدد الصليبي، فقاتلهم بالقرب من عسقلان وانهزم الصليبيون وكثر القتل فيهم⁽⁴⁾، وانهزم بلدوين الأول واختفى في أجمة قصب، فتم حرق القصب فلحقت النار ببعض جسده ولكنه تمكن من الفرار⁽⁵⁾.

ولعل أفضل استخدام لتلك الوسيلة هو ما قام به المسلمون في معركة حطين عام (583هـ/1187م)، عندما استغلوا وجود النباتات والحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين، فاشعلوا النيران فيها فاحترقت وحاصرت الصليبيين بحرماً ونارها، بالإضافة إلى أن الرياح كانت باتجاه الصليبيين فأصابهم الدخان بالمزيد من الضرر والضيق، فكان لحرق النباتات أكبر الأثر في انتصار المسلمين في تلك المعركة المهمة⁽⁶⁾.

كما أمر بيبرس نائبه بحلب عام (660هـ/1262م) بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاء أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام، فأحترقت تلك المروج جميعها⁽⁷⁾، وتأتي أهمية الحرق هنا في أنها وقّت بلاد الشام من هجمات المغول البربرية وما يعقبها من دمار وخراب كبير، كما تظهر براعة الظاهر بيبرس في اتخاذ القرارات العسكرية بشكل مبدع، بناءً على قراءاته لطبيعة تحركات العدو⁽⁸⁾.

(1) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص86؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص149.

(2) Roscoe, Thomas: History of Chivalry and the Crusades, vol1, p303.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص21؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص86.

(4) الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة، ص126؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص56؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص44؛ رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص126.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص56؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص44.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص147؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص282؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص20؛ غنيم: اسمت: الدولة الأيوبية، ص37؛ عطية، عزيز: الحروب الصليبية، ص67.

(7) المقرئزي: السلوك، ج1، ص544.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، ج14، ص448-449.

وكما استخدم بيبرس حرق النباتات ضد المغول، فإنه استخدمه ضد الصليبيين بطريقة مختلفة، عندما قام بمهاجمة محيط مدينة عكا عام (661هـ/1263م) وحرق الأخشاب والأشجار التي حولها حتى أصبح دخانها كالغيوم، ويبدو هنا أن الحرق كان له هدفان وهما، أولاً الحد من قدرة الصليبيين على بناء أي تحصينات دفاعية أو معدات عسكرية جديدة لمواجهة المسلمين، نظراً لفقدانهم الأخشاب اللازمة لذلك⁽¹⁾، وثانياً بثّ الخوف والذعر في صفوف الصليبيين الموجودين في المدينة عند رؤية تلك الحرائق والدخان المتصاعد منها، في وقت كان يراهن الصليبيون على قوة وتحصين المدينة وعدم قدرة المسلمين من مجرد الاقتراب منها، ويصف المقرئزي حال الصليبيين: " وكان قصده بذلك كشف مدينة عكا فإن الفرنج كانوا يزعمون أن أحداً لا يجسر أن يقرب منها فصاروا ينظرون من أبواب المدينة ولا يستطيعون حركة"⁽²⁾.

وفي عام (680هـ/1281م) انتصر المماليك على المغول بالقرب من حمص، وطاردوا فلولهم حتى نهر الفرات، حيث اختبأت هناك مجموعات من المغول الفارين بين الأحرش (الأزوار) على الفرات، فأمر المنصور قلاوون بحرق الأحرش فاحترق عدد كبير منهم ذلك اليوم⁽³⁾.

أثر حرق الجسور والأبواب والمسالك:

كان حرق الجسور أحد الطرق التي استخدمها المتحاربون في الحد من قدرة الطرف الآخر على الحركة وقطع طرق الإمدادات إليه، وهو ما حدث عندما حرق العباسيون جسري مدينة الفسطاط الشرقي والغربي عام (292هـ/905م) أثناء قضائهم على الدولة الطولونية، وكان له تأثير في سرعة القضاء على تلك الدولة وعودة مصر إلى الخلافة العباسية المباشرة⁽⁴⁾. كما أن حرق الأبواب كان من الطرق التي تتمكن بها الأطراف المتحاربة اقتحام المدن والحصون والقلاع، وهذا ما فعله سعد الدولة الحمداني عندما أراد اقتحام مدينة معرة النعمان، حيث قام بحرق باب حمص لدخول المدينة عام (365هـ/975م)⁽⁵⁾.

وشكل حرق المساكن والدور إحدى الطرق للضغط على الخصوم وإلحاق الهزيمة بهم، وهو ما قام به صلاح الدين الأيوبي عام (564هـ/1169م) عندما قضى على ثورة العبيد بحرق

(1) المقرئزي: السلوك، ج1، ص554؛ العيني: عقد الجمان، ص92.

(2) السلوك، ج1، ص554.

(3) المقرئزي: السلوك، ج2، ص148.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص136.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص99؛ أبو الفداء: البواقيت، ج1، ص30.

كل المساكن التي يتحصنون بها، وحرقت أحيائهم ومنازلهم؛ حيث حرق محلة السواند المعروفة بالمنصورة عند باب زويلة بالقاهرة، مما أدى لحرقت بيوتهم وأموالهم، فضغفت نفوسهم وانكسرت عزيمتهم وانهزموا رغم كثرتهم⁽¹⁾.

وفي عام (578هـ/1182م) قام عماد الدين الثاني حاكم حلب بتخريب القلاع والحصون المحيطة بحلب حتى لا يستفيد منها صلاح الدين، كما وقام بحرق جسر قلعة جعبر لكي يصعب عليه الوصول للقلعة⁽²⁾،

ولم يقتصر الهدف من حرق الأبواب على اقتحام المدن والحصون فقط، بل استخدم أيضاً لحرقت أبواب الدور والحوانيت، لنهب ما فيها، وهو ما قام به الخوارزمية عند مهاجمتهم القرى المحيطة بمدينة حلب عام (638هـ/1240م)⁽³⁾.

كما قام مماليك البحرية بحرق باب القراطين أحد أبواب القاهرة، أثناء فرارهم إلى بلاد الشام بعد مقتل أقطاي عام (652هـ/1254م)⁽⁴⁾.

وفي عام (663هـ/1265م) تمكن المسلمون بقيادة الظاهر بيبرس من تحرير مدينة قيسارية وقلعتها الحصينة، بعد أن حرقوا أبواب المدينة ثم حرقوا أبواب القلعة؛ مما مكنهم من دخول كليهما⁽⁵⁾، ومثلما فعلوا في قيسارية فإنهم تمكنوا من دخول حيفا في العام نفسه وحرقوا أبوابها⁽⁶⁾، ثم دخلوا مدينة أرسوف وحرقوا أبواب قلعتها، ويبدو أن حرق أبواب المدن والقلاع كان له أكبر الأثر في عدم تمكين الصليبيين من العودة مرة أخرى لتلك المدن⁽⁷⁾.

وقام المماليك الأشرفية أثناء ثورتهم عام (694هـ/1294م) بحرق باب السعادة أحد أبواب القاهرة، من أجل الدخول إلى القاهرة وإخراج بقية المماليك معهم، وأخذوا الكثير من السلاح والخيول وذهبوا إلى تحت القلعة؛ لمطالبة السلطان بقتل حسام الدين لاجين⁽⁸⁾، كما قام

(1) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 313.

(2) ابن العديم: زبدة الحلب، ج 1، ص 388.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 505.

(4) المقرئزي: السلوك، ج 1، ص 483.

(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 18؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص 336.

(6) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 20؛ العيني: عقد الجمان، ص 103.

(7) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 21.

(8) المقرئزي: السلوك، ج 2، ص 259؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 48.

مهنا بن عيسى أمير العرب بحرق باب قلعة حلب عام (712هـ/1313م)، من أجل دخولها واستخلاص مال الأمير قراسنقر الذي استجار به⁽¹⁾.

وعندما هاجم ملك قبرص الإسكندرية عام (767هـ/1365م)، احترقت أبواب المدينة وأبواب بعض المنشآت⁽²⁾، ومن الأبواب المحروقة أبواب البحر الأول والثاني وأبواب الباب الأخضر الثلاثة وباب الخوخة، وكان حرق الأبواب يقع من قبل أهل المدينة ومن الصليبيين معاً، حيث كان أهل المدينة يحرقون المصاريح الخشبية للأبواب لكي تظل أبواب المدينة مفتوحة فلا يستطيع الصليبيون التحصن بها، كما وتجدها النجدات المملوكية القادمة مفتوحة فتستطيع دخول المدينة⁽³⁾، كما أن الصليبيين حرقوا بعض الأبواب المغلقة بهدف اقتحام تلك الأماكن⁽⁴⁾، وهو ما كان له أثر في تحقيق كل طرف هدفها من حرق الأبواب؛ حيث استطاع الصليبيون نهب البيوت والحوانيت بعد حرق أبوابها، وحقق أهل الإسكندرية هدفهم من حرق باب رشيد وباب الزيايدي وهو عدم تحصن الصليبيين بالمدينة ومغادرتها بمجرد قدوم القوات المملوكية من القاهرة⁽⁵⁾.

وأثناء صراع بين الأمراء المماليك برقوق ومنطاش عام (791هـ/1389م)، قام المماليك التابعون لمنطاش بحرق باب قلعة حلب وجسرها من أجل التضييق على من في القلعة من أتباع برقوق والحد من قدرتهم على مغادرة القلعة؛ مما جعلهم محاصرين داخلها أكثر من أربعة شهور⁽⁶⁾، كما ثار مجموعة من المماليك على برقوق عام (794هـ/1392م) وتحصنوا بقلعة دمشق، لكن عساكر برقوق توجهوا إليهم وحاصروهم ثلاثة أيام، ثم أحرقوا باب القلعة، ودخلوا إلى القلعة فقبضوا عليهم وقتلوه⁽⁷⁾.

وخلال تمرد المماليك الجلبان على أبي الخير النحاس عام (854هـ/1450م)، حاولوا اقتحام داره فوجدوا الباب قد غلقه مماليكه وأعوانه، وقد وقفت مماليكه بأعلى بابه لمنع المماليك من الدخول فوقع بينهم قتال، ثم هجمت المماليك على بابه، وأطلقوا فيه النار واحترق الباب وما

(1) أبو الفداء: المختصر، ج2، ص5؛ النويري: نهاية، ج32، ص141.

(2) ابن كثير: البداية، ج14، ص314؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئ: السلوك، ج4، ص284.

(3) النويري الاسكندراني: الامام بالإعلام، ج1، ص93؛ سالم، السيد: تاريخ الإسكندرية، ص344.

(4) المقرئ: السلوك، ج5، ص111.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص114، 116.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص560؛ المقرئ: السلوك، ج5، ص292؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر،

ج3، ص19؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص12.

(7) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص569؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص108.

كان عليه من المباني، مما مكنهم من الدخول إلى الدار، وقاموا بنهب الكثير من الأقمشة والأمتعة والصيني والتحف والكثير غيره⁽¹⁾.

وخلال صراع بين السلطان الملك المنصور عثمان بن جقمق والأتابك إينال عام (857هـ/1453م)، قام مماليك إينال بحرق البيوت التي بجوار الميدان، وعلى أثر حرق تلك البيوت استطاعوا إيجاد طريق لسور الميدان فهدموه ودخلوا إلى الميدان الذي تحت قلعة الجبل، واستطاعوا هزيمة مماليك السلطان⁽²⁾.

حرق المدن والحصون والمعدات والأسلحة لكي لا يستفيد منها الخصوم:

كان لحرق المدن والحصون والمعدات والأسلحة أثر في عدم استفادة الخصوم منها، وهو ما حدث عدة مرات خلال فترة الدراسة، ومنها قيام منجوتكين بحرق الخزائن والأسواق⁽³⁾، والبيوت والحوانيت التي كان بناها عسكريه أثناء حصار حلب عام (385هـ/995م)، لكي لا يستفيد منها خصومه⁽⁴⁾.

وفي عام (447هـ/1055م) حرقت الحامية البيزنطية قلعة أفامية قبل رحيلها عنها، لكي لا يستفيد منها المستنصر الفاطمي عند الاستيلاء عليها⁽⁵⁾.

كما تمكن بعض حكام المسلمين من حرق بعض الحصون الجديدة التي أقامها الصليبيون في بلاد الشام، مما ساهم في إضعاف قوة الصليبيين في تلك المناطق، كقيام فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس بحرق الحصن الذي بناه الصليبيون بالقرب من طرابلس لمحاصرتها عام (497هـ/1104م)⁽⁶⁾، كما قام ظهير الدين أتابك في عام (498هـ/1105م) بحرق حصن رمنية⁽⁷⁾.

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص410.

(2) المصدر نفسه، ج16، ص49.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص456؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج4، ص120؛ المقرئ: اتعاض الحنفا، ج1، ص286.

(4) المقرئ: اتعاض الحنفا، ج1، ص286.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص230.

(6) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص87؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص95؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج34، ص73؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص364.

(7) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص89.

وعندما حاصر المسلمون حصن كفر طاب عام (509هـ/1115م)، قام الصليبيون المحاصرون بحرق الحصن وما به من أموال؛ خوفاً من أن يستغله المسلمون لصالحهم، خاصة بعد أن أيقنوا عدم قدرتهم على حماية الحصن⁽¹⁾.

كما قام بلدوين الأول بحرق مدينة الفرما وحرقت أبوابها أثناء دخوله مصر في عام (511هـ/1118م)⁽²⁾، مما أدى لتقليل قدرة الفاطميين على إرسال الإمدادات من مصر إلى مدن الساحل والتي مازالت في أيدي الفاطميين وهي عسقلان وصور، وما يدل على ذلك عدم وجود مواجهات ذات شأن بين الفاطميين والصليبيين بعد ذلك، بالإضافة إلى عدم قدرة الفاطميين على حماية مدينة صور من السقوط في يد الصليبيين عام (518هـ/1124م)⁽³⁾.

وعندما عاد الصليبيون مرة أخرى لاسترداد حصن كفر طاب من المسلمين وفي عام (513هـ/1119م) قام ابن منقذ بحرق حصنه في كفر طاب؛ خوفاً من استيلاء الصليبيين عليه⁽⁴⁾، كما قام المسلمون الموجودون بقلعة الأتارب بحرق خزائنها قبل الفرار منها واستيلاء الصليبيين عليها عام (532هـ/1138م)⁽⁵⁾.

كما قام الصليبيون بعد ذلك بحصار شيزر ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً، لكن صمود أهل المدينة، وقدم قوات سلاحقة الروم وقوات زكي لنجدة المدينة، أجبر الصليبيين على الانسحاب وحرقت آلات الحصار قبل رحيلهم⁽⁶⁾.

وتعرضت مدينة الفرما للحرق للمرة الثانية على يد الصليبيين عام (545هـ/1150م)، وفي هذه المرة أيضاً كان حرق المدينة له أثر في تعطيل الإمدادات الفاطمية لمدن الساحل الشامي، وكانت أحد أسباب سقوط مدينة عسقلان بعد ذلك⁽⁷⁾.

(1) ابن المنقذ: الاعتبار، ص73؛ ابن الأثير: الكامل، ج9، ص159.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص301.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص228-229؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص310، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص303.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص274.

(5) المصدر نفسه، ص317.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص316-318؛ للمزيد ينظر الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص86-87؛ الخطيب، إبراهيم: تاريخ الدولة الزنكية، ص57؛ نيكلسون، روبرت: تطور الدولات اللاتينية، ص122-123.

(7) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص201.

وأثناء غارات نور الدين على بعض الحصون الصليبية عام (562هـ/1166م)، علم الصليبيون بقدومه إلى حصن هونين فأحرقوه وانسحبوا منه، فوصل إليه نور الدين وخرّب سورته وعاد⁽¹⁾.

وعندما هاجم الصليبيون بقيادة عموري مصر عام (564هـ/1168م)، حرقوا مدينة بلبس بكل ما فيها من دور⁽²⁾، ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا لمهاجمة القاهرة وفتحها، فما كان من شاور إلا أن قام بحرق مدينة الفسطاط ونهبها قبل وصول الصليبيين؛ خوفاً من استيلائهم عليها وجعلها قاعدة لهم يغيرون منها على القاهرة، فاحترقت الفسطاط بكل ما فيها من دور وأسواق ومعالم عمرانية، كما احترق جامع عمرو بن العاص، والأسطول بدار الصناعة⁽³⁾، فأصبحت المدينة خراباً، وقد ظل أثر الخراب فيها لمدة طويلة حيث يصف ابن جبير حال المدينة عند زيارته لها بعد أربعة عشر عاماً من الحريق: " وبمدينة مصر آثار من الخرب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند اتساخ دولة العبيديين وذلك سنة أربع وستين وخمسة وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل"⁽⁴⁾.

وضمن استراتيجية صلاح الدين في إنهاك العدو بتدمير وتخريب المدن والحصون قام بحرق وتخريب مدينة بيسان في عام (579هـ/1183م) بعد أن فر منها أهلها وتركوا فيها الكثير من الأقمشة والغلال والأمتعة⁽⁵⁾، وفي العام التالي هاجم مدينة نابلس وما حولها من القرى والرساتيق وقام بحرق وتخريب تلك المناطق⁽⁶⁾.

وفي عام (583هـ/1187) هاجم منطقتي الكرك والشوبك لتأمين الطريق بين مصر والشام، فأحرق الضياع المحيطة بهما⁽⁷⁾، ثم توجه إلى طبرية ودخلها يوم الخميس (23 ربيع

(1) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص5؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص349؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص128؛ بعض المصادر المتأخرة ذكرت أن نور الدين هو من حرق الحصن. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج39، ص7؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص291.

(2) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص104.

(3) أبوشامة: الروضتين، ج2، ص106؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج3، ص297.

(4) ابن جبير: رحلة، ص54.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص61؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص184.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص127-128؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص67؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص204؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص197.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص146-147؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج41، ص17؛ الحريري، سيد: الأخبار السنية، ص193.

الآخر 583هـ / 2 يوليو (تموز) 1187م)، وأخذ ما فيها وأحرقها وأحرق ما تخلف مما لا يحمل، ولكنه لم يتمكن من دخول قلعتها⁽¹⁾.

واستمر صلاح الدين في حرق المدن والحصون الصليبية لجعلها خراباً ويصعب على الصليبيين العودة إليها، فقام عام (584هـ/1188) بفتح طرطوس وحرق جميع دور ومساكن المدينة⁽²⁾، ثم فتح قلعة برزية وهي من أحصن القلاع، وأحرق بعض البيوت بها⁽³⁾.

كما قام عام (587هـ/1191م) بحرق وهدم وتخريب مدينة عسقلان بكل ما تحتويه من بيوت وأبراج منيعة وأسوار، واستمرت النار مشتعلة في أرجاء المدينة أكثر من عشرة أيام حتى اطمئن لتدمير المدينة بالكامل، خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة وبأخذ بها القدس وتقطع بها طريق مصر⁽⁴⁾، ثم سار إلى الرملة وأشرف عليها وأمر أيضاً بإحراقها وإخراب قلعتها فأحرقت وأخربت قلعتها خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها⁽⁵⁾.

وفي عام (614هـ/1217م) أغار الصليبيون على بيسان وكان فيها العادل، فانسحب منها وحرقها⁽⁶⁾، ثم أغاروا على المناطق ما بين بيسان وبانياس ونهبوا وقتلوا وأحرقوا الكثير⁽⁷⁾، كما قاموا بحرق خيامهم وأثقالهم ومجانيقهم أثناء انسحابهم إلى دمياط عام (618هـ/1221م)، لكي لا تقع في أيدي المسلمين، ولكن قد يكون هذا الإجراء قد عاد على الصليبيين بالضرر أكثر مما عاد بالنفع، لأن إشعال النيران في المعسكر الصليبي قد أعلن للمسلمين بصورة غير

(1) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص281؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص194؛ غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية، ص36.

(2) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص75؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص16-17؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص189؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص456-457؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص221؛ شاندور، البير: صلاح الدين، ص246.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص172-173؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص366.

(4) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص187-188؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص277-280؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص197-198؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج3، ص460-461؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص260.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص189؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص281؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص47.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج44، ص17؛ الذهبي: العبر، ج5، ص48.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص374؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج44، ص18؛ المقرئ: السلوك، ج1،

مباشرة عن انسحاب القوات الصليبية وتراجعها إلى دمياط، فتمكن المسلمون من تعقبهم وإلحاق أكبر قدر من الخسائر بهم أثناء الانسحاب⁽¹⁾.

وأثناء الصراع بين الملك الصالح نجم الدين والملك الناصر داود عام (644هـ/1246م)، قام الملك الصالح بحرق مدينة السلط وهي للناصر، مما ساهم في إضعاف الناصر حتى طلب الأمان⁽²⁾.

وعندما هاجم الصليبيون مدينة دمياط في عام (647هـ/1249م) فر العسكر والأهالي من المدينة خوفاً من الصليبيين، وقاموا بحرق أبواب المدينة⁽³⁾ والزرديخانه بما فيها من الأسلحة، لكي لا تقع في يد الصليبيين عند دخولهم المدينة⁽⁴⁾، واستولى الصليبيون على دمياط ثم توجهوا نحو القاهرة، لكن المسلمين استطاعوا هزيمتهم في الدلتا، مما دفعهم لحرق معسكرهم وأسواره الخشبية والانسحاب⁽⁵⁾.

وعندما هاجم المغول بلاد الشام عام (658هـ/1260م)، قاموا بحرق الذخائر والآلات الحربية في قلعة حلب⁽⁶⁾، كما أمر هولاء نائب حماة بحرق الزردخانه في قلعتها وتخريب سور المدينة ففعل⁽⁷⁾، وعندما وصلوا دمشق حرقوا أيضاً كل ما في قلعتها من الآلات والعدد⁽⁸⁾، وأثناء انسحابهم من بلاد الشام بعد الهزيمة في عين جالوت قاموا بحرق قلعة حلب بكل ما فيها من الدور والخزائن⁽⁹⁾.

وفي عام (663هـ/1265م) قام الظاهر بيبرس بحرق القرية الواقعة خارج أسوار حصن عثليت، لإلحاق أكبر قدر من الضرر بالحصن⁽¹⁰⁾، كما قام عام (664هـ/1266م) بهدم وحرق عدد من الحصون الصليبية في شمال بلاد الشام، ومنها قلعة الساب وهي قلعة حصينة شاهقة

(1) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص380؛ الذهبي: سير، ج22، ص235؛ عمران، محمود: الحملة، ص331.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص24؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص428.

(3) ابن الفوطي: الحوادث، ص188؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص45.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج47، ص42؛ المقرئ، السلوك، ج1، ص439.

(5) المقرئ، السلوك، ج1، ص451؛ عثمان، مرفت: التحصينات، ص372.

(6) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص12.

(7) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص199.

(8) اليونيني: ذيل، ج1، ص134؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص199؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص513.

(9) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص12.

(10) المقرئ: السلوك، ج2، ص20؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص97؛ أبو عون، عبد الرحيم:

اقتطاعية حيفا، ص151.

للدواية حيث حرقها بما فيها من الحواصل والذخائر⁽¹⁾، وفي عام (666هـ/1268م) تمكن من فتح شقيف أرنون، واستولى على القلعتين الموجدتين بها، لكن الصليبيين قاموا بحرق إحدى القلعتين قبل تسليمها⁽²⁾.

وقد ساهم حرق تلك الحصون والقلاع في إضعاف الصليبيين والحد من قدرتهم على مواجهة المسلمين، حتى استطاع الظاهر بيبرس تحقيق انجاز كبير بفتح مدينة أنطاكية إحدى أكبر الإمارات الصليبية وأقواها عام (666هـ/1268م)، وقام بحرق قلعتها وامتد الحريق ليغطي أغلب المدينة⁽³⁾.

وفي عام (669هـ/1271م) توصل بيبرس إلى هدنة مع الفرسان الاسبتارية تقضي بتسليم بعض الحصون له، وكان منها قرفيص التي أخلوها، وأحرقوا ما لم يمكن حمله⁽⁴⁾، واستمر المماليك من بعد بيبرس على نفس أسلوب حرق المدن والحصون من أجل إضعافهم، بالإضافة لتثيهم عن العودة مرة أخرى لتلك المدن واحتلالها، وهذا ما فعله الأشرف خليل بن قلاوون بمدينة عكا عام (690هـ/1291م) حيث قام بحرق وتدمير تحصينات المدينة وبعض معالمها، كي لا تبقى عكا محط أنظار الغرب والحصن الذي يحتمون فيه وموطئ القادم لهم للانطلاق نحو القدس⁽⁵⁾، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن الصليبيين أنفسهم عندما علموا بما حدث في عكا، أصابهم الرعب ورحلوا من بقية المدن الساحلية وحرقوا كل ما لم يستطيعوا حمله من الأموال والأمتعة والمحاصيل لكي لا تقع غنيمة في أيدي المسلمين⁽⁶⁾.

وفي عام (819هـ/1416م) تعرضت مدينة الرحبة بالشام، وقرية نستروة بمصر للحرق بهدف الانتقام والتخريب، فقد احترقت الرحبة على يد العريان بسبب اعتقال وقتل عدد من أفرادها⁽⁷⁾، واحترقت نستروة على يد القراصنة الكتيلان بهدف النهب والتخريب⁽⁸⁾.

(1) العيني: عقد الجمان، ص109؛ النويري: نهاية، ج30، ص185.

(2) اليونيني: ذيل، ج1، ص302؛ العيني: عقد الجمان، ص114.

(3) المقرئزي: السلوك، ج2، ص50؛ العيني: عقد الجمان، ص117؛ العبادي.

(4) العيني: عقد الجمان، ص127.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص44، 48؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص224؛ حسين، حمدي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص202-203؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص135-136.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص50، 52؛ الذهبي: العبر، ج5، ص365؛ الياضي: مرآة الجنان، ج4، ص209؛ نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين، ص138.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص416.

(8) المقرئزي: السلوك، ج6، ص410؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص210.

وخلال صراع المماليك مع قراييك صاحب آمد عام (832هـ/1429م) هاجم المماليك مدينة الرها وحرقوها بالكامل⁽¹⁾، مما كان له أثر في إضعاف قراييك على المدى البعيد، وقتله وتعليق رأسه على باب زويلة بعد ذلك⁽²⁾.

رابعاً: أثر الحرائق على الأوضاع العلمية.

تضررت الحياة العلمية في مصر وبلاد الشام نتيجة الحرائق تضرراً كبيراً، حيث احترقت الكثير من الكتب بكل ما تحتويه من معارف وعلوم، وذهب الكثير منها دون أن يكون له نسخ أخرى، مما أفقد الإنسانية تراثاً علمياً وأدبياً يصعب تعويضه، بالإضافة لحرق المنشآت التعليمية وما نتج عنه من تعطيل للعملية التعليمية.

تضرر المنشآت التعليمية:

تعرضت المنشآت التعليمية كغيرها من المنشآت للحرائق، وتعد المدارس والمساجد من أكثر تلك المنشآت عرضة للحريق، وكنا قد ذكرنا سابقاً ما لحق بالمساجد من حرق وخراب، وسنبين هنا الحرائق التي طالت المدارس التي هي أساس العملية التعليمية.

في عام (570هـ/1174م) احترقت مدرسة الكلاسة في دمشق، وهي ملاصقة للجامع الأموي من الجهة الشمالية⁽³⁾، وفي عام (575هـ/1179م) احترقت المدرسة الحلاوية بمدينة حلب على يد الإسماعيلية⁽⁴⁾.

وأثناء هجوم الملك الكامل صاحب مصر على دمشق وبها الناصر داود بن المعظم عيسى عام (626هـ/1229م)، حرق الناصر مدرسة أسد الدين؛ لأن جيش الكامل كان يتحصن بها⁽⁵⁾، وفي عام (637هـ/1239م) احترقت دار الحديث التي بجانب قلعة دمشق أثناء هجوم الصالح إسماعيل عليها⁽⁶⁾.

وعندما هاجم المغول بلاد الشام عام (658هـ/1260م)، احترقت المدرسة الحلاوية بمدينة حلب⁽⁷⁾، وفي هجوم آخر للمغول عام (679هـ/1280م) قاموا بحرق كل المدارس ذات

(1) المقرئ: السلوك، ج7، ص195؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص174؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص278.

(2) المقرئ: السلوك، ج7، ص302؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص70.

(3) بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص144.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج45، ص33.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص153-154.

(7) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص15.

المكانة بمدينة حلب⁽¹⁾، ولم تسلم مدارس دمشق من المغول فقد تعرض عدد كبير من مدارس المدينة للحرق خلال هجومهم على بلاد الشام في عام (699هـ/1299م)⁽²⁾، حيث احترقت المدرسة العادلية، ودار الحديث الأشرفية وما حولها من مدارس⁽³⁾، والمدرسة الصاحبية⁽⁴⁾، ودار الحديث النورية وما حولها، والمدرسة الدماغية، وعدد من المدارس بالصالحية⁽⁵⁾.

وخلال الفتنة الطائفية في مصر عام (721هـ/1321م)، استهدف النصارى عدداً من مدارس القاهرة بالحرق، حيث احترقت جدران بعض المدارس، كما ألقيت النار في المدرسة المنصورية، والمدرسة الكهارية⁽⁶⁾، وفي حادثة أخرى من النصارى عام (740هـ/1340م) قاموا بحرق أماكن عدة في دمشق، مما ألحق الضرر بعدة مدارس نتيجة الحريق، وكان منها احتراق جانب من المدرسة الأمينية بالمدينة⁽⁷⁾.

وأثناء هجمة القبارصة على مدينة الإسكندرية في عام (767هـ/1365م)، تضررت بعض المدارس من الحريق، وكان منها مدرسة ابن حباسة، ومدرسة الفخر القريبة من باب رشيد⁽⁸⁾.

وفي عام (778هـ/1376م) احترق حاصل مدرسة السلطان الواقع تحت القلعة بالقاهرة، وأصابها الكثير من الخراب⁽⁹⁾، وفي حريق كبير بدمشق عام (800هـ/1398م)، احترقت المدرسة الجوزية⁽¹⁰⁾، كما احترقت مرة أخرى في عام (820هـ/1417م)⁽¹¹⁾.

(1) اليونيني: ذيل، ج2، ص23-24؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص50؛ الياضي: مرآة الجنان، ج4، ص190؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص136.

(2) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص434؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص86؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص240؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص9؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص474؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص323-324.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص86؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص9؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص324.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص88.

(5) المقرئزي: السلوك، ج2، ص223-225.

(6) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186.

(8) المقرئزي: السلوك، ج5، ص114.

(9) المصدر نفسه، ج5، ص7.

(10) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج3، ص382.

(11) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص48؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص227.

وخلال تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان عام (903هـ/1497م)، احترق مكتب المدرسة المزلقية ومسجدها بدمشق⁽¹⁾.

تضرر الكتب والمكتبات:

لم يقتصر الحرق على الأماكن التعليمية، بل طال أيضاً الكتب والمكتبات، مما ضيع على الإنسانية بعض العلوم والمعارف الموجودة داخل تلك الكتب، فنجد أنه في عام (321هـ/933م) احترقت مجموعة كبيرة من كتب المازرائي عندما احترقت داره في الفسطاط⁽²⁾.

وخلال مدة عدم الاستقرار في عهد المستنصر عام (461هـ/1068م) تم نهب الكثير من الكتب من خزانة الكتب الفاطمية، حيث قام العبيد الموجودون مع ناصر الدولة بن حمدان بأخذ جلود الكتب وحرق أوراقها⁽³⁾.

وعندما استولى الصليبيون على القدس عام (492هـ/1098م) قاموا بحرق المصاحف والكتب الموجودة بالمدينة⁽⁴⁾.

ولعل أكبر فاجعة في حرق الكتب هي ما تعرضت لها مكتبة دار العلم بطرابلس، وذلك في عام (502هـ/1109م)، عندما دخل الصليبيون مدينة طرابلس بعد أن قاومت حصارهم سنوات، وقد اندفع الصليبيون في شوارع المدينة يقتلون وينهبون⁽⁵⁾، وعندما وصلوا إلى دار العلم، دخلها أحد القسس، وأخذ يطوف في أرجائها، فوجدها ملأى بالكتب، ويبدو أنه دخل القاعة المخصصة للمصاحف الشريفة، فأراد أن يتصفح أحدها، فوجده قرآناً كريماً، فألقى به أرضاً، وتناول نسخة ثانية فإذا بها قرآن كريم أيضاً، فألقى بها، وهكذا كلما التقط نسخة وجدها قرآناً كريماً، وظل يفعل الشيء نفسه حوالي عشرين مرة، فلما وجد أن جميع النسخ التي تصفحها كانت قرآناً كريماً، اعتقد بجهله أن المكتبة كلها لا تضم سوى المصاحف الشريفة أو التفاسير، ولذلك غضب وتأججت في نفسه روح الصليبية وحقدتها، وقال غضباً: « هذه مكتبة مملوءة بالمصاحف، أحرقوها»، وأشعلت النيران في دار العلم التي أتت على جميع ما احتوته هذه المكتبة الثمينة، حتى أصبحت أثراً بعد عين⁽⁶⁾.

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص 159.

(2) السمعاني: الأنساب، ج 5، ص 160.

(3) المقرئزي: المواعظ، ج 2، ص 291.

(4) المقرئزي: اتعاط الحنفا، ج 3، ص 23.

(5) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج 1، ص 81؛ النويري: نهاية، ج 31، ص 37.

(6) حمادة، محمد: المكتبات في الإسلام، ص 134؛ Lucien X. Polastron: Books on Fire, p66.

وهكذا ذهب التعصب والجهل والحقد الصليبي بثروة لن تعوض، حيث قدرت المصادر التاريخية أن عدد كتب المكتبة يتجاوز المائة ألف كتاب⁽¹⁾.

وقد شكك البعض في حادثة حرق دار العلم⁽²⁾، إلا أن بعض المؤرخين الأجانب قد أجمعوا على صحتها ولاسيما أنها صدرت عن شاهد عيان صليبي شاهد الحادثة ورواها⁽³⁾، بالإضافة إلى روايات المؤرخين المسلمين الذين ذكروا أعمال النهب والقتل والتخريب أثناء فتح طرابلس وشملت تلك الأعمال نهب ما بخزائن دار العلم من الكتب والدفاتر ما لا يحده عدده ولا يحصى⁽⁴⁾.

وفي عام (681هـ/1282م) احترق سوق الكتبيين بدمشق، واحترق في ذلك السوق آلاف الكتب، حيث احترق لتاجر واحد فقط خمسة عشر ألف مجلد، مما يوضح كمية الكتب الكبيرة التي ذهبت في هذا الحريق⁽⁵⁾.

كما تعرضت قلعة الجبل بالقاهرة لحريق كبير، احترقت فيه بعض الخزائن وكان فيها عدد كبير من الكتب⁽⁶⁾، ومن بينها كتب عظيمة من ذخائر الملوك التي تحتوي على العلوم الشريفة⁽⁷⁾.

(1) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص80؛ النويري: نهاية، ج31، ص36.

William Harris: Lebanon, p49.

بعض المراجع العربية والأجنبية وصلت بعدد الكتب إلى ثلاثة ملايين كتب، وهو عدد كبير ولم يثبت في المصادر الإسلامية؛ حمادة، محمد: المكتبات في الإسلام، ص134.

Lucien X. Polastron: Books on Fire, p66.

(2) حمادة، محمد: المكتبات في الإسلام، ص135.

(3) لم يتمكن من الحصول على المصدر لكن العديد من المراجع الاجنبية تؤكد حادثة الحرق المنقولة عن المصدر ومنه:

Lucien X. Polastron: Books on Fire, p66; Abubakr Asadulla: Islam Vs. West Fact Or Fiction, p97.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص98؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص300؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص44.

(5) المقرئزي: السلوك، ج2، ص163؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص370.

(6) المقرئزي: السلوك، ج2، ص233؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج8، ص33؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص314.

(7) العيني: عقد الجمان، ص234.

وكانت أكبر كارثة للحياة العلمية في بلاد الشام، عندما هاجم تيمورلنك بلاد الشام عام (803هـ/1400م)، حيث احترقت جميع مدارس دمشق ومساجدها⁽¹⁾، وأكثر مدارس حلب⁽²⁾، مما ترك أثراً بالغاً على الحياة العلمية في بلاد الشام لما تحتويه تلك الأماكن من الكتب القيمة، بالإضافة إلى أهميتها في تقديم الخدمة التعليمية، ولم يقتصر حرق الكتب على تلك الأماكن بل لحق الحرق كتب كثير من العلماء في دورهم، مما أضاع بعضها إلى الأبد، ومن تلك الكتب كتاب لشيخ الشافعية شهاب الدين أبو العباس اسمه (الدارس فن أخبار المدارس) وهو كتاب نفيس⁽³⁾، كما احترقت كتب ومصنفات لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان الصرخدي قبل تبييضها وضاع ما فيها من علوم⁽⁴⁾، واحترقت مصنفات مهمة في الفقه لشرف الدين أبو الروح عيسى بن عثمان بن عيسى الغزي ثم الدمشقي⁽⁵⁾، واحترقت أكثر كتب عماد الدين إسماعيل بن خليفة بن عبد العالي النابلسي⁽⁶⁾، كما لم يسلم العلماء أنفسهم من الحرق والتعذيب؛ حيث مات عدد منهم نتيجة الحروق أو التعذيب من جنود تيمورلنك⁽⁷⁾.

ومن أسباب حرق الكتب التعصب الفكري والمذهبي، وهو ما دفع البعض لحرق كتب المخالفين له في الرأي والفكر، وهو ما قام به تغرى برمش بن يوسف بن عبد الله التركماني زين الدين الحنفي؛ حيث كان يتعصب للحنفية ويحب أهل الحديث، ويكثر الحط على ابن العربي وغيره من متصوفي الفلاسفة، وبالغ في ذلك حتى صار يحرق ما يقدر عليه من كتب ابن العربي⁽⁸⁾.

خامساً: أثر الحرائق على الأوضاع النفسية والاجتماعية.

كما كان للحرائق تأثير على الممتلكات والمباني والمعدات والأموال، فقد كان لها أيضاً عظيم الأثر في نفسية الإنسان، وحياته الاجتماعية.

(1) المقرئزي: السلوك، ج6، ص54.

(2) ابن عريشاه: عجائب المقدور، ص49.

(3) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص107.

(4) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص168؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص325.

(5) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص206.

(6) ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص256.

(7) ابن فهد المكي: لحظ الألاحظ، ص188.

(8) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج7، ص394.

الآثار النفسية (الخوف والفرح):

من المشاعر التي تصيب الناس عند الحريق مشاعر الخوف، خوف الناس على أنفسهم وعلى ممتلكاتهم، وتلك المشاعر تزداد مع عمليات الحرق المفتعلة نتيجة الغزو الخارجي، أو الصراعات الداخلية في زمن الاضطراب وعدم الاستقرار.

وهو ما حدث مع أهل دمشق عام (363هـ/974م) عندما قام الجنود الفاطميون بحرق بيوت الأهالي في دمشق دون تمييز، مما أدى لخسائر في الأرواح والممتلكات، جعلت بقية السكان في حالة خوف وضجيج من حرق بيوتهم⁽¹⁾، وفي دمشق أيضاً كان حرق بلتكين عدداً من الدور في المدينة أثناء اقتحامها عام (373هـ/983م) له أكبر الأثر في خوف الناس وطلبهم من قسام أن يخرج الى بلتكين ويصلح الأمر معه ويطلب الأمان وهو ما فعله بعد ذلك⁽²⁾.

وفي حريق الفسطاط عام (411هـ/1021م) على يد الحاكم بأمر الله، اشتد خوف الناس بعد انتشار الحريق والنهب في المدينة " واجتمع الأشراف والشيوخ إلى الجامع ورفعوا المصاحف ، وعج الخلق بالبكاء والاستغاثة بالله"⁽³⁾.

لم يكن شعور الخوف فقط هو ما يسيطر على الناس عند الحريق، بل كان يطغى هنالك في بعض الأحيان شعور مختلف تماماً وهو شعور الفرح والسرور، وكان ذلك عند رؤية حرق معدات الأعداء سواء كانت تلك الحرائق لحرق معدات هجومية للأعداء أو عند رحيل الجيوش المتعادية، فقد كان من المعتاد حرق كل ما لا يستطيعون حمله من الأسلحة والمعدات وغيرها، وهو ما ذكره المؤرخون في مواضع عدة، ومنها فرحة أهل دمشق واستبشارهم عام (543هـ/1148م) عند رؤية الحرائق في معسكر الصليبيين، حيث كانت تدل على حرقهم أشيائهم قبل انسحابهم، مما يعني فك الحصار عن المدينة ودحر الصليبيين عنها⁽⁴⁾.

(1) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص5؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص345-346؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص212.

(2) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص16؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص394؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص68؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص257.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج28، ص238.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص181؛ أبو شامة: الروضتين، ج1، ص188.

كما كان لحرق أبراج الصليبيين أثناء حصار مدينة عكا عام (586هـ/1190م) الأثر الكبير في إدخال الفرغ والسرور لقلوب المسلمين لنجاة المدينة من هذه الأبراج الضخمة⁽¹⁾، ويصف ابن الأثير تلك الفرحة: " فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم فأحرقه وكذلك الثالث وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلص المسلمين من القتل"⁽²⁾.

وبعد خروج المغول من مدينة دمشق عام (699هـ/1299م)، وقد حرقوا الكثير من الدور والممتلكات في دمشق وما حولها، وعاد بعض الناس إلى منازلهم ووجدوها محروقة، امتزج لديهم إحساس الحزن والفرح معاً، فرح على سلامتهم من القتل من جهة، وحزن على ما احترق لهم وضاع من جهة أخرى⁽³⁾.

وأثناء انتشار الحرائق في مدينة القاهرة على يد النصارى عام (721هـ/1321م)، ونتيجة كثرة الحرائق وخروجها عن السيطرة، وعدم المقدرة على إطفائها لسرعة سريانها ووقوعها في أكثر من مكان، وقع الخوف والذعر بين الناس، "فخرج الناس وتعلقوا بالمآذن واجتمعوا في الجوامع والزوايا وضجوا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى ليرفع عنهم هذا البلاء"⁽⁴⁾.

وخلال تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان عام (903هـ/1497م) بمدينة دمشق، ساد شعور كبير بالخوف بين أهل دمشق، وذلك لانتشار أعمال الحرق والنهب في مناطق دمشق كافة، مما جعل الأهالي ينصبون المتاريس والحواجز بين الحارات لوقف أعمال الحرق والنهب، لكن الحرائق استمرت وزاد شعور الناس بالخوف من احتراق بيوتهم ونهب ما فيها⁽⁵⁾.

الآثار الاجتماعية:

من المنطقي عند نشوب الحرائق في مكان ما وخصوصاً المساكن، أن يهجر أصحاب المكان المكان حتى تتم إعادة بنائه، وهنا تكون الهجرة داخلية في نفس المدينة إذا كان الحريق محدوداً، أما إذا كان الحريق كبيراً وأدى لتدمير مدن بأكملها، فإن الهجرة هنا تكون لمدينة أخرى وربما لبلد آخر مما يؤدي لعملية تغير سكاني في كل من المنطقتين.

(1) ابن الأثير: الكامل، ص192-193؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص120؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص122؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص335.

(2) الكامل، ص193.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص90.

(4) المقرئ: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص65.

(5) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص156.

ولعل أول الحرائق الكبيرة التي أدت لهجرة واسعة، هو حرق مدينة القطائع عام (292هـ/905هـ) التي أحرقت عن آخرها ولم يبقَ منه سوى الجامع⁽¹⁾، ولم تقتصر الهجرة على مدينة القطائع فقط بل امتدت إلى الفسطاط أيضاً نتيجة أعمال القتل والنهب التي قام بها الجيش العباسي عند دخوله المدينة، ويبدو هنا أن الهجرة كانت إلى باقي المدن المصرية، حتى استقرار الأوضاع في الفسطاط، لكن القطائع قد أحرقت ولم يعد إليها أحد⁽²⁾.

كما تعرض سكان مدينة الفسطاط لهجرة كبيرة إلى جميع أنحاء مصر، بعد أن قام شاور بحرق المدينة بكاملها عام (564هـ/1168م)، حيث ذهب بعضهم بالمراكب إلى الإسكندرية ودمياط، والبعض الآخر ذهب إلى صعيد مصر⁽³⁾، والكثير إلى القاهرة، ويصف المقرئزي حال سكان الفسطاط " فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحرّمهم ... ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها، وملأوا جميع الشوارع والأزقة، وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم"⁽⁴⁾.

كما شهدت بلاد الشام هجرات كبيرة من بعض مدنها على أثر هجوم تيمورلنك عام (803هـ/1400م)، وقيامه بحرق مدن بأكملها، فعندما تعرضت مدينتا حلب وحماة إلى النهب والحرق والتخريب، نزح الكثير من سكانها إلى مدينة دمشق⁽⁵⁾، وعندما وصل تيمورلنك دمشق فر الكثير من سكانها إلى مصر خوفاً مما حدث من قتل وحرق وتخريب في مدينتي حلب وحماة⁽⁶⁾، حتى عندما عاد أهل دمشق إلى المدينة بعد خروج تيمورلنك، لم يستطيعوا الإقامة والبناء داخل أسوار المدينة بل استقروا خارج المدينة وبنوا وعمرها هناك؛ وذلك لصعوبة الحياة داخل المدينة المحترقة عن آخرها⁽⁷⁾، واستمر الحال كذلك أكثر من عام حتى تم إلزام الناس بالانتقال من خارج المدينة إلى داخلها⁽⁸⁾.

(1) الكندي: ولاية مصر، ج1، ص76؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص137؛ عزب، خالد: الفسطاط، ص42.

(2) الكندي: ولاية مصر، ج1، ص76؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3، ص137.

(3) النويري: نهاية، ج28، ص224.

(4) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص297.

(5) المقرئزي: السلوك، ج6، ص44؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص227.

(6) المقرئزي: السلوك، ج6، ص42، 44، 45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص236.

(7) المقرئزي: السلوك، ج6، ص75.

(8) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص5؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص161.

ومن الآثار الاجتماعية الأخرى تعرض مجموعة من الناس للعقوبة والتمييز نتيجة قيامهم بافتعال حرائق، وهو ما حدث مع النصارى في مصر بعد افتعال بعضهم لحرائق كبيرة في أنحاء القاهرة عام (721هـ/1321م)، حيث أصدر السلطان مجموعة من القرارات التأديبية بحق النصارى بعد قيامهم بالحرائق، وقد جاءت تلك القرارات بعد ضغوط شعبية كبيرة من سكان القاهرة، نتيجة العناء والخسائر الكبيرة التي تكبدوها جراء تلك الحرائق، حتى أنهم ثاروا في شوارع القاهرة، وحدث اضطراب كبير في المدينة مما دفع السلطان للقبض على الكثير من العامة الغاضبين، وعاقب الكثير منهم بالصلب وقطع الأيدي⁽¹⁾، وبالرغم من تلك العقوبات استمر غضب العامة على السلطان لعدم اتخاذه اجراءات عقابية تجاه النصارى، فاضطر السلطان تحت هذا الضغط وخوفاً من الفتنة النزول عند رأي العامة، وطلب من الحاجب أن ينادي بعقوباته ضد النصارى، وقد ذكرها المقرئزي وابن تغري بردي: " ونودي عقيب ذلك بالقاهرة ومصر من وجد من النصارى بعمامة بيضاء حل دمه، ومن وجد من النصارى راكباً باستواء حل دمه، وكتب مرسوم بلبس النصارى العمائم الزرق وألا يركبوا فرساً ولا بغلاً وأن يركبوا الحمير عرضاً ولا يدخلوا الحمام إلا بجرس في أعناقهم ولا يتزيوا بزى المسلمين هم ونسأؤهم وأولادهم، ورسم للأمرء بإخراج النصارى من دواوينهم ومن دواوين السلطان وكتب بذلك إلى سائر الأعمال وغلقت الكنائس والأديرة"، وبعد ذلك تجرأت العامة على النصارى حتى إذا وجدوهم ضربوهم وعروهم ثيابهم فلم يتجاسر نصراني على أن يخرج من بيته⁽²⁾.

كما تعرض النصارى للمزيد من العقوبات في مدينة دمشق عام (740هـ/1340هـ)، بعد قيامهم بحرق أماكن وأسواق عدة في المدينة بهدف وصول الحريق للجامع الأموي، فقام تتكز نائب السلطان في دمشق بعد التحري الدقيق والتحقيق، بالقبض على المتسببين بالحريق، وصادر من أموالهم ما قيمته مليون درهم، وعاقب بعضهم بالضرب والبعض الآخر بالصلب والقتل⁽³⁾.

ومن الحرائق التي تركت أثرها على المجتمع، تلك التي كانت تستهدف القضاء على مظاهر الفساد المتعددة لتخليص المجتمع من شرورها، ومنها حرق مجموعة من الأخصاص⁽⁴⁾

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص43؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص69.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص44؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص71.

(3) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص284؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص283؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص90.

(4) الأخصاص: جمع خُصّ، وهو بيت من شجر أو قصب، أو كوخ، أو بيت سقفه من خشب؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص652.

على النيل بمنطقة بولاق في عام (747هـ/1346م)، والتي كانت تمثل بؤراً للفساد، وتجمع البغايا والمسكرات⁽¹⁾، ولنفس السبب قام الأمير سونن عام (819هـ/1416م) بحرق الأخصاص التي على شاطئ النيل وطرد الناس ومنعهم من الاجتماع هناك⁽²⁾. ولم يقتصر الحرق فقط على أماكن الفساد للتخلص من مظاهر الفساد، بل امتد لحرق المواد المخدرة مثل الحشيش؛ حيث أمر السلطان الأشرف برسباي عام (831هـ/1428م) بحرق كميات كبيرة من الحشيش في القاهرة وجميع المدن المصرية وكان أكثره بدمياط⁽³⁾، كما أمر بمنع زراعته⁽⁴⁾، واستمرت عملية التخلص منه وحرقه في السنة التالية أيضاً⁽⁵⁾، وفي عام (910هـ/1505م) أمر السلطان الأشرف قانصوه الغوري بحرق أماكن الحشيش والبوزة بالقاهرة، بعد تفشي الأمراض في المدينة، فقام الوالي بحرق كل تلك الأماكن⁽⁶⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج4، ص26.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص413.

(3) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج8، ص139.

(4) المصدر نفسه، ج8، ص149.

(5) المقرئزي: السلوك، ج7، ص185.

(6) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص76.

الفصل الخامس
دور الدولة في مواجهة الحرائق
(254-923هـ/868-1517م)

أولاً: الإجراءات الوقائية ضد خطر الحريق.

ثانياً: مكافحة الحرائق.

ثالثاً: معالجة آثار الحرائق.

إن دراسة الحرائق الحاصلة في مصر وبلاد الشام خلال زمن الدراسة، تحمل العديد من المعلومات عن دور الدولة في مواجهة خطر الحريق، ذلك الدور الذي يأتي في ثلاث مراحل رئيسية.

المرحلة الأولى: هي ما قبل حدوث الحريق؛ حيث يكون دور الدولة فيها باتخاذ جميع الإجراءات الممكنة للوقاية من الحرائق.

المرحلة الثانية: فهي أثناء حدوث الحريق، ويتضح فيها دور الدولة في كيفية السيطرة على الحريق وإطفائه في أسرع وقت ممكن.

المرحلة الثالثة: والأخيرة فهي ما بعد حدوث الحريق، وهي المرحلة التي يتم فيها معالجة آثار الحريق من دمار وخراب، واتخاذ الإجراءات اللازمة لإعادة كل شيء كما كان قبل الحريق.

وبشكل عام فإن تحقيق تلك المراحل الثلاثة لم يكن وارداً في كل الحرائق المذكورة في الدراسة، ذلك أن هناك عوامل عدة تساعد على تحقيق تلك المراحل، وهي توفر الإمكانيات المناسبة في الدولة، ومدى توفر عامل الاستقرار وعدم وجود صراعات داخلية، كما أن قوة الدولة وقدرتها على السيطرة على جميع الإمكانيات البشرية والمادية تلعب دوراً مهماً في تحقيق تلك المراحل.

أولاً: الإجراءات الوقائية ضد خطر الحريق.

حدثت السنة النبوية المشرفة في مجموعة من الأحاديث على اتخاذ الإجراءات الوقائية ضد الحريق، ومنها: "عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال لا تتركوا النار في بيوتكم حين تتأمون"⁽¹⁾، و "عن أبي موسى رضي الله عنه قال احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل فحدث بشأنهم النبي ﷺ قال إن هذه النار إنما هي عدو لكم فإذا نمتم فأطفئوها عنكم"⁽²⁾، و "عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ خمروا الأنبياء وأجيبوا الأبواب وأطفئوا المصابيح فإن الفؤيسفة ريمًا جرت الفتيلة فأحرقت أهل البيت"⁽³⁾.

(1) البخاري: صحيح، حديث 5935، ج5، ص2319؛ مسلم: صحيح، حديث 2015، ج3، ص1596؛ أبو داود: سنن، حديث 5246، ج4، ص363؛ ابن ماجه: سنن، حديث 3769، ج2، ص1239؛ ابن حنبل: مسند، حديث 4515، ج2، ص7؛ أبو يعلى: مسند، حديث 5434، ج9، ص321؛ الحميدي: المسند، حديث 618، ج2، ص278؛ الترمذي: سنن، حديث 1813، ج4، ص264.

(2) البخاري: صحيح، حديث 5936، ج5، ص2319؛ مسلم: صحيح، حديث 2016، ج3، ص1596؛ أبو يعلى: مسند، حديث 7293، ج13، ص277؛ ابن حبان: صحيح، حديث 5520، ج12، ص328.

(3) البخاري: صحيح، حديث 5937، ج5، ص2320.

واقْتداءً بالرسول المعلم ﷺ عمل بعض الحكام والناس على الأخذ بالاحتياطات اللازمة ضد الحريق، وتعد هذه المرحلة هي أهم المراحل الثلاثة، ذلك أن تحقيق الإجراءات الوقائية ضد خطر الحريق، يجنبنا كل المخاطر والخسائر الحاصلة من الحريق، كما أن قدرة الدولة على تنفيذ تلك المرحلة، يعفيها من الخسائر في المرحلتين التاليتين.

توفير المياه:

تعد المياه هي مادة الإطفاء الأساسية في عملية إخماد الحريق، وقد أوضحت المصادر العديد من الأمثلة على حرص الدولة على توفير المياه بالقرب من بعض الأماكن المهمة والأماكن المهددة أكثر من غيرها بخطر الحريق، فنجد حرص الخلفاء والملوك على وضع فسقية⁽¹⁾ مملوءة بالماء في كل محلة من محلات قصورهم، وذلك خوفاً من حدوث حريق خاصة في الليل⁽²⁾.

وعندما انتشرت الحرائق في بعض أحياء القاهرة عام (663هـ/1264م)، وكان سبب تلك الحرائق مجهولاً في أول الأمر، مما أثار مخاوف الناس على أنفسهم وممتلكاتهم، قاموا بعمل إجراءات وقائية لتجنب حدوث الحريق، فقاموا بتوزيع دنان⁽³⁾ الماء في الشوارع والأزقة لسرعة أطفاء أي حريق يشتعل والسيطرة عليه مبكراً قبل أن ينتشر في أماكن أخرى⁽⁴⁾.

كما كان أنتشار الحرائق بشكل كبير في جميع أنحاء القاهرة على يد النصارى عام (721هـ/1321م)، سبباً في اتخاذ الدولة إجراءات وقائية لحماية باقي المناطق من الحريق، حيث نودي بأن يعمل بجانب كل حانوت بالقاهرة ومصر زير⁽⁵⁾ أو دن كبير ملآن ماءً وكذلك بسائر الحارات والأزقة⁽⁶⁾، مما أدى لارتفاع أسعارها لكثرة الطلب عليها، فبلغ ثمن كل دن من

(1) فسقية: الجمع فسقيات وفساقي، وهو حوض من الرخام ونحوه، مستدير غالباً، تتوسطه نافورة ماء، يوضع عادة في القصور والحدائق والبيادين؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1689.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص596؛ المقرئزي: المواعظ، ج2، ص252.

(3) دنان: المفرد دن، وهو برميل؛ وعاء ضخم للخمر والخل ونحوهما؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص774.

(4) اليونيني: ذيل، ج1، ص279.

(5) زير: هو جرة كبيرة واسعة الفم يوضع فيها الماء؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص1009.

(6) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

ثلاثة دراهم إلى خمسة وكل زير إلى ثمانية دراهم⁽¹⁾، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن عامة الناس اتخذوا أيضاً استعدادهم لحدوث أي حريق، فقاموا بادخار الأوعية المملوءة بالماء على أسطح الدور وغيرها، لسرعة إطفاء الحريق قبل انتشاره، خاصة وأن أغلب الحرائق كانت تبدأ من أسطح المنازل ثم تنزل للأسفل⁽²⁾.

وعندما انتشرت الحرائق في بعض مناطق القاهرة عام (751هـ/1350م)، نودي في الناس أن يحترسوا على مساكنهم، فقام جميع الناس من كل طبقات المجتمع، بتجهيز الأوعية المملوءة بالماء في المنازل، وصاروا يتناوبون السهر في الليل، حتى إذا اشتعلت النار استطاعوا تداركها وإطفاءها قبل استفحال أمرها فيصبح من الصعب السيطرة عليها⁽³⁾.

البناء بالحجر:

استخدم الحكام وغيرهم الحجارة في بناء المباني، لما تتميز به الحجارة بالصمود أمام الحرائق لمدة طويلة، وتمنع انتشارها إلى أماكن أخرى، وقد كان استخدام الحجارة يقتصر في بعض المباني على الجدران فقط، وتبنى السقوف وباقى المبنى من الأخشاب أو القصب⁽⁴⁾، وكان استخدام القصب في البناء منتشراً بشكل كبير في المدن⁽⁵⁾، مما كان يزيد من انتشار الحرائق لسرعة احتراقه وانتشار النار فيه⁽⁶⁾، ويزيد من مساحة المنطقة المحترقة، خاصة عندما تكون هناك رياح تساعد على نقل النار من مكان إلى آخر⁽⁷⁾.

لذلك نجد أن الناصر محمد بن قلاوون كان يقوم ببناء أغلب عمائرته بالحجارة خوفاً من الحريق، حيث قام بإنشاء الميدان تحت القلعة، وبنى بجانبه برجاً نقل إليه المماليك، وجدد عمارة الإيوان⁽⁸⁾ ثلاث مرات وحمل إليه الأعمدة الكبار من بلاد الصعيد فجاء من أعظم المباني المملوكية، ثم بنى بالقلعة أيضاً دوراً للأمراء الذين زوجهم لبناته، وأجرى إليها المياه وعمل بها

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص71.

(3) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص60.

(4) القصب: نبات مائي من الفصيلة النجيلية، ينمو حول الأنهار وقد يزرع، وساقه جوفاء تستعمل في صناعة الحواجز والسلال؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1818.

(5) التيفاشي: سرور النفس، ص188.

(6) النويري: نهاية، ج33، ص59.

(7) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64.

(8) الإيوان: دار شامخة مكشوفة الوجه معقودة السقف، ويقال للبنيان الرفيع العجيب الصنيعة، المتناهي الحصانة والوثاق؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص146.

الحمامات، وعمر جامع القلعة، والقاعات السبع التي تشرف على الميدان، كل ذلك بالحجارة لكي تقاوم الحريق ولا ينتشر فيها كما ينتشر في المباني الخشبية⁽¹⁾، ومن الجدير بالذكر أن البناء بالحجر جاء بعد أن تعرضت مدينة القاهرة لحريق كبير في عهده عام (721هـ/1320م)، حيث كان البناء بالخشب والقصب أحد أسباب سرعة انتقال النار في المباني⁽²⁾.

كما قام الشيخ محمد بن سلام بإعادة ترميم رباطها خارج أسوار مدينة الإسكندرية عام (771هـ/1369م) بعد أن تعرض للحرق على يد القبارصة في عام (767هـ/1365م)، حيث قام ببناء سقف الرباط بالحجارة بدلاً من الخشب حتى لا يتعرض للحرق مرة أخرى⁽³⁾. وفي كل من الحالتين السابقتين يظهر أن الناصر محمد بن قلاوون والشيخ محمد بن سلام قد قاما بالبناء بالحجر بعد أن تعرضت مباني لهما للحريق بسبب البناء بالخشب، فاستفادا من تلك الخبرة وأخذوا الاحتياطات اللازمة لعدم تكرار نشوب الحريق مرة أخرى.

فرض الأمن والنظام:

ذكرت المصادر عدداً من الإجراءات الأمنية التي تقوم بها الدولة من أجل الحد من وقوع الحريق، مثل الدوريات الشرطية على أبواب الأحياء والحارات، ومنع مبيت الغرباء في المدن، وتقييد حركة المشبوهين، وتزداد شدة تلك الإجراءات في الأوقات التي تكثر بها الحرائق، خاصة تلك الحرائق التي تنتشر في بعض الأماكن دون سبب معروف. فعندما كثر الحريق في القاهرة وما حولها عام (405هـ/1014م) دون معرفة أسباب الحريق، فرض على المدينة ما يشبه حظر التجوال، وأعلن بيان في الجوامع بجزر السفهاء عن بعض الأفعال، وأن يدخل الناس إلى دورهم من بعد صلاة العشاء، وأغلقت الحوانيت والطرق من بعد صلاة المغرب، وقد اتخذت كل تلك الإجراءات الأمنية من أجل الحد من الحرائق⁽⁴⁾. وفي حلب كان هناك جماعة من الناس مهمتهم حراسة الأسواق، ومنع أي شخص من افتعال الحرائق داخل الأسواق، كما كانوا يسهمون في إطفاء الحرائق في حالة وقوعها⁽⁵⁾.

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص313؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص179.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64.

(3) المقرئزي: السلوك، ج5، ص110.

(4) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص105.

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378.

كما أن صاحب العسس⁽¹⁾ المعروف باسم والي الطوف في العصر المملوكي، كان يجلس عند أحد أبواب القاهرة بعد صلاة العشاء في كل ليلة، وينصب أمامه مشعلاً يشعل النار طول الليل، وحوله عدد من المساعدين، وكثير من السقائين⁽²⁾ والنجارين والقصارين والهدادين بنوب مقررة لهم، خوفاً من أن يحدث بالقاهرة في الليل حريق فينتاركون أمره ويستطيعون إطفاءه بأسرع وقت⁽³⁾.

كما أن حالة الانتباه بين المسؤولين عن الأمن وعامة الناس كانت تزداد في الأوقات التي تنتشر فيها الحرائق المفتعلة، مما كان يؤدي للقبض على بعض المشتبه بهم في افتعال تلك الحرائق، ولا ينكر أحد أن زيادة الحس الأمني كان لها دور في توقف الحرائق المفتعلة أو الحد منها، ومن الأمثلة على ذلك القبض على عدد من المشتبه بهم في الحرائق التي وقعت في مدينة القاهرة عام (721هـ/1321م)⁽⁴⁾، حيث قبض على راهبين خرجا من المدرسة الكهارية بالقاهرة بعد ما قاموا بإشعال النار، ثم قبضت العامة على نصراني داخل باب جامع الظاهر بالحسينية ومعه كعكة خرق بها نפט وقطران وقد وضعها بجانب المنبر فلما فاح الدخان وأنكروه وجد النصراني وهو خارج والأثر في يديه⁽⁵⁾، كما تم القبض على ثلاثة نصارى ومعهم فتائل النפט، وقد كان للقبض على النصارى ومعرفة المتسببين بالحرائق دور كبير في توقفها⁽⁶⁾.

ومن الأعمال التي كانت ترافق بعض الحرائق أعمال النهب والسلب، حيث يستغل البعض انشغال الناس بالفرار من خطر الحريق، فيقومون بالسطو على الأماكن القريبة من الحريق، لذلك فإن الدولة عملت على حماية ممتلكات الناس من النهب في عدد من الحرائق، منها عام (751هـ/1350م) عندما وقع حريق كبير بالقاهرة واشتعلت النيران واشتد اللهب ورأها

(1) العسس: جند كانوا يطوفون في الليل يحرسون ويكشفون عن أهل الريبة؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص1498.

(2) السقائين: المفرد سقاء، وهو من حرفته حمل الماء إلى المنازل ونحوها، مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص1082.

(3) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص187.

(4) النويري: نهاية، ج33، ص14؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(5) النويري: نهاية، ج33، ص14؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67-68.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص70.

الأمرء بالقلعة، فركب الوزير منجك⁽¹⁾ والأمير ببيغا⁽²⁾ والأمير شيخو⁽³⁾ والأمير طاز⁽⁴⁾ والأمير قبلاى حاجب الحجاب وغيرهم من الأمرء بمماليكهم وأتوا إلى الحريق ونزلوا عن خيولهم ومنعوا العامة من النهب⁽⁵⁾.

ولما استمر الحريق أيام عدة وانتشار في أكثر من مكان، أمر الوزير منجك والي القاهرة الأمير علاء الدين علي بن الكوراني⁽⁶⁾، بالقبض على الحرافيش⁽⁷⁾ وتقييدهم وسجنهم، خوفاً من نهبهم الناس عند وقوع الحريق، فنتبعمهم وقبض عليهم في الليل من بيوتهم ومن الحوانيت، حتى خلت منهم السكك⁽⁸⁾، ومن الإجراءات الأمنية الوقائية التي اتخذت في هذا الحريق أيضاً، عدم السماح بإقامة الغرباء داخل القاهرة وتتبعهم وإحضارهم⁽⁹⁾. كذلك فإن من الإجراءات الأمنية التي قام بها والي القاهرة في العهد المملوكي أغلاق أبواب المدينة في أيام الفتن، وكان هذا الأمر له أثره في الحد من الصراعات داخل المدينة، وبالتالي تقليل فرص حدوث الحرائق التي تتزامن مع هذه الصراعات⁽¹⁰⁾.

(1) الوزير منجك: هو منجك بن عبد الله، سيف الدين اليوسفي الناصري: أمير كان في خدمة الناصر محمد بن قلاوون، واستقر حاجبا بدمشق، ثم ولي الوزارة بمصر عام 748هـ/1347م، وصرف عنها وأعيد إليها بعد أربعين يوماً، ثم قبض عليه وسجن بالإسكندرية عام 752هـ/1351م، وأفرج عنه عام 755هـ/1353م فسافر إلى صدف، ثم استقر في نيابة طرابلس، وولي حلب عام 759هـ/1357م، ومات في داره بمصر عام 776هـ/1375م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج6، ص123-125.

(2) ببيغا: هو ببيغا أروس الأمير سيف الدين نائب السلطنة بالديار المصرية، تولى النيابة بعد قتله المظفر حاجي عام 748هـ/1347م؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج10، ص222.

(3) شيخو: هو الأمير سيف الدين الناصري وكان مقدم عند السلطان الملك المظفر حاجي، وتولى نيابة طرابلس عام 751هـ/1351م؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج16، ص124-125.

(4) طاز: الأمير سيف الدين أمير مجلس اشتهر ذكره في أيام الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد ولم يزل أميراً إلى أن خلع الكامل بن شعبان وأقيم المظفر حاجي وكان أحد السنة الأمرء الذين لهم المشورة؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج16، ص124-125.

(5) المقرئزي: السلوك، ج4، ص118.

(6) علاء الدين علي بن الكوراني: تولى ولاية القاهرة عام 749هـ/1348م، واستمر بها حتى عام 764هـ/1363م؛ المقرئزي: السلوك، ج4، ص69، 268.

(7) الحرافيش: هم سفلة الناس وأرذلهم؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص477.

(8) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص60.

(9) المقرئزي: السلوك، ج4، ص119.

(10) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج2، ص3؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص176.

ولعل من أهم الوظائف التي تعمل على فرض النظام والأخلاق ومحاربة الغش والمنكر، هي وظيفة المحتسب الذي كانت توكل إليه الكثير من المهام التي يفرض من خلالها شروط الوقاية والسلامة في شوارع وطرق وأسواق المدن المصرية والشامية، والتي تعمل على الحد من الحرائق، ومن هذه المهام مراقبة الأسواق والطرق ومنع أي معيقات فيها قد تؤدي لعرقلة الحركة خاصة في أوقات وقوع الأخطار مثل الحرائق⁽¹⁾، كما كان يقوم بمراقبة أصحاب الحرف المختلفة وخاصة الحرف التي تشكل خطورة ويمكن أن تؤدي إلى حرائق مثل الخبازين والفرانين والشوائين والطباخين وغيرهم من الحرفيين الذين يستخدمون النار بشكل أساسي⁽²⁾، ومن مهامه أيضاً مراقبة أهل الذمة خشية اتصالهم بالمسيحيين الأوروبيين وافتعال الحرائق لا سيما في عهد المماليك⁽³⁾، لذلك كان المحتسب يحاول تطبيق النصوص والقوانين الخاصة بهم من الزامهم بزي معين وغيره من القوانين التي تمنع تناولهم على المسلمين⁽⁴⁾.

التحصينات العسكرية:

اهتمت الأطراف المتحاربة ببناء التحصينات العسكرية، التي تحميها من هجمات العدو، لما كان من الشائع في الحروب والمعارك استخدام المواد النارية الحارقة، فقد كان لتلك التحصينات العسكرية أهمية كبيرة في حماية الناس والمدن والحصون والقلاع والمعدات من خطر الحرائق، وسنغطي هنا نماذج لتلك التحصينات ونوضح دورها في الحد من الحرائق، بالإضافة إلى كيفية حماية التحصينات والمعدات نفسها من الحرق.

كانت الأسوار الخارجية المحيطة بالمدن هي خط الدفاع الأول عن المدينة من هجمات العدو التخريبية، ومن النيران التي تلقىها المعدات الهجومية للخصوم، فعند عدم وجود سور حول المدينة، أو يكون السور ضعيفاً لا يحمي المدينة يستطيع الخصوم دخول المدينة وحرقتها ونهبها، وهو ما حدث عام (351هـ/962م) عندما استغل البيزنطيون ضعف أسوار مدينة حلب، ودخلوا المدينة وحرقوا الكثير من مبانيها⁽⁵⁾، وكذلك فعلوا بأنطاكية عام (358هـ/969م) بسبب إهمال أهلها تقوية السور الخاص بالمدينة⁽⁶⁾.

(1) الشيزري: نهاية الرتبة، ص13؛ حلاق، حسان: الحضارة الإسلامية، ص71.

(2) الشيزري: نهاية الرتبة، ص21، 22، 24، 29، 33؛ حلاق، حسان: الحضارة الإسلامية، ص75.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقريزي: السلوك، ج3، ص282؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص88؛ حلاق، حسان: الحضارة الإسلامية، ص86.

(4) الشيزري: نهاية الرتبة، ص102.

(5) ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص140؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص81.

(6) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص94؛ أبو الفداء: اليواقيت، ص28.

كما أن عدم وجود أسوار حول المدن وما يحيط بها كان يسهل على الخصوم القيام بأعمال التخريب والحرق وهو ما حدث كثيراً في زمن الدراسة، وعلى سبيل المثال مدينة دمشق التي تعرضت لحصار وهجمات الصليبيين مراراً وتكراراً، إلا أنهم مع ذلك لم يستطيعوا دخولها والقيام بأعمال التخريب والحرق بها، لتحصن المدفاعين عنها داخل أسوار المدينة، وتمكنهم من صدهم من خلف تلك الأسوار⁽¹⁾، بينما على العكس من ذلك نجد أن المناطق المحيطة بدمشق قد تعرضت للكثير من أعمال الحرق والتخريب من الصليبيين وغيرهم لعدم وجود سور يحمي تلك المنطقة ويمكن المدفاعين عنها من التحصن خلفه⁽²⁾.

ولعل أبرز مثال على أهمية السور في حماية المدينة من الحريق، هو قيام شاور بحرق مدينة الفسطاط عام (564هـ/1168)، وعلى الرغم من أن الحرق هنا ليس من الخصوم، ولكنه من صاحب المدينة الذي كان يهدف من حرق المدينة إلى عدم تمكين الصليبيين من الاستفادة منها واتخاذها قاعدة لهم لشن الهجمات على القاهرة⁽³⁾.

وقد حاول شاور إقامة سور حول الفسطاط قبل حرق المدينة، واستعمل فيه الكثير من الناس "فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه"، وحفر من ورائه خندقاً، لكنه لم يستطع استكمال السور قبل وصول الصليبيين، فأمر بحرق الفسطاط⁽⁴⁾، لذلك عندما تولى صلاح الدين زمام الأمور بمصر، فطن لأهمية إقامة سور لحماية الفسطاط وكل ما حول القاهرة من الحرق والتخريب على يد الأعداء، فأمر الأمير بهاء الدين قراقوش⁽⁵⁾ ببناء سور عظيم يحيط بالفسطاط

(1) الصوري، وليم: تاريخ، ص127-130؛ ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص180-181؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج37، ص12-13؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص102، موسى، تيسير: غزوات الأفرنج، ص137.

(2) الصوري، وليم: تاريخ، ص235، 389؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص313-314؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص321-322؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص320؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج42، ص24؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص78.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص13؛ أبوشامة: الروضتين، ج2، ص105؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج3، ص297.

(4) المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج3، ص296.

(5) بهاء الدين قراقوش: هو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، كان خادماً لصلاح الدين وقيل خادماً لصلاح الدين شريكوه عم السلطان صلاح الدين فأعتقه، ولما أستقل صلاح الدين بالديار المصرية وولاه زمام القصر ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه وكان صاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالحيزة على طريق الأهرام، وتوفى بالقاهرة عام 597هـ/1201م؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص91-92.

والقاهرة⁽¹⁾، بلغ طوله تسعة وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة، ولم يزل العمل جارياً فيه إلى أن مات صلاح الدين⁽²⁾.

كما وأن ضعف الأسوار وعدم وجودها كان سبباً لدخول المدن وحرقها، ففوة الأسوار ومناعتها قد مكنت العديد من المدن من الصمود في وجه الصليبيين وصد هجماتهم لأقصى مدة ممكنة، ومن ذلك صمود مدينة طرابلس أمام حصار الصليبيين وهجماتهم سنوات عدة حتى سقطت عام (502هـ/1109م)⁽³⁾، وصمود مدينة صور حتى سقطت عام (518هـ/1124م)⁽⁴⁾، وكذلك صمود مدينة عسقلان نصف قرن من الزمان أمام هجماتهم المتكررة عليها، حتى سقطت عام (548هـ/1153م) بعد حصار دام أكثر من خمسة أشهر⁽⁵⁾. كما تعد القلاع هي الحصن الحصين داخل المدن، وآخر ملاذ لحماية المقاتلين وعامة الناس، بما تتميز به من قوة البناء وارتفاع الأسوار مما يجعلها صعبة المنال، فتعمل على حماية ما يوجد بداخلها من الممتلكات والأموال، فعندما اقتحم البيزنطيون مدينة حلب وحرقوها عام (351هـ/962م)، نجت القلعة وما فيها من الممتلكات والأموال من الحرق، لعدم قدرة البيزنطيين على اقتحامها⁽⁶⁾.

كما قامت قلعتا دمشق وحلب بدور مهم وكبير في صد العدوان المغولي على بلاد الشام، وبالرغم من سقوط كلتا القلعتين في هجوم المغول بقيادة هولاكو عام (658هـ/1260)، وتخريب وحرق ما بداخل قلعة حلب من الأموال والمسكن والذخائر والآلات الحربية، إلا أنها صمدت مدة طويلة بعد سقوط المدينة⁽⁷⁾، كما لم تستسلم قلعة دمشق إلا بعد زحف قوات ضخمة إليها وهدم بعض من حوائطها⁽⁸⁾.

(1) القزويني: آثار البلاد، ص94؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص15.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص15؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص341.

(3) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص81؛ النويري: نهاية، ج31، ص37.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص228-229؛ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص310، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص303.

(5) الصوري، وليم: تاريخ، ص171-172؛ الحريري، سيد: الأخبار السنوية، ص107-108.

(6) ابن الجوزي: المنتظم، ج14، ص141؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص274؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج26، ص7.

(7) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص12.

(8) اليونيني: ذيل، ج1، ص134؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص199؛ المقرئ: السلوك، ج1، ص513.

لكن صمود قلعة دمشق في وجه هجمات غازان وحصاره عام (699هـ/1299م)، نجاهها من الحرق والتخريب الذي تعرضت له المدينة في تلك الهجمة، حيث تحصن بها الأمير أرجواش⁽¹⁾ ومن معه، وصمدوا وصبروا على الحصار ولم يسلموا القلعة، بل عملوا على حماية القلعة من أي اختراق حتى سلمت من أيديهم وانسحب المغول من المدينة⁽²⁾.

ومن الأدوات التي كانت تستخدم في المعارك لحماية المعدات العسكرية من الحريق وغيره الستائر، وهي عبارة عن جدران من الخشب أو الحبال المجدولة، يحتمي وراءها المدافعون عن الحصن أو سورته، وتوضع هذه الجدران إما فوق الأسوار لمنع مقذوفات المنجنيق النارية من الوصول إلى داخل القلعة المحاصرة، أو أمام مرابض المنجنيقات لحمايتها من سهام النارية والقذائف الحجرية، وتغطي هذه الستائر بالجلود واللبود⁽³⁾ وتبلل بالخل والشب⁽⁴⁾ ومواد أخرى لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية والسفن من قذائف النفط⁽⁵⁾.

كما كان هناك نوع آخر من الستائر يستعمل لحماية الرجال الذين يقومون بجر المنجنيق، من حجارة ونيران المنجنيقات المقابلة، وكانت تلك الستائر تعمل على إبعاد تلك النار والحجارة عن الرجال، حيث كانت تصنع من خشب السنديان والصنوبر المصفح بالحديد ويتم تثبيتها بالمسامير، وتوضع عليه شبكة محشوة بالصوف أو التبن، ثم تغلف بغشاء من الجلد مدهون

(1) أرجواش: هو الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق، تولى نيابة قلعة دمشق في عهد المنصور قلاوون، ثم عزله الأشرف قلاوون، ثم عاد وولاه نيابة القلعة مرة أخرى عام 690هـ/1291م، وصان قلعة دمشق وقلاع الشام من المغول في هجمة غازان، وتوفى عام 701هـ/1302م؛ الصفدي: الوافي، ج8، ص220.

(2) أبو الفداء: المختصر، ج1، ص434؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج52، ص85-86؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص240؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص8-9؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص474؛ المقرئ: السلوك، ج2، ص323-324.

(3) اللبود: جمع لبد أو لبدة وهو كل شعر أو صوف يتلبد؛ الأزهرى: تهذيب اللغة، ج14، ص92.

(4) الشب: ملح معدني بلوري التركيب، حامض الطعم لونه أبيض، ومنه أزرق أو بنفسجي، يتكون من كبريتات الألمنيوم واليوتاسيوم يذوب في الماء، وينصهر بالحرارة، ويستعمل في الصباغة وحفظ الجلود؛ مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، ص1157.

(5) للمزيد انظر الطرسوسي: التبصرة، ص18-19؛ الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص178؛ أبو المعالي: مضمرة الحقائق، ص136؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص141؛ اليونيني: ذيل، ج2، ص95؛ النويري: نهاية، ج30، ص171؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص153؛ المقرئ: السلوك، ج6، ص244؛ عثمان، مرفت: التحصينات، ص378.

بالأدوية التي تمنع النار من الحريق ويسقى بها سقية جيدة كي لا يحترق بالنار، ثم توضع تلك الستائر في الأماكن التي يراد حمايتها⁽¹⁾.

كما كان يتم حماية المنجنوقات بالستائر لمنع وصول السهام والقذائف النارية لها، وقد استخدمها صلاح الدين في حصاره مدينة آمد عام (579هـ/1183م)⁽²⁾، واستخدمها أيضاً في حصار الكرك عام (580هـ/1184م)⁽³⁾، كما استخدمها الظاهر بيبرس في حصار صفد عام (664هـ/1265م)، عندما نقل المنجنوقات من دمشق وبانياس وعجلون ونصبها حول صفد ثم نصب الستائر⁽⁴⁾، وعندما حاصر السلطان سيف الدين قلاوون حصن المرقب⁽⁵⁾ عام (684هـ/1285م) قام عسكره بنصب المنجنوقات وعمل الستائر لها⁽⁶⁾، وفي عام (690هـ/1291م) قام الأشرف خليل بن قلاوون بنصب اثنين وتسعين منجنوقاً من الأنواع كافة مع الستائر حول مدينة عكا، استعداداً لاقتحامها وتحريرها من يد الصليبيين⁽⁷⁾.

ومن المعدات العسكرية التي كان يتم حمايتها من الحريق الأبراج الخشبية الهجومية، حيث تعددت طرق حمايتها من الحريق، فكانت توضع ستائر أمام الأبراج لتحميها من القذائف النارية⁽⁸⁾، أو يتم تكليف عدد من المقاتلين بالوقوف أعلى البرج وإطفاء أي نار تصل إلى البرج بالماء والخل⁽⁹⁾، أو عن طريق تحصين الأبراج نفسها بالحديد، وتغطيتها بالطين والجلد المشبع بالخل والأدوية التي تمنع النار⁽¹⁰⁾.

(1) الطرسوسي: التبصرة، ص19.

(2) أبو المعالي: مضممار الحقائق، ص136.

(3) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص205.

(4) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص87.

(5) حصن المرقب: هو حصن منيع يقع على جبل على ساحل البحر المتوسط في بلاد الشام، ويبعد عن طرسوس ثمانية أميال؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص644.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج 2 ص 644.

(6) اليونيني: ذيل، ج2، ص95.

(7) النويري: نهاية، ج31، ص125.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص152؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص48.

(9) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص109.

(10) ابن الأثير: الكامل، ص191؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص120؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص121؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص335.

فعدما حاول الصليبيون اقتحام مدينة صور عن طريق الأبراج عام (505هـ/1111م)، استخدموا الستائر لحماية الأبراج⁽¹⁾، كما قام عدد من المقاتلين بإطفاء أي حريق يشتعل في الأبراج⁽²⁾، لكن المسلمين استخدموا الحيلة، فشغلوا المكلفين بالإطفاء برميهم بالأوساخ، حتى تمكنوا من حرق الأبراج⁽³⁾.

كما صنع الصليبيون عام (585هـ/1189م) ثلاثة أبراج خشبية ضخمة، كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالمقاتلة، وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها، وكان لتلك الحماية دور كبير في صمود الأبراج في وجه ضربات المسلمين المستمرة عليها بالنفط والنار، حتى يأس المسلمون من النيل منها لقوة تحصينها وقدرتها على مكافحة النيران، لكن في نهاية الأمر استطاع شاب دمشقي من صنع خبطة حارقة قوية تمكنت من القضاء على تحصينات الأبراج وحرقتها⁽⁴⁾.

وعندما حاول الصليبيون اقتحام عكا عام (586هـ/1190)، صنعوا دبابة ضخمة، يدخل تحتها الجنود، ولها عجلات تتحرك بها، كما ألبسوها صفائح الحديد لوقايتها من النار، ومعها كبش ينطح به السور، وهذا الكبش مغلف بالحديد ثم بالنحاس حتى لا تصل إليه النار، ورغم ذلك استطاع المسلمون حرق الدبابة والكبش⁽⁵⁾، فقام الصليبيون بصناعة دبابة أكبر وأكثر تحصيناً لحمايتها من نيران المسلمين، تلك الدبابة مصنوعة من أربع طبقات من الخشب ثم الرصاص ثم الحديد ثم النحاس، فاستعصى حرقها على المسلمين، لكنهم استطاعوا ذلك بعد أن ظلوا يرمونها بالنار والنفط ليلاً نهاراً حتى احترقت⁽⁶⁾.

وبعد كل تلك المحاولات من الصليبيين في تحصين معداتهم الهجومية ضد الحرق، ونجاح المسلمين في التغلب عليها وحرق أبراجهم ودباباتهم، لجأ الصليبيون إلى فكرة جديدة يحمون بها أنفسهم ومعداتهم من نيران المسلمين، فقاموا بعمل تل من التراب مستطيل الشكل، يصفه ابو شامة: " أقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلاً من التراب مستطياً ورفعوه كثيراً مهياً ثم نقلوه

(1) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص48.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص48.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص144.

(4) ابن الأثير: الكامل، ص191-192؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص120؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص121؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص335.

(5) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص140-142؛ مجهول: ذيل، ص378؛ العلمي: الأئس الجليل، ج1، ص368.

(6) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص162؛ أبو شامة: الروضتين، ج4، ص256.

وحولوه وكانوا يقفون وراءه ويحولون إلى قدامه ترابه ويرفعون إلى قرب البلد رقابه فهم من خلفه من النكايات محجوبون يشبون ويذبون ويدبرون الحرب الزبون والتل المتحول إلى البلد قد أعيا على أهل الجلد لا تعمل فيه النار ولا يصل إلى دفعه الاقتدار حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم ورمي بكل جمر ورجم فما يزيد في كل يوم إلا قرباً" وهكذا فإن تلك الطريقة من التحصين كانت الأصعب على المسلمين، ولم يستطيعوا التغلب عليها، مما أدى لسقوط المدينة بعد ذلك⁽¹⁾.

بالإضافة إلى حماية المعدات التي تستخدم في البر، فقد كان يتم أيضاً حماية المراكب الحربية من الحريق، حيث كانت تستخدم لحرق تلك المراكب أنواع خاصة من النفط، يتم صنعها من مركبات عدة منها القطران والكبريت والشحم ويتم مزج تلك المكونات وغلبيها حتى تشتعل، ثم ترسل على الماء باتجاه المراكب فتمشي النار على الماء ولا تنطفئ حتى تصل المراكب وتحرقها بشكل كامل⁽²⁾.

ولوقاية تلك المراكب من الحريق فقد كان يتم تعليق الجلود واللبود المبللة بالخل والماء والشب والنطرون حول المركب لدفع أذى النفط، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالورق أو النطرون أو الخطمي⁽³⁾ المعجون بالخل نظراً لمقاومة هذه المواد لفعل النفط⁽⁴⁾.

كما لم يقتصر الأمر على حماية المعدات فقط فقد كان هناك من الملابس والمواد التي تحمي الفرسان والخيول من الحريق، حيث كان يتم تغطية جسم الخيل بالكامل بزيت مطلي بمواد ضد الحرق فلا تصله حرارة النيران، ويلبس الفارس درعاً وسروالاً وقلنسوة جميعهم من الخيش المبطن باللبود المشبع بمادة غير قابلة للاشتعال فلا تؤثر فيه النار، وكان يتم استخدام ذلك الزيت على الفارس والخيول في المعارك، حيث يدخل الفارس بفرسه داخل جموع الأعداء حاملاً النيران والنفوط المشتعلة ليضرم النيران في أمتعة وملابس الأعداء فيحرقهم ولا يتأثر هو، فيدب في قلوب الأعداء رعب ليس بعده رعب، ويزداد تأثير ذلك الأسلوب عندما يتم الاقتحام ليلاً⁽⁵⁾.

(1) الروضتين، ج4، ص251.

(2) الطرسوسي: التبصرة، ص19.

(3) الخطمي: نبات زهري من الفصيلة الخبازية، مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص667.

(4) بركات، وفيق: فن الحرب البحرية، ص143.

(5) الطرسوسي: التبصرة، ص22.

ثانياً: مكافحة الحرائق.

تأتي في المرحلة التالية للإجراءات الوقائية، مرحلة مكافحة الحريق أثناء حدوثه والقدرة على إطفائه، والسيطرة عليه قبل انتشاره في أماكن أخرى، وذلك عن طريق فئات متعددة من المجتمع، تقوم بتلك المهمة كل حسب طريقته وطبيعته عمله.

المشاركون في عمليات الإطفاء:

كانت المشاركة في عملية الإطفاء تأتي من رأس الدولة (الملوك والسلطين) إلى عامة الشعب، أما عن دور الملوك والسلطين فقد كانت مهمتهم تنحصر في إعطاء الأوامر إلى الوزراء والأمراء لمتابعة عمليات الإطفاء والمشاركة فيها، فوجد أحمد بن طولون عند دخوله مدينة دمشق عام (264هـ/877م)، يتابع الحريق الواقع عند كنيسة مريم، وما أحدثه من أضرار في الممتلكات، ويأمر بصرف تعويضات مباشرة للمتضررين⁽¹⁾.

وعندما حدث حريق كبير في القسطنطينية عام (334هـ/945م)، وانتشر بسرعة يحرق البيوت والأسواق، قام كافور الإخشيدي بتشجيع الناس على إطفاء الحريق، فأمر بإعطاء كل من يأتي بجرة ماء درهماً، فكان جملة ما صرف على الماء أربعة عشر ألف دينار⁽²⁾.

وكما فعل كافور فعل صلاح الدين عام (575هـ/1179م) أثناء حصاره حصن بيت الأحران ومحاولته اقتحامه، عندما شجع الناس على جلب المياه من أجل إطفاء النيران المشتعلة في نقوب سور حصن بيت الأحران، وأعطى ديناراً لكل من جاء بقربة⁽³⁾ ماء، وذلك لكي يستطيع توسيع وتعميق النقوب وحشوها بالأخشاب وإشعال النار فيها من جديد⁽⁴⁾.

واهتم الناصر محمد بن قلاوون اهتماماً شديداً بمتابعة مجريات الحرائق في القاهرة عام (721هـ/1321م)، وكان يصدر التعليمات والأوامر للأمراء لاتخاذ التدابير اللازمة لوقف تلك الحرائق، حيث أشد غضبه على العامة عندما علم بقيامهم بحرق عدد من الكنائس في أنحاء

(1) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص356؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج20، ص48؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11؛ ص46.

(2) ابن تغري بردي: مورد، ص201.

(3) قرية: هي وعاء من جلد يخرز من جانب واحد يستعمل لحفظ السوائل، مختار، أحمد وآخرون: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص1792.

(4) الأصفهاني: البرق الشامي، ج3، ص179؛ أبو المعالي: مضممار الحقائق، ص28؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص37.

مصر، وأمر بمعاينة كل من يقوم بمثل تلك الأعمال⁽¹⁾، وعندما أشعل النصارى النار في بعض أحياء القاهرة في العام نفسه، أمر الأمراء والمماليك بالنزول ومكافحة الحرائق المشتعلة، خاصة بعد أن صعد إلى أعلى القصر وهاله منظر الحرائق⁽²⁾، كما تابع التحقيقات الجارية بالبحث عن المتسببين بالحريق، وأمر بتطبيق عقوبات متعددة على من قاموا بتلك الحرائق⁽³⁾.
كما تابع السلطان الأشرف سيف الدين إينال العلاني أحداث حريق بولاق الكبير عام (862هـ/1458م)، ونزل بنفسه لمتابعة عمليات الإطفاء والسيطرة على الحريق، حيث وجد جميع الأمراء والمماليك في مكان الحريق⁽⁴⁾.

ثم يأتي دور الأمراء في مكافحة الحرائق، حيث كان لهم دور مهم ومؤثر، ومنهم أسد الدين شيركوه الذي قام بمجهودات كبيرة في إطفاء حريق بمدينة دمشق عام (559هـ/1164م)، لمنع وصول النار إلى الجامع الأموي⁽⁵⁾، كما ساهم أيضاً هو ومن معه عند دخولهم مصر عام (564هـ/1169م) في إطفاء الحرائق المشتعلة في الفسطاط بعد حرقها على يد شاور⁽⁶⁾.

وعندما احترقت أسواق حلب عام (575هـ/1179م)، نهض نائب رئيس البلد بمن معه، والجماعة المرتبون لحراسة الأسواق، وأخذوا السقائين ليطفئوا الحريق المشتعل في الأسواق⁽⁷⁾.

وكان دور الأمراء ملحوظاً بشكل كبير في العصر المملوكي، فبمجرد حدوث حريق في المدينة كان الأمراء ينزلون بمن معهم من المماليك وأصحاب المهن ويقومون بأعمال الإطفاء، وكلما زاد حجم الحريق زاد عدد الأمراء والمماليك الذين يعملون في الإطفاء، حتى إنه كان من الممكن استنفار كافة الأمراء والمماليك في الحرائق الكبرى⁽⁸⁾.

فعندما وقع حريق كبير بمدينة دمشق عام (681هـ/1282م)، وانتشر الحريق في الأسواق سارع نائب السلطان الأمير حسام الدين لاجين والوالي وعدد كبير من الأمراء والمماليك

(1) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص39؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64-65.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64.

(3) النويري: نهاية، ج33، ص15؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص42؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص122.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص248.

(6) النويري: نهاية، ج28، ص225.

(7) ابن العديم: زبدة الطلب، ج1، ص378.

(8) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64-66.

إلى النزول لمكان الحريق والقيام بعمليات الإطفاء والسيطرة على الحريق للحيلولة دون انتشارها في باقي الأسواق⁽¹⁾، مما دفع الناس إلى الدعاء لنائب السلطان على مجهوده في إخماد الحريق⁽²⁾.

وعندما وقع حريق القاهرة عام (721هـ/1321م)، كانت اسهامات الأمراء والمماليك هي الأكبر على الإطلاق، حيث اشترك في مكافحة تلك الحرائق كل الأمراء ومماليكهم، وكان ممن اشترك الأمير اقسنقر شاد العمائر حيث كان مسئولاً عن عمليات هدم وعزل الحريق، كما شارك نائب السلطان ومعه كل الأمراء في عمليات الإطفاء، ومنهم الأمير بكتمر⁽³⁾، وعمل أمراء الألو⁽⁴⁾ وعدتهم أربعة وعشرون أميراً بأنفسهم في طفي الحريق ومعهم سائر أمراء الطبلخانا⁽⁵⁾ والعشراوات⁽⁶⁾، ورؤي سائر الأمراء وهم يأخذون القرب من مماليكها وتطفئون النار بأنفسهم ويدسون الوحل بأخفافهم، وأشرف الأمير بكتمر والأمير أرغون⁽⁷⁾ النائب على نقل

(1) اليونيني، ذيل، ج2، ص60؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص7؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص300.

(2) اليونيني، ذيل، ج2، ص60.

(3) بكتمر: هو بكتمر المنصوري كان من أكابر الأمراء في دولة الناصر محمد بن قلاوون، وهو أول من تنقل من الجندية إلى الطبلخانا ثم عظم قدره إلى أن صار أمير سلاح، وفي عام 722هـ/1322م أمره أن يتوجه إلى صفد نائباً فتوقف وقال أريد أن أعرف ذنبي فغضب، وأمر باعتقاله فحبس بالإسكندرية ثم أفرج عنه وسجن بالقلعة ست سنين إلى أن مات في عام 728هـ/1328م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج2، ص16.

(4) أمراء الألو: هم أعلى طبقات الأمراء في الجيش المملوكي، وعادة ما يكون من بينهم أصحاب المناصب القيادية في الدولة، وعدة كل أمير منهم مائة فارس على الأقل، وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص14.

(5) أمراء الطبلخانا: هم الطبقة الثانية من الأمراء، ويقود كل منهم في الجيش أربعين فارساً، وقد زاد بعضهم على ذلك إلى سبعين وثمانين حسب إقطاعه، غير أنه لا يقل عن أربعين في أية حال، وليس لأمراء الطبلخانا عدد معين؛ إذ يجوز أن ينقص عددهم بتفريق إمرة الطبلخانا إلى إمري عشريين أو أربع عشرات، ومن أمراء الطبلخانا تكون الرتبة الثانية من أصحاب الوظائف في الدولة؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص15.

(6) أمراء العشراوات: هم الطبقة الثالثة من الأمراء، وهم أمراء العشرينات والعشرات، فنصيب كل منهم في الحروب عشرة فوارس أو عشرون فارساً، وهذه الطبقة لم يكن لها ضابط لعدد أمرائها، بل تزيد وتنقص شأنها في ذلك شأن طبقة إمرة طبلخانا، ومن هذه الطبقة يُعين صغار الولاة في الأقاليم والبلدان المختلفة؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص15.

(7) أرغون: هو أرغون الدوادر اشتره المنصور قلاوون ورباه مع ولده الناصر محمد ولم يزل معه في خدمته، حتى ولاه نيابة السلطنة بالديار المصرية عام 712هـ/1312م، فسار سيرة حسنة إلى الغاية وكان يخلص الناس من شدائد يريد الناصر أن ينزلها بهم، وخلف السلطان لما حج عام 719هـ/1319م، وفي عام 726هـ/

الحواصل السلطانية⁽¹⁾ من مكانها لكي لا يصلها الحريق⁽²⁾، كما قام عدد من الأمراء بمتابعة الكشف عن المتسببين بالحريق والقبض عليهم، ومنهم الأمير علم الدين سنجر الخازن⁽³⁾ والي القاهرة⁽⁴⁾.

وخلال حريق دمشق عام (740هـ/1340م) تمكن نائب السلطان تتكز ومعه عدد من أمراء الألوفا وبمشاركة الكثير من الناس بالسيطرة على الحريق ومنعه من الوصول إلى الجامع الأموي بعد أن أحرقت عدداً من الأسواق حول الجامع واحترقت أيضاً المنارة الشرقية بالجامع، إلا أن سرعة نزولهم لإطفاء الحريق نجت باقي الجامع من الحريق⁽⁵⁾.

وفي حريق القاهرة عام (751هـ/1350م) قام والي القاهرة الأمير علاء الدين علي بن الكوراني بالنزول إلى مكان الحريق والعمل على إطفائه، لكن الحريق كان كبيراً بسبب الهواء الشديد والدور المتلاصقة، مما استدعى نزول عدد كبير من الأمراء بمن معهم من المماليك في محاولة لإطفاء النار، واستمرت النار يومين وليلتين وجميع الأمراء وقوف حتى خف اللهب، فوكل بالحريق بعض الأمراء مع والي ومضى بقيتهم إلى بيوتهم، وبهم من التعب ما لا يوصف، كما تعب والي القاهرة في مدة الحريق تعباً شديداً جداً فقد أقام مدة شهر لا يكاد ينام بسبب كثرة الحرائق المنتشرة في أنحاء القاهرة، كما قام الأمراء بالقبض على الكثير من أوباش العامة وقيدوا ليقدموا المساعدة في عمليات الهدم والإطفاء⁽⁶⁾.

وعندما وقع حريق كبير في السوق الكبير بدمشق عام (752هـ/1351م) حضر نائب السلطان وأمر بطفي النار، فشرع الناس في إطفاء الحريق وكان معهم والي والقاضي الشافعي

1326م قبض عليه واعتقله ثم أخرجه لنيابة حلب، وكانت وفاته بحلب في عام 731هـ/1331م؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج1، ص417-418.

(1) الحواصل السلطانية: هي عبارة عن بيوت يتم فيها تخزين المتعلقات الخاصة بالسلطان مثل الملابس والمأكولات والمشروبات والمفروشات والأسلحة وغيرها الكثير؛ للمزيد عن محتويات الحواصل السلطانية القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص8-13.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64-65.

(3) علم الدين سنجر الخازن: سنجر السروري المعروف بالخازن الأشرفي كان من المماليك المنصورية فلم يزل يترقى إلى أن أصبح والي القاهرة عام 712هـ/1312م حتى عام 724هـ/1324م، ؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج2، ص319-320.

(4) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص283.

(6) المقرئزي: السلوك، ج4، ص118-119.

والحجاب⁽¹⁾، وفي حريق سوق القطنيين بدمشق عام (756هـ/1355م) ذهب إليه نائب السلطنة والحجاب والقضاة، واجتهد المتطوعون في إخماده وطفية حتى طفيت⁽²⁾.
وعندما وقع حريق بالدور السلطانية بالقلعة عام (769هـ/1368م) دخل إليه الأمراء وأخمدوه⁽³⁾، وعندما وقع حريق خارج باب زويلة بالقاهرة عام (780هـ/1378م) واحترق فيه الكثير من الأسواق ركب إليه الأمير بركة الجباني⁽⁴⁾ والأمير دمرداس الأحمدى والأمير تغرى برمش⁽⁵⁾ حاجب الحجاب والأمير أيتمش البجاسي⁽⁶⁾ وطفوه بأنفسهم ومماليكهم⁽⁷⁾، وفي حريق عدد من البيوت بالقرب من قنطرة الحاجب بالقاهرة عام (788هـ/1386م)، نزل إليه عدد من الأمراء وأطفأوه⁽⁸⁾.

وفي عام (800هـ/1398م) قام كل من الأمير يشبك الخازندار⁽⁹⁾ والأمير فارس حاجب الحجاب ومن معهم من المماليك بإطفاء الحريق الواقع بدار التفاح خارج باب زويلة

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص239.

(2) البداية والنهاية، ج14، ص253.

(3) المقرئزي: السلوك، ج4، ص317؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص75.

(4) بركة الجباني: من الأمراء الكبار، تولى أمير مجلس عام 779هـ/1377م، ثم أصبح ناظر الأوقاف الحكيمة، ودخل في صراع مع الأمير برقوق على السلطنة انتهت بحبسه ومقتله عام 782هـ/1380م؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص160، 165، 202.

(5) تغري برمش: أصبح حاجب الحجاب عام 779هـ/1378م، ثم تولى نيابة غزة؛ المقرئزي: السلوك، ج5، ص37، 52.

(6) أيتمش البجاسي: كان ممن قام مع برقوق في ابتداء أمرته، وصار عنده مقرباً، ثم كان هو مقدم العساكر التي جهزها برقوق لقتال يلبغا الناصري لما خرج عليه، وقرره أميراً كبيراً، ولما حضر السلطان برقوق الموت أوصاه على ولده؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج4، ص159.

(7) المقرئزي: السلوك، ج5، ص45؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج1، ص263؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص166.

(8) المقرئزي: السلوك، ج5، ص184.

(9) يشبك الخازندار: من كبار الأمراء في عهد السلطان فرج بن برقوق، وأصبح دواداراً عام 802هـ/1400م؛ المقرئزي: السلوك، ج6، ص27.

بالقاهرة⁽¹⁾، كما قام الأمير فارس حاجب الحجاب والأمير تمرغا المنجكي⁽²⁾ الحاجب بإطفاء حريق كبير خلف المدرسة الصالحية عام (801هـ/1398م)⁽³⁾.

وعندما احترق الجانب الغربي من سقف قبة الصخرة المشرفة عام (851هـ/1447م) اجتمع الناس لإطفاء الحريق وتمكنوا من ذلك⁽⁴⁾. وفي عام (854هـ/1450م) قام والي القاهرة وغيره من الناس بإطفاء النار المشتعلة في البيوت التي بجوار بيت أبي خير النحاس، فطفيت بعد جهد كبير⁽⁵⁾.

وفي حريق بولاق الكبير عام (862هـ/1458م)، انتشرت النار بشكل كبير تحرق في جميع الاتجاهات بسبب شدة الرياح، فقام حاجب الحجاب وغيره من الأمراء والأعيان والكثير من الناس بمجهودات كبيرة في الإطفاء والهدم من أجل إطفاء النار والسيطرة على الحريق، لكن الحريق ازداد وانتشر في أماكن أخرى كثيرة، فنزل جميع أمراء الدولة بمماليكهم وحواشيهم شيئاً بعد شيء والأمر لا يزداد إلا شدة إلى أن صار الذي حضر من الناس لأجل طفي النار كالمتفرج من عظم النار والعجز عن إخمادها، واستمر الأمراء والأعيان يشاهدون الحريق ويطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة، وأما الحريق العظيم فلا يستجري أحد أن يقربه لعظمه بل يشاهدونه من بعد، واستمر الحريق لليوم التالي والجميع يحاول إطفاءه، ولم ينجحوا في السيطرة عليه إلا بعد أن سكنت الرياح، فاجتهد الجميع في عمليات الإطفاء والهدم في النار الموجودة ببعض الأماكن⁽⁶⁾.

وعندما احترق الجامع الأموي عام (884هـ/1479م) حاول نائب السلطان والحاجب والأتابكي وسائر أركان الدولة والمعمارية قطع الحريق عن الجامع لكنهم لم يستطيعوا واحترقت أجزاء من الجامع والأسواق المحيطة به⁽⁷⁾، وفي عام (902هـ/1496م) حضر نائب السلطان بنفسه وقطع الحريق الواقع في حوانيت الأخصاصيين بدمشق⁽⁸⁾،

(1) المقرئزي: السلوك، ج5، ص416.

(2) تمرغا المنجكي: من كبار الأمراء في عهد السلطان فرج بن برقوق وأبنة، تولى عدة مناصب بمصر والشام، وأصبح من أمراء الألوفا في عام 798هـ/1396م؛ المقرئزي: السلوك، ج5، ص365، 386.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص429.

(4) العلئمي: الأئس اللئلل، ج2، ص97.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج15، ص410.

(6) المصدر نفسه، ج16، ص120-122.

(7) البصري: تاريخ، ص88.

(8) المصدر نفسه، ص196.

كما كان لأصحاب المهن دور مهم في إطفاء الكثير من الحرائق، ويأتي على رأسهم السقائين، الذين هم مصادر الماء مادة الإطفاء الأولى في أكثر الحرائق، حيث كانوا يجلبون المياه من الأنهار والخلجان إلى داخل المدن⁽¹⁾، وقد ذكرت المصادر جزءاً من مهامهم في العصر الفاطمي، عندما أمر الوزير المأمون بن البطائحي⁽²⁾ الولاة بمصر والقاهرة عام (517هـ/1123م) بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهاراً، كما ألزم بعضهم بالبقاء ليلاً عند باب المعونة مع بعض العمال بأدوات الهدم، ويبدو أن الهدف من استدعائهم في أي وقت بالإضافة لبقائهم مع العمال ليلاً من أجل أن يكونوا على استعداد تام للخروج لإطفاء أي حريق يقع بالقاهرة في أسرع وقت ممكن⁽³⁾. ولقد بلغ عددهم في مصر في العصر المملوكي اثني عشر ألف سقاء على حد قول ابن بطوطة⁽⁴⁾، وكانوا يحملون الماء على الجمال والبغال والحمير وعلى أكتافهم، ويحضرونه إلى ستين ألف دكان معدة للسقي بالقاهرة⁽⁵⁾.

وقد كان لهم دور مهم في توفير كميات كبيرة من المياه لإطفاء الحرائق المشتعلة في القاهرة عام (721هـ/1321م)، حيث قاموا بنقل المياه من المدارس والحمامات والآبار لأماكن الحرائق⁽⁶⁾، كما شارك جميع السقائين الموجودين في القاهرة بإطفاء الحرائق المشتعلة في أنحاء المدينة عام (751هـ/1350م) والتي استمرت أيام عدة، حيث قاموا بجلب الماء على الجمال من باب زويلة إلى منطقة البندقانيين مكان الحريق الكبير⁽⁷⁾.

وفي بلاد الشام فقد تواجد السقاؤون في دمشق، وكانوا يسقون بالجامع الأموي⁽⁸⁾، كما تواجدوا بمدينة حلب، وشاركوا في إطفاء حريق أسواق مدينة حلب عام (575هـ/1179م)⁽⁹⁾.

(1) الشيزري: نهاية الرتبة، ص117.

(2) المأمون بن البطائحي: وزير في العصر الفاطمي، بدء حياته فقيراً، حتى استعمله الأفضل أمير الجيوش، فتقدم عنده وتميز، حتى وصل إلى الوزارة، وتآمر على قتل الأمر الفاطمي، فقبض عليه الأمر وقتله عام 519هـ/1125م؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص553.

(3) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص100.

(4) تحفة النظر، ج1، ص53.

(5) البلوي: تاج المفرق، ص33.

(6) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص65.

(7) المقرئزي: السلوك، ج4، ص118.

(8) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج49، ص198.

(9) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص378؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص54.

ومن أصحاب المهن الأخرى الذين كان لهم دور مهم جداً في السيطرة على الحرائق، النجارون والقصارون والهدادون والحجارون والعمال، حيث ينحصر دورهم في القيام بأعمال الهدم لبعض المباني لقطع الطريق على الحريق ووقف انتشاره، وقد شارك عدد من النجارين والحجارين بأعمال الهدم لقطع الطريق على الحريق الكبير في دمشق عام (681هـ/1282م)، حيث نجحوا في السيطرة على الحريق ومنع انتشاره إلى أماكن أخرى⁽¹⁾.

كما شارك عدد كبير من البنائين والنجارين في هدم الكثير من الدور في مدينة القاهرة عام (721هـ/1321م)، بهدف السيطرة على الحريق، وقاموا أيضاً بهدم ستة عشر داراً لكي يتمكن الأمراء من نقل الحواصل السلطانية إلى مكان آمن بعيد عن الحريق⁽²⁾.

طرق الإطفاء:

تعددت طرق الإطفاء والسيطرة على الحريق، فمنها ما كان عن طريق غمر مكان الحريق بالماء، أو عن طريق محاصرة مكان الحريق بالهدم والتدمير لوقف انتشار الحريق إلى أماكن أخرى وعزله عن الوصول إليها، كما أن الأمطار ساهمت في بعض الأحيان في إطفاء بعض الحرائق.

ومن الواضح أن الإطفاء بالماء كان أفضل وسيلة لإخماد الحريق والسيطرة عليه في ذلك الوقت، ويبدو جلياً أنه استخدم في إطفاء أغلب الحرائق، لكن المصادر ذكرت بعض الحرائق التي وضحت فيها كيفية إطفاء الحريق بالماء، ومنها إطفاء حريق كبير بالفسطاط عام (334هـ/945م)، عن طريق جلب كميات كبيرة من الماء عن طريق الجرار واستخدامها في عملية الإطفاء⁽³⁾.

وعندما أشعل الصليبيون النار في الأحطاب التي وضعها المسلمون في الخندق عند أرسوف عام (587هـ/1190م)، قام المسلمون بقلب الماء عليه فطفئت، فعاد الصليبيون ووضعوا شحوماً على الأحطاب ثم أشعلوها، فاشتعلت بشكل كبير وحاول المسلمون إطفائها بالماء لكنهم لم يستطيعوا⁽⁴⁾.

كما تم استخدام المياه بشكل كبير في عمليات إطفاء حريق القاهرة عام (721هـ/1321م)، حتى أصبحت بعض المناطق أشبه بالبحر لكثرة المياه الموجودة بها،

(1) النويري: نهاية، ج31، ص59.

(2) المقرئ: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص64-65.

(3) ابن تغري بردي: مورد، ص201.

(4) النويري: نهاية، ج28، ص223.

ويعرفها المقرئزي "وتناولوا الماء بالقرب من السقائين بحيث صار من باب زويلة إلى حارة الروم بحراً"⁽¹⁾.

وفي عام (1350هـ/751م) تم جلب كميات كبيرة من المياه من ناحية باب زويلة لإطفاء الحريق داخل القاهرة⁽²⁾، ويصف ابن كثير طريقة إطفاء سوق القطنين بدمشق عام (1355هـ/756م) "وقد رأيت من الغد والنار كما هي عاملة والدخان صاعد والناس يطفونها بالماء الكثير الغمر والنار لا تخمد لكن هدمت الجدران وخربت المساكن وانتقل السكان"⁽³⁾.

كما أن في بعض الحرائق كان يتم خلط الماء بالخل للإطفاء، وذلك لعدم قدرة الماء على إطفاء النيران المشتعلة بسبب المواد النفطية، خاصة تلك التي تستخدم في المعارك والحروب، حيث استخدم الصليبيون تلك الطريقة لإطفاء الحريق المشتعل في أحد أبراجهم أثناء حصار مدينة صور عام (505هـ/1111م)⁽⁴⁾.

كما كان للأمطار دور في إطفاء بعض الحرائق، وذلك أنه عندما حرق المغول جامع حلب عام (658هـ/1260م)، كان نزول الأمطار بشكل كثيف سبباً في إطفاء الحريق المشتعل بالجامع⁽⁵⁾، كما أطفأت الأمطار الحرائق الهائلة في الجبال ما بين طرابلس وبيروت، والتي استمرت ثلاثة أيام عام (757هـ/1356م)⁽⁶⁾.

ومن الطرق المستخدمة للسيطرة على الحرائق عزل الأماكن المحترقة عن السليمة لكي لا يمتد الحريق إليها، وكانت تتم عملية العزل عن طريق هدم وتخريب بعض الدور والأماكن لكي تشكل سداً في وجه الحريق، ولا يجد ما يلتهمه فيتوقف، وقد استخدمت تلك الطريقة في عدد من الحرائق منها عام (681هـ/1282م) عندما تم السيطرة على حريق كبير بمدينة دمشق بهدم بعض الدور وقطع الطريق على النار⁽⁷⁾.

كما تعرضت العديد من الدور للهدم في حريق القاهرة عام (721هـ/1321م)، خشية من تعلق النار بها وسريانها في جميع دور القاهرة، فكان يتم هدم بعض الدور من أسفلها والنار

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص118.

(3) البداية والنهاية، ج14، ص253.

(4) ابن القلانسي: تاريخ، ج1، ص109.

(5) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص15.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص256؛ المقرئزي: السلوك، ج4، ص229.

(7) النويري: نهاية، ج31، ص59.

تحرقت في سقوفها⁽¹⁾، واستخدم هذا الأسلوب أيضاً في حريق القاهرة عام (751هـ/1350م)⁽²⁾، وحريق بولاق الكبير عام (862هـ/1458م)⁽³⁾.

التحقيق واكتشاف المتسببين بالحريق:

كما اهتم السلاطين والأمراء بالتحقيق في أسباب الحرائق، ومعرفة الحرائق الواقعة في مناطقهم، فوجد أن والي الشرطة يستعلم متجددات ولاياته عن أي حريق كبير عن طريق نوابه في الأحياء والحارات، ثم تكتب مع أمور الدولة الأخرى في كتاب جامع يدعى (ورقة الصباح) وتقدم إلى السلطان في القصر، فيأمر السلطان بأمره في هذا الشأن⁽⁴⁾.

فعندما انتشر حريق في بعض أحياء القاهرة عام (663هـ/1264م)، تم التوصل إلى أن النصارى واليهود هم سبب تلك الحرائق، فعلم الظاهر بيبيرس بذلك وأمر بجمع النصارى واليهود، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم، فجمع منهم الكثير في القلعة، وأحضرت الأحطاب والحلفاء، وأمر بإلقائهم في النار، فلانوا بعفوه وسألوا المن عليهم، فشفع فيهم بعض الأمراء، على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار، فأفرج عنهم السلطان، والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات، ولا يخرجوا عما هو مترتب على أهل الذمة وأطلقوا⁽⁵⁾.

كما كان للتحقيقات دور كبير في توقف الحرائق المفتعلة من النصارى عام (721هـ/1321م)، حيث لوحظ في البداية أن الحرائق مفتعلة لوجود فتائل نفطية في مكان الحريق، كما أن كل الحرائق كانت تبدأ من أعلى الدور حيث ترمى الفتائل على الأسطح⁽⁶⁾، بالإضافة للقبض على ثلاثة من النصارى وعلى أيديهم آثار المواد النفطية، حيث قام الأمراء بالتحقيق معهم بأمر من السلطان، فاعترف اثنان من المقبوض عليهم أنهم أحرقوا عدة أماكن، واعترفوا على عدد آخر معهم يقوم بأعمال الحرق داخل المدينة وفي الأرياف⁽⁷⁾، بينما أنكر

(1) المقرئزي: السلوك، ج3، ص40؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص65.

(2) المقرئزي: السلوك، ج4، ص118-119.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص122.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص61؛ المقرئزي: المواعظ، ج3، ص368.

(5) اليونيني: ذيل، ج1، ص279؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج49، ص17؛ ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص250؛ المقرئزي: السلوك، ج2، ص25.

(6) المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(7) النويري: نهاية، ج33، ص15؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص41؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68.

الثالث، فأمر السلطان أن يقوم بالتحقيق معه الأمير سيف الدين الدمر أمير جاندار⁽¹⁾، فاستخدم معه أسلوب التهديد والتخويف، حتى أقر واعترف على عدد من الرهبان وكبار النصارى الذين مولوا تلك الأعمال التخريبية بالمال اللازم⁽²⁾، فتم القبض على عدد كبير منهم ومعاقبتهم بعد التحقيق معهم واعترافهم بما هو منسوب إليهم من التهم⁽³⁾، حيث تم القبض على أربعة عشر راهباً بدير البغل، وعملت حفرة كبيرة بشارع الصليبية وأحرق فيها أربعة منهم⁽⁴⁾، واعترف بعض المقبوض عليهم على راهب بدير الخندق أنه كان ينفق المال في عمل النفط للحريق ومعه أربعة فأخذوا وسمروا⁽⁵⁾، وهكذا كان للتحقيقات دور مهم في معرفة المتسببين في الحوادث وتطبيق العقوبة المناسبة عليهم.

وخلال حريق الأسواق حول الجامع الأموي بدمشق عام (1340م/740هـ) تم القبض على أحد المشتبه بهم في افتعال الحريق، وبالتحقيق معه اعترف وأقر على جماعة من النصارى قامت بتمويل تلك الحرائق⁽⁶⁾، فتم القبض عليهم وبالتحقيق معهم بحضور القضاة ونائب السلطان تنكز، اعترفوا بمساعدتهم راهبين أحدهما اسمه ميلاني والآخر اسمه عازر قدما من القسطنطينية على القيام بافتعال حرائق بعدة أماكن بدمشق، وخاصة حول الجامع الأموي بهدف حرقه والإضرار به، فتم معاقبتهم بمصادرة أموالهم وتسمير أحد عشر رجلاً منهم وقتلهم⁽⁷⁾، وتظهر هنا أهمية السرعة في معرفة المتسببين في الحريق والقبض عليهم، مما أدى لتوقف الحرائق وحماية المناطق الأخرى في دمشق من الحريق.

(1) أمير جاندار: هو الذي يستأذن السلطان في دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الإيوان، ويشترك مع الدوادر في تقديم البريد، ويُساعده في عمله طائفة من البردارية والركابية والخازندارية، وهو الذي يُنفذ أوامر السلطان بشأن تعزير فرد من الأفراد أو قتله، ويُشرف بعد إشارة حاجب الحجاب كذلك على الزردخانة، وهو السجن الخاص بالأمراء الذين يغضب عليهم السلطان، ويطوف أمير جاندار بموكب السلطان عند سفره، فهو بمثابة رئيس أمن السلطان؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص20-21.

(2) النويري: نهاية، ج33، ص15.

(3) النويري: نهاية، ج33، ص15؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص262؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص42؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص67.

(4) المقرئزي: السلوك، ج3، ص42؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص68.

(5) المقرئزي: السلوك، ج3، ص45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج9، ص72.

(6) المقرئزي: السلوك، ج3، ص282.

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، ج14، ص186؛ المقرئزي: السلوك، ج3، ص283؛ البصروي: تاريخ، ج1، ص89.

ثالثاً: معالجة آثار الحرائق.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة معالجة الأضرار الناتجة عن تلك الحرائق، وهي مرحلة تعتمد على قدرة الدولة وإمكانياتها في تقديم التعويضات المناسبة للمتضررين، وإيجاد أماكن بديلة لهم حتى يتم إزالة الضرر وإعادة إعمار ما دمرته الحرائق.

التعويضات وتوفير أماكن مؤقتة للمتضررين :

تعد التعويضات المباشرة للمتضررين إحدى الطرائق التي قام بها الحكام لمعالجة آثار الحرائق، ليتمكن المتضررون من تعويض خسارتهم في الممتلكات الخاصة بهم، فعندما حدث حريق في دمشق عام (264هـ/877م)، أمر أحمد بن طولون بصرف تعويضات فورية للمتضررين، حيث قام بصرف سبعين ألف دينار من ماله لكل من احترق له شيء، فتم صرف الأموال وتبقى من المال أربعة عشر ألف دينار فرقت على فقراء المدينة⁽¹⁾.

كما أنه من الطبيعي أن ينتقل من حرقت منازلهم وحوانيتهم إلى أماكن أخرى مؤقتة لحين إعادة بناء تلك الأماكن، لكن المصادر لم تشر إلى ذلك الأمر إلا قليلاً، ومنها في عام (681هـ/1282م) عندما وقع حريق كبير بدمشق أحرق الكثير من الأسواق، فتم توزيع تلك الأسواق في أماكن بديلة لحين إعادة بناء ما حرق، الأمر الذي استغرق عامين حتى عاد أصحاب الحوانيت إلى أسواقهم، وقد تم نقل سوق تجار جيرون إلى باب دار الخشب، والزجاجيين إلى حمام الصحن، والذهبيين إلى أماكن أخرى إلى أن تكامل البنيان وعادوا⁽²⁾.

إعادة إعمار ما دمرته الحرائق:

اهتم الكثير من الحكام بإعادة إعمار ما دمرته الحرائق، خاصة عندما تتوفر في الدولة الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة لذلك، فجدد خمارويه بن أحمد بن طولون يوكل مهمة عمارة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط إلى أحمد بن محمد العجيفي، بعد احتراق جزء منه في عام (275هـ/888م)، فأعيد على ما كان عليه في العام نفسه، وأنفق فيه ستة آلاف وأربعمائة دينار، وكتب اسم خمارويه في دائر الرواق الذي عليه اللوح الأخضر⁽³⁾.

(1) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، ص356؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج20، ص48؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11؛ ص46.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص8.

(3) المقرئزي: المواعظ، ج4، ص12؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص296.

وبعد حرق جامع حلب على يد البيزنطيين عام (351هـ/962م)، قام سيف الدولة الحمداني بترميم بعض ما حرق، ثم استكمل قرغوية⁽¹⁾ مولى سيف الدولة ترميم باقي الجامع وأضاف إليه بعض الإنشاءات الجديدة في عام (354هـ/964م)⁽²⁾. وفي عام (362هـ/973م) أعيد بناء سوق القاهرة بعد أن تعرضت لحريق في العام نفسه⁽³⁾.

وقام العزيز الفاطمي بتجديد بناء الأسطول الفاطمي بمراكب وسفن كبيرة بعد احتراقه في عام (386هـ/996م)، حيث أصبح الأسطول جاهزاً لمهاجمة البيزنطيين، لكن العزيز توفي أثناء سيره إلى الشام في مدينة بلبيس⁽⁴⁾.

وعندما تعرض الجامع الأموي للحريق عام (461هـ/1069م)، احترقت كل محاسن الجامع والإبداعات الفنية الموجودة به، وصارت أرضه تراباً بعد أن كانت من الفسيفساء، واحتاجت إعادة ترميمه وإعمارهِ إلى زمن طويل، حتى شرع السلاجقة في ترميم أجزاء منه، ثم بلط في زمن العادل أبي بكر بن أيوب عام (610هـ/1213م)، ثم أعيد فتح المشاهد الأربعة في الجامع زمن نور الدين محمود⁽⁵⁾.

وفي عام (564هـ/1169م) قام نور الدين محمود بإعادة بناء جامع حلب بعد ما تعرض للحريق على يد الإسماعيلية، واجتهد في عمارته، وأحضر له أعمدة جديدة، وزاد في مساحته، فأصبح الجامع على أحسن ما يكون⁽⁶⁾، كما قام بإعادة بناء الأسواق المحروقة المجاورة للجامع، ورسم سور المدينة وزاد فيه⁽⁷⁾.

وبعد حريق الفسطاط على يد شاوور عام (564هـ/1169م)، تولى أسد الدين شيركوه الوزارة بعد مقتل شاوور، وذهب إلى الفسطاط ورأى ما نزل بها من خراب وحرق، والتقى أهلها

(1) قرغوية: غلام سيف الدولة الحمداني، تغلب على حلب بعد موت سيده سيف الدولة، وقام بقتل أبو فراس الحمداني عام 357هـ/968م؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج11، ص426.

(2) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص13.

(3) المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص139.

(4) المقرئزي: المواعظ، ج3، ص343.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص93، 98، 278؛ المكي: سمط النجوم، ج3، ص499.

(6) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص14.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص351.

وشكوا له فقر حالهم وخراب منازلهم، فشحجهم على العودة إلى منازلهم وإعادة بنائها، ووعدهم بالدعم والحماية⁽¹⁾.

كما شرع صلاح الدين منذ توليه الوزارة في محاولة تنشيط حركة العمران بالفسطاط، فجدد جامع عمرو بن العاص عام (568هـ/1172م)⁽²⁾، وأقام سوراً ليحيط بالفسطاط والقاهرة معاً، مما عاد بالإيجاب على زيادة العمران بالمدينة⁽³⁾، وهو ما لاحظته ابن جبير عند زيارة مصر عام (578هـ/1182م)، أي بعد الحريق الذي نشب فيها بأربعة عشر عاماً، حيث لاحظ وجود مبانٍ جديدة في الفسطاط مع بقاء أثر الحريق في بعض المناطق، ويصف ذلك بقوله: " وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند اتساخ دولة العبيديين وذلك سنة أربع وستين وخمسائة وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظم اختطاطها فيما سلف"⁽⁴⁾.

وفي عام (565هـ/1169م) قام نور الدين محمود بعمارة جامع داريا وجعله وسط البلد، بعد أن أحرقه الصليبيون زمن مجير الدين أبوق⁽⁵⁾، وقام صلاح الدين بتجديد بناء مدرسة الكلاسة المجاورة للجامع الأموي بدمشق، بعد تعرضها لحريق في عام (570هـ/1174م)⁽⁶⁾.

وقام الملك الظاهر غياث الدين غازي في عام (609هـ/1212م) بعمارة عدة أماكن بقلعة حلب بعد تعرضها للحرق في العام نفسه، حيث أعاد بناء الزردخاناه ومقام إبراهيم بالقلعة وجدد في القلعة وسماها دار الشخصوس لكثرة ما كان فيها من زخارف⁽⁷⁾.

وفي عام (652هـ/1254م) جدد مجاهد الدين محمد ابن الأمير غرس الدين قليج النوري جامع جراح بدمشق بعدما تعرض للحريق عام (642هـ/1244م) أيام الملك الصالح عماد الدين إسماعيل⁽⁸⁾.

(1) المقرئزي: اتعاض الحنفا، ج3، ص303.

(2) النويري: نهاية، ج28، ص225.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص15؛ ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص341.

(4) ابن جبير: رحلة، ص54.

(5) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص233؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص376.

(6) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص340؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص144.

(7) ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص450؛ عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص11.

(8) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص329؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص372.

وعندما احترقت المنارة الشرقية في الجامع الأموي بدمشق عام (646هـ/1248م) أمر الملك الصالح نجم الدين بإعادتها كما كانت⁽¹⁾، حيث ظلت خراباً ثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً حتى تمت عمارتها، وقد تولى ذلك الشهاب الرشيد الصالحي نائب المملكة⁽²⁾.

وخلال الهجمة المغولية على مدينة حلب عام (658هـ/1260م) احترق جزء من جامع حلب، وبعد خروجهم من المدينة تم عمارة بعض الحوائط والأسقف في الجامع من تبرعات أحد القائمين على أمر الجامع⁽³⁾.

وفي عام (681هـ/1282م) أشرف محيي الدين ابن النحاس ناظر الجامع بدمشق، على عمارة أسواق اللبادين، والكتبيين، والخواتميين، والزجاجيين، والأساكفة، والمرجانيين، وغيرها مما احترق في العام نفسه، وقد اهتم اهتماماً كبيراً بعمارة تلك الأسواق حتى عادت أحسن مما كانت عليه بعد عامين من الشروع في البناء⁽⁴⁾، كما تم تجديد قيسارييتين بدمشق بعد حريق سوق الفرييين في عام (728هـ/1328م)⁽⁵⁾.

وفي عام (730هـ/1329م) احترقت الكنيسة المعلقة بالقاهرة، فقام النصارى بعمارتها من جديد⁽⁶⁾ بعد أن أذن لهم القاضي جلال الدين القزويني قاضي الديار المصرية في الدولة الناصرية⁽⁷⁾.

وقام الناصر محمد بن قلاوون بعمارة مائتين وخمسين حانوتاً، كانت قد احترقت في حماة عام (735هـ/1335م)⁽⁸⁾.

وبعد ما تعرضت المنارة الشرقية في الجامع الأموي إلى أضرار جسيمة نتيجة احتراقها عام (740هـ/1340م)، شرع نائب السلطان بنقض المنارة وتجديد بنائها، فنقضت جدرانها الأربعة إلى حد أوتار الرواق القبلي، ونقض الجدار القبلي والجدار الشرقي إلى الأرض، وحفر ما بين الجدران في وسط المنارة عدة قامات، وبني ذلك لبنة واحدة، وبنيت المنارة بنيانا جليلاً لم

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج13؛ ص175؛ النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص313.

(2) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص313.

(3) عز الدين الحلبي: الأعلام الخطيرة، ج1، ص15.

(4) اليونيني، ذيل، ج2، ص60؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج51، ص8.

(5) الذهبي: من ذبول العبر، ص317.

(6) النويري: نهاية، ج33، ص233؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص136.

(7) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج9، ص136.

(8) ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص300.

بين من زمن الوليد أجل منه ولا أوثق"⁽¹⁾، كما قام نائب السلطان بإعادة إعمار الأسواق التي احترقت بجوار الجامع، وكان يتم الصرف على إعمار المنارة والأسواق من الأموال المصادرة من النصارى المتسببين في الحريق وكانت مليون درهم⁽²⁾.

وبعد هجوم القبارصة على الإسكندرية عام (767هـ/1365م) وحرقهم الكثير من الأماكن أصدر الأمير يلبغا أمراً إلى نائب الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرام بترميم وإصلاح ما احترق خلال الهجوم⁽³⁾، وصدر مرسوم بمسك النصارى في مصر والشام وأخذ ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية⁽⁴⁾.

وقام الناس بعمارة الأسواق والأماكن خارج باب زويلة بالقاهرة، وعادت كما كانت بعد أن ظلت خراباً لمدة عام من احتراقها في عام (780هـ/1378م)⁽⁵⁾.

وفي عام (792هـ/1390م) قام كمشبغا الحموي نائب حلب بترميم جسر قلعة حلب بعد احتراقه على يد مماليك منطاش عندما حاصروا القلعة في العام نفسه⁽⁶⁾، كما تم إعادة بناء بعض أجزاء الجامع الأموي بدمشق بعد حريقه في عام (794هـ/1392م)⁽⁷⁾.

بعدما تعرضت دمشق إلى الحريق في هجمة تيمورلنك على المدينة عام (803هـ/1400م)، احترقت أغلب المدينة وأصبحت خراباً، حتى أن سكانها لم يستطيعوا العيش بداخلها لكثرة الحرق والتدمير، وبنى الناس خارجها وسكنوا هناك وصاروا ينقلون ما عساه يوجد بالمدينة من الأحجار ونحوها ويعمرون خارج أسوار المدينة، حتى أصبحت دمشق من الداخل خالية⁽⁸⁾، واستولى كثير من الناس على الأوقاف خارج المدينة، فرفع الأمر للسلطان الذي أمر

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، ج1، ص63.

(2) المقرئزي: السلوك، ج3، ص283.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج5، ص518؛ المقرئزي: السلوك، ج4، ص284.

(4) وقد رفض ابن كثير ذلك القرار وقال لنائب السلطان بدمشق أن هذا لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز أخذ أموال النصارى بغير حق، وحاول النائب مراجعة السلطان، لكنه رفض وأخذ الأموال من النصارى؛ ابن كثير: البداية، ج14، ص315.

(5) المقرئزي: السلوك، ج5، ص45؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص166.

(6) المقرئزي: السلوك، ج5، ص292؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص12.

(7) البصري: تاريخ، ص91.

(8) المقرئزي: السلوك، ج6، ص75.

في عام (804هـ/1401م) بمنع البناء خارج المدينة، ومن بنى في الخارج سوف يخرب بناءه، فعاد الناس للبناء داخل المدينة⁽¹⁾.

وقد استمرت عمارة مدينة دمشق سنين عدة حتى عادت بعض معالم المدينة التي احترقت، حيث قام القاضي شمس الدين الأحنائي عام (804/1401م) بعمارة جسر الزلاوية، والسوق والحوانيت على جانبي الجسر، كما قام بعمارة القيسارية عند الجسر وسكنها التجار⁽²⁾، وقام الأمير شيخ نائب السلطان بالشام بعمارة دار السعادة، وأقام بها عام (805هـ/1402م)⁽³⁾، وفي العام نفسه تمت عمارة القاضي سعد الدين ابن غراب تحت قلعة دمشق وسكنها التجار⁽⁴⁾، وفي عام (806هـ/1403م) قام الأمير شاهين الشجاع بعمارة جامع التوبة⁽⁵⁾، وفي هذا العام أيضاً تمت عمارة أجزاء من الجامع الأموي واستمرت في العام الذي يليه⁽⁶⁾.

وعندما احترقت المدرسة الجوزية بدمشق عام (820هـ/1417م)، قام القاضي شمس الدين النابلسي بعمارتها⁽⁷⁾، ولما احترق الجانب الغربي من سقف قبة الصخرة المشرفة عام (851هـ/1447م) قام الظاهر جقمق بترميم القبة وعمر السقف بأحسن مما كان⁽⁸⁾.

وفي عام (887هـ/1482م) أمر السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي بعمارة المنارة الغربية بالجامع الأموي بدمشق من ماله الخاص⁽⁹⁾، كما تمت عمارة الصاغة الجديدة بجانب الجامع بعد أن تم حرقها في عام (884هـ/1479م)⁽¹⁰⁾، كما وتمت عمارة جامع الجوزة خارج باب الفراديس بدمشق على يد الحاجب الكبير الشرفي يونس بعد احتراق أجزاء منه في عام

(1) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج4، ص260؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج5، ص5؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص161.

(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج4، ص273.

(3) المقرئزي: السلوك، ج6، ص87؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج4، ص306.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج4، ص315.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص351.

(6) المصدر نفسه، ج4، ص359، 401.

(7) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص48؛ بدران، عبد القادر: منادمة الأطلال، ص227.

(8) العليمي: الأنس الجليل، ج2، ص97.

(9) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص48.

(10) المصدر نفسه، ص49.

(895/1489م)⁽¹⁾، وتمت عمارة سوق الرصيف بدمشق بعد احتراقه في عام (914هـ
/1508م)⁽²⁾.

وهكذا نلاحظ الدور الكبير الذي قام به الملوك والسلطين ومن بعدهم الأمراء والأعيان
في عمارة الأماكن المحترقة، مما ساهم في عودة الحياة الطبيعية لتلك الأماكن، والتي أثرت
بالتأكيد بشكل جيد على معيشة عامة الناس في مصر وبلاد الشام.

(1) ابن طولون: مفاكحة الخلان، ص99.

(2) المصدر نفسه، ص270.

الخاتمة

بتوفيق من الله عز وجل انتهت هذه الدراسة عن الحرائق في مصر وبلاد الشام (254- 923 هـ/868-1517 م)، بعد أن تمت دراسة وتحليل أربعمئة وأربعة وثلاثين (434) حريقاً مما ورد في المصادر التاريخية خلال زمن الدراسة، وقد وصل الباحث إلى عدد من النتائج خلال الدراسة أهمها:

- 1- اهتمام المؤرخين بذكر الحرائق التي وقعت في مصر وبلاد الشام، حيث ذكرت بين الأحداث السياسية التي تعج بها المصادر التاريخية، كما تم ذكرها كأحداث منفصلة إذا كان الحريق كبيراً وذوا تأثير، خاصة وأن العديد من المؤرخين كانوا شهود عيان على بعض الحرائق المذكورة في الدراسة.
- 2- حظيت بعض المدن باهتمام كبير من المؤرخين في ذكر الحرائق التي وقعت بها، فكانت مدينة دمشق (105 حريق) على رأس تلك المدن، ويرجع ذلك إلى تواجد الكثير من المؤرخين في مدينة دمشق على مدار زمن الدراسة، وما تتميز به المدينة من كونها أكبر المدن الشامية ومركزاً للحكام والأمراء، ثم تأتي مدينة القاهرة (79 حريق) بعد ذلك وقد كانت أيضاً مركزاً للحكم والقادة والأمراء في كل العصور التي شملتها الدراسة، بالإضافة لوجود عدد من المؤرخين المميزين بها، خاصة في العصر المملوكي ويأتي على رأسهم المقرئزي، ثم تأتي بعدها منزلة مدن أخرى مثل حلب والإسكندرية وغيرها.
- 3- كشفت الدراسة عن عدد كبير من الحرائق مجهولة السبب (91 حريق)، ذكرها المؤرخون ضمن سردهم الأحداث اليومية التي تقع في مجتمعاتهم، على الرغم من أن بعض هذه الحرائق ذكرها مؤرخون عاصروها وكانوا شهود عيان عليها، لكنهم لم يهتموا بذكر أسبابها.
- 4- أظهرت الدراسة أن أغلب الحرائق معروفة السبب كانت تتم بشكل متعمد (323 حريق)، أي إنها من صنع الإنسان نفسه، وما جاء نتيجة ظواهر طبيعية أو نتيجة الخطأ والإهمال كان قليلاً جداً.
- 5- رصدت الدراسة الكثير من الحرائق التي كانت بسبب الصراعات الداخلية؛ حيث شكلت الخلافات السياسية وما يعقبها من معارك وحروب سبباً لعدد كبير من الحرائق، كما كانت الفتن الطائفية سبباً في حرائق كبيرة ومدمرة، بالإضافة إلى أن انتشار الفوضى والفساد كان من الأسباب التي أدت إلى نشوب العديد من الحرائق.

- 6- أظهرت الدراسة أن الصراعات مع القوى الخارجية كانت سبباً في الكثير من الحرائق، ويأتي على رأس تلك الصراعات الصراع الإسلامي الصليبي الذي شهد عمليات حرق متبادلة بين الطرفين كان أكثرها يستهدف التحصينات والمعدات العسكرية، كما أظهرت همجية الهجمات المغولية وما أحدثته من حرائق مهولة التهمت مدناً بأكملها في بلاد الشام ، بالرغم من قلة الهجمات المغولية بالمقارنة مع الهجمات الصليبية.
- 7- سجلت الدراسة عدداً كبيراً من المعالم العمرانية التي تعرضت للتدمير أو الأضرار نتيجة الحرائق، وكان منها العديد من المساجد والكنائس التي يعود السبب في حرق الكثير منها إلى التعصب الديني، بالإضافة الي الكثير من البيوت السكانية والمرافق العامة التي تعرضت للتدمير نتيجة الحرائق المشتعلة في المدن.
- 8- كشفت الدراسة عن الخسائر الاقتصادية الضخمة نتيجة الحرائق، وتضرر القطاع الزراعي والصناعي والتجاري بشكل كبير ومؤثر، حيث تسببت تلك الخسائر الاقتصادية في غلاء الأسعار وزيادة معدلات الفقر عند الكثير من الناس نتيجة ضياع ممتلكاتهم وبضائعهم في الحريق.
- 9- أظهرت الدراسة دوراً كبيراً للحرائق في التأثير على العمليات العسكرية؛ حيث كان لها دور حاسم في بعض المواجهات العسكرية، من خلال حرق التحصينات الدفاعية او المعدات الهجومية للخصوم، كما تم استخدام حرق الأشجار والنباتات وسيلة لتحقيق أهداف عسكرية.
- 10- رصدت الدراسة حرق عدد كبير من المدارس والمكتبات والمنشآت التعليمية الأخرى، مما ترك تأثيراً ملحوظاً على العملية التعليمية، وأضر كثيراً بالتراث الفكري والعلمي.
- 11- أوضحت الدراسة دور الدولة في اتخاذ الإجراءات الوقائية ضد خطر الحريق، من حيث توفير المياه اللازمة لإطفاء الحرائق المفاجئة، واستخدام تقنيات جديدة في البناء تمنع انتقال الحريق، وفرض الأمن، واستخدام أساليب متعددة لحماية الأرواح والممتلكات والمعدات من المواد النارية المستخدمة في الحروب والمعارك.
- 12- أظهرت الدراسة دور الدولة المؤثر في عمليات مكافحة الحريق سواءً عن طريق القيام بعمليات الإطفاء أو الإجراءات الأمنية المتخذة وقت الحريق والتي تساعد في اكتشاف المتسببين بالحرائق، كما ساهمت الدولة في تعويض المتضررين، وتوفير أماكن مؤقتة لهم، وإعادة إعمار ما دمرته الحرائق.

وقد أوصت الدراسة:

بتعزيز دور مؤسسات الدولة المعنية بتوفير وسائل الوقاية والسلامة ضد الحريق، ومكافحة خطره عند حدوثه، ويأتي على رأس تلك المؤسسات جهاز الدفاع المدني المسئول الرئيسي عن توفير تلك الاحتياجات، خاصة في ظل ما تشاهده المنطقة من صراعات وحروب، وقطاع غزة على وجه الخصوص الذي شهد أكثر من حرب في أقل من عقد من الزمان، نتج عنه الكثير من الدمار والخراب والحرائق، حيث كان للدفاع المدني ومؤسسات الدولة الأخرى دور كبير في الحد من الخسائر في الأرواح والممتلكات، وحماية الجبهة الداخلية وتعزيز صمودها ضد العدوان الصهيوني العاشم.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر العربية.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت 668هـ/1269م):

1- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت 630هـ/1232م):

2- الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370هـ/980م):

3- تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م.

الأصفهاني، عماد الدين محمد (ت 597هـ/1201م):

4- البرق الشامي، تحقيق فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987م.

الأنطاكي، يحيى بن سعيد، (ت 458هـ/1066م):

5- تاريخ الانطاكي، من كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لابن البطريق، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، 1909م.

الإدريسي، محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت 560هـ/1165م):

6- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989م.

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت 930هـ/1524م):

7- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.

الإصطخري، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 346هـ/957هـ):

8- المسالك والممالك، دار صادر، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت 256هـ/870هـ):

9- الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م.

البصروي، علي بن يوسف بن أحمد (ت 905هـ/1500م):

10- تاريخ البصري، تحقيق أكرم حسن العلي، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1988م.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي (ت 779هـ/1377م):

11- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.

البكري، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبو عبيد (ت 487هـ/1094م):

12- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1983م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279هـ/892):

13- فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

البلوي، خالد بن عيسى (ت 765هـ/1364م):

14- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مكتبة المصطفى www.al-mostafa.com

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت 279هـ/892م):

15- الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت

التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي (ت 651هـ/1253م):

16- سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق إحسان عباس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت 874هـ/1469م):

17- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

18- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1997م.

ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبر الكناني الأندلسي (ت 614هـ/1217م):

19- رحلة ابن جبير، تحقيق وتقديم محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن جعفر، قدامة بن جعفر (ت 337هـ/948م):

20- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، ط1، دار الرشيد، العراق.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج (ت 597/1200م):

21- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، دار صادر، بيروت، 1939م.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت 354هـ/965م):

22- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ/1448م):

23- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق محمد عبد المعيد خان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م.

24- رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م.

25- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، ط2، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، 1972م.

26- نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 1989م.

27- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

الحميدي، عبدالله بن الزبير أبو بكر الحميدي (ت 219هـ/834م):

28- المسند ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية ، مكتبة المنتبي، بيروت، القاهرة.

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 866هـ/1462م):

29- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إ لافي بروفنصال، ط2، دار الجبل، بيروت، 1988م.

ابن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (ت 241هـ/855م):

30- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، (ت 280هـ/893م):

31- المسالك والممالك، دار صادر أفست ليدن، بيروت، 1889م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت 808هـ/1405م):

32- تاريخ ابن خلدون، ط5، دار القلم ، بيروت، 1984م.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت 681هـ/ 1281م):

33- وفيات الأعيان و انباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968م.

أبو داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (ت 275هـ/888م):

34- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ/1348م):

35- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

36- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م.

37- العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط2، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1948.

38- من ذبول العبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (ت بعد 666هـ/1268م):

39- مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995م.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت 1250هـ/1790م):

40- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت 771هـ/1370م):

41- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط2، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، 1992م.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ/1496م):

42- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي (ت 562هـ/1167م):

43- الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1998م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ/1505م):

44- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار احياء الكتب العربية، 1968م.

45- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا.

46- نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فيليب حتى، المكتبة العلمية، بيروت.

ابن شاعر الكتبي، محمد بن شاعر بن أحمد الكتبي (ت 764هـ / 1363م):

47- فوات الوفيات، تحقيق علي محمد بن يعوض الله، عادل أحمد عبد الموجود، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2000م.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ / 1267م):

48- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزبيق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.

أبو شجاع، ظهير الدين الروذراوري محمد بن الحسين بن محمد (ت 488هـ / 1095م):

49- ذيل تجارب الامم، تحقيق سيد كسرويه حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت 632هـ / 1235م):

50- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م.

الشيذري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيذري (ت 590هـ / 1194م):

51- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ / 1362م):

52- الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.

الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت 335هـ/947م):

53- أخبار الراضي بالله والمنقي لله، دار المسيرة للطباعة والنشر.

الطبري، ابي جعفر محمد بن جرير، (ت 310هـ/922م):

54- تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، ط1، 5 اجزاء، بيروت، 1987م.

الطرسوسي: مرضي بن علي بن مرضي (ت 589هـ/1193م):

55- تبصرة ارباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كلود كاهين، بيروت، 1948م.

ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت 953هـ/1546م):

56- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر (ت 692هـ/1293م):

57- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعربة القاهرة، تحقيق ايمن فؤاد السيد، ط1، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1996م.

ابن العبري، غريغوريوس بن اهرن الملطي (ت 685هـ/1286م):

58- تاريخ مختصر الدول، تحقيق خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، 1997م.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ/1262م):

59- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، 1988م.

60- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

ابن عذاري، محمد بن محمد (ت 695هـ/1295م):

61- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، إيفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد (ت 854هـ/1450م):

62- عجائب المقدور في أخبار تيمور، كلكتا، 1817م.

عز الدين الحلبي، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي الحلبي (ت 684هـ/1285م):

63- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1962م.

ابن عساكر، علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت 571هـ/1175م):

64- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، 1995م.

العظيمي، محمد بن علي (ت 556هـ/1161م):

65- تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق، 1964م.

العلمي، مجير الدين الحنبلي (ت 927هـ/1521م):

66- الأندلس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، 1999م.

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي (ت 1089هـ/1687م):

67- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، ط1، دار بن كثير، دمشق، 1986م.

ابن العميد، المكين جرجس (ت 672هـ/1273م):

68- أخبار الايوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

العيني، محمود بن أحمد بن موسى الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت 855هـ/1451م):

69- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، 1988م.

ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ/1004م):

70- معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الجبل، بيروت، 1999م.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت 732هـ/1331م):

71- المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

72- البواقيت والضرب في تاريخ حلب، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ/786م):

73- العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749هـ/1348م):

74- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ط1، دار الكتب العلمية، 2010م.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت 817هـ/1414م):

75- القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق الشيباني البغدادي (ت 723هـ/1192م):

76- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي النجم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

ابن فهد المكي، الحافظ أبو الفضل تقي الدين محمد بن محمد (ت 871هـ/1467م):

77- لحظ الألاحظ بذيل طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن قاضي شهبه، تقي الدين أبي بكر أحمد بن قاضي شهبه (ت 851هـ/1447م):

78- تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية والجفان والجابي للطباعة والنشر، دمشق، 1997م.

القرطبي، عريب بن سعد (980هـ/369م)

79- صلة تاريخ الطبري، المطبعة الحسينية، القاهرة.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت 682هـ/1283م):

80- آثار البلاد وأخبار العباد، تحقيق فاروق سعد، دار صادر، بيروت، 1974م.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن اسد (ت 555هـ/1160م):

81- تاريخ أبي يعلى، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

الفلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت 821هـ/1418م):

82- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1985م.

83- صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، تحقيق عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، 1981م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء (ت 774هـ/1372م):

84- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري (ت 355هـ/966م):

85- ولاية مصر، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتاب العلمية، بيروت.

ابن المأمون، جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي (ت 588هـ/1192):

86- نصوص من اخبار مصر، تحقيق ايمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة.

ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (ت 273هـ/886م):

87- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت 261هـ/875م):

88- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أبو المعالي، محمد بن تقي الدين الايوبي (ت 617هـ/1220م):

89- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق الدكتور حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة.

الهمداني، محمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمداني أبو الفضل (ت 521هـ/1127م):

90- تكملة تاريخ الطبري، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958م.

المقدسي، محمد بن أحمد المقدسي (ت 390هـ/1000م):

91- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (مختارات)، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1980م.

المقرئزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي العبيدي (ت 845هـ/1441م):

92- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

93- اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، ط2، وزارة الأوقاف، القاهرة، 1996م.

94- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب.

95- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

المكي، عبد الملك بن حسين الشافعي العاصمي المكي (ت 1111هـ/1699م):

96- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت 584هـ/1188م):

97- كتاب الاعتبار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (ت 711هـ/1311م):

98- لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.

99- مختصر تاريخ دمشق، دار الفكر، دمشق، 1984م.

ابن ناصر الدين، شمس الدين محمد بن عبد الله القيسي الدمشقي (ت 842هـ/1438م):

100- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.

النعيمة، عبد القادر بن محمد النعيمة الدمشقي (ت 978هـ/1570م):

101- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ/1333م):

102- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

النويري الاسكندراني، محمد بن قاسم بن محمد (ت 775هـ/1373م):

103- الامام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية، دائرة المعارف العثمانية، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر اباد، 1970م.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/1298م):

104- مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق جمال الدين الشيال و اخرون، مطبعة جامعة فؤاد الاول، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1977م.

الواقدي، أبو عبد الله بن عمر الواقدي (ت 207هـ/822م):

105- فتوح الشام، دار الجبل، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت 749هـ/1348م):

106- تاريخ ابن الوردي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.

اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (ت 768هـ/1367م):

107- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1993م.

ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت 626هـ/1229م):

108- معجم البلدان، دار الفكر، بيروت.

اليقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب (ت 292هـ/905م):

109- البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي:

110- مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1984م.

ابن يحيى، صالح بن يحيى:

111- تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1903م.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت 726هـ/1326م):

112- ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1992م.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

أتو أسقف فريزنغ:

1- المدينتان، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية لسهيل زكار)، ج28، ط1، دار الفكر، دمشق، 1997م.

توديبود، بطرس توديبود:

2- تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، ط1، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 1998م.

دي ميغانللي:

3- حياة تيمورلنك، ترجمة أحمد عبد الكريم سليمان، (منشور ضمن كتاب تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ط1، دار النهضة العربية، 1985م)

الرهاوي المجهول:

4- الحملتين الأولى والثانية (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية
لسهيل زكار)، ج5، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م.

ريموند أجيل:

5- تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب
الصليبية لسهيل زكار)، ج6، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م.

الشارتري، فوشية:

6- تاريخ الحملة الي القدس (1095-1127م)، ترجمة زياد العسلي، ط1، دار الشروق،
عمان، 1990م.

الصوري، وليم:

7- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، (منشور ضمن الموسوعة الشامية في
الحروب الصليبية لسهيل زكار)، ج7، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م.

الفيتري، يعقوب:

8- تاريخ بيت المقدس، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان،
1998م.

مجهول:

9- ذيل تاريخ وليم الصوري (1184-1197م) تحقيق مرغريت روث مورغان (منشور
ضمن الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية لسهيل زكار)، ج8، ط1، دار الفكر،
دمشق، 1993م.

مجهول:

10- يوميات صاحب أعمال الفرنجة (منشور ضمن الموسوعة الشامية في الحروب
الصليبية لسهيل زكار)، ج6، ط1، دار الفكر، دمشق، 1995م.

Albert d,Aix:

11- Historia Hierosolymitana, en: R. H. C. H. Occ., tome IV, paris, 1879

ثالثاً: المراجع العربية:

إبراهيم، محمود:

1- حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، ط1، دار البشير، عمان، 1987م.

إبراهيم، مصطفى وآخرون:

2- المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

الأنصاري، ناصر:

3- المجلد في تاريخ مصر (النظم السياسية والإدارية)، دار الشروق، القاهرة.

بدران، عبد القادر:

4- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير الشاويش، ط2، المكتب الإسلامي،

بيروت، 1985م.

بركات، وفيق:

5- فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب معهد التراث

العلمي العربي، حلب، 1995م.

حلاق، حسان:

6- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1999م.

جمعه، على:

7- المكايل والموازن الشرعية، ط2، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، 2001م.

الجندي، جمعة:

8- الاستيطان الصليبي في فلسطين 492-690هـ/1099-1291م، مكتبة الأنجلو المصرية، 2006م.

الجنزوري، عليّة عبد السميع:

9- هجمات الروم البحرية (على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى)، ط1، مكتبة الانجلو المصرية، 1985م.

10- الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية للكتاب ، 1999م.

حسن، صفوان طه:

11- تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط1، دار الفكر، عمان، 2010.

حسين، حمدي عبد المنعم محمد:

12- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998م.

الحريري، سيد علي:

13- الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ط3، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1985م.

حمادة، محمد ماهر:

14- المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصانئها، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

الخطيب، مصطفى عبد الكريم:

15- معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.

دجاني، هادية:

16- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني 526-596هـ/1131-1199م، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993م.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس:

17- الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م.

زكار، سهيل:

18- اخبار القرامطة في الأحساء والشام واليمن والعراق، ط2، دار حسان للطباعة والنشر، 1982م.

زيان، حامد زيان غانم:

19- الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983م.

زيود، محمد أحمد:

20- العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والإخشيدي (245-358هـ / 868-968م)، ط1، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1989م.

سالم، السيد عبد العزيز:

21- تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، ط2، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1982.

سليمان، أحمد عبد الكريم:

22- تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ط1، دار النهضة العربية، 1985م.

سيد، ايمن فواد:

23- الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2000م.

السيد، محمود:

24- تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1998م.

الشامي، أحمد:

25- صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الايوبية)، ط1، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1991.

الشوكاني، محمد بن علي:

26- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت.

شيخو، محمد، أمين:

27- حقيقة تيمورلنك العظيم، تحقيق عبد القادر يحيى الديراني، www.amin-sheikho.com، جزئين

الطنطاوي، علي:

28- الجامع الأموي في دمشق، ط1، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 1990م.

طقوش، محمد سهيل:

29- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (471-511هـ/1078-1117م)، ط3، دار النفائس، بيروت، 2009م.

30- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام واقليم الجزيرة 569-661هـ/1174-1263م، ط1، دار النقاش، بيروت، 1999م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

31- العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.

32- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م.

33- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م.

العبادي، احمد مختار:

34- في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت.

35- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1982.

عبد السيد، حكيم امين:

36- قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966م.

عبد المنعم، ماجد:

37- ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، ط4، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994م

عبد، قاسم:

38- عصر السلاطين المماليك، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1994م.

39- ماهية الحروب الصليبية (الايديولوجية-الدوافع-النتائج)، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م.

عبد، قاسم والسيد، على:

40- الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.

عثامنة، خليل:

41- فلسطين في خمسة قرون، من الفتح الإسلامي حتي الغزو الفرنسي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، 2000م.

عثمان، مرث:

42- التحصينات الحربية وأدوات القتال(في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية)، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، 2010م.

عدوان، أحمد:

43- الدولة الحمدانية، ط1، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان والمطابع، ليبيا، 1981م.

عدوان، أحمد محمد:

44- التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك 648-783هـ/1250-1381م، ط1، دار العلوم، الرياض، 1998م.

عزب، خالد:

45- الفسطاط (النشأة، الازدهار، الانحسار)، ط1، دار الافاق العربية، القاهرة، 1998.

العميرة، محمد عبد الله سالم:

46- الجيش في العصر المملوكي الثاني 784هـ/923هـ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2010م.

عمران، سعيد محمود:

47- الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برين على مصر 1218-1221م/615-618هـ)، دار المعارف، 1985م.

48- تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291م، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2000م.

أبوعليان، عزمي عبد:

49- مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، دار النفائس، عمان، 1995م.

عنان، محمد عبدالله:

50- الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية، ط3، دار الرفاعي، الرياض، 1983.

عوض، محمد مؤنس:

- 51- السياسة الخارجية للدولة النورية 541-569هـ/1146-1174م، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1998م.
- 52- صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجيزة، 2008م.

غنيم، اسمت:

- 53- الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة، الاسكندرية، 1990.

كاشف، سيدة اسماعيل:

- 54- مصر في عصر الاخشيديين، مطبعة جامعة فواد الاول، القاهرة، 1950.

الكيالي، عبد الوهاب وآخرون:

- 55- موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الهدى، كفر قرع، بيروت.

ماجد، عبد المنعم:

- 56- الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية (التاريخ السياسي)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

محمد، أحمد محمد:

- 57- الغزو التيموري لبلاد الشام وآثاره 803هـ/1400-1401م، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، 1986م.

مختار، أحمد وآخرون:

- 58- معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، عالم الكتب، 2008م.

مغاوري، سعيد:

- 59- أضواء على آثار وحضارة مصر في العصر الإسلامي، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، 2010م.

المطوي، محمد العروسي:

60- الحروب الصليبية في المشرق و المغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1982م.

موسى، تيسير:

61- نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، الدار العربية للكتاب.

موسى، على حسن:

62- الجو وتقلباته، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988م.

نصر الله، سعدون عباس:

63- رحيل الصليبيين عن المشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

بلدوين، مارشال:

1- اضمحلال وسقوط بيت المقدس 1174-1189م، ترجمة وتعليق سعيد عبدالله البيشاوي (منشور ضمن تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، دار الشروق، عمان، 2004م).

جب، هاملتون:

2- سيرة نور الدين، ترجمة وتعليق محمد مؤنس عوض (منشور ضمن تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، دار الشروق، عمان، 2004م).

3- ظهور صلاح الدين 1169-1189م، ترجمة وتعليق سعيد عبد المحسن (منشور ضمن تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، دار الشروق، عمان، 2004م).

رنسيمان، ستيفن:

4- تاريخ الحروب الصليبية، 3 اجزاء، ترجمة السيد الباز العريني، 1997م.

زامباور:

5- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسن محمود وآخرون، ط1، دار الرائد العربي، 1980م

سميل، ر. سي:

6- فن الحروب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر 1097-1193م، ترجمة محمد وليد الجلاذ، ط1، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، 1985م.

شاندور، البير:

7- صلاح الدين الأيوبي البطل الأتقي في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، تحقيق نديم مرعشلي، ط2، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1993م.

عطية، عزيز سوربال:

8- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة احمد خاكي، ط2، دار الثقافة، القاهرة، 1990م.

غوستاف لوبون:

9- حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، 1956م.

فنك، هارولد:

10- تأسيس الإمارات اللاتينية 1099-1118م، ترجمة وتعليق عامر نجيب موسى ناصر، (منشور ضمن تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، دار الشروق، عمان، 2004م).

كلود، كاهن:

11- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط1، سينا للنشر، القاهرة، 1995م.

لابيدوس، ايراما رفين:

12- مدن الشام في العصر المملوكي، تقديم وترجمة سهيل زكار، ط1، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1985م.

موير، وليم:

13- تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين و سليم حسن، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995م.

نيكلسون، روبرت.ل.:

14- تطور الدويلات اللاتينية 511-359هـ/1118-1144م، ترجمة وتعليق عبد الرحمن المغربي (منشور ضمن تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الأول، تحرير سعيد البيشاوي ومحمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، دار الشروق، عمان، 2004م).

هيل، دونالد و أحمد الحسن:

15- التقنية في الحضارة الإسلامية، ترجمة صالح خالد ساري، ط1، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، 2001م.

Abubakr Asadulla:

16- Islam Vs. West Fact Or Fiction?, iuniverse, usa,2008.

King, Edwin james:

17- The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

Lucien X. Polastron:

18- Books on Fire: The Destruction of Libraries Throughout History, inner traditions, us, 2007.

Roscoe,Thomas:

19- History of Chivalry and the Crusades, vol1, Edinburgh, 1829.

William Harris:

20- Lebanon: A History, 600-2011,oxford university press, new york,2012.

خامساً: المقالات والرسائل والبحوث العلمية:

امطير، محمد سامي احمد:

1- الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية 492-583هـ/1099-1187م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، 2010م.

باحويرث، سماح بنت سعيد عبد القادر:

2- الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك (648-923هـ/1350-1517م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة ام القرى، مكة، 2010م.

حمد، محمد نجيب عبد الوهاب محمد:

3- السياسة الداخلية لنور الدين محمود زنكي 541-569هـ/1146-1174م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2009م.

الحياري، مصطفى على:

4- نهاية الثغور الشامية، مقال بحث، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني،
<http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09-36-00/758-mag11-12-2.html>

الخطيب، ابراهيم ياسين:

5- تاريخ الدولة الزنكية في بلاد الشام والجزيرة، رسالة دكتوراه، ط1، دار قنديل للنشر والتوزيع، عمان، 2004م.

أبو رحمة، زهير عبدالله سعيد:

6- الحياة العلمية في غزة وعسقلان منذ بداية العصر العباسي حتى الغزو الصليبي (132-491هـ/750-1097م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2006م.

شاهين، رياض مصطفى:

7- أوضاع اليهود وموقفهم من الغزو الصليبي لبلاد الشام 491-690هـ/1098-1291م، مجلة المستقبل والتاريخ، جامعة طنطا، 2006م.

شيخ العيد، عماد صالح محمد:

8- حقوق الأنسان في مصر في العهد الفاطمي (358-567هـ=969-1171م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2014م.

صلاح، محمد حمزة محمد:

9- الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (491-923هـ=1097-1517م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2009م.

صيدم، فريد وحيد:

10- جهاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وجهوده في توحيد مصر والشام 638-647هـ/1240-1249م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م.

طاعة، امجد حافظ حسين:

11- العلاقات السياسية والعسكرية بين الفاطميين والصليبيين في مصر وبلاد الشام (491-570هـ/1098-1173م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2012م.

عطا الله، محمود على خليل:

12- نيابة غزة في العهد المملوكي، ط1، دار الافاق الجديدة، بيروت، 1986.

العملة، عبد الجبار أحمد محمد:

13- نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري 712-740هـ/1312-1340م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعه النجاح الوطنية، نابلس، 2000م.

أبو عون، عبد الرحيم حسين سعدالدين:

14- إقطاعية حيفا ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي 493-690هـ/1100-1291م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، 2004م.

الکرد، عودة سعيد عودة:

15- فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية 264-492هـ/877-1099م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2007م.

فهرس الأعلام

الصفحة	الاسم	م
7	ابن الأثير	1
16	ابن الخننجي	2
19	ابن السلار	3
9	ابن العديم	4
118	ابن العزقي	5
8	ابن القلانسي	6
118	ابن باكلوا	7
6	ابن تغري بردي	8
10	ابن حجر العسقلاني	9
8	ابن شداد	10
10	ابن طولون	11
89	ابن عمار	12
7	ابن كثير	13
19	ابن مصال	14
24	الأشرف خليل	15
65	الحسن بن طنج	16
6	الذهبي	17
9	الشارتري	18
76	الصالح إسماعيل	19
19	الظافر	20

48	الظاهر الفاطمي	21
26	الظاهر جقمق	22
21	العاضد	23
28	العزیز الفاطمي	24
16	الماذرائي	25
224	المأمون بن البطائحي	26
17	المستنصر بالله	27
28	المقتدر بالله	28
5	المقريزي	29
14	المكتفي بالله	30
27	الملك الأشرف إينال	31
75	الملك الكامل	32
120	الملك الناصر بن العزيز	33
129	المنصور قلاوون	34
28	المهدي الفاطمي	35
40	الناصر محمد بن قلاوون	36
16	النوشي	37
9	اليونيني	38
129	أبغا	39
83	أبو الفضائل	40
63	أبو القاسم القرمطي	41
8	أبو شامة	42
114	أحمد بن الناصر	43

214	أرجواش	44
220	أرغون	45
52	أرغون العلاني	46
35	أرناط	47
67	أفتكين التركي	48
54	أقبغا الجمالي	49
72	أنر	50
222	أيتمش البجاسي	51
18	بدر الجمالي	52
125	برسباي	53
25	برقوق	54
222	بركة الجوباني	55
220	بكتمر	56
116	بكتمر جلق	57
30	بلدوين الأول	58
31	بلدوين الثالث	59
92	بلدوين الثاني	60
212	بهاء الدين قراقوش	61
23	بيبرس البندقداري	62
210	بييغا آروس	63
70	تاج الدولة تنش	64
139	تغري برمش	65
222	تغري برمش حاجب الحجاب	66

223	تمريغا المنجكي	67
113	تتكز	68
22	توران شاه	69
132	تيمورلنك	70
67	جوهر	71
13	جيش بن خماروية	72
24	حسام الدين لاجين	73
13	خماروية	74
114	خيار بن مهنا	75
14	دميانه	76
64	سعد الدولة الحمداني	77
129	سنقر الأشقر	78
79	سيف الدولة الحمداني	79
20	شاور	80
111	شمس الدين أقوش البرلي	81
93	شمس الملوك	82
15	شيبان	83
116	شيخ المحمودي	84
210	شيخو	85
20	شيركوه	86
21	صلاح الدين الأيوبي	87
20	ضرغام	88
210	طاز	89

91	طغتكين	90
38	طومان باي	91
9	عز الدين الحلبي	92
23	عز الدين أيبك	93
100	عز الدين فرخشاه	94
111	علاء الدين البندقدار	95
210	علاء الدين علي بن الكوراني	96
221	علم الدين سنجر الخازن	97
72	عماد الدين زنكي	98
31	عموري	99
51	عيسى بن محب النابلسي	100
130	غازان	101
115	فرج بن برقوق	102
117	قاني باي المحمدي	103
118	قايتباي	104
71	قتلغ أبه	105
112	قراسنقر	106
138	قرايلك	107
230	قرغوية	108
67	قسام التراب	109
71	قسيم الدولة	110
24	قوصون	111
65	كافور	112

14	محمد بن سليمان الكاتب	113
129	معين الدين سليمان	114
210	منجك	115
112	مهنا بن عيسى	116
17	ناصر بن حمدان	117
22	نجم الدين الأيوبي	118
72	نور الدين محمود	119
116	نوروز	120
9	وليم الصوري	121
10	ياقوت الحموي	122
138	يشبك	123
222	يشبك الخازندار	124
25	يلبغا الناصري	125

فهرس الأماكن

الصفحة	المكان	م
92	الأثارب	1
18	البحيرة	2
129	البيرة	3
92	التيرب وجبرين	4
77	الثغور الشامية	5
16	الجيزة	6
78	الحدث	7
117	الرحبة	8
62	الرصافة	9
64	الرقة	10
69	الرملة	11
138	الرها	12
82	الزبداني	13
77	السلط	14
30	الفرما	15
141	الفيجة	16
113	القسطنطينية	17
14	القطاع	18
97	الكرك	19
125	اللانقية	20

80	المصيصة	21
93	الناصره	22
92	النقرة والأحص	23
29	إخميم	24
50	إسنا	25
139	أبلستين	26
81	أذنه	27
121	أرسوف	28
50	أرمنت	29
29	أسوان	30
85	أفاميه	31
82	أنطاكية	32
35	أيله	33
74	آمد	34
117	بانقوسا	35
104	برزيه	36
92	بزاغا	37
63	بعلبك	38
32	بلبيس	39
101	بيت جن	40
94	بيروت	41
101	بيسان	42
114	تدمر	43

99	تل الصافية	44
125	جزيرة أرواد	45
99	حارم	46
100	حبيس جلدك	47
123	حصن الأكراد	48
215	حصن المرقب	49
78	حصن ذي الكلاع	50
102	حطين	51
70	حلب	52
81	حماة	53
63	حمص	54
78	حموص	55
97	حوران	56
92	خرتبرت	57
96	داريا	58
100	دبورية	59
19	دلاص	60
41	دمنهور	61
33	دمياط	62
79	رأس عين	63
28	رشيد	64
90	رفنية	65
79	سروج	66

58	سنديون	67
122	شقيف أرنون	68
81	شيزر	69
99	صفد	70
102	صفورية	71
90	صور	72
91	صيدا	73
93	طبرية	74
81	طرابلس	75
28	طرسوس	76
81	طرطوس	77
121	عتليت	78
64	عسقلان	79
89	عكا	80
29	عيزاب	81
79	عين زربة	82
23	فارسكور	83
97	قلعة الداروم	84
70	قلعة إعزاز	85
74	قلعة جعبر	86
138	قلعة كركر	87
58	قليوب	88
78	قورس	89

88	قيسارية	90
120	كردانة	91
82	كفر توثا	92
71	كفرطاب	93
84	مرعش	94
85	مريمين العقبة	95
13	مصر	96
73	مصيف	97
63	معة النعمان	98
85	معة مصرين	99
139	ملطية	100
81	منج	101
101	نابلس	102
38	نستروة	103
125	نهر الكلب	104
96	هونين	105
94	يافا	106

فهرس المصطلحات التاريخية

الصفحة	المصطلح	م
72	الاسماعيلية	1
140	الإخصاصيين	2
207	الإيوان	3
202	الأخصاص	4
129	البرواناه	5
170	البز	6
18	البنود	7
117	الجميلون	8
210	الحرافيش	9
64	الحمدانيين	10
221	الحواصل السلطانية	11
217	الخطمي	12
148	الخلعيين	13
34	الدبابة	14
104	الذراع	15
131	الرباط	16
26	الربع	17
36	الزردخاناه	18
169	الزياتين	19
209	السقائين	20

214	الثب	21
46	الثونة	22
50	الصواعق	23
26	الطبليخانات	24
209	العسس	25
144	الفرايين	26
32	الفرسخ	27
62	القرامطة	28
207	القصب	29
145	القطانين	30
170	الكتانيين	31
90	الكلايب	32
18	الكلل	33
214	اللبود	34
50	المرحلة	35
26	المماليك الجلبان	36
144	النحاسين	37
58	النشابة	38
63	اليوم	39
220	أمراء الألوفا	40
220	أمراء الطبليخانة	41
220	أمراء العشاوات	42
228	أمير جاندار	43

69	بني الجراح	44
75	بيادر	45
77	جوسق	46
75	خانقاه	47
105	دبابة وكبش وسنورا	48
206	دنان	49
68	ريض	50
119	زعر	51
206	زير	52
206	فسقية	53
76	فلول الخوارزمية	54
32	قارورة نפט	55
218	قرية	56
17	قياسر	57
131	مارستان	58
51	مجمرة	59

الملاحق

جدول الحرائق في مصر

م	التاريخ	المكان	السبب	ما تعرض للحرق
1	9 صفر 275هـ/24 يونيو (حزيران) 888م	الفسطاط	مجهول	جزء من جامع عمرو بن العاص
2	15 رجب 283هـ/ أغسطس (آب) 896م	الفسطاط	ثورة الجند المغاربة والبربر على جيش بن خمارويه	أماكن متفرقة بالفسطاط
3	27 صفر 292هـ/8 يناير (كانون الثاني) 905م	الفسطاط	دخول العباسيين مصر واستردادها من الطولونيين	الجسور على النيل
4	29 صفر 292هـ/10 يناير (كانون الثاني) 905م	القطائع	دخول العباسيين مصر واستردادها من الطولونيين	مدينة القطائع بالكامل
5	20 شوال 307هـ/14 مارس (آذار) 920م	رشيد	محاولة المهدي الفاطمي دخول مصر	عدد كبير من مراكب المهدي
6	ربيع الآخر 319هـ/ مارس (آذار) 931م	الفسطاط	مجهول	دور بني عبد الوارث
7	16 ربيع الأول 321هـ/ 14 مارس (آذار) 933م	الفسطاط	ثورة الجند على الماذرائي	دار الماذرائي ودور أهله وأتباعه
8	9 شوال 321هـ/2 أكتوبر (تشرين الأول) 933م	الفسطاط	ثورة الجند على الماذرائي	دار الماذرائي ودور أهله وأتباعه
9	334هـ/945م	الفسطاط	مجهول	ألف وسبعمائة دار وسوق الزيتين وقيسارية العسل
10	352هـ/962م	أسوان وأخميم	هجمات النوبة على جنوب مصر	حرق عدة أماكن
11	ذي القعدة 362هـ/ أغسطس (آب) 973م	القاهرة	مجهول	سوق القاهرة
12	377هـ/987م	القاهرة	تعطيل هجوم العزيز على البيزنطيين	الأسطول البحري الفاطمي

13	24 ربيع الأول 386هـ/ 17 ابريل (نيسان) 996م	القاهرة	تعطيل هجوم العزيز على البيزنطيين	الأسطول البحري الفاطمي
14	محرم 393هـ/ فبراير (شباط) 1002م	القاهرة	قيام الحاكم بأمر الله بالقتل والحرق	جثة أبي علي الحسن بن عسلوج
15	جمادى الأولى 393هـ /مارس (آذار) 1003م	القاهرة	قيام الحاكم بأمر الله بالقتل والحرق	جثة فهد بن إبراهيم النصراني وأخوه أبو غالب
16	393هـ / 1003م	القاهرة	قيام الحاكم بأمر الله بالقتل والحرق	جثث لفتيان كتامة وأولاد المغزلي وغيرهم
17	محرم 395هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1004م	القاهرة	قيام الحاكم بأمر الله بالقتل والحرق	جثة القاضي الحسين بن النعمان وجثة أبي قاسم الشاعر وجثة أبي الطاهر المغازلي
18	395هـ/1004م	القاهرة	احتفال الحاكم بأمر الله بمولوده الجديد	شونة
19	396هـ/1005م	القاهرة	قيام الحاكم بأمر الله بالقتل والحرق	جثث جماعة من بني قرّة
20	رجب 398هـ/مارس (آذار) 1008م	القاهرة	منع النصارى من الاحتفال بعيد الشعانيين	الكثير من الصلبان
21	402هـ/1011م	القاهرة	الحاكم بأمر الله يمنع عدد من المأكولات	الرطب والزبيب
22	402هـ/1011م	القاهرة	الحاكم بأمر الله يمنع الشطرنج	الشطرنج
23	402هـ/1011م	القاهرة	الحاكم بأمر الله يعاقب اليهود لسخرتهم من المسلمين	حارة الجودية على أهلها من اليهود
24	405هـ/1014م	القاهرة	قيام الحاكم بأمر الله بالقتل والحرق	امرأة زانية
25	محرم 405هـ/ يوليو (تموز) 1014م	القاهرة	مجهول	عدة أماكن
26	28 شوال 411هـ/14 فبراير (شباط) 1021م	الفسطاط	انتقام الحاكم بأمر الله من المصريين	ثلث مدينة الفسطاط بما فيها من دور وأموال
27	423هـ / 1032م	القاهرة	التخلص من الجثث	جثث ألفين وستمائة وستون جارية

28	460هـ / 1067م	القاهرة	تمرد الأتراك وناصر بن حمدان على المستنصر	الكثير من النفائس والكتب في خزانة المستنصر
29	6 صفر 461هـ / 5 نوفمبر 1068م (تشرين الثاني)	القاهرة	تمرد الأتراك وناصر بن حمدان على المستنصر بالله الفاطمي	خزانة البنود بما تحويه من بنود وآلات حرب وأمتعة
30	ذي القعدة 463هـ / يوليو (تموز) 1071م	الجيزة	صراع ناصر بن حمدان مع الأتراك	الكثير من الدور على ساحل النيل
31	467هـ / 1074م	الإسكندرية والصعيد	مهاجمة بدر الجمالي القبائل المتمردة	الكثير من ممتلكات القبائل
32	511هـ / 1118م	الفرما	غزو بلدوين الأول لمصر	مدينة الفرما بالكامل بما فيها من مساجد وأبواب
33	518هـ / 1124م	الفسطاط	مجهول	جامع عمرو بن العاص
34	19 شوال 544هـ / 19 فبراير (شباط) 1150م	دلاص	الصراع بين ابن مصال وابن السلار	جامع دلاص
35	رجب 545هـ / أكتوبر (تشرين الأول) 1150م	الفرما	هجوم بلدوين الثالث على الفرما	مدينة الفرما
36	555هـ / 1160م	القاهرة	الانتقام لمقتل الظافر الفاطمي	جثة نصر بن عباس
37	رجب 559هـ / مايو (أيار) 1164م	القاهرة	الصراع بين شاور وضرغام	منطقة اللؤلؤة وما حولها من الدور
38	23 شعبان 559 / 15 يوليو (تموز) 1164م	القاهرة	الصراع بين شاور وشيركوه	بعض المناطق على الخليج
39	16 ذي الحجة 559هـ / 4 فبراير (شباط) 1164م	القاهرة	الصراع بين شاور وشيركوه	منطقة الخليج والدور عند باب السعادة وباب زويلة
40	563هـ / 1141م	الفسطاط	صاعقة	جزء من مئذنة جامع عمرو بن العاص
41	25 ذي القعدة 564هـ / 20 أغسطس (آب) 1169م	القاهرة	قضاء صلاح الدين على ثورة العبيد	أحياء ومنازل العبيد بالمنصورة عند باب زويلة
42	1 صفر 564هـ / 4 نوفمبر (تشرين الثاني) 1168م	بليبيس	هجوم عموري على مصر	جميع الدور في بليبيس
43	9 صفر 564هـ / 12 نوفمبر (تشرين الثاني) 1168م	الفسطاط	هجوم عموري على مصر	مدينة الفسطاط بكل ما فيها من دور ومرافق وأسطول

44	565هـ/1169م	دمياط	رد المسلمين على حصار الصليبيين	ست شواني للصليبيين في نهر النيل
45	21 ربيع الأول 565هـ / 13 ديسمبر (كانون الأول) 1169م	دمياط	انسحاب عموري عن حصار دمياط	أدوات الحصار والمنجنيقات للصليبيين
46	26 ذي الحجة 569هـ / 28 يوليو (تموز) 1174م	الإسكندرية	هجوم ملك صقلية على الإسكندرية	سفن وحقول للمسلمين ودبابات ومعدات حصار للصليبيين
47	578هـ/1182م	عيزاب وأيلة	محاولة أرناتط الوصول للمدينة المنورة	ست عشرة سفينة للمسلمين وبعض السفن الصليبية
48	26 جمادى الآخر 579هـ / 16 أكتوبر (تشرين الأول) 1183م	القاهرة	مجهول	دار الشيخ السديد رئيس الأطباء في مصر
49	ربيع الأول 590هـ / فبراير (شباط) 1194م	القاهرة	مجهول	عدة أماكن
50	رجب 618هـ / أغسطس (آب) 1221م	الدلتا	انسحاب الجيش الصليبي الى دمياط	خيام ومعدات وأتقال الجيش الصليبي
51	646هـ/1248م	القاهرة	مجهول	المشهد الحسيني
52	647هـ / 1250م	القاهرة	الانتقام من فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ	دار فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ
53	صفر 647هـ / يونيو (حزيران) 1249م	دمياط	انسحاب المسلمين من دمياط ودخول الصليبيين	أبواب مدينة دمياط والزردخاناه
54	22 شوال 647هـ/12 يناير (كانون الثاني) 1250م	الدلتا	هزيمة الجيش الصليبي وانسحابه	عدة سفن وأخشاب التحصينات للجيش الصليبي
55	27 محرم 648هـ / 2 مايو (أيار) 1250م	فارسكور	مقتل توران شاه على يد بعض المماليك	برج خشبي على النيل
56	6 ذي الحجة 648هـ/1 مارس (آذار) 1251م	القاهرة	مجهول	القاعة الصالحية والخزانة السلطانية بالقلعة
57	652هـ/1254م	القاهرة	فرار المماليك البحرية بعد مقتل أقطاي	باب القراطين (الباب المحروق)
58	جمادى الآخر 663هـ / مارس (آذار) 1265م	القاهرة	قيام النصارى واليهود بحرق القاهرة	حارة الباطنية وربع فرج وربع العادل و ثلاثة وستون داراً

59	20 شوال 668هـ/12 يونيو (حزيران) 1270م	الإسكندرية	هجوم الصليبيين على ميناء الإسكندرية	مركب للتجار المسلمين
60	21 محرم 671هـ/18 أغسطس (آب) 1272م	النوبة	هجوم متولي قوص على النوبة	عدة أماكن بالنوبة
61	16 ربيع الأول 687هـ/ 20 ابريل (نيسان) 1288م	القاهرة	مجهول	خزائن السلاح والمشهد الحسيني
62	24 صفر 691هـ/15 فبراير (شباط) 1292م	القاهرة	مجهول	الكثير من الذخائر والنفائس والكتب بقلعة الجبل
63	25 محرم 693هـ/26 ديسمبر (كانون الأول) 1293م	القاهرة	الانتقام لمقتل الأشرف قلاوون	حرق جثتي سيف الدين بهادر وجمال الدين أقوش الموصلية
64	11 محرم 694هـ/1ديسمبر (كانون الأول) 1294م	القاهرة	ثورة المماليك الأشرفية	باب السعادة
65	رمضان 704هـ/ مارس (آذار) 1305م	القاهرة	الخطأ والإهمال	دار أبي بكر ابن عثمان الشوكي
66	716هـ/1316م	أسوان وأسنا وأرمنت	عاصفة	بعض المناطق الزراعية
67	9 ربيع الآخر 721 / 8 مايو (أيار) 1321م	القاهرة ومدن أخرى	فتنة بين المسلمين والنصارى	عدد من الكنائس
68	15 جمادى الأول 721هـ 12/ يونيو (حزيران) 1321م	القاهرة	قيام النصارى بافتعال حرائق متعددة على مدار عدة أيام	عدد كبير من الأحياء والبيوت والمساجد والمدارس والحوانيت
69	724هـ/1323م	القاهرة	محاربة والي القاهرة لانتشار الحشيش	كميات كبيرة من الحشيش
70	7 رجب 727هـ/ 29 مايو (أيار) 1327م	الإسكندرية	مخاصمة بين مسلم وإفرنجي	دار والي المدينة وثلاثة دور لأعوانه
71	730هـ/1329م	القاهرة	مجهول	الكنيسة المعلقة
72	732هـ/1331م	القاهرة	الخطأ والإهمال	دار عيسى بن محب النابلسي
73	741هـ/1340م	مصر	مجهول	أجران الغلال في قلوبوب وسنديون والغربية والبحيرة

74	جمادى الاخر 742هـ/ مايو (أيار) 1353م	القاهرة	خلاف بين المماليك بالشام والأمير قوصون	بيوت مماليك قوصون وما حولها
75	745هـ/1353م	القاهرة	التشكيك في الدين الإسلامي	جثة أحد النصارى
76	745هـ/1344م	مصر	حرارة شديدة	حرق بعض الأشجار
77	747هـ/1346م	القاهرة	الأمير أرغون العلائي يقضي على أماكن الفساد	مجموعة من الأخصاص في منطقة بولاق
78	12 ربيع الأول 751هـ/20 مايو (أيار) 1350م	القاهرة	مجهول	الكثير من الأسواق والدور في منطقة البندقاينيين
79	754هـ/1353م	النحريرية	خلاف بين المسلمين والنصارى	الصلبان والتماثيل داخل كنيسة
80	رجب 755هـ/ يوليو (تموز) 1354م	القاهرة	القضاء على أحد بدع النصارى	صندوق أصعب الشهيد
81	23 محرم 767هـ 10 أكتوبر (تشرين الأول) 1365م	الإسكندرية	هجوم ملك قبرص على الإسكندرية	الكثير من المساجد والمدارس والأسواق والدور والفنادق
82	767هـ/1365م	أسوان	ثورة أولاد الكنز على والي أسوان	عدد من الدور
83	23 رجب 769هـ/ 14 مارس (آذار) 1368م	القاهرة	مجهول	الدور السلطانية بالقلعة
84	771هـ/1369م	القاهرة	قتل زوجة السلطان بالسحر	جثة ساحر نصراني
85	29 جماد الآخر 774هـ 26 ديسمبر (كانون الأول) 1372م	القاهرة	صاعقة	الكثير من الدور السلطانية بقلعة الجبل
86	15 رمضان 778هـ/5 مايو (أيار) 1376م	القاهرة	صاعقة	حاصل مدرسة السلطان بالقلعة
87	25 محرم 780هـ/24 مايو (أيار) 1378م	القاهرة	مجهول	دكاكين الفاكهانيين والنقلين والبرادعيين خارج باب زويلة
88	صفر 780هـ/مايو (أيار) 1378م	القاهرة	مجهول	منطقة باب النصر

باب الإصطبل	ثورة إينال على الأمير بركة والأمير برقوق	القاهرة	24 شعبان 781هـ/5 ديسمبر 1379م	89
جثة الجاني وهو إفرنجي	جريمة قتل	القاهرة	781هـ/1379م	90
باب السلسلة	الصراع بين الأمير برقوق والأمير بركة	القاهرة	7 ربيع الأول 782هـ/11 يونيو (حزيران) 1380م	91
شونة قصب	مجهول	القاهرة	785هـ/1383م	92
جسر وعدد من الدور بالقرب من قنطرة الحاجب	مجهول	القاهرة	30 صفر 788هـ/2 ابريل (نيسان) 1386م	93
خيمة يلبغا الناصري	الصراع بين يلبغا الناصرى ومنطاش	القاهرة	790هـ/1388م	94
منطقة دار التفاح خارج باب زويلة	مجهول	القاهرة	12 ذي القعدة 800هـ/27 يوليو (تموز) 1398م	95
عدد كبير من الدور بجوار المدرسة الصالحية	مجهول	القاهرة	4 صفر 801هـ/16 أكتوبر (تشرين الأول) 1398م	96
الربع المجاور لمدرسة ايتمش	الفضى في عهد فرج بن برقوق	القاهرة	10 ربيع الأول 802هـ/ 10 نوفمبر (تشرين الثاني) 1399م	97
الدور الموجودة بقلعة الجبل	مجهول	القاهرة	6 ربيع الأول 816هـ/6 يونيو (حزيران) 1413م	98
شارب الخمر	قيام العامة بعقاب شارب الخمر في نهار رمضان	القاهرة	رمضان 818هـ/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1415م	99
حرق القرية	هجوم القراصنة الكيتلان على السواحل المصرية	نستروة	ربيع الأول 819هـ/ مايو (أيار) 1416م	100
مجموعة من الأخصاص على شاطئ النيل	الأمير سودن يقضي على أماكن الفساد	القاهرة	7 جمادى الأولى 819هـ/3 يوليو (تموز) 1416م	101
جثة النصراني	عقاب نصراني زنا بامرأة مسلمة	القاهرة	6 شعبان 820هـ/ 18 سبتمبر (أيلول) 1417م	102
جثة الوالي	ثورة أهل دمياط على الوالي	دمياط	22 ذي الحجة 820هـ/ 29 يناير (كانون الثاني) 1418م	103

104	شعبان 825هـ / يوليو (تموز) 1422م	الإسكندرية	هجوم الفرنجة على مركب للتجار المسلمين	مركب للتجار المسلمين
105	صفر 825هـ /يناير (كانون الثاني) 1422م	الصعيد	فساد قبائل لهانة وهوارة	عدة أماكن بالصعيد
106	9 جمادى الأولى 828هـ /29 مارس (آذار) 1425م	دمياط	مجهول	ما يقدر بثلاث المدينة
107	18 شعبان 828هـ /5 يوليو (تموز) 1425م	القاهرة	مجهول	ثلاثة مواضع بالمدينة
108	ربيع الآخر 831هـ / يناير (كانون الثاني) 1428م	مصر	السلطان الأشرف برسبای يحارب انتشار الحشيش	كميات كبيرة من الحشيش
109	834هـ /1340م	الصعيد	فساد عرب هوارة	الغلال
110	شعبان 836هـ /مارس (آذار) 1433م	القاهرة	مجهول	عدد من الدور ومنها بيت التاجر البرهان المحلي
111	شوال 836هـ /مايو (أيار) 1433م	شيبين القصر	مجهول	أجران الغلال
112	شوال 836هـ /مايو (أيار) 1433م	القاهرة	مجهول	مركب بضائع وعدة أماكن أخرى
113	ربيع الأول 837هـ /أكتوبر (تشرين الأول) 1433م	دمياط	هجوم القراصنة على دمياط	ثلاثة مراكب تعود إلى المغاربة المسلمين
114	837هـ /1433م	البحيرة	هجوم أقبغا الجمالي على عرب البحيرة	بيوت عرب البحيرة
115	838هـ /1434م	الطور	مجهول	مركب عليها كمية كبيرة من البضائع
116	21 محرم 840هـ /5 أغسطس (آب) 1436م	الإسكندرية	هجوم الكيتلان على ميناء أبوقير	مركب
117	ربيع الآخر 842هـ / سبتمبر (أيلول) 1438م	القاهرة	الصراع بين الظاهر جقمق والأمير قرقماس	باب مدرسة السلطان حسن
118	ربيع الآخر 843هـ / سبتمبر (أيلول) 1439م	دمياط	قيام العامة بعقاب نصراني خائن	جثة النصراني
119	ذي الحجة 844هـ / ابريل (نيسان) 1441م	سيناء	هجوم مراكب الفرنجة على ساحل الطينة	المراكب الموجودة على الساحل

بيت الحكمي صاحب الحجاب	مجهول	القاهرة	1445هـ/1445م	120
باب دار أبي الخير النحاس والدور المجاور له	شغب المماليك الجلبان على أبي الخير النحاس	القاهرة	21 جمادى الأولى 854هـ /22 يونيو (حزيران) 1450م	121
البيوت التي بجوار الميدان	الصراع بين عثمان بن جقمق والأتابك إينال	القاهرة	7 ربيع الأول 857هـ/18 مارس (آذار) 1453م	122
عدد كبير من الأحياء والبيوت والحوانيت بساحل بولاق	صاعقة والمماليك الجلبان	القاهرة	6 رجب 862هـ/20 مايو (أيار) 1458م	123
دار سنقر الزردكاش	مجهول	القاهرة	864هـ/1459م	124
أجران الغلال	خروج العريان عن طاعة السلطان	البحيرة	ذي القعدة 872هـ/ يونيو (حزيران) 1468م	125
أماكن الحشيش والبوزة	السلطان الأشرف قانصوه الغوري يقضي على أماكن الفساد	القاهرة	شوال 910هـ/ مارس (آذار) 1505م	126
مركب كبير و شونة ومعصرة قصب	خطأ نتيجة شرارة متطابرة	القاهرة	11 محرم 913هـ/23 مايو (أيار) 1507م	127
أربعون بيتاً والكثير من البضائع والأقمشة	مجهول	القاهرة	صفر 917هـ/ ابريل (نيسان) 1511م	128
الزردخاناه وعدد من الصناعات	خطأ من صناعات البارود	القاهرة	ربيع الآخر 919هـ/ يونيو (حزيران) 1513م	129
مركب وعشرون من صناعات البارود	خطأ من صناعات البارود	القاهرة	صفر 920هـ/مارس (آذار) 1514م	130
عدد من البيوت والأماكن	دخول العثمانيين القاهرة	القاهرة	5 محرم 923هـ/27 يناير (كانون الثاني) 1517م	131

جدول الحرائق في بلاد الشام

م	التاريخ	المكان	السبب	ما تعرض للحرق
1	264هـ/877م	دمشق	مجهول	كنيسة مريم والمنطقة المحيطة بها
2	289هـ/901م	الرصافة	اعتداءات القرامطة على بلاد الشام	مدينة الرصافة وجامعها
3	290هـ/902م	دمشق	هجوم القرامطة على دمشق	قائد القرامطة يحيى بن زكروية
4	15 ذي الحجة 290هـ/9 نوفمبر (تشرين الثاني) 903م	معرة النعمان	اعتداءات القرامطة على بلاد الشام	بعض الأماكن بالمدينة
5	شعبان 291هـ/يونيو (حزيران) 904م	الحدث	هجوم البيزنطيين على المدينة	عدة أماكن بالمدينة
6	شوال 293هـ/يوليو (تموز) 906م	قورس	غارة من البيزنطيين على المدينة	جامع المدينة
7	299هـ/911م	طرسوس	غارة من المسلمين على محيط طرسوس	أرض حصن ذي الكلاع
8	312هـ/924م	دمشق	فتنة بين المسلمين والنصارى	كنيسة مريم
9	325هـ/937م	القدس	فتنة بين المسلمين والنصارى	كنيسة قسطنطين
10	328هـ/939م	عسقلان	فتنة بين المسلمين والنصارى	كنيسة مريم
11	330هـ/941م	حموص	هجوم البيزنطيين على البلدة	عدة أماكن بالبلدة
12	رجب 332هـ/فبراير (شباط) 944م	الرقعة	اقتحام ناصر الدولة بن حمدان الرقعة	جزء من المدينة
13	332هـ/943م	رأس عين	هجوم البيزنطيين على البلدة	عدة أماكن بالبلدة
14	341هـ/952م	سروج	هجوم البيزنطيين على سروج	مساجد المدينة وأماكن أخرى

15	جمادى الآخرة 345هـ /سبتمبر (أيلول) 956م	طرسوس	هجوم البيزنطيين على المدينة	القرى المحيطة بالمدينة
16	351هـ/962م	الثغور الشامية	هجوم نقفور على منطقة الثغور الشامية	عدة أماكن بالمنطقة
17	351هـ/962م	عين زربة	اقتحام نقفور البلدة	الجامع والأسواق بالبلدة
18	ذي القعدة 351هـ/ ديسمبر (كانون الأول) 962م	حلب	اقتحام نقفور المدينة	قصر سيف الدولة والجامع والأسواق وأكثر دور المدينة
19	353هـ/963م	الثغور الشامية	هجوم البيزنطيين على منطقة الثغور الشامية	المناطق المحيطة بمدن المصيصة وأذنة وطرطوس
20	354هـ/965م	طرسوس	اقتحام البيزنطيين بقيادة نقفور المدينة	منبر جامع طرسوس
21	5 جمادى الآخر 355/ 29 مايو (أيار) 966م	القدس	انتقام والي القدس من بطريق القدس	كنائس ماري قسطنطين وصهيون والقيامة
22	355هـ/965م	منبج	هجوم البيزنطيين على المدينة	رياض المدينة
23	357هـ/967م	معرة النعمان	اقتحام البيزنطيين بقيادة نقفور المدينة	جامعها وأكثر دورها
24	357هـ/967م	كفر طاب	هجوم البيزنطيين على المدينة	جامع المدينة
25	357هـ/967م	شيزر	هجوم البيزنطيين على المدينة	جامع المدينة
26	357هـ/967م	حماة	هجوم البيزنطيين على المدينة	جامع المدينة
27	357هـ/967م	حمص	هجوم البيزنطيين على المدينة	عدة أماكن بالمدينة
28	357هـ/967م	طرابلس	هجوم البيزنطيين على المدينة	رياض المدينة
29	357هـ/967م	قرى الشام	هجوم البيزنطيين على القرى والمدن الشامية	العديد من القرى
30	357هـ/967م	كفر توثا	اقتحام نقفور البلدة	عدة أماكن بالبلدة
31	13 ذي الحجة 28/358 أكتوبر (تشرين الأول) 969م	أنطاكية	اقتحام البيزنطيين بقيادة نقفور المدينة	عدة أماكن بالمدينة

الكثير من الدور والأسواق بالمدينة	الصراع بين أهل دمشق والفاطميين	دمشق	359هـ/970م	32
الكثير من الدور والحارات والأسواق	القضاء على ثورة أهل دمشق ضد الفاطميين	دمشق	رمضان 363هـ/يونيو (حزيران) 974م	33
الكثير من المناطق ما بين بعلبك والزبداني	هزيمة أفنكين من قبل البيزنطيين	بعلبك	رمضان 364هـ/ مايو (أيار) 878م	34
أحد أبواب المدينة (باب حمص)	دخول سعد الدولة الحمداني المدينة	معرة النعمان	365هـ/975م	35
السلاح والخزائن غير القادر على حملها	رحيل جوهر الصقلي عن الشام	حمص	366هـ/976م	36
جثة أبو تغلب الحمداني	انتقام ابن الجراح من أبو تغلب الحمداني	الرملة	صفر 369هـ/ سبتمبر (أيلول) 979م	37
الكثير من الدور والمساجد بأطراف المدينة	اقتحام بلنكين المدينة	دمشق	19 محرم 373هـ/3 يوليو (تموز) 983م	38
الجامع ومواقع كثيرة في المدينة والكثير من الناس	هجوم البيزنطيين على المدينة	حمص	19 جمادى الأولى 373هـ/29 أكتوبر (تشرين الأول) 983م	39
المدينة وما حولها	اقتحام منجوتكين المدينة	أنطاكية	381هـ/991م	40
الغلال حول المدينة	الإضرار بالجيش الفاطمي	حلب	381هـ/991م	41
الخزائن والأسواق والبيوت والحوانيت حول المدينة	انسحاب الجيش الفاطمي عن حلب	حلب	ربيع الأول 385هـ/ابريل (نيسان) 995م	42
موضع حجر الذهب	تأديب أهل دمشق	دمشق	386هـ/996م	43
عدة أماكن بالمدينة	اقتحام الجيش الفاطمي المدينة	مرعش	9 رجب 388هـ/7 يوليو (تموز) 998م	44
عدة أماكن بالمدينة	رد البيزنطيين على هجوم الفاطميين	حمص	ذي الحجة 389هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) 999م	45
عدة أماكن في دمشق	الحرب بين الأحداث والجنود	دمشق	410هـ/1019م	46
أكثر مدينة الرملة	خروج حسان بن مفرج على الفاطميين	الرملة	رجب 415هـ/ سبتمبر (أيلول) 1024م	47

48	1029هـ/420م	الرملة	هزيمة ابن الجراح وتخريبه الرملة	الكثير من الأماكن بالمدينة
49	1055هـ/447م	أفامية	هجوم المستنصر الفاطمي على القلعة	قلعة المدينة
50	ذي القعدة 448هـ/يناير (كانون الثاني) 1057م	حلب	مجهول	المركز الشرقي بقلعة حلب
51	1059هـ/451م	حلب	مجهول	أحد أبراج سور المدينة
52	شوال 454هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1062م	مريمين العقبة	هجوم البيزنطيين على المدينة	عدة أماكن بالمدينة
53	29 جمادى الأولى 460هـ / 4 ابريل (نيسان) 1068م	دمشق	تخوف العامة والجند في دمشق من بدر الجمالي	قصر أمير الجيوش بدر الجمالي
54	15 شعبان 461هـ/ 8 يونيو 1069م	دمشق	خلاف بين غلمان الفاطميين والعباسيين	الجامع الأموي وما حوله
55	1069هـ/462م	منبج	هجوم البيزنطيين على المدينة وما حولها	الضباع والقرى بين منبج وبلاد الروم
56	1071هـ/464م	معرة مصرين	هجوم البيزنطيين على المدينة	جزء من المدينة
57	ذي الحجة 471هـ/ أغسطس (آب) 1071م	إعزاز	هجوم تاج الدولة تنش على قلعة إعزاز	الكثير من الغلال والريز والقلعة
58	1071هـ/471م	معرتاج	هجوم السلاجقة على البلدة	أبراج البلدة بمن فيها
59	1094هـ/487م	الناعورة	هجوم تاج الدولة تنش على البلدة	الزرع الموجود بالبلدة
60	24 محرم 492هـ/21 ديسمبر 1098م	معرة النعمان	اقتحام الصليبيين المدينة	مساجد المدينة ودورها وأماكن أخرى
61	21 شعبان 492هـ/13 يوليو (تموز) 1099م	القدس	مقاومة أهل المدينة محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	أحد الأبراج والكثير من المعدات العسكرية للصليبيين
62	23 شعبان 492هـ/15 يوليو (تموز) 1099م	القدس	اقتحام الصليبيين المدينة	التحصينات الدفاعية للمسلمين
63	شعبان 492هـ/ يوليو (تموز) 1099م	القدس	دخول الصليبيين المدينة	حرق الكثير من المسلمين واليهود وكنيسة لهم والمصاحف

64	22 رمضان 492هـ/12 أغسطس (آب) 1099م	عسقلان	هزيمة الفاطميين من قبل الصليبيين	شجر الجميز بمن استتر به من الجيش الفاطمي
65	رجب 494هـ/مايو (أيار) 1101م	قيسارية	الحصول على الدنانير الذهبية من الجثث	جثث الموتى
66	جمادى الآخرة 496هـ/ مارس (آذار) 1103م	عكا	مقاومة أهل المدينة محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	العديد من أبراج ومنجنيقات وسفن الصليبيين
67	رجب 496هـ /سبتمبر (أيلول) 1103م	عسقلان	هزيمة بلدوين الأول من الفاطميين	بعض القصب وجسد بلدوين الأول
68	496هـ/1103م	حلب	محاولات الصليبيين فرض نفوذهم شمال بلاد الشام	بعض المناطق حول المدينة
69	19 ذي الحجة 497هـ/12 سبتمبر (أيلول) 1104م	طرابلس	هجوم فخر الملك ابن عمار على حصن للصليبيين	الحصن والريض المحيط به
70	شعبان 498هـ/ أبريل (نيسان) 1105م	رفنية	هجوم ظهير الدين أتابك على الحصن	الحصن
71	502هـ/1109م	طرابلس	احتلال الصليبيين المدينة	مكتبة دار العلم بكل ما فيها من كتب
72	25 جمادى الأولى 505/ 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 1111م	صور	مقاومة أهل المدينة محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	أبراج الصليبيين الهجومية
73	جمادى الأولى 505/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1111م	صيدا	غارات طغتكين على الصليبيين	عشرين مركباً على الساحل
74	جمادى الأولى 505/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1111م	صور	انسحاب الصليبيين عن حصار المدينة	الكثير من البيوت والأخشاب للصليبيين المنسحبين
75	506هـ/1113م	القدس	غارة خاطفة للمسلمين على الصليبيين	المحاصيل المجمعَة حول أسوار المدينة
76	509هـ/1115م	كفر طاب	حصار المسلمين للحصن	الحصن بما فيه من أموال

الكثير من السوقية والغلمان	انتقام صاحب أنطاكية لسقوط الحصن	كفر طاب	509هـ/1115م	77
مساجد المدينة	دخول بلدوين الأول غزة	غزة	511هـ/1118م	78
الحصن	أسامة بن منقذ يحرق الحصن خوفاً من استيلاء الصليبيين عليه	كفر طاب	513هـ/1119م	79
كل ما فيها	غارة من جوسلين على النقرة والأحص	النقرة والأحص	شوال 514هـ/ديسمبر (كانون الأول) 1120م	80
بعض جدارها	هجوم الصليبيين على المدينة	بزاغا	515هـ/1121م	81
ما بالحصن من الدور والغلال والجدار	تعرض الحصن لثلاث غارات من الصليبيين	الأثارب	517هـ/1123م	82
الغلال الخاصة بالصليبيين	هجوم بلك بن بهرام على الصليبيين	التيرب وجبرين	517هـ/1123م	83
دعائم أحد أبراج القلعة	حصار بلك بن بهرام للقلعة	خرتبرت	517هـ/1123م	84
جدار وباب المدينة وما حولها من البساتين ومشاهد القبور	خروج جوسلين لتحرير بلدوين الثاني من الأسر	بزاغا	رجب 517هـ / أغسطس (آب) 1123م	85
القصر الموجود بالقلعة بكل ما فيه من نفائس	الصراع بين قتلغ أبه وسليمان الارنقي	حلب	2 شوال 521هـ/11 أكتوبر (تشرين الأول) 1127م	86
بعض الأماكن في طبرية والناصرية وعكا	صاحب دمشق يهاجم بعض أملاك الصليبيين	شمال فلسطين	محرم 528هـ/أكتوبر (تشرين الأول) 1133م	87
الزرع والغلال حول المدينة	حصار عماد الدين زنكي للمدينة	حمص	شوال 530هـ/يوليو (تموز) 1136م	88
الخزائن داخل الحصن	انسحاب المسلمين من الحصن	الأثارب	8 شعبان 532هـ/20 ابريل (نيسان) 1138م	89
آلات الحصار	انسحاب الصليبيين عن حصار المدينة	شيزر	532هـ/1138م	90
المرج والغوطة من قرى دمشق	محاولة زنكي الاستيلاء على دمشق	قرى دمشق	534هـ/1140م	91
جامع داريا وأدوات ومنشآت الحصار	هجوم الصليبيين على المدينة	دمشق	ربيع الأول 543هـ / يوليو (تموز) 1148م	92

93	ربيع الأول 546هـ/ يونيو (حزيران) 1151م	سواحل الشام	هجوم الأسطول الفاطمي على الصلبيين في الشام	العديد من الممتلكات الصليبية في يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس
94	547هـ/1152م	أنطرسوس	هجوم نور الدين محمود على حصون الصليبيين	عدد من الحصون الصليبية
95	548هـ/1153م	عسقلان	محاصرة الصليبيين للمدينة	سور المدينة
96	549هـ/1154م	دمشق	قتل حاكم دمشق لزين الدولة بن الصوفي	دور بني الصوفي
97	550هـ/1155م	صور	هجوم الأسطول الفاطمي على الصلبيين في صور	ميناء المدينة وأحد السفن الكبيرة للصلبيين
98	صفر 553هـ/ مارس (آذار) 1158م	حوارن	غارة للصلبيين على أعمال حوارن	عدد من الضياع
99	صفر 553هـ/ مارس (آذار) 1158م	داريا	هجوم الصليبيين على المنطقة	عدد من المنازل وجامع داريا
100	ذي الحجة 559هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1164م	دمشق	مجهول	قصر جيرون
101	562هـ/1166م	هونين	هجوم نور الدين محمود على الحصن	الحصن
102	شوال 562هـ/ يوليو (تموز) 1167م	دمشق	الخطأ والإهمال من أحد الطباخين	حي اللبادين بالكامل بما فيه من دور وحوانيت
103	27 شوال 564هـ/ 23 يوليو (تموز) 1169م	حلب	صراع الإسماعيلية مع نور الدين محمود	جامع حلب والأسواق المجاورة له
104	جمادى الآخرة 565هـ/ فبراير (شباط) 1170م	فلسطين	تخريب نور الدين الممتلكات الصليبية	عدة أماكن
105	ربيع الأول 566هـ/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1170م	الداروم	حصار صلاح الدين الأيوبي للقلعة	أحد أبراج القلعة
106	567هـ/1171م	طرابلس	هجوم نور الدين محمود على محيط المدينة	عدة مواضع حول المدينة
107	567هـ/1171م	أنطاكية	هجوم نور الدين محمود على محيط المدينة	عدة مواضع حول المدينة

108	568هـ/1172م	طبرية	هجوم نور الدين محمود على المدينة	عدة أماكن بالمدينة
109	568هـ/1172م	الكرك والشوبك	تسهيل طريق التواصل بين مصر والشام	كل ما هو موجود خارج القلاع والحصون الصليبية
110	570هـ/1174م	حلب	فتنة بين السنة والشيعة بالمدينة	دار أبي الفضل بن الخشاب زعيم الشيعة في المدينة
111	570هـ/1174م	دمشق	مجهول	مدرسة الكلاسة ومندنة العروس
112	572هـ/1176م	مصيف	هجوم صلاح الدين الأيوبي على معقل الإسماعيلية	حرق بعض الأماكن الخاصة بهم
113	572هـ/1176م	دمشق	محاولة الصليبيين القضاء على الموارد الزراعية	المحاصيل النامية والبيادر المجمعدة ومخازن الحبوب
114	جمادى الأولى 573هـ / نوفمبر 1177م	جنوب فلسطين	جهود صلاح الدين في إضعاف الصليبيين	البيوت والقرى الصليبية في المنطقة
115	ربيع الأول 574هـ / أغسطس (أب) 1178م	حماة	هجوم الصليبيين على محيط المدينة	بعض القرى حول المدينة
116	574هـ / 1178م	بانياس	غارة لصلاح الدين على المدينة	الغلال حول المدينة
117	575هـ/1179م	حلب	هجوم الإسماعيلية على المدينة	أسواق (البز والبطارين والخليع والكتانيين والسراجين وغيرها)
118	24 ربيع الأول 575هـ / 30 أغسطس (أب) 1179م	بيت الأحزان	اقتحام صلاح الدين للحصن	سور الحصن والبيوت القريبة من السور
119	575هـ / 1179م	طرابلس	غارة لصلاح الدين على محيط المدينة	المحاصيل الزراعية في الحقول والمخازن
120	18 ذي القعدة 575هـ / 16 أبريل (نيسان) 1180م	صفد	عز الدين فرخشاه يهاجم محيط القلعة	المراعي والبيوت حول القلعة
121	577هـ/1182م	الكرك	هجوم عز الدين فرخشاه على محيط المدينة	المناطق المحيطة بالمدينة
122	رمضان 578هـ / ديسمبر (كانون الأول) 1182م	جعبر	حاكم حلب يخرب القلاع والحصون المحيطة بها	جسر قلعة جعبر

123	578هـ/1182م	دبورية	غارة من عز الدين فرخشاه	المراعي الموجودة في المكان
124	578هـ/1182م	حوران ودرعا	هجمات تخريبية من الصليبيين	المحاصيل الزراعية وبعض الأماكن
125	578هـ/1182م	بيت جن وداريا	هجمات تخريبية من الصليبيين	بعض الأماكن في بيت جن وداريا وما حولهما من قرى
126	579هـ/1183م	آمد	فتح صلاح الدين الأيوبي للمدينة	بعض السنائر والتحصينات العسكرية الخاصة بجيش صلاح الدين
127	9 جمادى الآخرة 579هـ/ 29 سبتمبر (أيلول) 1183م	بيسان	تخريب صلاح الدين المناطق الصليبية	الغنائم التي لم يستطيعوا حملها وبعض الأماكن بالمدينة
128	جمادى الأولى 580هـ/ أغسطس (آب) 1184م	نابلس	تخريب صلاح الدين المناطق الصليبية	القرى والرساتيق المحيطة بالمدينة
129	محرم 583هـ/ مارس (آذار) 1187م	الكرك والشوبك	تأمين الطريق بين مصر والشام	الضياع الصليبية المحيطة بالمدينتين
130	23 ربيع الآخر 583هـ/ 2 يوليو (تموز) 1187م	طبرية	دخول صلاح الدين المدينة	عدة أماكن بالمدينة والغنائم التي لا يستطيع حملها
131	25 ربيع الآخر 583هـ/ 4 يوليو (تموز) 1187م	حطين	تضييق صلاح الدين على الصليبيين بمعركة حطين	الحشائش والأعشاب الجافة حول معسكر الصليبيين
132	رجب 583هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1187م	القدس	محاولة صلاح الدين دخول مدينة القدس	سور المدينة
133	583هـ/ 1187م	صور	صد الصليبيين هجوم صلاح الدين على المدينة	بعض مراكب المسلمين
134	29 شوال 583هـ/ 1 يناير (كانون الثاني) 1188م	صور	رفع حصار المسلمين عن المدينة	المعدات والأثقال التي لا يمكن حملها
135	14 جمادى الأولى 584هـ/ 11 يوليو (تموز) 1188م	طرطوس	تخريب صلاح الدين المدينة لمنع عودة الصليبيين إليها	جميع دور ومساكن المدينة
136	27 جمادى الآخرة 584هـ/ 23 أغسطس (آب) 1188م	برزية	فتح صلاح الدين القلعة	بعض البيوت بالقلعة

137	28 ربيع الأول 586هـ/5 مايو (أيار) 1190م	عكا	مقاومة المسلمين محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	ثلاثة أبراج خشبية ضخمة ومحصنة للصليبيين
138	شعبان 586هـ/ سبتمبر (أيلول) 1190م	عكا	مقاومة المسلمين محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	عدد من المنجنقات الصليبية
139	22 شعبان 586هـ/24 سبتمبر (أيلول) 1190م	عكا	مقاومة المسلمين محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	عدد من المراكب الصليبية
140	3 رمضان 586هـ/4 أكتوبر (تشرين الأول) 1190م	عكا	مقاومة المسلمين محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	دبابة وكبش وسنور للصليبيين
141	15 رمضان 586هـ/16 أكتوبر (تشرين الأول) 1190م	عكا	مقاومة المسلمين محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	مركب كبير للصليبيين
142	رمضان 586هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1190م	عكا	مقاومة المسلمين محاولات الصليبيين اقتحام المدينة	دبابة ضخمة للصليبيين وجزء من سور المدينة
143	شعبان 587هـ/ سبتمبر (أيلول) 1191م	عسقلان	تخريب سلاح الدين المدينة لمنع عودة الصليبيين إليها	البلد والأبراج والسور
144	3 رمضان 587هـ/25 سبتمبر (أيلول) 1191م	الرملة	تخريب سلاح الدين المدينة لمنع عودة الصليبيين إليها	البلد والقلعة
145	587هـ/1191م	دمشق	عقاب الشهاب السهورودي الفيلسوف الساحر	جثة السهورودي
146	شعبان 595هـ/مايو (أيار) 1199م	دمشق	صراع داخل البيت الأيوبي	الكثير من الفنادق والحوانيت والبساتين والغلال
147	596هـ/1199م	دمشق	انسحاب الأفضل الأيوبي عن حصار دمشق	ما لم يتمكنوا من حمله من الأثقال والخيم والغلات

148	600هـ/1203م	دمشق	مجهول	خزانة السلاح بالمدينة
149	604هـ/1207م	طرابلس	هجوم العادل على الصليبيين بالمدينة	بعض الأماكن
150	604هـ/1207م	حلب	مجهول	المقام الأعلى بالقلعة
151	11 جمادى الأولى 609هـ/9 أكتوبر 1212م	حلب	مجهول	القلعة والزردخانا
152	614هـ/1217م	بيسان وبانياس	غارة من الصليبيين على المنطقة	بعض المناطق بين بيسان وبانياس
153	جمادى الأولى 626هـ/ مارس (آذار) 1229م	دمشق	الصراع بين الكامل والناصر داود	عدد من الجوسق والحصون والخوانق ومدرسة أسد الدين
154	ربيع الأول 635هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1237م	دمشق	دفاع الصالح إسماعيل عن دمشق ضد الكامل	منطقة العقبية وجميع ما بها من خانات وأسواق
155	صفر 637هـ/ سبتمبر (أيلول) 1239م	دمشق	هجوم الصالح إسماعيل على المدينة	دار الحديث والحوانيت والدور حول القلعة
156	638هـ/1240م	كفر طاب	هجمات الخورازمية على بلاد الشام	عدة أماكن
157	صفر 642هـ/ يوليو (تموز) 1244م	القدس	هجوم قوات الخورازمية على المدينة	كنيسة القيامة وبعض الكنائس
158	643هـ/1245م	دمشق	الصراع بين نجم الدين أيوب وعمه الصالح إسماعيل	عدد من المساجد ومنطقة العقبية وحكر السماق وقصر حجاج والشاغور وزقاق الرمان
159	27 ربيع الآخر 644هـ/ 11 سبتمبر (أيلول) 1246م	السلط	هجوم جيش نجم الدين أيوب على المدينة	بعض المناطق بالمدينة
160	جمادى الأولى 645هـ/ سبتمبر (أيلول) 1247م	عسقلان	فتح نجم الدين أيوب المدينة	بعض المنجنيقات والمتاريس للمسلمين وأحد أبراج الصليبيين
161	25 رجب 646هـ/ نوفمبر (تشرين الثاني) 1248م	دمشق	مجهول	المنارة الشرقية بجامع الأموي
162	650هـ/1252م	حلب	افتعال الصليبيين لحريق كبير	ستمائة دار
163	651هـ/1253م	كردانة	انتقام حاكم حلب من الصليبيين	الطواحين الموجود بالقريّة

164	10 صفر 658هـ/26 يناير 1260م	حلب	اقتحام المغول المدينة بقيادة هولوكو	جامع حلب والمدرسة الحلاوية وسوق البزازين
165	9 ربيع الأول 658هـ/23 فبراير (شباط) 1260م	حلب	اقتحام المغول القلعة	الذخائر والآلات الحربية بالقلعة
166	9 ربيع الأول 658هـ/23 فبراير (شباط) 1260م	حماة	أمر هولوكو نائب حماة بتخريب المدينة	الزردخاناه في القلعة
167	14 جمادى الأولى 658هـ/27 ابريل (نيسان) 1260م	دمشق	دخول المغول المدينة بقيادة هولوكو	عدة مواضع بالقلعة وما بها من الآلات والعدد
168	25 رمضان 658هـ/3 سبتمبر (أيلول) 1260م	دمشق	انتقام المسلمين من النصارى الذين ساعدوا المغول	بعض دور النصارى وكنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم
169	15 رجب 659هـ/15 يونيو (حزيران) 1261م	حماة	تمرد البرلي على الظاهر بيبرس	الغلال بالقرب من الباب الغربي للمدينة
170	659هـ/1261م	أنطاكية	غارة من بيبرس على المناطق الصليبية	ميناء المدينة و الكثير من الغلال
171	محرم 659هـ/ديسمبر (كانون الأول) 1260م	حلب	هجوم المغول على القلعة	جامع القلعة
172	660هـ/1262م	الثغور والأطراف	قيام بيبرس بتأمين حدود الدولة المملوكية	المروج والأعشاب التي جرت عادة المغول الإقامة بها
173	جمادى الآخرة 661هـ/ ابريل (نيسان) 1263م	عكا	هجوم بيبرس على محيط المدينة	الأخشاب والأشجار حول المدينة
174	9 جمادى الأولى 663هـ/ 26 فبراير (شباط) 1265م	قيسارية	اقتحام بيبرس المدينة	أبواب المدينة والقلعة
175	26 جمادى الأولى 663هـ	عتليت	هجوم بيبرس على القلعة	أبواب القلعة والقرية الواقعة خارج الأسوار
176	8 رجب 663هـ/26 ابريل (نيسان) 1265م	أرسوف	اقتحام بيبرس المدينة	بعض الأخشاب وأبواب القلعة
177	18 شوال 664/23 يوليو (تموز) 1266م	صفد	حصار بيبرس للقلعة	سور القلعة
178	664هـ/1266م	شمال الشام	هجوم بيبرس على عدة حصون	قلعة الساب بما فيها من الحواصل والذخائر

179	11 شعبان 665هـ/7 مايو (أيار) 1267م	عكا	هجوم بيبرس على محيط المدينة	البساتين والأبنية والأشجار المحيطة بالمدينة
180	26 رجب 666هـ/11 ابريل (نيسان) 1268م	شقيف أرنون	استيلاء بيبرس على القلعتين	إحدى القلعتين
181	رمضان 666هـ/ مايو (أيار) 1268م	أنطاكية	فتح بيبرس المدينة	أغلب المدينة وقلعتها وكنائسها المشهورة
182	رجب 667هـ/ مارس (آذار) 1269م	دمشق	مجهول	سوق جبل الصالحية كله
183	669هـ/1271م	قرفيص	انسحاب الفرسان الاسبتارية من الحصن	كل ما لم يمكن حمله
184	669هـ/1271م	دمشق	هجوم الصليبيين على محيط المدينة	الغلال في منطقة الشاغور
185	673هـ/1275م	المصيصة	فتح بيبرس المدينة	عدة مواضع بالمدينة
186	8 جمادى الآخرة 28/نوفمبر (تشرين) الثاني) 1275م	البيرة	مقاومة أهل المدينة محاولات المغول اقتحام المدينة	منجنقات المغول وحلفائهم
187	21 جمادى الآخرة 18/أكتوبر (تشرين) الأول) 1280م	حلب	اقتحام المغول المدينة بقيادة أبغا	جامع حلب والعديد من المدارس ودار السلطنة ودور الأمراء الكبار
188	رجب 680هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1281م	حماة	هجوم المغول على ضواحي المدينة	بستان السلطان وقصره وعدد من الأبنية
189	15 رجب 680هـ/30 أكتوبر (تشرين الأول) 1281م	الفرات	مطاردة فلول جيش المغول المنهزم	الأحراش على الفرات وعدد كبير من المغول
190	11 رمضان 681هـ/14 ديسمبر (كانون الأول) 1282م	دمشق	إهمال أحد الباعة في السوق	أسواق (الكتبيين، والخواتميين، والزجاجيين، والأساكفة، والمرجانيين، والفوارة وغيرها)
191	رجب 689هـ/ يوليو (تموز) 1290م	دمشق	مجهول	المنطقة بين درب اللبان ودرب الوزير
192	رجب 689هـ/ يوليو (تموز) 1290م	حماة	مجهول	دار حاكم المدينة بما فيها من متاع

193	17 جمادى الأولى 690هـ/ 18 مايو 1291م	عكا	فتح خليل بن قلاوون المدينة وتخريبها	الكنائس والأسوار وعدة أماكن أخرى بالمدينة
194	18 رجب 690هـ/ 17 يوليو (تموز) 1291م	صيدا	انسحاب الصليبيين من المدينة	الجزيرة المجاورة للمدينة
195	شعبان 690هـ/ يوليو (تموز) 1291م	عتليت	انسحاب الصليبيين من المدينة	وما لم يقدروا على حمله من المتاع والمحاصيل والأموال
196	690هـ/ 1291م	طرسوس	انسحاب الصليبيين من المدينة	وما لم يقدروا على حمله من المتاع والمحاصيل والأموال
197	699هـ/ 1299م	دمشق	اقتحام المغول المدينة بقيادة غازان وحصار القلعة	الكثير من الدور والمساجد والمدارس والبساتين والمرافق العامّة
198	ذي الحجة 707هـ/ يونيو (حزيران) 1308م	دمشق	خطأ في أحد أفران دمشق	مساحة كبيرة في منطقة الظاهرية
199	712هـ/ 1313م	حلب	هجوم مهنا بن عيسى على المدينة	باب القلعة
200	712هـ/ 1312م	دمشق	مجهول	دور كثيرة داخل باب السلامة
201	13 جمادى الأولى 715هـ/ 15 أغسطس (آب) 1315م	دمشق	مجهول	عدد من الدكاكين والدور مقابل مسجد الشنباشي
202	726هـ/ 1326م	دمشق	نصراني أسلم لثلاث سنوات ثم ارتد	جثة النصراني
203	5 جمادى الأولى 728هـ/ 19 مارس (آذار) 1328م	دمشق	مجهول	سوق الفرابين وسوق الرماحين ومسجد
204	شوال 735هـ/ مايو (أيار) 1335م	حماة	مجهول	مانتان وخمسون حانوتاً
205	شوال 735هـ/ مايو (أيار) 1335م	أنطاكية	مجهول	أغلب المدينة
206	736هـ/ 1335م	دمشق	مجهول	سوق النحاسين
207	صفر 737هـ/ سبتمبر (أيلول) 1336م	دمشق	مجهول	عدد من الدكاكين والدور في منطقة قصر حجاج
208	26 شوال 740هـ/ 25 أبريل (نيسان) 1340م	دمشق	بعض النصارى يفتعلون الحرائق بالمدينة	عدد كبير من الأحياء والأسواق المحيطة بالجامع الأموي

عدد من الأشجار والمنازل في أرض الجون	صاعقة	عكا	740هـ/1339م	209
قبة خشب وثلاثة بيوت بجانبها	صاعقة	الفيجة	740هـ/1339م	210
أحد المنجنيقات المنصوبة على المدينة	تحصن أحمد بن الناصر بالمدينة	الكرك	743هـ/1343م	211
مائة وعشرين دكاناً بسوق الصالحية	مجهول	دمشق	ربيع الآخر 744هـ/ أغسطس (آب) 1343م	212
باب القلعة وأحد الأبراج بالمدينة	تحصن أحمد بن الناصر بالمدينة	الكرك	23 صفر 745هـ/6 يوليو (تموز) 1344م	213
أكثر من عشرين امرأة	الصراعات بين القبائل	بعلبك	745هـ/1344م	214
دكاكين الفواخرة والمناجلين	مجهول	دمشق	15 جمادى الآخرة 752هـ/ 10 يوليو (تموز) 1351م	215
جثة الشيعي	شيعي استمر في السب واللعن الصريح للصحابة	دمشق	19 جمادى الأولى 755هـ/ 11 يونيو (حزيران) 1354م	216
المطبخ وما حوله من الدكاكين	خطأ في مطبخ للسكر	دمشق	22 جمادى الآخرة 757هـ/ 22 يونيو (حزيران) 1356م	217
سبعمائة دكان خارج باب الفرج	مجهول	دمشق	24 جمادى الأولى 757هـ/ 27 أبريل (نيسان) 1356م	218
سوق الصالحية بالقرب من جامع الحنابلة	مجهول	دمشق	15 رجب 757هـ/15 يوليو (تموز) 1356م	219
الكثير من الأشجار والدور في المنطقة ما بين طرابلس وبيروت	مجهول	لبنان	ذي القعدة 757هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) 1356م	220
حرق الكثير من الأشجار بالمدينة	تمرد العريان	تدمر	764هـ/1362م	221
جثة الشيعي	شيعي استمر في السب واللعن الصريح للصحابة	دمشق	766هـ/1365م	222
أحد المراكب بالميناء	غارة من الصليبيين على ميناء المدينة	طرابلس	767هـ/1366م	223
سوق المدينة	غارة من الصليبيين	صيدا	785هـ/1383م	224

الكثير من بيوت منطقة القبيبات	الصراع بين برقوق ومنطاش	دمشق	791هـ/1389م	225
باب القلعة والجسر الواصل إليها	الصراع بين برقوق ومنطاش	حلب	792هـ/1390م	226
باب القلعة	تمرد بعض المماليك على برقوق	دمشق	صفر 794هـ/يناير (كانون الثاني) 1392م	227
سوق الصاغة وسوق الدهيشة والمئذنة الشرقية للجامع الأموي	مجهول	دمشق	21 شعبان 794هـ / 13 يوليو (تموز) 1392م	228
جثث الرهبان	أربعة رهبان نصارى شنعوا بالإسلام وأهله وبنبيه	القدس	795هـ/1393م	229
جثة المحتكر	احتكار الغلال	دمشق	799هـ/1396م	230
أسواق (الحرييين، والقواسيين، والسبوفيين، والصراف، وبعض النحاسين)	مجهول	دمشق	20 شوال 800هـ/6 يوليو (تموز) 1398م	231
منطقة البراقية	مجهول	دمشق	ذي القعدة 802هـ/ يونيو (حزيران) 1400م	232
الكثير من الدور والمساجد والمدارس والمرافق العامة	اقتحام المغول المدينة بقيادة تيمورلنك	حلب	ربيع الأول 803هـ/ أكتوبر (تشرين الأول) 1400م	233
المدينة بالكامل	انتقام ميران شاه من أهل المدينة	حماة	17 ربيع الأول 803هـ/ 5 نوفمبر (تشرين الثاني) 1400م	234
مساحات ضخمة حول الجيش المملوكي (150مياً)	محاصرة المغول الجيش المملوكي عند مشارف دمشق	دمشق	جمادى الأولى 803هـ/ ديسمبر (كانون الأول) 1400م	235
الأدوات الهجومية للمغول	مقاومة المحاصرين بالقلعة هجمات المغول	دمشق	جمادى الآخرة 803هـ/ يناير (كانون الثاني) 1401م	236
أغلب المدينة بما فيها من مساجد وأسواق وبيوت ومدارس ومرافق	رحيل تيمورلنك عن المدينة بعد تخريبها	دمشق	3 شعبان 803هـ / 19 مارس (آذار) 1401م	237

238	17 شعبان 803هـ	حلب	رحيل المغول عن المدينة	ما بقى من معالم المدينة
239	1402م/805هـ	دمشق	مجهول	السوق المجاور لجامع كريم الدين
240	20 محرم 806هـ/9 أغسطس (أب) 1403م	بيروت	هجوم الأسطول الجنوبي على المدينة	بعض المنازل والسوق القريب من الميناء
241	محرم 811هـ/ يونيو (حزيران) 1408م	صفد	الصراع بين نوروز وفرج بن برقوق	الكثير من المحاصيل الزراعية في منطقة المعارك
242	محرم 812هـ/ يونيو (حزيران) 1409م	صرخد	القتال بين المؤيد شيخ وفرج بن برقوق	الجسر الواصل إلى القلعة
243	محرم 815هـ/ ابريل (نيسان) 1412م	دمشق	القتال بين المؤيد شيخ وفرج بن برقوق	الأسواق عند باب الفراديس وسوق خان السلطان وباب الجابية
244	جمادى الآخرة 818هـ/ أغسطس (أب) 1415م	دمشق	خروج مجموعة من الأمراء عن طاعة المؤيد شيخ	جملون دار السعادة
245	1416م/819هـ	الرحبة	عصيان بعض القبائل	أكثر المدينة
246	1417م/820هـ	دمشق	مجهول	المدرسة الجوزية
247	جمادى الآخرة 821هـ/ يوليو (تموز) 1418م	كركر	نائب حلب يحاصر القلعة	القرى المحيطة بالقلعة
248	1424م/828هـ	نهر الكلب	هجوم سفينتين من قبرص على السواحل الشامية	أحد السفينتين
249	1424م/828هـ	أرواد	هجوم الصليبيين على مركب للمسلمين	مركب المسلمين
250	1429م/832هـ	الرها	هجوم الجيش المملوكي على قرابلك بالرها	الكثير من الأماكن بالمدينة
251	1430م/834هـ	ملطية	هجوم قرابلك على المدينة	بعض الأماكن في المدينة وما حولها
252	1433م/837هـ	طرابلس	عسكر المماليك يهاجمون مركب بضائع للجنوبيين	مركب الجنوبيين

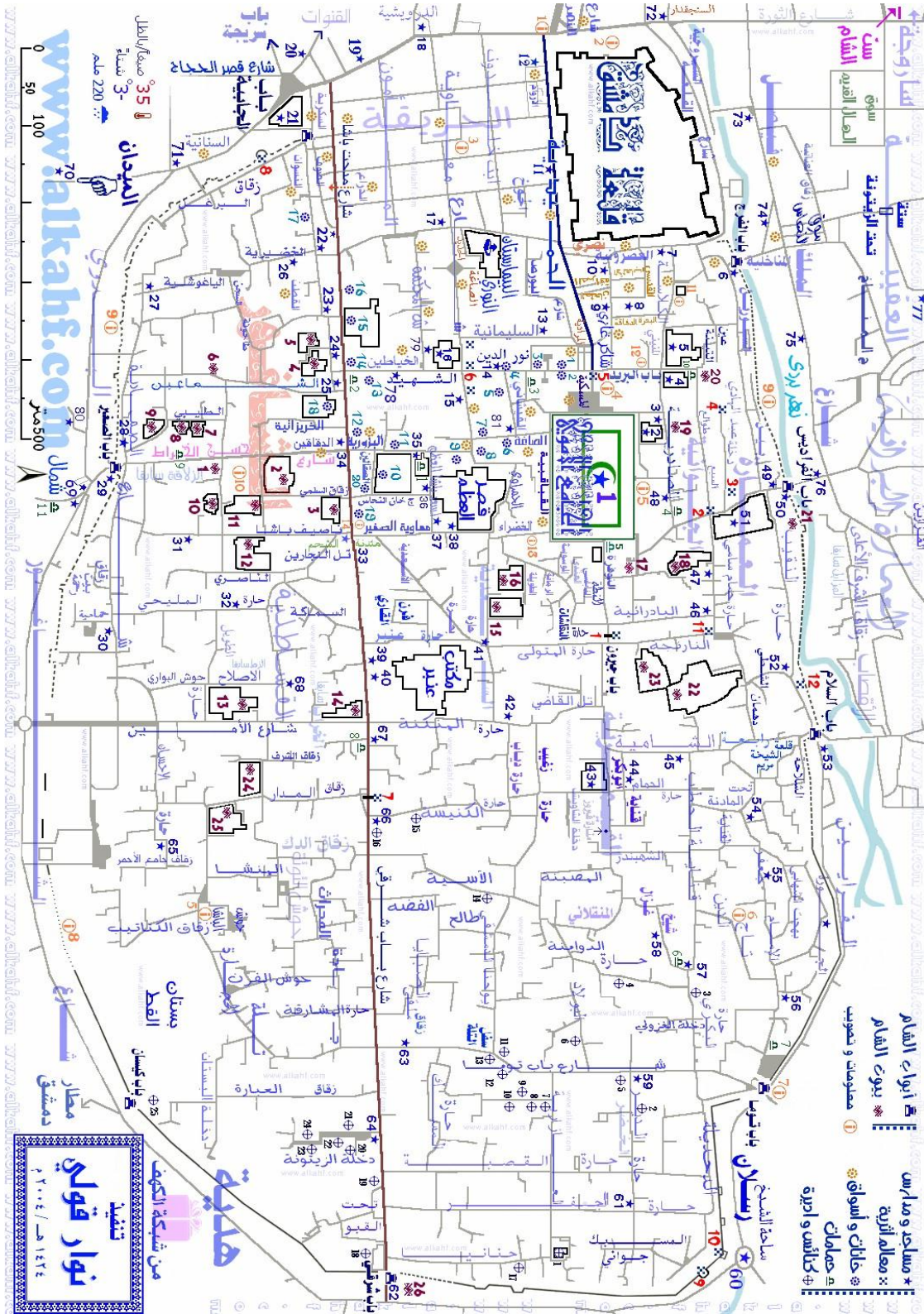
253	9 رمضان 839هـ / 27 مارس (آذار) 1436م	أبلستين	الجيش المملوكي يهاجم دلغادر نائب أبلستين	المدينة وما حولها من القرى
254	22 شوال 842هـ / 7 ابريل (نيسان) 1439م	حلب	تمرد تغري برمش على الظاهر جقمق	البيوت والأسواق والزرع حول المدينة
255	رجب 851هـ / أكتوبر (تشرين الأول) 1447م	القدس	صاعقة أو لهو بعض الأولاد	الجانب الغربي من سقف قبة الصخرة المشرفة
256	871هـ / 1466م	دمشق	مجهول	دار النياحة مقابل المدرسة العذراوية
257	872هـ / 1467م	دمشق	مجهول	مسجد القصب
258	محرم 880هـ / مايو (أيار) 1475م	دمشق	مجهول	جزء من سوق الصالحية وسوق العمارة خارج باب الفراديس
259	ربيع الآخر 883هـ / يوليو (تموز) 1478م	دمشق	مجهول	المنطقة بين جامع منجك إلى قرب قناة العوني
260	27 رجب 884هـ / 13 يوليو (تموز) 1479م	دمشق	مجهول	الجامع الأموي وما حوله من الأسواق
261	885هـ / 1480م	حلب	ثورة أهل حلب على وكيل السلطان	جثة وكيل السلطان
262	4 محرم 890هـ / 21 يناير (كانون الثاني) 1485م	دمشق	مجهول	سوق المارستان وبعض الدور
263	3 ربيع الأول 890هـ / 20 مارس (آذار) 1485م	دمشق	مجهول	نصف سوق الشاغور وسوق القبيبات
264	893هـ / 1488م	الصبورة	الصراع بين الأمراء المماليك	القرية بالكامل
265	893هـ / 1488م	دمشق	ثورة العوام على حامل مرسوم بفرض الضرائب	جثة حامل المرسوم
266	894هـ / 1489م	دمشق	إزالة التعدييات	التعدييات على الطرق بجوار القلعة
267	8 رجب 894هـ / 7 يونيو (حزيران) 1489م	دمشق	مجهول	الكثير من الدور حول جامع الجوزة ومسجد القصب والأحياء المحيطة به
268	شوال 894هـ / سبتمبر (أيلول) 1489م	دمشق	مجهول	الكثير من الغلال

مساكن الإفرنج وقيسارية ابن دلامة وما حولها	مجهول	دمشق	21 ذو الحجة 894هـ/15 نوفمبر (تشرين الثاني) 1489م	269
سوقة ثاني بك بحكر السماقي	مجهول	دمشق	1 ربيع الآخر 895هـ/21 فبراير (شباط) 1490م	270
أسواق (الحريرية، والشماعين، والحبالين، والحدادين)	مجهول	دمشق	18 رجب 899هـ/24 أبريل (نيسان) 1494م	271
أحد الأفران وما حوله بمنطقة القرييين	مجهول	دمشق	2 شعبان 899هـ/7 مايو (أيار) 1494م	272
المنطقة ما بين العقبية والعلبيين	مجهول	دمشق	28 ذي القعدة 899هـ/30 أغسطس (آب) 1494م	273
جسرا الزلاية والحديد وما بينهما من أسواق وبيوت	مجهول	دمشق	30 رمضان 900هـ/24 يونيو (حزيران) 1495م	274
عدة أماكن بالمدينة	عصيان أبنال الفقيه نائب حلب	حلب	8 رمضان 902هـ/10 يونيو (حزيران) 1497م	275
الكثير من الحوانيت وما فوقها من الطوابق	خطأ من أحد حوانيت الإخصاصيين	دمشق	5 ربيع الأول 902هـ/11 نوفمبر (تشرين الثاني) 1496م	276
عدد من الدور بحارة الحكر الغربي	مجهول	دمشق	6 ربيع الأول 902هـ/12 نوفمبر (تشرين الثاني) 1496م	277
قيسارية في سوق الدهيناتية	مجهول	دمشق	13 ربيع الأول 902هـ/19 نوفمبر (تشرين الثاني) 1496م	278
سوق القزمانيين والقطنيين	مجهول	دمشق	7 ربيع الآخر 902هـ/13 ديسمبر (كانون الأول) 1496م	279
مواقع في ناحية الشاغور	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	دمشق	8 ربيع الأول 903هـ/3 نوفمبر (تشرين الثاني) 1497م	280
سوق المزار بالشاغور	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	دمشق	10 ربيع الأول 903هـ	281

282	19 ربيع الأول 903هـ	دمشق	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	جزء من قصر حجاج قرب باب الجابية
283	20 ربيع الأول 903هـ	دمشق	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	الكثير من البيوت والمقابر والسويقة المحروقة
284	7 ربيع الآخر 903هـ	دمشق	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	مكتب ومسجد المدرسة المزلقية
285	11 ربيع الآخر 903هـ	دمشق	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	المنذنة البصية بمسجد الذبان
286	15 ربيع الآخر 903هـ	دمشق	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	بعض بيوت العصاة
287	17 ربيع الآخر 903هـ	دمشق	تمرد بعض الأمراء المماليك على السلطان	جامع جراح
288	7 ربيع الآخر 904هـ/21 نوفمبر 1498م	دمشق	مجهول	سوق الشیخي
289	4 صفر 905هـ/9 سبتمبر (أيلول) 1499م	دمشق	مجهول	عدد كبير من الحوانيت خارج باب الفرج
290	22 صفر 905هـ/27 سبتمبر (أيلول) 1499م	دمشق	مجهول	دكان الطباخ بجوار الجامع الأموي
291	906هـ/1500م	دمشق	عقاب مملوك إفرنجي على يد العوام	جثة المملوك
292	25 ذي القعدة 906هـ/11 يونيو (حزيران) 1501م	دمشق	مجهول	سوق النحاسين وبعض الدور حوله
293	907هـ/1501م	دمشق	ثورة للعوام على نائب الشام	جثث مجموعة من ممالیک النائب
294	محرم 908هـ/ يوليو (تموز) 1502م	دمشق	قمع الممالیک الأجلاب ثورة للزعر	عدد كبير من الدور والأماكن في منطقة الشاغور
295	15 جمادى الأولى 909هـ / 5 فبراير (شباط) 1503م	دمشق	مجهول	سوق الفراء وسوق الخلعين
296	17 جمادى الأولى 910هـ / 26 أكتوبر 1504م	دمشق	مجهول	الحوانيت وما فوقها من الطوابق جنوب مسجد الرأس
297	11 شوال 911هـ/6 مارس (آذار) 1506م	دمشق	مجهول	جانب كبير من سوق عمارة الأخنائي

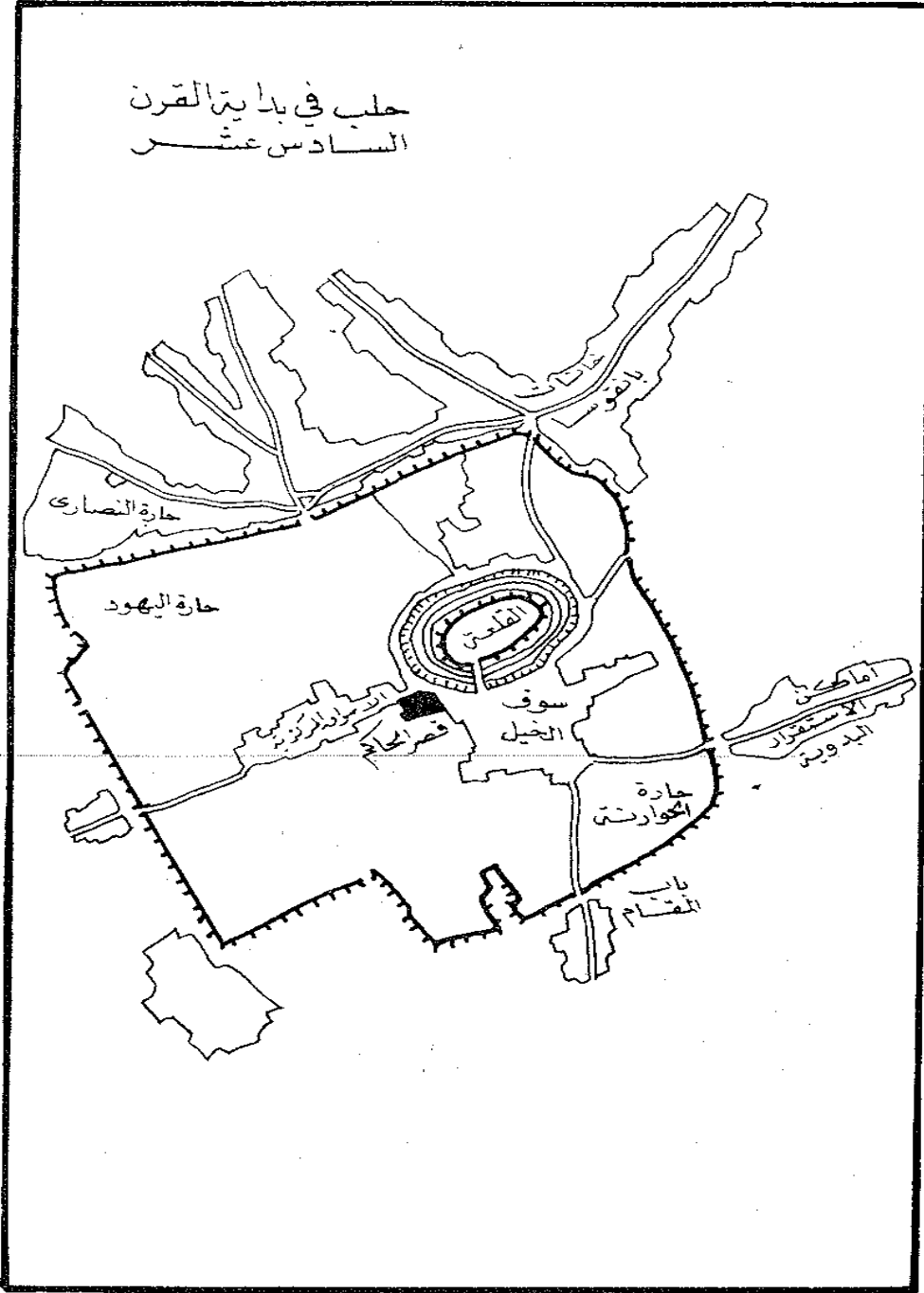
غالب سوق الرصيف	مجهول	دمشق	14 ربيع الآخر 914هـ/ 12 أغسطس (آب) 1508م	298
كل ما حول الحانوت حتى المئذنة الجركسية	خطأ في حانوت لتحميص القضمائية	دمشق	8 محرم 917هـ/6 ابريل (نيسان) 1511م	299
الدور والحوائت الواقعة بين حمام العلائي وعمارة الأحنائي	مجهول	دمشق	12 جب 917هـ/4 أكتوبر (تشرين الأول) 1511م	300
المنطقة شمال مسجد التوبة خارج باب الفراديس	مجهول	دمشق	8 ربيع الآخر 921هـ/22 مايو (أيار) 1515م	301
قيسارية وبعض الدكاكين جنوب المدرسة القميرية	مجهول	دمشق	6 ربيع الأول 922هـ/8 مارس (آذار) 1516م	302
بعض الدور للأكراد جنوب حمام الزين	مجهول	دمشق	24 شعبان 922هـ/21 سبتمبر (أيلول) 1516م	303

خريطة تفصيلية لمدينة دمشق القديمة.



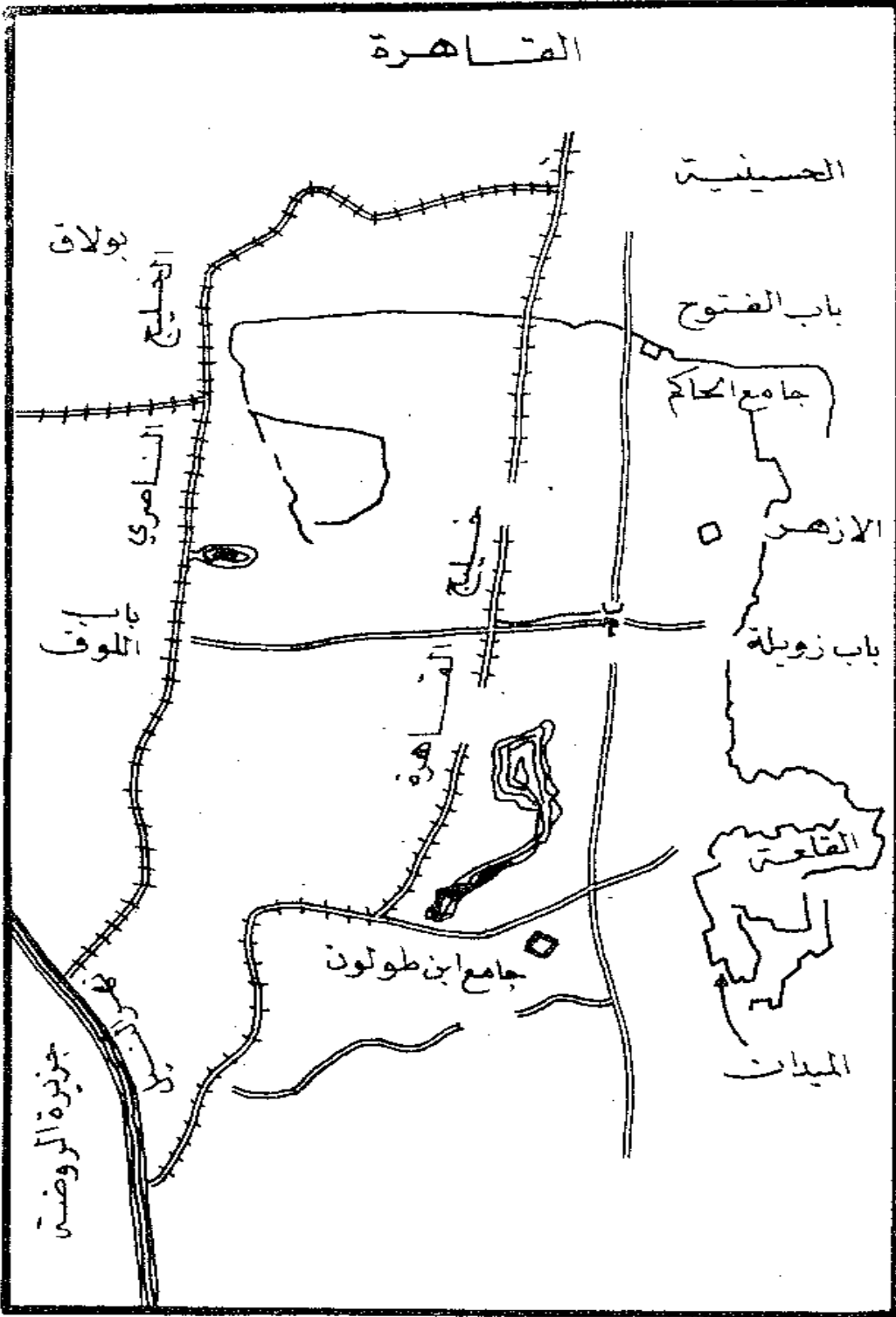
<http://www.naseemalsham.com>

خريطة مدينة حلب القديمة.



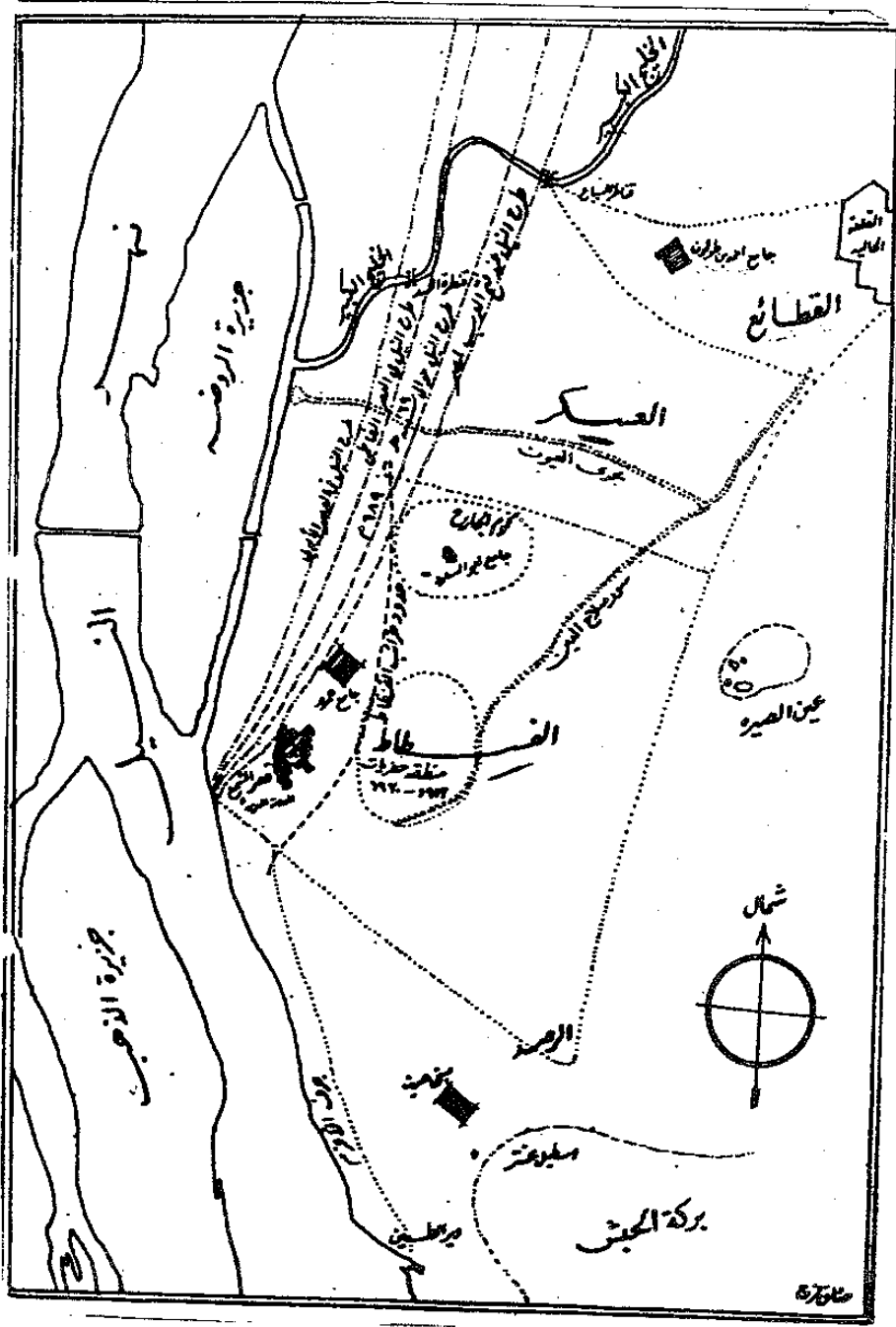
لابيدوس، ايراما، مدن الشام، ص 291.

خريطة توضح خلجان القاهرة القديمة.



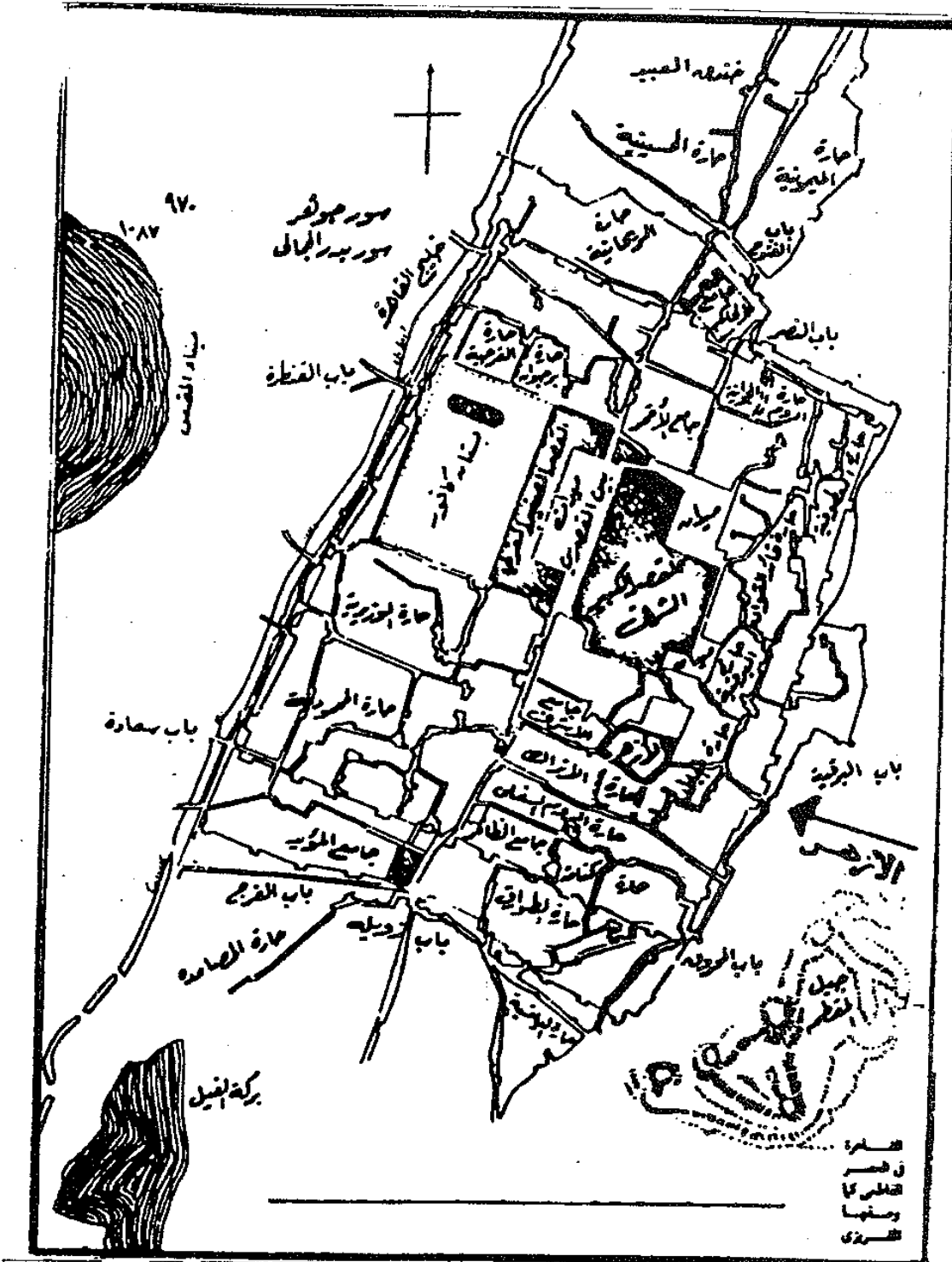
لابيدوس، ايراما، مدن الشام، ص 292.

خريطة توضح مدن الفسطاط والعسكر والقطائع، وحدود كل منها في العصر العباسي.



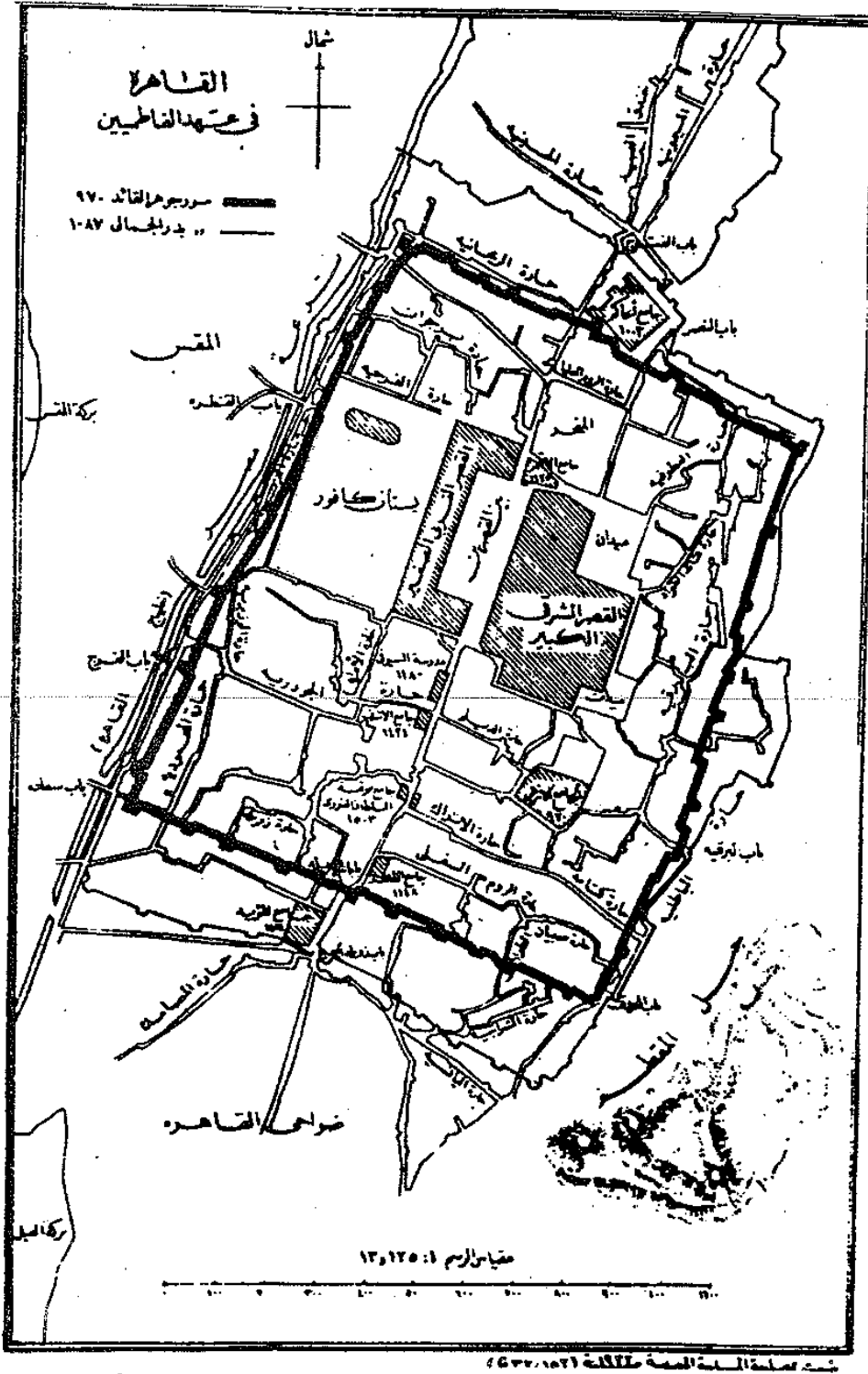
مغاوري، سعيد، أضواء، ص 173.

خريطة تفصيلية لمدينة القاهرة في العصر الفاطمي، توضح أسوار القاهرة وأبوابها وقصورها وحاراتها ومساجدها.



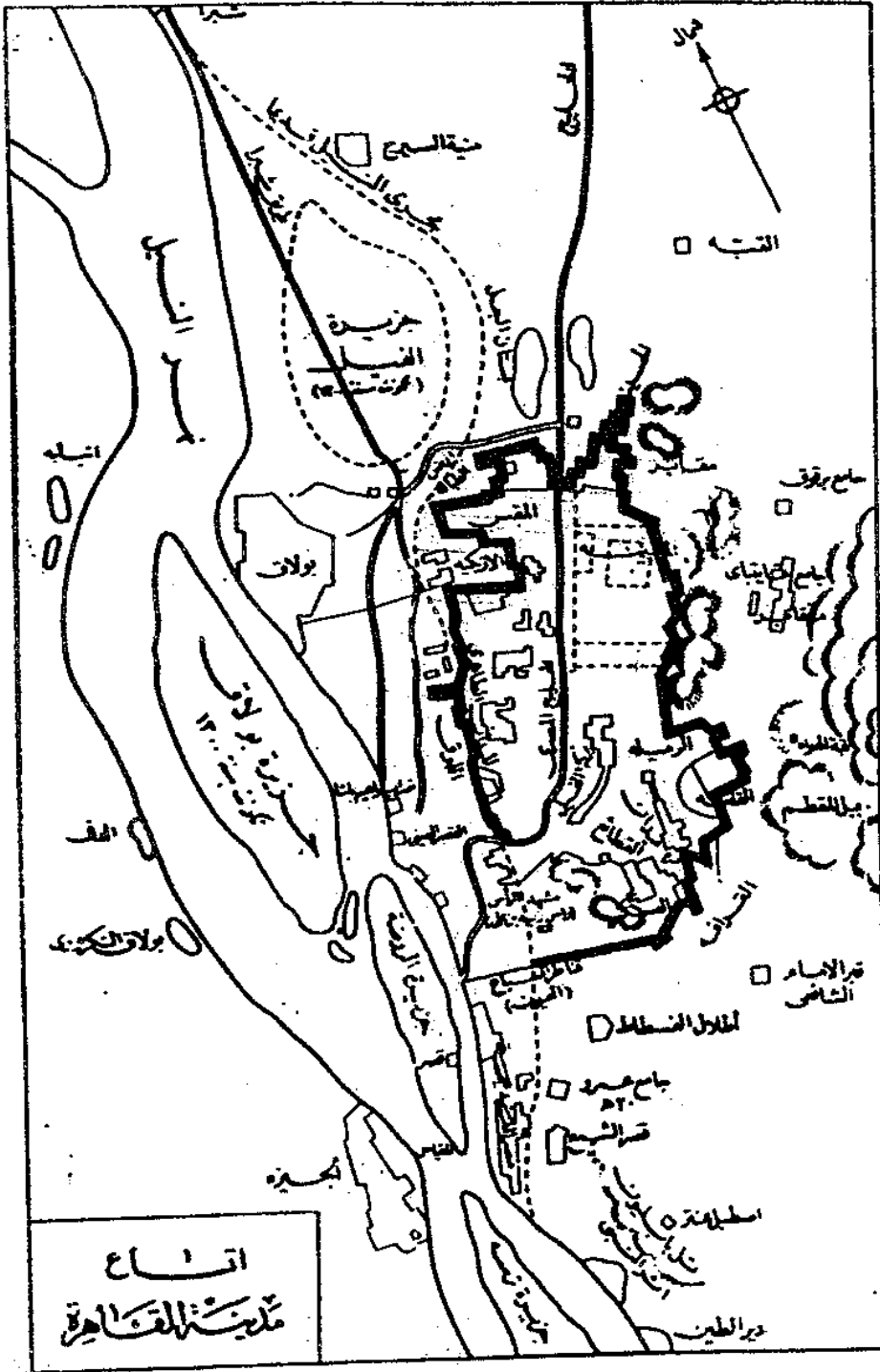
مغاوري، سعيد، أضواء، ص 175.

خريطة توضح تخطيط مدينة القاهرة وحدودها في العصر الفاطمي.



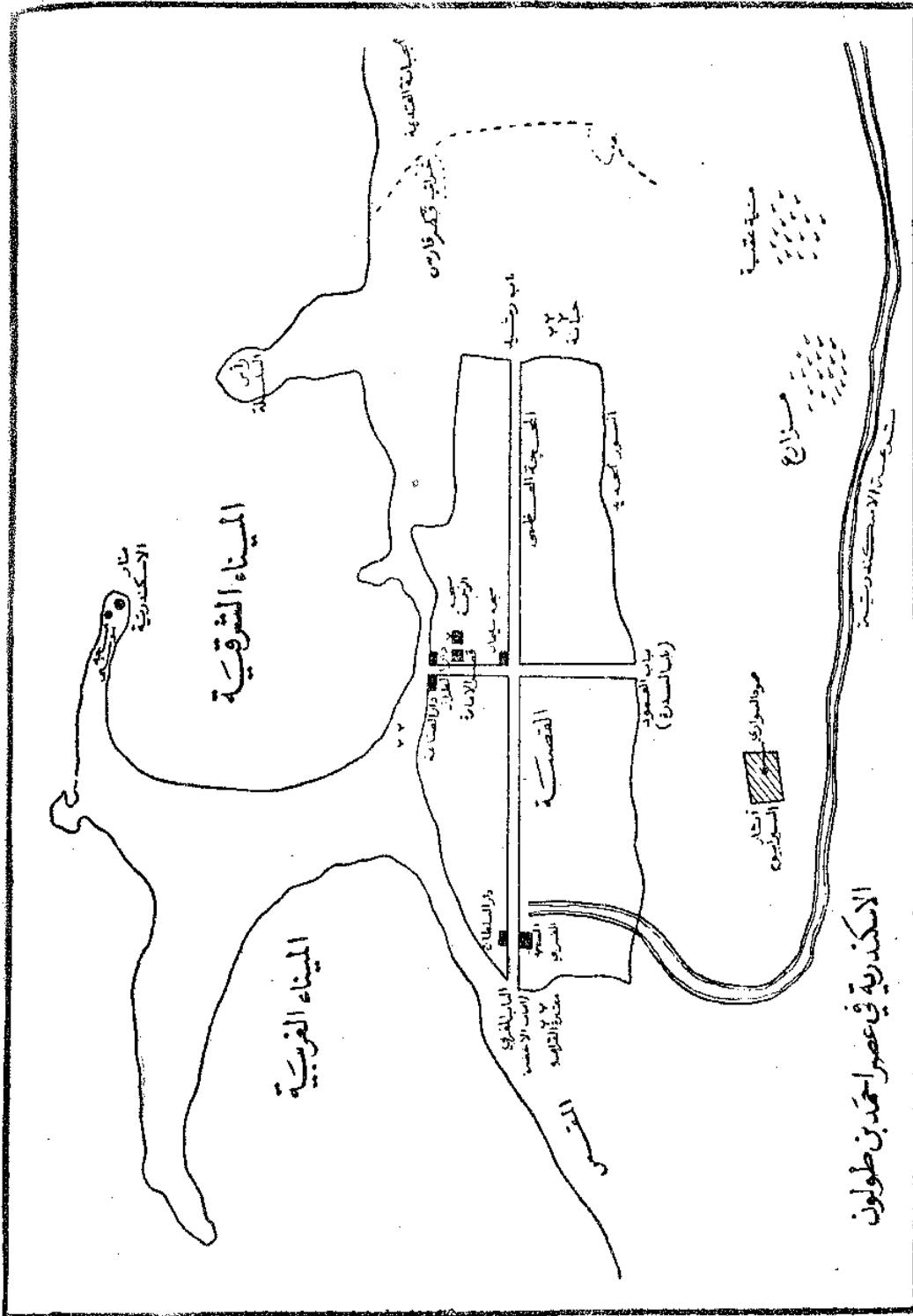
مغاوري، سعيد، أضواء، ص 174.

خريطة توضح اتساع مدينة القاهرة.



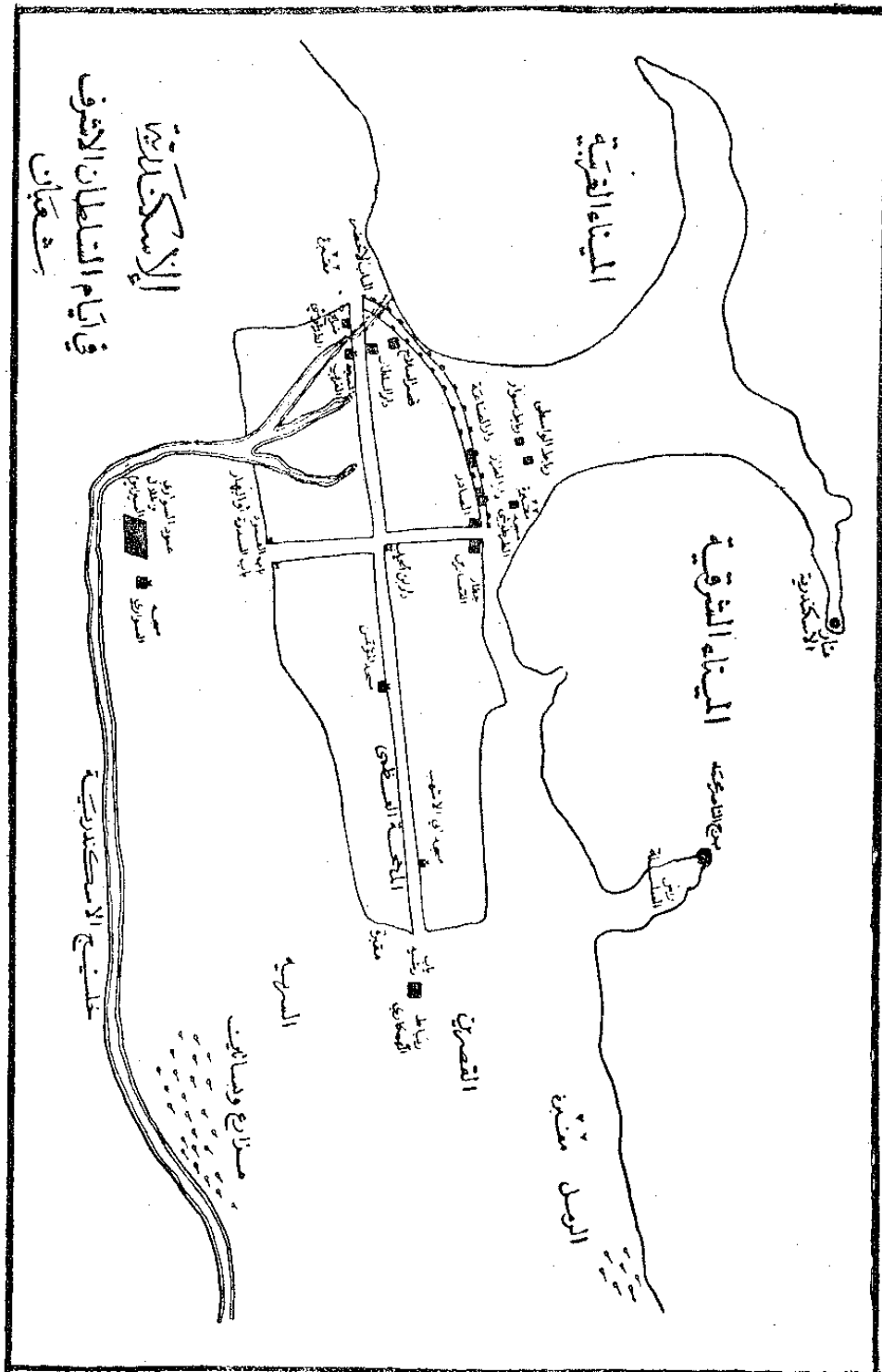
مغاوري، سعيد، أضواء، ص 176.

الإسكندرية في عصر أحمد بن طولون.



سالم، السيد، تاريخ الإسكندرية، ص 161.

الإسكندرية في أيام السلطان الأشرف شعبان.

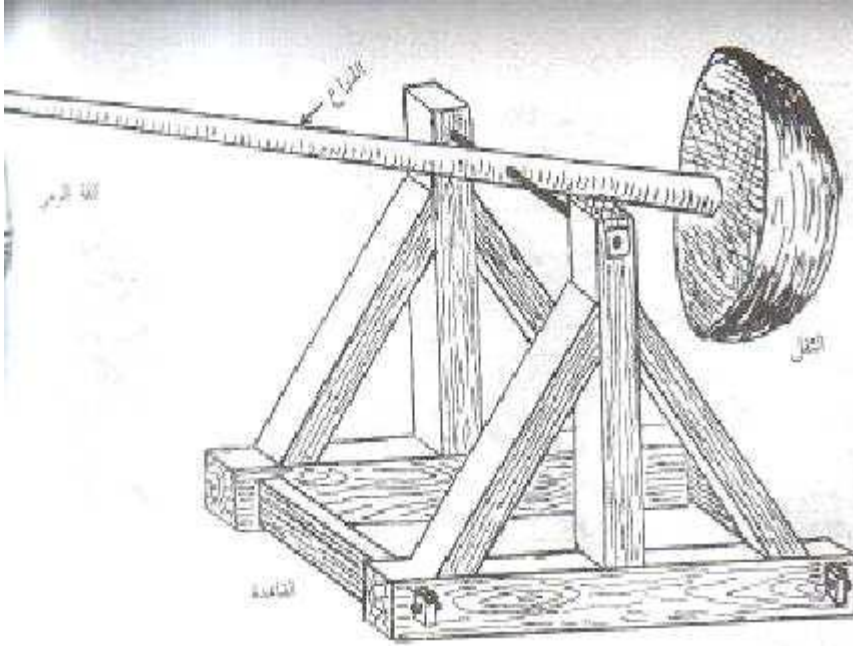


سالم، السيد، تاريخ الإسكندرية، ص 320.



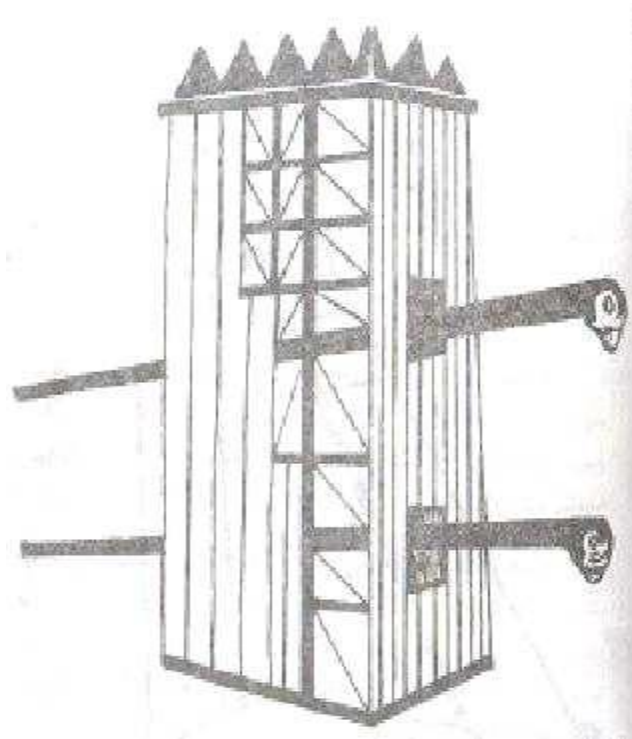
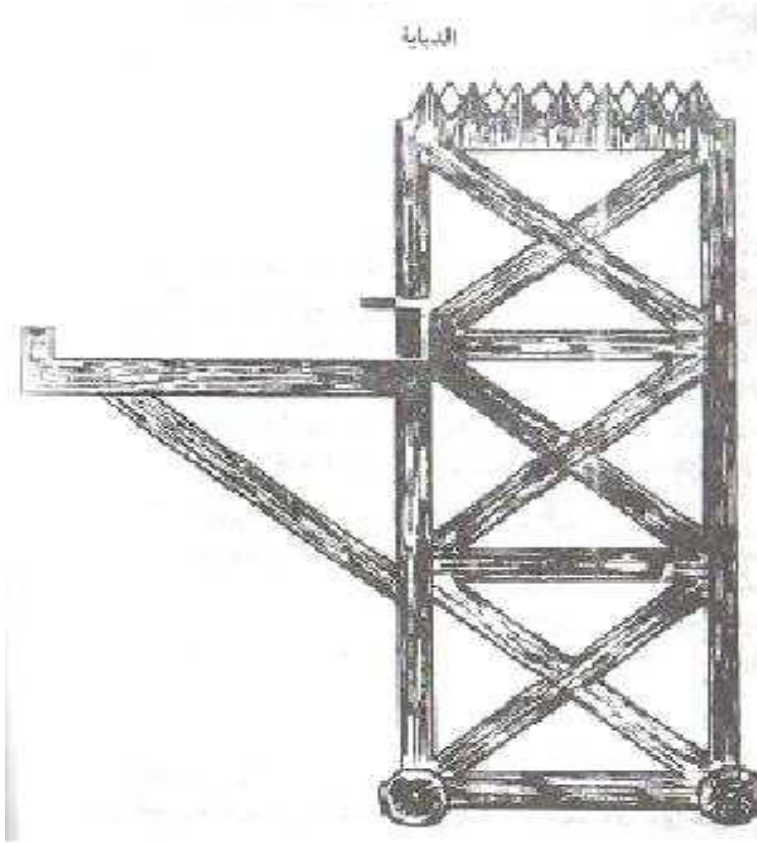
قلعة حلب

المنجنيقات



خطاب، العسكرية العربية، ص 121.

الدبابة والكبش.



خطاب، العسكرية العربية، ص 126.